من الشرق والغرب
نافذة على الفكر العالمي الحر





كفاح الأحرار

تأليف: ل. افلارلي

تعريب: محمود مسعود



من الشرق والغرب

كفاح الأحرار

تأليف: ل . افلاري

تعريب: محمود مسعود

مقدمة

يتلقى الاستعمار فى هذه الآونة الاخيرة من عمره ضربات قاصمة هى نذير فنائه المحقق . ولكن هذه النهاية المحتومة لم تكن الا بفضل معارك الاحرار فى كل رقعة نكبت به ، ونضالهم لتقويض أركانه .

ومن أروع صفحات الكفاح الوطنى ضد الاستعمار البريطانى ، كفاح الشعب الارلندى لنيل حريته واستقلاله ، كما صوره الكاتب الكبير ليام افلارتي فى هذا الكتاب الذى نشرت طبعته الاولى في (الألف كتاب) عام ١٩٥٦ ، والتى تنشر « الدار القومية » طبعته الثانية اليوم بموافقة مشكورة من الادارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالى .

وهذا الكتاب الوطني الانسانى هو من طراز تلك الشوامخ الخالدة التى لاتجود بها سوى عبقريات أعاظم الكتاب من أمثال تولستوى وهوجو ، كما قال توماس مان الفيلسوف الالمانى الاشهر ، وقد عالج فيه مؤلفه لمحات عميقة من حياة الشعب الارلندى فى كفاحه ضد الاستعمار البريطانى الغشوم .

ويصور الكتاب تصويرا مؤثرا أخاذا ارلندا فى منتصف القرن التاسع عشر ، عندما كانت رازحة تحت النير البريطانى ، تتخذ منها بريطانيا مزرعة كبرى لتموينها بالمؤن من غلال ولحوم ، ويتقاسمها الملاك الانجليز اقطاعيات يؤجرونها للارلنديين أصحاب البلاد الشرعيين، فيشتدون فى اقتضاء الايجارات الزراعية ، ويمعنون فى الظلم والجور والطغيان، والشعب الارلندى يئن منهذه المظالم التى يزيد منفداحتها مايمنى به من كوارث الطبيعة ، بين آفات تصيب محصولاته الزراعية، وقحط ينشر المجاعة بين ظهرانيه .. فاذا اشتكى الى ظالمه بدا النفاق البريطاني والخبث الانجليزى على أبشع صورهما المعهودة ... واذا لجأ الشعب المنكوب الى التمرد والثورة على مستلب أقواته ، قوبل بالخسف والبطش ، مما يزيده بلاء على بلاء ويكاد يسلمه الى اليأس — لولا تلك النفوس الحرة الابية المكافحة التى تبرز من صفوفه مناهضة للظلم والطغيان ، فتجتمع حولها القلوب ، وتتركز حركات المقاومة الشعبية ، ليكون منها فى النهاية ذلك الجيش الجرار الذى يدك معقل الاستعمار ، ويحرر الوطن من ظله البغيض .

وعلى هذه الصورة ستكون نهاية الاستعمار فيما بقى له من جيوب وأوكار .

محمود مسعود

الفصـــــل الأول

ما ان تصـــايحت الديكة ايذانا بمطلع النهـــار حتى انبعثت طلائع الرعد تقصف فى جنبات (الوادى الاسود) فتتجاوب أصـداؤه فوق سفوح الجبل وبين شعابه ومفاوزه ٠٠ واذا (بريان كيلمارتن) ينتفض جالســا فى فراشه وكان مســهدا لا يغمض له جفن وهو يعلل النفس بذهاب حــدة الروماتزم الســارى فى عظامه .. والتفت الى زوجتــه المستغرقة فى الرقاد الى جانبه فجعل يهزها هزا عنيفا حتىاستيقظت وهى تصرخ فزعا ، وقالت وهى تنظر اليه من خلال أجفان أثقلهاالنوم :

ـ ماذا جرى بحق الأنبياء ؟

فقال (بريان ، وهو يثب منالفراش الى الارض : « هو الرعد ! »

ففغرت الزوجة فاها ، وأرهفت السمع الى موجة راعدة أخـــذت تتلاشى فى بطون كهف سحيق . وقبل أن يغيبها الســكون فى أطوائه انطلقت فى أثرها قعقعة جديدة أخذت تدوى فى أجواز الفضاء ، حتى لم تتمالك أن هتفت قائلة : « المجد لله فى علاه ! »

وما كاد (بريان) يلمس الارض بقدميــه حتى أمســك بركبتــه اليمنى متوجعــا .. على أنه يمم شــطر النافذة وهو يعــرج وما زال بقميص نومه ، وتطلع منها ويده تحت فخذه . فلما سمع انهمار المطر هتف قائلا :

ـ آه ! .. ان المطر يصب كأفواه القرب ! .. ياله من يوم بديع ان قدرنا فيه على أن نغربل القرطم !٠٠ قومى يا (ماجى) ، وأوقدى النار ٠٠

وأنشأ (بريان) يرتدى بنطلونه وهو لا يكف عن التوجع ، على حين تناولت زوجته رداءها المعلق فوق حافة الفراش ودفعت رأســها فى ثناياه لتلبسه .. أما (بريان) فقد هرول الى داخل المطبخ وجــذب مزلاج البـــاب الامامى ، وسرعان ما سمع كلب ينبح ، وما كاد البــاب يفتح حتى مرق الــكلب من بين قدمى (بريان) وهو ينفض عن جلده الاشعث رماد وقود المدفأة التى اتخذها مضجعا له طوال الليل ، ثم انفلت الى ساحة الدار وهو ينبح جذلا .. ذلك ولم يتمالك (بريان) أن هتف قائلا : « رحماك ياربى ! .. يالهذا الصباح ! .. »

كان (بريان) فى الحــادية والسبعين من عمره .. وراح يتطلع الى السماء وقد انفرج فمه عن لثة ليس بها سوى سنين صفراوين ، وبدا جلد وجهه حول عينيه الزرقاوين النفاذتين كقماش شد بخيط .. والحق أن عينيه وانفه الطويل المقوس قد أسبغت على وجهه العظمى

النحاسى اللون مسحة كالصقر ، وبدا فى هيـأته كمجموعة من العظام شكلت فى صورة هيكل مديد لا يمسكه سوى فرط الحيوية والنشاط .

ورفع (بريان) عقيرته ليسمع زوجتـه قائلا : « سيكون هـذا المطر وبالا على الوادى » .. وزفر زفرة حرى وهز منـكبيه سـخطا وخطا الى المدفأة فى أثر كلبه الذى ارتد الى الداخل ، ثم عمـد الى مسبحته المعلقة فوق جدار المدخنة وركع على ركبتيه معتمـدا بذراعيه فوق مقعد صغير ، وطفق يرتل صلوات الصباح يمازجها تثاؤب وأنين لا ينقطع ، فان وطأة الطقس فى هذا اليوم ضاعفت من حدة دائه العياء .

وخرجت (ماجى) من غرفة النوم راجفة راعشة ، فلم يكن جو البيت الا زمهريرا برغم الدفء فى الخارج .. وكانت تعرج فى مشيتها وهى تدب حافيـة القدمين فوق الارض الترية العـارية ، متطلعة فى اشـفاق من خلال البـاب المفتوح الى المطر المنهمر .. وما لبثت أن جلست القرفصاء الى المدفأة لتوقدها ، فأيقظت حركاتها ثلاثة خنازير راقدة فى فراش من قش عن كثب من المدفأة ، واقترن خوارها بنقيق دجاج فى عش قرب الباب .

ولم يكد (بريان) يفرغ من صلاته وهو يتثاءب حتى اسـتوى قائما فى خفة ونشاط ، ثم أقبل من فوره على الخنازير يذودها بعنف ويطردها الى الخارج مستعينا بكلبه الذى أعمل أسنانه فيها ، فانطلقت تخور فزعة الى الساحة ، لتجد فى المطر الدافق ما ينقيها من أدرانها .

واذ عمد العجوز الى باب عش الدجاج يفتحه قالت له (ماجى) معترضة :

ــ أترسل الدجاج فى المطر ؟

ــ بوسعها أن تأوى الى (الجرن) .. أمضى أيتها الشـياطين الصغيرة ! .. انما التوت أمعاء (ميخائيل) بالامس تقززا بهذه الروائح الكريهة نفسها ! .. أخرجى هذا القش واغسليه يا امرأة ! .. اقذفى فراش الخنازير وضعى قشا نظيفا مكانه وانثرى الجير فوق الارض !

فقالت له الزوجة : « ان لى يدين ، لا عشرا » .

فصـاح بهـا : « أيقظى اذن زوجة ابنك ! .. أيأتيها خبزها من السماء ؟ »

وفى هذه اللحظة ارتفع من داخل غرفة النوم القائمة الى اليسار صوت قوى عميق يقول قائله : « يالك من شيطان مريد ! .. ما لحنجرتك اليوم منطلقة على اشدها كمزمار رنان ؟ .. »

بيـد أن العجوز لم يجب ومضى فى طرد الدجاج من عشـه الى الساحة ، مستعينا هذه المرة بزوجته والكلب ، وفى النهـاية فتح باب (الجرن) ليأوى اليه الدجاج احتماء من المطر .

واذ فرغت (ماجى) من اذكاء النار بازالة ما كان يعلوها من رماد ،

عمــدت الى قــدر ملىء بالبطاطس فأنزلته من حيث كان مرفوعا فوق النار طوال الليــل ، ثم ركعت مستندة الى مقعد صغير وأنشأت تصلى بدورها ٠

كانت (ماجى) تصغر زوجها بتسعة أعوام ، وان بدت متقدمةعنه فى السن . وكانت الى ذلك شديدة البدانة ، شاحبة الوجنتين، تتدلى فوقهما خصلات شـعرها الأشـعث ، وقد غارت عيناها الداكنتان فى محجرين حفت بهما بشرة قاتمة ، ونفرت العـروق وردية فى جفونهـا المسدلة وهى منهمكة فى الصلاة ٠

ولما رجع (بريان) الى داخل البيت وهو يسعل وينفض المطر عن ملابسه ، فتحت (ماجى) عينيها وقالت وهى تنظر اليه مكتئبة :

ـ لا ينبغى لك أن تخرج حافيا الى الساحة المبتلة ٠

فكان جوابه أن قال لها :

ـ لا تمضى صباح يومك جامدة فى مكانك هذا !.. تحركى وارفعى رماد المدفأة ... وهلا أيقظت (مارى) من نومها ، واستدعيت (تومسى) كذلك ؟ لدينا عمل كثير لا بد من اتمامه يا امرأة !...

فضربت (ماجى) صدرها ثلاثا وهى شاخصة الى السقف ، ثم لثمت حبات مسبحتها ونهضت متباطئة ... أما العجـوز فقد جلس فى الركن المجاور للمدفأة وتناول جـوربه المعلق فى وتد وأخذ يفـركه تمهيدا للبسه بعد أن تجف قدماه المبتلتان فى حرارة اللهب المتعالى ٠

وبرغم انبلاج الصـبح ما برح المطبخ معتمـا ، اذ كان خلوا من النوافذ وبابه صغيرا لا يتسرب منه الا اليسير من ضوء النهار القاتم ؛ حتى كان السقف فى شبه ظلام ، لا تكاد تبـدو منه للعين آثار البلى والقـدم ، وان ظهرت هـذه الآثار واضحة فى الأرض المتربة العـارية المضرسة ذات الشقوق واخـاديد ٠٠٠ ويواجه المـدفأة باب يؤدى الى غرفة نوم الزوجين ، ويجاورها باب آخر يفضى الى غرفة نوم ثانية .

وما ان لبس (بريان) جوربه حتى عاد الى غرفة نومه حيث كان الضوء أجلى . وقد اشتملت الغـرفة على سريرين أحدهمـا كبير ذو اربعة أعمدة هو الذى ينام فيه الزوجان العجوزان ، والثانى أصغر منه حجما وأدنى الى الضيق والانخفاض ، قام فى ركن الغرفة ، ونام فيه (ميخائيل) أصغر أبناء (بريان) وقـد تدثر بالملابس حتى أذنيـه ... وناجاه العجـوز همسـا فى رقة متناهية : « خيرا ؟... كيف حالك اليوم ؟ » ...

فانبعثت فى السرير سعلة جافة ، وما لبث الفتى أن دفع الملابس عن وجهه وجلس مستندا الى الوسادة ، واجاب فى ضيق وتبرم :

ـ وكيف تكون حالى ، وأنا أوقظ من نومى عنـوة على صياحك فى مستهل الفجر ؟...

فقال (بريان) متندما :

ــ ربما أيقظك الرعد ...

ومن عجب أن لهجة العجوز استحالت فجأة في مناجاته لفتاه من الفلظة والجفوة الى الاستكانة والرقة ... بيد أن (ميخائيل) لم يستجب لهـذا ، بل راح يحدق مكتئبا الى النافذة الصغيرة حيث كان المطر يسيل فوق زجاجها متعرجا كديدان صـفراء ملتوية .... ولما قال الفتى أن المطر ينهمر أجاب الشيخ وهو يدنو منه على أطراف أصابعه :

ــ نعم ... ولعلك تلزم فراشـك اليـوم حتى يخف ما بك من برد ؟...

فرد (ميخائيل) بقول مهتاجا ساخطا :

ــ الزم الفراش ؟ ! .. وفيم هذا ؟... ألا نقوم اليوم شغلبـلة القرطم ؟...

فقال (بريان) :

ــ صدقت يا بني ... لقد نسيت هذا ...

وضحك العجوز متكلفا السخرية من فكرة بقاء ولده في الفراش وهنـاك عمل لا بد من تمامه ... ولكن ضحكته احتبست حين انتابت (ميخائيل) أزمة سعال جعلت الشيخ يشـد قبضته راجفا وهو يرقب فتاه يتلوى تحت الغطاء المرقع ... والحق أن محيا الفتى نم بجلاء وهو يسعل عن طبيعة الداء الذى كان يعـاني وطأته . فقـد انطبعت على وجنتيه الفائرتين الشاحبتين بقعتان حمراوان برزتا للعيان فجأة كأنما افتعلتهما يد ساحر ، ولمعت عيناه الزرقاوان لمعانا غير طبيعي وكأنهما عينا مجنون تملكته نوبة جنون حادة ، وسال عرق يسير فوق جبهته حتى تندى شعره الأشقر المدلى فوق الجبين ... لكن الفتى المنكود برغم الذى به لم يتجرد من معالم القوة ، فقد أطبقت يداه في بأس على حافة الغطاء وهو يسعل ، وبان صدره العريض يرتفع وينخفض دراكا كصدر امرىء يحاول التملص من قبضة مصارع جبار ... ويا له من فتى منكود حقا ! فقد وقع في قبضة مصارع عات يستحيل النجاة منه والافلات ! .

وكان الوالد الشيخ يرقب هذا المشهد وقد انشب الحزن مخالبه في صدره ، كما انشبت أنيابها الجراثيم في صدر ولده المحبوب ، تعمل في رئتيه تمزيقا ونهشا .. وما كان للشيخ آنئذ أن يؤمن بما كان يزعمه دواما ويتكلفه تكلفا ، من أن (ميخائيل) لا يعاني سوى برد عارض لايلبث أن يزول .. فان من يستمع الى هذا السعال الذريع ، لا يلبث أن يؤمن بنهايته المحتومة .. فانما هو عين السعال الذى اختطف من الشيخ خمسا من فلذات كبده وهم في طفولتهم يمرحون ، وها هو ذا لم يترفق به ، فعدت عواديه على (ميخائيل) ايضا ، من بين أبنائه الأربعة الباقين ...

وقال الشيخ لولده حين انتهت نوبة السعال :

ـ يحسن على اى حال أن تحاول النوم حتى يحين موعد الافطار.

فتمتم (ميخائيل) كلاما واستلقى فى فراشه ... وتنهد العجوز وغـادر الحجرة على أطراف أصابعه ، فالتقى فى المطبخ بولده (مارتن) الذى ابتدره قائلا بلهجة المرح :

ـ ماذا تخبىء اليوم لنـا من المفاجآت فى جعبتك ، أيها الشيخ العجوز ؟...

فقال أبوه :

ـ الا تستحى وأخوك مريض ؟...

فقال (مارتن) :

ـ وهل راعيت شعور أحد فى البيت وأنت تدور فى أرجائه صائحا هادرا ؟

وشفع هذا بضحكة وخرج الى ساحة الدار دون أن يحفل بالمطر، بل رفع يديه فوق رأسه وهتف قائلا :

ـ يا له من مطر كالسيل لم يسبق له مثيل !

وهرول فى الساحة حافى القدمين وهو يصيح متكلفا الألم والتأذى من المطر .

أما العجوز فقد اتجه الى المدفأة وأخذ يلبس حـذاءه الثقيـل ، فبادرته (ماجى) قائلة فى تردد وهى تعد الأناء لحلب البقرة :

ـ كيف حاله ؟

فرد العجوز قائلا :

ـ لم لا تدخلين تسألينه ؟ انى لم أكن سبب علته ..

فأجهشت المرأة المنكودة بالبـكاء وقالت وهى ترفع (المريلة) الى وجهها :

ـ سامحك الله !...

وعند ذلك عاد (مارتن) الى الداخل وهو يرفع عقيرته بالغنـاء ، فما أن لمح أمه تبكى حتى جمد الغناء على لسانه ، وقال فى عنف :

ـ ماذا يكربك يا أماه ؟...

فأجابت الأم وهى تتناول مكنسة من الباب الخلفى :

ـ لا شىء يا حبيبى ..

ولكن (مارتن) نظر الى أبيه مغضبا وقال له :

ـ ماذا قلت لها ؟

فلم يجب العجوز ، بل انتفض قائما دون أن يتم ربط حذائه وحمل اناء اللبن وخرج به لا يلوى على شيء ... ولما صاح (مارتن) فى اثره بادرته (ماجى) قائلة :

ـ اسكت يا بنى .. لا فائدة من المجادلة معه .

فجعل (مارتن) يرنو اليها وهو يشد حزامه حول وسطه . ولو نظرت اليه لرأيته أكثر شبها بأبيه وان كان أطول قامة وهو يجاوز ستة أقدام ، وكان يماثله فى رأسه المستطيل ، وأنفه المقوس ، وعينيه الزرقاوين الصارمتين ، ووجنتيه العظميتين النحاسيتى اللون ... والواقع أنه كان أنموذجا بديعا فى جمال الصورة بما اتسق له فى صدره ومنكبيه من سمات أهل الرياضة ...

ولم يلبث أن دنا من أمه واحتضنها قائلا :

ـ لا تحزنى يا أماه ... اننى سألين قناته ذات يوم .

وأما العجوز فقد غطى كتفيه بكيس وجرى فى المطر الى بقعة معشوشبة خلف الدار جعلت منها حظيرة قامت فيها بقرة سوداء مربوطة وجلس القرفصاء من تحتها وأخذ يحلبها ، فما لبث خرير اللبن المتساقط ممتزجا بالرائحة الزكية المنبعثة من الزبد الأبيض المتماوج أن هدأت من حدة غضبه ، وكذلك اكتسى محياه مسحة من الرقة والوداعة ...

وفى خلال ذلك سكت الرعد وخف انهمار المطر واستحالت سيوله الدافقة الى تساقط رتيب يلذع أديم الأرض دراكا ، وكأنه أنشودة منسجمة تطرد الهم وتنفى الكدر والأحزان .

الفصل الثاني

عاد العجوز الى المطبخ يحمل اللبن ، فالفى (مارتن) يتحدث مع زوجته الشابة لدي الخوان ، وكانت تنصت الى همسات زوجها الجوفاء وهى تصب اللبن فى الأقداح استعدادا للافطار . وكان الزوجان حديثى عهد بالزواج اذ لم يمض على زواجهما أكثر من شهر ، فهما فى ابان النشوة التى تنتاب مثلهما فى هذه الظروف ... وصحيح أن ائتلافهما كان منظرا بديعا يستهوى العين ، بيد أن مشهدهما أذكى نيران الغضب فى صدر (بريان) ... ذلك أن (مارتن) قد تزوج (مارى جليسون) هذه ضد رغبة أبيه ، وهى ابنة الغزال المحلى . لذلك كانت فى نظر العجوز أدنى مرتبة منهم . يضاف الى ذلك أن جمالها قد بدا له نابيا شاذا فى بيت فلاح .

والحق أنها امرأة موفورة الحسن ، يزينها شعر أسود غزير لامع تدلت جدائله المضفورة حتى وسطها وكأنها فتاة عذراء . وهى الى هذا هيفاء نحيلة القوام ، يروعك تناسق أطرافها وانسجام صدرها ، وذلك الثغر الملىء الناضج المنبىء بحدة العاطفة . على أن عينيها المؤتلقتين كانتا تخففان من هذه الحدة وتخلعان على جمالها كثيرا من الصفاء .

ولما شعرت (مارى) بالنظرات الشزراء المنبعثة من عينى العجوز ، لم تلبث أن حملت أقداح اللبن الى الخوان الذى أعد فوقه طعام الأفطار ، وكانت تسير بحركات رشيقة أبرزت مفاتن جسدها البديع ، حتى لم يتمالك زوجها أن راح يتبعها بنظراته مفتونا متيما ...

وقال العجوز متبرما :

ــ ألم يستيقظ (تومسى) بعد ؟

فأجابت (ماجى) وهى منهمكة فى اعداد طعام الخنازير قرب الباب الخلفى :

ــ انى ناديته مرتين ... تومسى ... انزل لتتناول فطورك !

فجاءها الجواب أنينا من الغرفة العلوية الخالية ، حتى قال (بريان) معقبا :

ــ يا له من شقى مخمور ؟

وجلس العجوز و (مارتن) الى الخوان فوق مقعدين صغيرين لا ظهر لهما . وكان فوق الخوان وعاء كبير من أعواد الصفصاف ملىء ببطاطس ساخن ينبعث منه البخار ، وحفت به أقداح اللبن على الجانبين ، وتوسط

البطاطس اناء خشبي صغير به ملح وماء وتناثرت هنا وهنـاك مدى مدببة يقشر بها الآكلون البطاطس .

وفجأة انطلق صوت أجش من ناحية الغرفة العلوية يهتف قائلا :

ــ الرحمة يا اله السموات !

فلم يتمالك (مارتن) أن ضحك قائلا :

ــ هل سـمعتم توجعه واستغاثته ؟ أى شراب قوى ذلك الذى تناولته يا (تومسى) ؟ هيا انزل بيننا وقص علينا ما كان ! ..

ولكن (ماجى) قالت معترضة :

ــ لا تعذبه الآن يا (مارتن) ، والا ذهب عنا غاضـبا واختفى أياما أخرى .

وأقبل (مارتن) وأبوه على الطعـام يلتهمـانه بسرعة بينمـا كانت (ماجى) منهمكة فى اطعام الخنـازير والدجاج ، و (مارى) تعـد اللبن الطازج . ولم يكن (مارتن) حتى وهو يتناول الطعام يكف عن ملاحقـة زوجته بنظراته وهو يبتسم ابتسامة حالمة ، بعكس والده الذى جلس الى المائدة متجهم السحنة شديد الحرد يلتهم طعامه بيد معروقة شلها الروماتزم وهو يتلفت حواليه خلسة وكأنما يخاف أن ينتزع أحد طعامه قبل أن يبلغ فاه .

وفى هذه اللحظة أطل عليهم (تومسى) شقيق (ماجى) من فوق حافة الغرفة العلوية يقلب فيهم نظرات شاردة وهو جاث على يديه وركبتيه ... وكانت له سحنة عجيبة حقا ، فقد تكاثفت لحيته حتى حجبت وجهه أو كادت ، فلم يبـد منه سـوى خديه المحتقنين وأنفـه الغليظ وشفتيه المحمرتين ... وعلت رأسه قلنسوة عتيقة زرقاء من الصوف توسطها زر مستدير ، وضاقت عيناه حتى ليكاد يستحيل على الرائى أن يتبينهما تحت حاجبيه الاشيبين الكنيفين وتراكمت فوق جسـده طبقات من الاسمال البالية جعلته يبدو متضخما ، حتى كانت صـورته وهو جاثم فوق حافة الغرفة العلوية أقرب الى الشياطين ...

وما لبث أن هتف من مكانه قائلا :

ــ ماجى ، أختاه !.. هلا اقتطعت لى قطعة من السمك المقـدد ووضعتها فوق النار ؟ ان معدتى اليوم شديدة الاضطراب حتى لا أدرى أأنا من الأموات أم الأحياء !

فقال له (بريان) :

ــ لعنك الله !.. لو لم تفرط امس فى شرب الخمر لما كانت هذه حالك اليوم !

فقال (تومسى) :

ــ كان الله فى عونى ! فانى لم استطع مقـاومة الاغراء وأنا أرى

الخمر تصب صبا من حولى ، فى احتفال (بات هيلى) بتشـييد قبر لأمه !

قال هذا وادلى سلما من الجبال الى الأرض وأنشأ يهبط فى حذر وهو يهتز بتأثير ماعبه من الخمر فى أمسه، فاذا قدماه ملفوفتان فى خيش على هيئة حذاء ، وأسماله شدت بحبل حول وسطه .

وقال (مارتن) معقبا :

ـ من أين لبات هيلى ثمن هذه الخمر الكثيرة يوم بناء قبر لأمه، ولم يكن يوم جنازتها فى العـام الماضى الا شحيحا مقترا فيما سـقى الناس ؟!

فأجاب (تومسى) :

ـ ألم يكن فى انجلترا فى الربيع الماضى يعمل فى السكك الحديدية التى يشقونها هناك ؟

ـ صدقت ... وقد سمعت أنهم ينقدون العامل هنـاك شلنين فى اليوم ، نظير اشتغاله فى شق هذه الطرق ... اليس مثله جـديرا بالرثاء وهو يبذر هذا الغنى الطائل بعد طول كدح فى تحصيله ؟

وقال (تومسى) وقد هبط الى الأرض :

ـ انها خمر كانت تجرى كالأنهار !

فقالت (ماجى) وهى تلقى قطعة السمك المقدد فوق النار :

ـ سامحك الله ياتومسى !. انك لتقترف ذنبا فيما تتباهى به من هذا التبذير !

وقال (مارتن) .

ـ ياخسارة .. كان من البلاهة أن أضيع مثل هـــذه الفرصة .. ولكنى ظننت أنه لن يكون هناك شراب .

فقالت (مارى) :

ـ أحمد الله انك لم تذهب .

فضحك (مارتن) ... وعند ذلك أمسك العجوز عن الأكل وتطلع فى شراسة الى (مارى) ولسان حاله يقول :

ـ انها لم تمكث فى البيت الا شهرا ، ومع ذلك ها هى ذى تتدخل فى شئون الأسرة !...

ولكنه قال بصوت مسموع :

ـ ان العادات هى العادات ، طيبة أو مستنكرة ، ومن الخير أن يتمسك المرء بها .

فنظرت اليه (ماري) في صرامة ، ولم تلبث أن جلست الى الخوان بدورها دون أن تعقب .

واتجه (تومسي) الى المدفأة وهو يقول :

ـ ماذا في هذه المقلاة ؟.

فأجابت (ماجي) وهي منحنية فوق مقلاة بها ماء يغلي ويفور :

ـ انها بيضة دجاجة لميخائيل .

فقال (تومسي) :

ـ وقانا الله شر الأمراض !.. ولو أن الفقـراء لا يدللون الا اذا مرضوا ! أحمد الله أني لم أمرض طول حياتي !!

فرد عليه (بريان) قائلا :

ـ عجبا .. لمثلك أن ينكر حسن حظه اذ يجد من يقوم بأوده قبل أن يفكر فيمن يدلله .

ـ اسمعوا وعوا !.. يا لها من دنيا غريبة ظالمة حين يعز المأوى والقوت على المرء في بيت آبائه !

أجل !.. فقـد كان هـذا البيت بيت آباء (تومسي) ، وان كان (بريان) قد أضاف اليه غرفة النوم الكبرى والجرن ... وكانت (ماجي) في الثامنة عشرة حين قضى وباء التيفوس على أبويها وأخويها وأخواتها الأربع ، ولم يبق من الأسرة الا هي وشقيقها (تومسي)، مع الدار المتواضعة ورقعة من الأرض تبلغ عشرة أفدنة .. وقد تزوجت (بريان كليمارتن) الذي وفد على الاقاليم لا أهل له ، وان كان لديه مال يسير جمعه كعامل مهاجر متنقل .. وكان (تومسي) وقت ذاك صبيا في الثامنة من عمره ، فنزل لزوج اخته عن نصيبه من الأرض لقاء طعامه ومأواه .. وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالات ، لم يلبث (تومسي) أن ساءت حاله وهو عالة على غيره ، حتى أضحى الجميع يعاملونه بالتحقير والازدراء .. وكان اذا ربح دراهم معدودة لقيامه ببعض الأعمال اليسيرة التافهة في الاقليم ، بددها في السكر ، وهام على وجهه بعيدا عن الأسرة حتى ينفد ما معه ... وعلى هذه الصـورة ذاع أمره في أرجـاء (الوادي الأسـود) ، حتى كانت الأمهات يخـوفن أبناءهن المشـاكسين بمثل مصيره !..

ورفع (تومسي) قطعة السمك المقددة من فوق النار وأخذ يأكلها في مشقة لفرط ملوحتها ... ولما أكل منها قليلا رمى سائرها الى الكلب المتربص ، ثم اقترب من الخوان وازدرد جـرعات من اللبن ، ثم قال بلهجة الرضى والارتياح :

ـ آه ... ان اللبن ترياق لا مثيل له .

وعند ذلك أقبل (ميخائيل) من غرفة النوم ، وسرعان ما تكهرب

الجو وخيم الصمت بينهم ... وقد بدا (ميخائيل) أحسن حالا وهو فى ثيابه ... وكان فى الرابعة والعشرين من عمره ، يصغر (مارتن) بعام واحد ... ومع أنهما متماثلان فى الطول ، فقد كان (ميخائيل) أضعف بنيانا وأكثر نحولا ، وقد طبع المرض على محياه مسحة من الرقة .. وكان ازرق العينين صارم النظرات ، ولكن التورد الزائف الذى كان يعلو وجنتيه الغائرتين ، اكسب نظراته طابعا أدنى الى الجنون .

وكانت أمه أول المتكلمين ، فقالت فى أشفاق وتردد :

ـ كان يجب أن تلزم الفراش ، فى هذا اليوم الشنيع .

ـ لماذا ؟

فاه الفتى بهذه الكلمة وهو يطرد الخنازير بعد أن شبعت وتكورت بطونها . وما لبث أن رفع صدره وشهق طويلا ثم قال وهو يحبس سعلة راودته :

ـ ان المطر يكاد ينقطع .

فلم يجبه أحد . ذلك أنه كان رقيق الحس شأن كل الذين يعانون ذلك المرض ، وقد درج ذووه على القصد فى التعقيب لئلا يحمل الكلام على محمل التعريض به والاشارة الى دائه .. وما لبث أن انضم الى مجلسهم من الخوان وجعل يأكل البيضة التى وضعتها أمه بين يديه . ولما فرغ من التهامها تغيرت حاله فجأة كدأب من هم فى مثل مرضه ، فشاع الرضى والسعادة فى محياه ، ودب فيه دبيب الحمية ، وعلت وجهه مسحة من الجمال الأنثوى ، وقال مخاطبا (تومسى) :

ـ ألم تأتنا معك بفضلة من الشراب ؟.. ان كئوسا منه كفيلة بشفائى من هذا البرد الذى أعانيه .

فقال (تومسى) وهو يشعل بقية من غليون عتيق :

ـ ولا قطرة ... من لى بكأس منه اليوم ، اذن لجرعتها بمجرد قيامى من النوم !

وفجأة رفع الكلب أذنيه وقوس ظهره ثم اندفع الى ساحة الدار وهو ينبح ، فأفزع الدجاج فى طريقه وفرقه هنا وهناك بين الصياح والضجيج ، وصاح (مارتن) فى أثر الكلب قائلا :

ـ أوسكار !. ارجع مكانك !. ارجع يا أوسكار !

فقال (بريان) :

ـ دعه وشأنه .. ان الكلب يجيد الحكم على الناس .. انه يكره تلك اللصة الساحرة .

فقالت (ماجى)

ـ سامحك الله . لا ينبغى لك أن تنهش الفقراء نهش الكلاب .

ـ الفقراء ! لو اتبعنا رأيك ووزعنا طعامنا وشرابنا على فقـراء الاقليم لكنا الآن فى الملجأ .

وعاد الكلب متحفزا كما ذهب ، وانبعث فى اثره صوت لدى الباب يقول :

ـ سلام عليكم أهل البيت .

فردت (ماجى) قائلة :

ـ وعليك يا سالى .

ودلفت (سالى أو هانلون) صامتة حافية القدمين كأنها شبح .. وكانت ضئيلة الجسم ، تنـاهز الرابعـة والأربعين ، عجفاء الصدر ، مدورة البطن ، ناحلة الوجه ، مفضنة الملامح ، تكسو رأسها قلنسوة رجالى تدلى من تحتها شعر أشعث وخطه المشيب فوق الصـدغين ، وقد رفعت ذيل ردائها الأحمر البالى فوق رأسها اتقاء المطر فبان من تحته قميصها الصوفى الأبيض المرقع وقد خالطه الوحل فى طريقها الى البيت ، وأمسكت بيديها شيئا أخفته فى طيات ردائها ..

وبعد أن حيت أهل البيت جلست القرفصاء مستندة الى الحائط عن يسار الباب ، فقال لها (مارتن) :

ـ أراك مبكرة هذا الصباح ؟

فأجابت قائلة :

ـ هذا شىء لا بد منه ، كان الله فى عوننا .. ان الفقراء كالطير ، يبكرون مع الفجر ، التماسا لقوت صغارهم .

فقال لها (ميخائيل) بلهجة المرح :

ـ ما عندك اليوم من الأخبار ؟

فأجابت قائلة :

ـ عندى أخبار مكدرة ، عفا الله عنى .

فشخصت أبصارهم اليها اهتماما ، واذ ذاك انطلقت الكلمات من فيها متلاحقة :

ـ هى تلك الآفة الغريبة التى يتحدث عنها الناس ويعجبون من سرعة انتشـارها فى الاقليم ، وفتكها بمحصول البطاطس .

فقال (بريان) .

ـ اللفحة ؟.. ما هى اخبار هذه الآفة يا امرأة ؟

فأجابت (سالى) .

ـ انها أصابت وادى (جليناري) أمس .

فقالت (ماجى) مستعيذة .

ـ خيب الله فألك !

وأما العجوز فقدانتفض قائما وهو يحدج (سالى) بنظرات شزراء، وكأن المسكينة قد جلبت عمـدا وبايحاء منها هـذه الآفة الى الوادى المجاور ، الذى لا يفصله عن (الوادى الأسود) سوى سلسلة جبليـة ضيقة ... وما له لا يجزع ، ولن ينجو (الوادى الأسود) من عـدوى الآفة اذا أصابت (وادى جليناري) حقا ؟..

قال لها العجوز :

ـ أين سمعت بهذا النبأ ؟

فأجابت قائلة :

ـ من (باتسى) الذى ذهب الى (جليناري) أمس بحثا عن عمل . وقد عاد ليلا فى ساعة متأخرة بعد أن تولى اصلاح السـلال عند بعض الناس وقال ان مرض اللفحة قد انتشر فى أرجـاء الوادى وأن بعض الحقول تنبعث منها روائح تتقزز منها النفس .

كان العجوز ينصت الى هذا الكلام فاغر الفم . وقد لبث حينا جامدا فى مكانه كتمثال ، وما عتم أن أطبق فمه وحرك ما ضفيه قليلا، ثم اختطف قبعته وأهوى بها على رأسه واندفع الى الخارج لا ينبس بكلمة ... فقالت (ماجى) فى أثره :

ـ الى أين تذهب ؟

فأجاب (ميخائيل) فى مرحه :

ـ انه يتصيد كل ريح فاسدة ليذهب فى اثرها .

فقال له (تومسى) :

ـ لا تجعل من المصائب مادة للتسلية .

فقال (ميخائيل) :

ـ لتذهب الآفة الى الشيطان !.. نعم .. لو فسـد محصـول البطاطس كله فى جوف الأرض ، فلن تكون أسوأ حالا مما نحن فيه !.. ثم ما هى حياتنا فى الواقع ، وليست سوى الجوع والعنـاء ، وكأنهـا حياة الكلاب !.. هلمى يا (سالى) ورفهى عنا بالغناء ، وقوموا نرقص جميعا لنبرهن للشيطان أننا لا نخاف آفته !

فقالت (سالى) :

ـ بارك الله فيك يا بنى ... ان لك قلبا هو أقوى من المصائب ، وبودى أن أكون عنـد حسن ظنك من السرور والمرح ، لولا أن أطفالى يبكون من الجـوع .. انهم لم يأكلوا منذ ظهر أمس .. فقـد جاءهم (باتسى) بشىء من القرطم وضعته فوق النار لينضج ، وجئت ـ أكرمكم الله ـ لأرى أن كان يمكن ...

فقاطعتها (ماری) قائلة وهی تنهض :

ــ هاتی وعاءك .

فقالت (سالی) وهی تخرج وعاء من طيات ردائها :

ــ أدعو الله أن يبارك لكم فی كل ما تملكون ، وأن يقيكم شر الجوع والحرمان

فتناولت (ماری) الوعاء ووضعت به لبنا طازجا ، على حين قالت (ماجی) محتجة :

ــ ان الفقير لا ينبغی أن ينتظر من مساعدته لأخيه الفقير جزاء ولا مثوبة ، فهكذا وصاهم الله ...

فراحت (سالی) تقول بحرارة :

ــ بارك الله فيكم وأنتم أهل تقوى ومرحمة .. انك يا (ماجی) طالما أنقذتنا من الجوع منذ جئنا الى هذا الوادی من ثمانية أعوام مطرودين من ديارنا فی مقاطعة (تيبراری) ، فضلا عما فعله زوجك الطيب من منحنا قطعة أرض نزرعها ... ولو أن عجلة القدر دارت لما توانينا عن أسدائكم ما أسديتم لنا .. عندما كان لی بيت وأرض كان الناس يتوافدون على بابی أفواجا ، فلم أرد واحدا منهم صفر اليدين .

واسترسلت (سالی) فی حديثها على حين كانت (ماری) تجيئها باللبن وبما بقی من البطاطس المسلوق .. ثم أسبغت عليهم بركة أخيرة وسارت فی طريقها خفيفة الوطء لا تلوی على شیء .

وعند ذلك التفت (مارتن) الى خاله قائلا :

ــ هيا بنا يا (تومس) .. علينا أن نبدأ العمل .

فقال (تومس) :

ــ علم الله أننی اليوم فی حال لا أقوى معها على ادارة الرحى .

ولكنهما خرجا معا يتبعهما (ميخائيل) الذی نظر الى أمه ساخطا حين همت أن تمنعه من الخروج لمزاولة العمل .. فلما ذهبوا لم تتمالك الأم أن قالت لماری :

ــ أرأيت مبلغ عناده واعراضه عن كل نصح ؟.. هلمی بنا الآن يا حبيبتی ننظف البيت .

فنظرت (ماری) الى حماتها فی رقة قائلة :

ــ أدعو الله أن يجزيك فی الآخرة عن طيبتك ما حرمته فی هذه الدنيا .

فأدارت (ماجی) وجهها وتمخطت فی ردائها لتخفی ما جاش فی صدرها من مشاعر الانفعال والتأثر .

الفصل الثالث

خرج الرجال الثلاثة الى ساحة الدار وقد بدأ المطر يخف والسحب تنحسر عن وجه السماء ، وقال (مارتن) وهو يسرح النظر فى أرجاء الوادى :

ـ اف لهذا !... ليت الذى استوطن هذا الاقليم لأول مرة قد دق عنقه قبل أن يستقر فيه ...

فقال (تومسى) :

ـ لا تظن أن هذا المكان قد انفرد بخشونته من دون البلاد ، ففى الدنيا بقاع أقسى منه وأسوأ .

وما لبث الاثنان أن انكمشا على نفسيهما وأنشآ يركضان فى المطر محتميين بالافريز الدائرى حول سقف البيت، على حين وقف (ميخائيل) مكانه يرسل بصره عبر الوادى ...

كان الوادى يمتـد شمالاً قرابة ميل فى رقعة ضيقة ، تحف بها سفوح جبلية صخرية يجللها الغمام ، وتتعاقب من بعدها هبوطا عواسج ونباتات شوكية تغطى السفوح الوسطى ، ثم تنتهى بالحقول الزراعية الضئيلة المتناثرة فى بطن الوادى ... ومن بين القمم الشاهقة فى الطرف الشمالى حيث (البحيرة السوداء) ، تفرع نهر (جوست) تجرى امواجه جنوبا فوارة جياشة بين الشعاب الصخرية، فيكون لها هدير وخرير..

ولما وصل (ميخائيل) الى (الجرن) الذى يخزن فيه القرطم، وهو قائم فى بقعة صخرية مشرفة على النهر ، قال لرفيقه وهو يشير الى ناحية الجنوب :

ـ انظروا الى صاحبنا هناك !.. انه يدور فى كل مكان ككلب صيد فى اثر أرنب

وكان (ميخائيل) يعنى بكلامه العجوز الذى راح يطوف مهرولا بسور مزرعة بطاطس مجاورة للجرن .. والواقع أن العجوز كان يبدو حقا كالكلب يتعقب فريسته ، وهو منحن فوق سور المزرعة ، يتشمم ، ويستقيم ويطأطيء ، ويهرول من بقعة الى أخرى فاحصا منقبـا ، حتى لم يتمالك (تومسى) أن قال معقبا وهو يخلع قميصه بباب (الجرن) :

ـ عجبت والله لصاحبنا ! .. كيف يمكنه أن يبصر ما يبحث عنه فى هذا المطر ، وقد استحال كل شيء الى سواد ؟ .. أليست اللفحة بقعا داكنة صغيرة تظهر فوق أوراق النبات ؟ ... أن الذين شاهدوها

فى المزارع المنكوبة ، يقولون انها بقع سمراء صغيرة تظهر على الاوراق، ثم ...

فقاطعه (مارتن) يقول :

ــ انها الرائحة ... ان المرض يبدأ بالرائحة .

وقال (ميخائيل) :

ــ ان هذا الشيطان العجوز سيلقى حتفه بردا ...

وصاح يدعو أباه للعودة من المطر ، لكن العجوز لم يحفل به ... وكذلك دلف الرجال الثلاثة الى داخل (الجرن) وتأهبوا للعمل ...

كانت حزم القرطم موضوعة بعضها فوق بعض فى جانب (الجرن)، فما لبثوا أن أخلوا الارض فى الجانب الآخر ونصبوا فيها مجموعة من الاحجار على هيئة دائرة ، ثم جاءوا بكتلة ضخمة مستديرة من الجرانيت وضعوها فى منتصف الدائرة ، وعليها راحوا يضربون الأعواد فيتساقط الحب... وسرعان ما امتلأ الجو بالذرات المتطايرة ، حتى أخذ ميخائيل يسعل ، فبدا بجلاء أن هذا العمل فوق طاقته ، ولذلك قال له (تومسى) :

ــ خل عنك يا رجل ... اذا واصلت العمل واجهدت نفسك على هذه الصورة ، فلن تتماثل قط للشفاء .

لكن (ميخائيل) لم ينبس بكلمة ، بل راح يهوى بعيدانه مغضبا فوق كتلة الجرانيت ، فاستطرد (تومسى) يقول :

ــ رفقا بنفسك ياأخى .. عندما أصابك البرد لأول مرة فى الربيع بعد أن وضعنا بذور البطاطس فى الارض ، نصحتك أن تستريح والا ساءت العاقبة ... لكنك لم تهتم بكلامى ، لما طبعت عليه من العناد... لقد حسبت أن قوتك أعظم من قوة الطبيعة ، لكن البرد الذى تغلغل حتى عظامك استحال برغم قوتك الى سعال ... ثم انك لم تكتف بهذا بل اشتركت فى الشهر الماضى فى جنازة (باتس دالى) وجعلت تشرب الخمر فى العراء والمطر ، دون مبالاة بصحتك ، و ...

وفجأة صاح به (ميخائيل) :

ــ اسكت ، والا لطمتك !

فقال (تومسى) بهدوء :

ــ حسنا .. سأسكت ، اذ لا فائدة من نصح احمق .

فتدخل (مارتن) قائلا :

ــ انه على حق يا (ميخائيل) .. اجتنب الاجهاد مادمت فى مرضك !

فقال ميخائيل وهو يتميز سخطا :

ـ انى أتحدى أن ينتج أحد مثلى !

فقال (مارتن) :

ـ قبحك الله !.. اننا نبغى خيرك ومصلحتك ... ليس بيننا من يجهل مقدرتك فى العمل وأنه ليس فى المقاطعة كلها من يفوقك من هذه الناحية ... تعقل يا رجل !

ولقد هم (ميخائيل) وهو فى سورة غضبه أن يعقب مرة أخرى ؛ واذا نوبة سعال عنيفة تتملكه حتى ترنح من وطأتها واستند الى الحائط منحنيا على نفسه ويداه قابضتان على صدره... فجعل زميلاه ينظران اليه فى قلق واشفاق طيلة الأزمة ، فلما انتهت مسح فمه بكمه وهو يتطلع اليهما بنظرات غريبة ، ثم استأنف عمله بسرعة مضاعفة ... لكنه بدا متناقضا مع نفسه وهو يحاول بقوة الارادة وحدها أن يهزم المرض العضال الذى كان يفتك به ...

وما لبث العجوز أن عاد الى (الجرن) تلوح عليه أمارات السعادة والاغتباط كطفل جذل طروب ، ولم يتمالك أن هتف قائلا وهو يخلع رداءه :

ـ لم اجد اثرا للآفة حتى الآن

فقال (مارتن) :

ـ هذا شىء طيب ...لقد كان من البلاهة أن نهتم بكلام (سالى) وهى أكبر كذابة فى المقاطعة .

وقال (تومسي) :

انهم لا يعرفون طبيعة هذه الآفة ، ولا من أين جاءت

فرد الشيخ قائلا :

ـ لقد قال الشرطى انها جاءت من بلاد أجنبية ، وانها وباء يجتاح كل شىء فى طريقه .

وأفسحوا له مكانا حول كتلة الجرانيت وأخذ يعمل بدوره معهم ... ولبثوا كذلك يعملون صامتين حينا حتى استهدف (ميخائيل) لنوبة سعال جديدة كانت أقسى من سابقتها ، فجعلوا يراقبونه وجفين ، ولا سيما العجوز الذى شفت ملامح وجهه عن مبلغ ألمه وكربه ... فهو قد شهد أبناء له من قبل هلكوا على هذه الصورة ، حتى صار أخبر الناس بدلالة هذه النوبات المشئومة ..

وقال لفتاه فى تردد واشفاق :

ـ ان هذا الغبار هو السبب ... فعد الى البيت واطلب من امك أن تعد لك شرابا دافئا .

فاستقام (ميخائيل) فى مكانه وكف عن السعال برهة ونظر الى

ابيه كمن يهم بالجواب ، بيد انه لم يلبث أن رفع يديه فجأة الى فمه واندفع خارجا من (الجرن) ... (فقال تومسى) :

ــ لافائدة منمجادلته ... فهو عنيد كخنزير .

فتنهد العجوز واهوى بأعواده فوق الكتلة الصخرية وهو يهمهم قائلا :

ــ اللهم انا نسألك اللطف والرحمة !

وعاد (ميخائيل) وهو يمسح فمه بكمه ويقلب النظر حواليه خلسة ... فلم يبادره أحد بكلام ... وبدا مشهده مروعا ، فقد اشتد امتقاع وجهه ، الا من بقعتين حمراوين فوق وجنتيه ، وحفت بعينيه دائرتان شديدتا السواد ، وكان يرتجف وهو يتقدم الى الكتلة الصخرية ... بيد أنه تناول عيدانه واستأنف عمله بهمته السالفة ...

فلما كان الظهر وجاءت (مارى) تعلن اليهم حلول موعد الغداء لم يلبث (ميخائيل) أن تملكه اعياء مفاجيء ، فسار الى البيت مطرقا ، وقصد الى غرفته راسا حيث انطرح فى فراشه ، أما الباقون فقد جلسوا الى الخوان وأنشئوا يتناولون طعامهم المكون هذه المرة من عصيدة القرطم واللبن الطازج ... ولما فطنت أمه الى غيابه ذهبتالى مخدعه ، فشد ما كان ارتياعها اذ شاهدته منبطحا على وجهه ينتحب عاليا ... وسرعان ما هرعت الى جانبه قائلة :

ــ أواه يا حبيبى ! ماذا بك ؟

فلم يجب ، بل مضى فى بكائه ونحيبه .. والحق أن هذا البكاء مزق نياط قلبها ، فقد عهدته برغم اعتلال صحته ، شديد الاعتداد بنفسه ، مترفعا عن الشكوى والأنين ... وكان حتى وهو طفل صغير لا يعرف الشكوى معنى كلما عرض له ما يعرض عادة للاطفال ... أما الآن وهو فى طور الرجولة فانه يسكب الدموع كالبنت ... ولذلك استدعت زوجها .. فخف الى جانبها وقد أطبق يديه ، وقال لها :

ــ يحسن بنا أن نخلع ملابسه ونرقده .

فقالت له :

ــ ما كان ينبغى أن تدعه يعمل .

فرد عليها (بريان) يقول مغضبا :

ــ وهل كنت أستطيع منعه ؟

فصاحت فيه بلهجة هستيرية قائلة :

ــ لا تصرخ فى وجهى !

فأجابها :

ــ اذهبى واعدى له شرابا ساخنا ... ليس هذا وقت تبادل اللوم ..

فعادت (ماجى) الى المطبخ والدموع تنهمر على خديها ... لقد قضت المسكينة صباح يومها فى كد ونصب ، وهى الآن تتلقى هذه الصدمة ، مقترنة بشراسة زوجها وحدة طبعه ، فمن أين لها باحتمال هذا كله ؟ ..

على انها تناولت اناء وجعلت تصب فيه قدرا من اللبن ، فلما سألها (مارتن) ما خطبها انفجرت باكية وجعلت تنشج نشيجا عاليا ، وسرعان ما وثبت (مارى) قائمة وتناولت منها الاناء قائلة :

ـ اجلسى انت ... سأقوم عنك بهذه المهمة

فجلست الأم فى ركن المدفأة ورفعت (المريلة) فوق رأسها واستسلمت للبكاء ... فقال لها (مارتن) وكان يأكل طعامه ساهما واجما :

ـ ان البكاء لن يجدى شيئا

وعجل هو و (تومسى) بازدراد طعامهما وغادرا البيت فى صمت .. وبعد ان قطعا وقتا فى العمل انضم اليهما العجوز ، فسأله (مارتن) عن حال اخيه ، فقال :

ـ انه استسلم للنوم

ولم تنقض ساعة حتى فرغوا من عمليتهم الأولى ، فتعاون (بريان) و (تومسى) فى نقل الحب المكدس الى صخرة مسطحة أمام (الجرن) ، على حين قصد (مارتن) الى البيت لاحضار غربال وقد انقطع المطر واشرقت الشمس ساطعة وسرى نسيم رقيق ، فوجد زوجته فى الساحة منهمكة فى العمل على المغزل حتى لم تشعر به وقد وقف عن كثب يراقبها باسما مفتونا ... وعلى حين غرة انقض عليها واحتواها بين ساعديه ، فبدرت منها صرخة فزع يسيرة واستدارت بين ذراعيه لمواجهته ، وهمست قائلة وهى تتفرس فى محياه مفتونة به مثل افتتانه بها :

ـ ما كان يصح أن تروعنى هكذا

فهمس بدوره قائلا :

ـ لا تجهدى نفسك فى العمل ، فان هذا كثير على مثلك

فقالت له :

ـ ابتعد عنى ... ان لك لسانا كثير الكلام .

فقال لها :

ـ هذا من فضل ربى ... وهل فتنك غير لسانى ؟ .. اعترفى بهذا الآن أمامى ، أنت يا من كان أغنى رجال المقاطعة يخطبون ودك .

فقالت له :

ـ هلا تركتنى اتم عملى ؟ لا بد لى من اتمام هذا الغزل حتى موعد العشاء ، فان آلة النسيج تنتظره فى بيت أبى

فتركها ، وقال لها بلهجة الجد :

ـ كيف حال (ميخائيل) ؟

ـ انه نائم

ـ مسكين ! ... ان حالته توجب الرثاء ... كيف نشكو فى الحياة من أى شىء اذا كنا نستمتع بنعمة الصحة ، ونرى بأعيننا ضوء الشمس وهى تنير لنا الكون ؟ !

ـ صدقت يا (مارتن) .. شد ما أرثى (لميخائيل) ... ان مثله لم يخلق ليكون فلاحا مستعبدا ، بل شاعرا صداحا فى بلاط ملك كبير ... لقد خلق المسكين ضعيف البنية فلم تحتمل صحته أثقال الفاقة ، ولم ينفعه عقله الحالم وخياله الخصب ، الذى يتفتق عن قصص بديعة تستهوى الألباب ...

فتنهد (مارتن) ، وحمل الغربال الى الصخرة المسطحة ، على حين تابعت (مارى) غزلها ... فوجد (مارتن) كوما من الحب قد تكدس فوق الصخرة ، فانهمك فى غربلته ، وهنا قال له أبوه :

ـ كيف حال أخيك ؟

فأجاب (مارتن) :

ـ انه الآن نائم

فقال العجوز :

ـ حسنا ... ان هذا أفضل محصول رأيته منذ أعوام

ولما كان العصر جمعوا الحب فى أكياس ، وقسموا القش قسمين : الخفيف لدعم سقف البيت و (الجرن) ، والكثيف غذاء للماشية ...

وبينما هم يتأهبون للعودة اذ جعل (مارتن) يتشمم الهواء ، ثم قال على الأثر :

ـ هذا شىء غريب

ولما سأله الشيخ عما يعنى أجاب (مارتن) قائلا :

ـ هى تلك الرائحة . ألا تشم رائحة غريبة ؟

فقال الشيخ :

ـ أيمكن أن تكون اللفحة ؟ .. ترى من أين هى آتية ؟

فأجاب (مارتن) مشيرا الى ناحية الشمال حيث كان يهب نسيم يسير :

ـ من هناك ··· أف لها من رائحة نتنة ! · انها آتية من ناحية مزرعة (باتشي هرنون) ··· انظروا ··· هناك أناس يطلون من فوق سياج المزرعة ... سأذهب لأنظر ماذا جرى .

فقال العجوز :

ـ ماهذا ؟ اسمع !

فقد ترامى الى أسماعهم صوت امرأة تندب وتولول ، وسرعان ما انطلق (مارتن) يركض ناحية الشمال ، على حين رجع العجوز الى البيت يحمل الغربال ... فتلقته (مارى) قائلة فى قلق :

ـ الى أين يذهب (مارتن) ؟

فلم يجبها ... وفى هذه اللحظة بدا (ميخائيل) فى مدخل البيت ، فحملق فيه العجوز قائلا :

ـ حسبتك نائما

فقال (ميخائيل) :

ـ أنا الآن بخير ... الى أين ذهب (مارتن) ؟

فأجاب العجوز :

ـ أخشى أن اللفحة قد أصابت مزرعة (باتشي هرنون) ... لم لم تلزم فراشك ؟

فجعل (ميخائيل) يحدق ناحية الشمال كالحالم دون أن ينبس بكلام ، وما لبث أن هز منكبيه وسار فى الساحة كما يسير النائم ، يتبعه العجوز و (مارى) بنظراتهما ··· ولما بلغ الطريق الذى يشق الوادى من أدناه الى أقصاه وقف برهة مترددا ، فهتف به العجوز فى النهاية :

ـ الى أين تذهب يا (ميخائيل) ؟

فأجاب بايجاز :

ـ فى زيارة

وقر قراره فجأة ، فيمم شطر الجنوب ... وهنا خرجت (ماجى)، وظهر (تومسى) حول ركن البيت ، فالتفت اليه (ميخائيل) قبل أن يغيب عن الانظار ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ هلا شاركتنى هذه الزيارة يا (تومسى) ؟

فقالت (ماجى) :

ـ أوقفوه بحق السماء ! ... امنعوه من الخروج !

فقالت لها (بريان) :

ــ ولماذا لم تمنعيه أنت ؟

فأجابت (ماجى) :

ــ انه خرج دون أن أراه ... فقد كنت فى الغرفة الصغرى .

فقال العجوز مخاطبا (تومسى) :

ــ اذهب معه ... اننى اعرف وجهته ... ان فى جيبه شلنين منذ أن بعنا الخراف ... عليك بمراقبته ومنعه من المشاجرة متى لعبت الخمر برأسه .

فقال (تومسى) :

ــ لا بأس يا اخى .. سأبذل جهدى .

وقالت (ماجى) داعية مبتهلة :

ــ رحمتك ياربى .

تناول القوم عشاءهم فى جو تسوده الكآبة والوجوم .. وبعد العشاء قصد (مارتن) وزوجته الى بيت النساج بما معهم من خيوط الغزل ، فلم يرجعا الا فى وقت متأخر ، واذا (ميخائيل) و (تومسى) مازالا غائبين عن المنزل ، والعجوز فى شدة القلق والاضطراب ... وكان جالسا فى ركن المدفأة وبيده مسبحته ، على حين قبعت (ماجى) فى الركن المقابل تعمل بالابرة ، وانبعث من حولها غطيط الخنازير عاليا وهى نائمة ... وقال لهما (بريان) :

ــ هل رأيتما صاحبينا ؟

فقال له (مارتن) :

ــ قم صل ونم ... انك لن تراهما هذه الليلة .

فقال له العجوز :

ــ أليس لك قلب ؟ ... ما أظنك تهتم لو لقى أخوك حتفه على قارعة الطريق .

وقبل أن يرد (مارتن) تدخلت (ماجى) قائلة :

ــ ناشدتكما الله أن تؤديا صلاتكما ، فلا فائدة من الانتظار .

ولما فرغوا من صلاتهم جاءت (ماجى) باناء ماء دافىء وضعته امام المدفأة ليغسلوا منه أقدامهم ... وغسل العجوز قدميه ، وبينما هو يجففهما أمام النار اذ سرى الى سمعه صوت غناء ، فقال :

ــ ها هو ذا ! ...

وارهفوا اسماعهم جميعا ، فسمعوا غناء مطبوعا بالحزن لحنا ونظما :

« ستبصروننى ساريا فىالليل فوق ذرىالجبال ... وستسمعون ألحانى ضحى عند الغدير » .

والحق أنهم جميعا كانوا يعرفون أغنيته (نواح الشبح) هذه ، وقد تكلف العجوز الطرب وهو يسمع ولده يردد الأغنية ، حتى قال :

ــ الله ! ... ألا ترون صوته عذبا رخيما ؟ .

لكن (مارى) همست فى أذن حماتها قائلة :

ــ رباه ! ... انه سكران !

فردت عليها (ماجى) قائلة :

ــ اذهبى الى فراشك ياحبيبتى ... لا تخافى منه

واسرع (مارتن) يجفف قدميه ويلبس حذاءه مرة أخرى ، فهو يعلم أن (ميخائيل) يغدو صعب المراس حين يسكر ... ولما خرج الى الساحة يتبعه العجوز شاهدا (ميخائيل) يعاون (تومسى) على تخطى السياج ، وكان الأخير يقول :

ــ مالى ثقلت هكذا ، حتى عجزت عن رفع قدمى ؟ .

فقال (مارتن) لأخيه وهو يمسك بمنكب (تومسى) :

ــ دعنى أساعده .

بيد أن (ميخائيل) دفع أخاه بعنف قائلا :

ــ دعه وشأنه !

فقال (مارتن) فى دعة :

ــ لا بأس ... لك ماشئت .

وتجشأ (تومسى) ، ثم تطاوح من فوق السياج وارتمى فىالساحة مكوما على نفسه ... فلم يجد (مارتن) بدا من أن يعود الى داخل البيت قائلا :

ــ ان (ميخائيل) خرج عن صوابه ... سأتركه لنفسه .

فقالت له أمه :

ــ ادخل مع (مارى) الى غرفتكما ... اننا سنتكفل به .

وما أن دلف الزوجان الى مخدعهما حتى انشأت (مارى) تنتحب قائلة :

ــ أوصد الباب ... اننى خائفة منه .

فأطاع ، وعاد اليها يسرى عنها قائلا :

ـ لا موجب للخوف ... ان (ميخائيل) أرق انسان فى الدنيا ، وما أطاش صوابه سوى المرض ، لطف الله به .

وبلغ الرجلان المخموران المطبخ بعد لاى ، وراح العجوزان يبذلان كل جهد وحيلة لتهدئتهما •• بيد أن (ميخائيل) مابرح يرفع عقيرته بأغان مختلطة ، وكان يصيح قائلا :

ـ دعونى أغنى ! .. لن أعيش طويلا للفناء ! .. ولربما أغنى أيضا وأنا موسد فى التراب ، فتستحيل أغنياتى الى زهور يانعة تزدهر فوق قبرى ! دعنى يا أبتاه أغنى ، وخذ يدى بين يديك معينا مشجعا !

ولبث المخموران طويلا يصـخبان فى المطبخ ، واقترن صـخبهما بصياح الدجاج وخوار الخنازير الفزعة حتى كانت جلبة تصم الآذان ثم وفق العجوزان فى كبح جماحهما فى النهاية فأوى الجميـع الى مضاجعهم مكدودين ••

الفصل الرابع

ما أن أشرقت شمس الغد حتى كانت (اللفحة) قد انتشرت فى اكثر حقول البطاطس فى (الوادى الاسود) ، بيد أن الاصابة لم تكن برغم ذلك بالغة الخطورة ، فيما عدا مزرعة (باتشى هرنون) التى فتك بها المرض فتكا ذريعا حتى انبعثت منها روائح العطب تزكم الأنوف ، وكذلك اســـتقر عزم الزراع جميعا على جنى المحصول دون تلبث .

واقبل (باتسى أو هانلون) وزوجته (سالى) لمساعدة آل(كيلمارتن) فى عملية الجنى ، فقد كان الزوجان من اللاجئين الذين نزحوا الى الوادى أفواجا كثيرة مطرودين من ديارهم ، فأشفق عليهما رب الأسرة وسمح لهما بحقل يزرعانه لقاء نصف المحصول ، وهكذا كانا يبذلان للأسرة كل عون فى اكثر المناسبات .

وبدات عملية الجمع فى الحقل المتاخم للنهر .. وكان (مارتن) أول من أخرج مجرفته من الارض مليئة بثمار البطاطس ، فلم يتمالك أن هتف من الفرح !

ـ ان هذه الثمار لم يمسها سوء ! .. وهى تبشر بمحصـــول طيب .

فقال العجوز :

ـ الحمد لله على نعمته وفضله .

وظلوا فى عملهم دائبين ساعات متعاقبة ... فلما كان الظهر جاءت (مارى) بطعام الغداء فقال لها العجوز :

ـ أما زال (ميخائيل) نائما ؟ .

فأجابته قائلة :

ـ كلا ... لقد استيقظ من نومه .

وجلسوا الى ضــفة النهر يأكلون طعــامهم المؤلف من البطاطس المسلوق الساخن ومن اللبن ، وقالت (مارى) متسائلة :

ـ هل دب العطب فى المحصول ؟ .

فتولى (مارتن) الجواب قائلا :

ـ انه سليم فيما عدا أقل القليل .

وتناولوا طعامهم سريعـــا واستأنفوا شق الارض بفئوســـهم اتماما لعملية الجمع ، ولكن (سالى) تخلفت قليلا وأسرت كلاما (لمارى) التى أومأت ايجابا ٠٠٠ فلوحت (سالى) بيدها الى ثلاثة رءوس صغيرة كانت تطل من فوق السياج على مبعدة ، ولم تكن سوى رءوس أبنائها الذين استجابوا لاشارتها وجاءوا اليها ركضا وهم يتوقفون بين فينة وأخرى وجلين هيابين كأنهم حيــوان غير مســتأنس يخشى الاقتراب من بنى الانســـان ، فكانت تطمئنهم بإماءاتها حتى ذهب عنهم الروع واقتربوا منهــا فى النهاية ، ثم احاطوا بفضلات الطعام يلتهمونها التهاما ويأتون عليها عن آخرها ، حتى قشور البطاطس والماء الملح لم يذروا منها شيئا ٠٠ واذ لم يبق أمامهم سوى الاناء فارغا جلسوا منكمشين متلاصقين يلعقون شفاههم ويمسحون أنوفهم بأكمامهم ٠

كانوا صبيا فى الرابعة عشرة وبنتين فى العاشرة والثامنة على التعاقب، ولكنهم تماثلوا جميعا فى الضمور والنحول حتى تســاووا فى بنياتهم ، وطبع الجوع على سحناتهم مسحة مؤثرة من الشـــقاء والرزانة جعلتهم أبعد شبها عن سائر اترابهم من الاطفال ٠

ولما رجعت (مارى) من حيث كانت تنظف وعاء اللبن على ضفة النهر، لتأخذ صفحة البطاطس الفارغة ، تفرق الصبية مذعورين ، ثم وقفوا على مبعدة وجلسوا القرفصاء مرة ثانية ، ارتقابا لمنة أخرى تهبط عليهم ٠٠ ولم تتمالك (مارى) أن ناجت نفسها بهذه العبارة وهى تبصرهم مولين من أمامها :

ـ يالهم من صغار مساكين ٠٠ ما أبشع أن يكون هناك صغار عضهم الجوع على هذه الصورة !٠

وفجأة ســـمعت صرخة مدوية صـــادرة من البيت ٠ فنظـــرت فرأت (ماجى) فى ساحة الدار تلوح بيديها منفعلة مضطربة ، فصاح (مارتن) قائلا :

ـ ماذا جرى ؟

ولم تكن تستطيع (ماجى) أن تفهمهم مقصدها وهى بعيـــدة عنهم ، ولبثت تلوح لهم بيـــديها حينا ٠٠ فترك (مارتن) مجرفته وركض الى ناحيتها وهم فى أثره ٠٠

وسارت (مارى) فى أعقابهم وقد تملكها خوف عنيف كأنما خشيت أن تقع كارثة تقضى على حبها الوليد وتدمر صرح سعادتها ٠٠٠

وبينما هى تسير متثاقلة اذ رأت (مارتن) يجرى الى ناحيتها عائدا من البيت ، فلما دنا منها هتف قائلا :

ـ سأذهب الى الطبيب !

ـ ماذا جرى ؟

فأجاب لاهث الانفاس وهو يجاوزها مبتعدا :

ـ وجدت (ميخائيل) خلف البيت ! غارقا فى بركة من الدماء !٠٠ انه يسعل دما !٠

فجمدت (مارى) مكانها وهى تحدق شاردة الذهن الى البقرة التى ذهبت تخور مضطربة بتأثير الجلبة التى اشتدت حولهـا فجأة ٠٠٠ كانت بقرة عجفاء منكودة برزت عظامها الخلفية بروزا مروعا لشدة افتقارها الى القوت ، فلم يكن مرعاها الصغير الا بقعة جرداء اجتثت اعشابها اجتثاثا وبدت التربة السوداء من تحتها عارية كالحة ٠

والحق أن (مارى) كادت تصرخ جزعا ويأسا من مشاهد هذه الفاقة المدقعة وهذا البؤس الشديد ، ثم سرعان ما أدركت أنها ترتكب وزرا كبيرا بهذه الثورة النفسية ، فاستغفرت ربها ، وشـعرت بالسـكينة تعود الى قلبها ٠

الفصل الخامس

قبل الدكتور (هاينز) قرب العصر ممتطيا الفرس السوداء التى جاءه بها (مارتن) ، فاستقبله جمع غفير من الاهلين كانوا ينتظرون أمام الدار ٠٠ والواقع أن الاطباء كانوا حدثا جديدا عام ١٨٤٥ ، ودرج الناس على اعتبارهم من طبقة (الاسياد) ، يستجدون عطفهم أو احسانهم ٠٠ ومع ان الدكتور (هاينز) هو نجل (جون هاينز) تاجر القرية وقد ولد فى ربوع (الوادى الأسود) ، فقد كان الناس يعدونه برغم ذلك سيدا حقيقا بالتجلة والاحترام لمركزه ؛ وكذلك حفوا به يمسكون بزمام فرسه اللاهث المزبد ويسوون له السرج واللجام ٠٠ أما هو فقد فاضت نفسه اشمئزازا من قذارتهم وأسمالهم وضعتهم ، واختلط اشمئزازه بالارتباك اذ تذكر ان اباه بدأ حياته من صميمهم قبل أن ينجو بنفسه من عبودية أجراء الارض وينتقل الى التجارة ٠

وخرج (بريان) مهرولا لاستقبال الطبيب وقد ارتدى ثوبا نظيفا وحذاء يوم الاحد ، حتى كان مشهده فريدا وهو يعرج فى مشيته ويروض وجهه المغضن على الابتسام حفاوة بالقادم ٠٠٠ ووقف بين يدى الطبيب ممسكا بزمام الفرس وهو يبالغ فى الانحناء تحية واجلالا ، فقال له الطبيب فى ترفع ووقار :

ــ أنت والد المريض ؟

فأجاب العجوز :

ــ نعم يا صاحب السيادة ٠٠٠ بارك الله فى سيادتكم للتفضل بالحضور بمثل هذه السرعة ٠

وأراد العجوز معاونة الطبيب على الترجل عن الفرس ، فقدم اليه ركبته المرفوعة ومنكبه ، ولكن هذه الحركة مضافة الى تصلب عضلات الطبيب بتأثير رحلته الشاقة التى لم يعتد مثلها ، انتهت بعكس المقصود منها ، اذ طوحت بالطبيب الى الارض ، فسقط فى بركة ماء تخلفت أمام الدار من مطر أمس وتلوثت ملابسه بالوحل ٠٠٠

وسرعان ما ارتفع صراخ (ماجى) لدى الباب وهى تقول مروعة :

ــ اللهم اصرف عنا كل شر !! ان ملابسك الأنيقة قد تلفت يا سيدى !

وهرعت اليه باسطة مريلتها وانشأت تزيل الوحل عن ملابس الطبيب ،فكانت النتيجة أنها زادت الطين بلة حتى لوثت ما بقى نظيفا وأحنقت الطبيب الذى قال لها مع ذلك وهو عاجز مغلوب على أمره :

ـ كفى أيتها المرأة الطيبة ••• أين المريض ؟ ••

فهتف (بريان) وهو يسبقه الى الداخل :

ـ من هنا يا سيدى ••• هلا طأطأت رأسك ، لان الباب منخفض ؟

لكن الطبيب لم يكن بحاجة الى هـذا التحذير وهو بادى القصر ، بخلاف آل (بيلمارتن) طوال القامه ••• ولم يلبث أن دخل الى الداخل حاملا حقيبته الصغيرة وهو عابس متجهم،فصافحته روائح محتبسة زكمت أنفه ••• ولم تتمالك (مارى) أن تملـكها شديد الخـزى والخجـل وقد فطنت الى ما اعتراه ••• أما هو فلم يكد يبصرها حتى انتفض يسيرا ونمت نظراته عن بالغ دهشته ازاء جمالها المفرط الذى فاجأه فيمثل هذا المكان•• ولكن (مرى) غضت بصرها ولاذت بغرفتها مسرعة ••• فهم أن يتبعها وهـو يحسـب المريض فى تلك الغـرفة لولا أن (بريان) أمسـك بذيل سترته قائلا :

ـ من هنا يا صاحب السيادة•

وقاد الطبيب الى غرفة نوم العليل حيث كانت الرائحة الفاسدة على أشدها ، فقال لهم باقتضاب :

ـ افتحوا هذه النافذة •

فتبادل الزوجان العجوزان النظرات فاغرى الفم، حتى اضطر الطبيب الى تكرار أمره بلهجة أشد اقتضابا ، مما حدا بالعجوز أن يقول فى النهاية وهو يتقدم خطوة محييا مرة أخرى :

ـ ان النافذة لا تفتح •

فقال الطبيب غاضبا :

ـ اذن فافتحوا بالله هذا البـاب على مصراعيه !•• أدخلوا الهواء الى هذه الغرفة !••• كيف تطمعون أن يشفى المريض وهو فى غرفة كهذه ؟!

فقالت (ماجى) فى مسكنه:

ـ رعاك الله يا سـيدى ••• انه هـو الهواء الـذى نستنشـقه على الدوام •

ولـكن الطبيب تقـدم الى فراش المريض وهـو يدمغهم فى سريرته بالغباوة المطبقة ، وقال (لميخائيل) بايجاز وهو يرفع الملابس عن صدره :

ـ أين موضع الالم ؟•

بيد أن (ميخائيل) تشبث بالملابس وردها الى مكانها وهـو يحدج الطبيب شزرا بنظرات حيوان أحيط به ، وقد أجاب فى شراسة :

ـ انى لاأشكو ألما •

واذا كان الطبيب قد بوغت بهذا الاستقبال الشاذ فانه لم يلبث أن نزع عن جفوته وانحاز الى الرقة ، وخاطب (ماجى) قائلا :

ـ متى بدأت هذه الحالة ؟

فأجابت (ماجى) :

ـ عند الظهر يا سيدى ٠

واسترسلت تشرح فى اسهاب كيف عثرت على ولدها مغمى عليه خلف الدار فى بركة من الدم الذى كان ينبثق من فمه ، وكيف استنجدت بالرجال فحملوه الى الداخل حيث ظل مطبق الفم حتى جاء الطبيب الآن ، واختتمت قائلة انها لا تعرف ما دهاه الا أن يكون وليد البرد الذى يعانيه فى الاشهر الاخيرة ، ولا سيما أنه شاب صعب المراس عجزوا جميعا عن اسلاس قياده وحمله على الراحة والترفق بنفسه ٠٠

فقال الطبيب مخاطبا (ميخائيل) :

ـ اذن فقد أصبت بنزيف !

ولما رأى (ميخائيل) أن الطبيب قد جنح الى اللين تركه أخيرا يرفع ملابسه ويفحصه ٠٠٠ وقال الطبيب فى النهاية :

ـ حسنا ٠٠٠ ان حالتك أيها الشاب ليست شديدة الخطورة ٠٠٠ وسنرى ما يمكن أن نفعله لأجلك ٠

وبدأ الطبيب فوصف علاجا لوقف النزيف ، وحاول تلقين الام العجوز كيف تداوى العليل ، فألفاها لا تفقه كلمة مما يقول ٠٠٠ والحق أن الأم المنكودة كانت تدرك بغريزتها ان كل علاج لا نفع منه ، ووقفت تعض شفتها بعنف لكتمان تلك الصرخات الحبيسة فى صدرها يأسا من مصير ولدها ٠٠٠

ولم يلبث (بريان) أن قال للطبيب :

ـ قل (لمارى) يا سيدى ما ينبغى أن تفعل ، فهى أكثر منا علما ٠

وقاد الطبيب الى مخدع (مارى) حيث كانت مختبئة ، وقال مشيرا اليها :

ـ هاهى ذى ياسيدى ٠٠ انها تكتب بخط جميل ٠٠ اكتبى ما يملى عليك يا (مارى) !

ولما قال الطبيب انه لا لزوم لكتابه شيء أصر العجوز على اظهار براعة (مارى) فى الكتابة قائلا :

ـ ليس فى هذا أقل تعب يا سيدى ٠٠٠ انها زوجة ابنى ٠٠٠ هات القلم والورقة يا (مارى) ٠٠٠

فلم يجد الطبيب الا أن ينزل على هذه الرغبة مجاراة للعجوز ورغبة

منه في مشاهدة جمال (ماری) عن كثب أطول مدة ممكنة ٠٠٠ وهكذا تقدمت (ماری) فی حياء الى الصندوق الكبير الذی جئت به فی جهاز العرس وفتحته وأخرجت منه رقعة من الورق وقلما وزجاجة حبر ، وقالت انها مستعدة للكتابة ٠٠٠

وقد استرعى نظر الطبيب فی هذه الاثناء نظافة الغرفة ونقاء هوائها وما بها من زخرف يسير بالقياس الى غيرها من الغرف ٠٠ فساوره انفعال غير معهود ٠٠ بل انه انتفض حين سمع صوتها العميق الصافی الشبيه بموسيقى منبعثة من خرير نبع جبلی دافق ٠٠٠ وسرعان ما تملكه انفعال شديد حتى راح يتفرس فيها جهرا وهی تغض بصرها حياء٠٠٠واذا هو يفكر ساخطا مزدريا فی ذلك الشاب الذی هرع اليه مستنجدا به انقاذ أخيه ، والذی عرف الان انه زوجها ٠٠٠

وأخيرا قال (لماری) :

ــ الظاهر أنك لا تجدين فرصة لاظهار مقدرتك فی الكتابة ٠

فأجابت (ماری) :

ــ بل ان الفرصة تسنح يا سيدی بين وقت وآخر ٠٠٠ وقد كنت فی بيت أبی أتولى كتابة الرسائل لمن لهم صلات بالعالم الخارجی ٠

ــ آه ٠٠٠ انك لم تتزوجی منذ أمد طويل !

فتولى العجوز البيان قائلا :

ــ منذ شهر فقط يا سيدی ٠٠٠ ان والدها هو (بارنی جليسون) النساج ٠٠٠ ولها أخت أخرى هی (أيلی) التی تناهز التاسعة عشرة ٠٠ ان آل (جليسون) هؤلاء أناس عباقرة ٠٠٠ فعميد الاسرة متحدث عظيم فی المسائل السياسية ٠٠ وهو يستطيع أن يحاضرك فی تاريخ ارلندا وفی المظالم التی انزلها بالشعب حكامه الانجليز الطغاة المستبدون ٠

وهكذا استرسل العجوز فی الثرثرة والتزلف بتأثير الملمة التی نزلت به ٠٠٠ أما الطبيب فكان ينصت اليه وهو يشعر بالدم يتدفق حارا فی عروقه كلما نظر الى (ماری) وشاهد جمالها ٠

وما كاد الطبيب يغادر البيت آخر الامر حتى تجمع الناس حوله سائلين ، مستعطفين ، يبثونه شجونهم ومتاعبهم ، ويسألون متى يجلی الانجليز عن بلادهم ويطردون من ديارهم ، حتى يصبح الملاك تحت رحمتهم ليحاسبوهم على ما أنزلوا بهم من مظالم ٠٠٠ وفی هذا المقام هتف واحد منهم يقول له :

ــ أنت واحد منا !٠٠٠ أنت كاثوليكی المذهب ، ومن صميم الشعب مثلنا !

وكذلك ذهب عن الطبيب كل سخط على الاهلين لما هم فيه من فاقة وقذارة وهوان ٠٠ وكان لجمال (ماری) من عمق الاثر فی نفسه ما جعله يفخر بأن يكون من صميمهم ٠

الفصل السادس

ما أن غادر الطبيب البيت حتى أعيدت الخنازير والدجاج الى المطبخ ، وبقي بعض الجيران لمواساة الاسرة ٠٠ وفي المساء أقبل والد (ماري) للسؤال عن صحة المريض ، وكان رجلا قصيرا قوي البنية ، خلا شعره الكستنائي الغزير المجعد من معالم الشيب برغم أنه ناهز الحادية والستين ٠٠ وهو الى هذا ممتلىء الوجه بادي الاعتداد ، تشف عيناه الزرقاوان عن حب بريء للمشاكسة ٠٠

وبعد مقدمات السلام قال (جليسون) وهو يشعل غليونه بقطعة فحم متقدة :

ــ لكأن الاقدار لم تكتف بما انزلته بكم من الآفات الزراعية ، فجاءت هذه المصيبة تتمة للبلاء ٠

فقال له (مارتن) :

ــ ان الآفة لم تحدث لدينا اضرارا تذكر ، ولكنها أصبحت حديث الناس في كل مكان ٠٠٠ لا شك ان الاصابة خطيرة عندك يا (باتش) ؟

فهتف (باتش هرنون) قائلا :

ــ اني لم أخرج ثمرة واحدة سليمة اليوم ٠٠٠ ان محصولي كله معطوب ٠٠٠ في الربيع الماضي نكبت بوفاة بقرتي ، واليوم أنكب في محصولي ٠٠٠ ان النفحة قد حلت بأرضنا ٠

كان (باتش هرنون) زوج شقيقة (بريان) الباقية من دون أخواتها على قيد الحياة ، وهو مخلوق غريب الاطوار تبدو عليه سمات الخجل ٠٠ ولما سمعه (جليسون) يقول ما قاله ، بادره معقبا :

ــ انما حلت اللعنة على الشعب ، لا الارض ٠٠٠ ان أرض ارلندا طيبة مباركة غنية بخيراتها، ولكن المحتلين الطغاةالمستبدين انتزعوا الارض من الشعب وطردوه الى المناطق الصخرية والبقاع المجدبة ليعيش فيها مستهدفا للجوع والحرمان والمرض ! ٠

فقال عازف كان جوالا يدعى (تيموني) :

ــ ألا قبح الله مرضا أصاب ولدك يا (بريان) ، وهو زينة الشباب! ٠ اني ما كدت أسمع في القرية نبأ اعتلاله حتى جئت لرؤيته والاطمئنان عليه ٠

فقال (مارتن) :

ـ بارك الله فيك أيها الرجل الطيب٠٠ وما هى الانباء التى جئتنا بها من طوافك وترحالك ؟٠

كان عازف الكمان شيخا ناحلا محمر الانف دامع العينين يرتدى سترة للسهر حال لونها الازرق وكانت من قبل ملكا لاحد السادة الاشراف٠ وما لبث أن راح يقول ردا على سؤال (مارتن) :

ـ لقد سمعت الكثير فى أسفارى ٠٠ ففى الليلة الماضية سمعت وأنا فى حانة بميناء (كلوجر) رجلا يقرأ جريدة ويصف للنـاس فتك الآفة بالمحصول بعد انتشارها فى كل مكان واستهداف الناس للمجاعة ٠٠ وقال رجل كان يسمع عن كثب انالغربان ستشبع هذا الشتاء من جثث الموتى التى ستغص بها الطرقات ٠

ومضى عازف الكمان يتحدث اليهم عن كثير من الاحداث التى شهدها فى شبابه والتى قد لا يعد الجوع شيئا مذكورا بالقياس اليها ٠٠ فأيده (جليسون) قائلا :

ـ ان الجوع ليس بجديد على الناس بيننا ٠٠٠ فأنا نفسى منذ ثمانية عشر عاما كنت أطوف بأنحاء البلاد فى التماس القوت حتى اسـتقر بى المقام فى هذا الوادى ٠٠ ويا لها من رحلة أليمة لن أنساها ما عشت !٠

وما أن سمعت (مارى) كلام أبيها حتى احمر وجهها وذهبت الى غرفتها ، فلم يكن أمقت الى نفسها من الاشارة الى قصة حلول أسرتها فى (الوادى الاسود) ، هذه القصة التى كان أبوها مشغوفا بسردها على الناس مما كان يخزيها ويثير خجلها ٠٠ ولم تملك (مارى) وقد نال منهـا كد النهار كل منال الا أن ترتمى فوق الفراش وهى تسمع أباها يسهب فى سرد ما لقيت أسرته من تشريد وما ذاقت من جـوع ، حتى قـدر له أن يلتقىخارج القرية بالقس (كوبرن) الذى رق لحاله وبذل له العون واذ ذاك لم تتمالك (مارى) أن تضرعت الى الله قائلة :

ـ رباه !٠٠ هلا اخرجتنى وزوجى (مارتن) من هذا المكان الى حيث لا يعرفنا أحد !٠

ولم تلبث أن سمعت عازف الكمان يعقب على كلام أبيها قائلا :

ـ صدقت ٠٠٠ ان القس (كوبرن) رجـل خير لا يرد جائعا عن بابه وهو بهذا الوصف يختلفعن سائر أفراد مذهبه من البروتستانت٠

فتلقف أبوها هذا الكلام قائلا :

ـ نعم ٠٠٠ ان هذا القس الطيب هو الذى أعطـانى قطعة أرض أقيم عليها دارا واتخذ منها مزرعة ، بعد أن طردنى كثير من أبناء مذهبنا الكاثوليك وصدونى عن أبوابهم خاوى اليدين محسورا مقهورا ٠٠

فرد عليه (باتش هرنون) يقول بشراسة :

ـ ما أسهل على صاحبك القس البروتستانتى أن يجود بالاموال وهو يبتزها من الشعب باسم الصدقات !

فقال له (جليسون) :

ـ ما كان أيسر له لو قبض يده وضن بالمال كسوادهم الاعظم !٠٠ ألا تراهم جميعا ينهبون الشعب نهبـــا ؟ ان مواطنينا الكاثوليك من الانتهازيين وطلاب الغنى فهم أشد خطرا على الشعب من المستعمر الغاصب، حتى أنهم لا يتورعون عن سحق أبناء وطنهم بالنعال ، واستنزاف دمائهم دون رحمة ٠٠٠ وأمامنا المثـل الصارخ فى شخص (جون هاينز) الذى أثرى ثراء فاحشا على حسـاب الشعب من تأييـد مشروعات الانجـليز المحتلين ٠٠٠ وانى لاذكر ما حدث فى أعقاب حركة التحرير الكاثوليكية التى أعلنها زعماء لنا من أمثال (اوكنيل) و (ريتشارد لالور)عام ١٨٢٨، حين ذهبوا يمنون الشعب بالوعود البراقة والامانى المعســولة ٠٠ فانه لم يكد ينصرم عام واحد حتى تنكر ملاك الارض للمستأجرين ، خصوصا بعد أن ضنوا عليهم بأصواتهم فى الانتخـابات ، فسنوا اجراءات نزع الملكية التى أفضت الى اجلاء الفـلاحين عن قرى بأسرها ، والقـائهم على قارعة الطريق ٠٠٠ وقد استمرت هذه السياسة الغاشمة الى يومنا هذا ؛ حتى أصبحنا نرى الاعيـان يمعنون فى طـرد الفـلاحين من كل أرض يلجئون اليهـا ، فلا يبقى لهم ملاذ سـوى القبور أو الهجـرة الى أقاصى الارض مشردين يتضورون جوعا !

والى هذا الحد من الحديث الدائر بين والد (مارى) ورفاقه ، لم تلبث (مارى) أن غلبها النعاس ، ولكن أملا بازغا برق لها من ثنايا هذا الحديث هو الهجـرة الى أمريكا أو غيرها من البـلاد التى يفزع اليهـا مواطنوها التاعسون ، للنجاة بنفسها والهـرب من ويلات الحياة فى هـذا الوادى التعس ٠

وبين النوم واليقظة سمعت والدها (جليســون) يسترســل فى حديثه قائلا :

ـ أين ذهبت تلك الاموال الطائلة التى جمعت لتأييد حركةالاصلاح الزراعى الكاثوليكى ؟٠٠ انمـا ذهبت الى جيوب المتزعمين المتشــدقين بالاصلاح ، لتزيدهم ثراء وقوة ، دون أن يتحقق من ورائها أى اصلاح!٠ أى خير جناه الشعب الارلندى من دوام كفاحه طوال الاعوام الاخيرة ؟٠٠ وكيف يتاح للفلاحين العمل على تحسين أرضهم وهى ليست ملكا لهم ؟٠ أن عليهم تسليم المحصولات كافة الى الملاك والحكام ، دون أن يبقى لهم سوى حظ ضئيل من البطاطس يقيمون به أودهم ويسدون رمقهم ٠٠٠ ولو أنهم حاولوا العناية بالارض التى كانت ملكا لآبائهم وأجدادهم ، أو بذلوا جهدا لتحسين أحوالهم المعيشية والظهور بالمظهر الآدمى الكريم ، اذن لضوعفت الايجارات وشـدد الملاك عليهم النـكير !٠٠ وكذلك قضى عليهم أن يتقلبوا فى الفاقة والقذارة ، ويحيوا حياة الشظف الانحطاط ،

خـوفا من أن يشى بهم جباة الاموال الى ســادتهم ويشتطوا فى اقتضــاء الاموال المقررة !٠

ورأت (مارى) فيما يرى النائم أن ملاكا هبط عليها وطلب اليها أن تقوم وتتبعه ٠ فقامت وتبعته الى سفينة كبيرة ذات أشرعة بيضاء ارتقى كلاهما الى سطحها ٠٠ وقد أقلتهما السفينة عبر البحار الغريبة الى أرض خصبة غنية بالخيرات تنمو فيها سنابل القمح الى ما فوق قامة الانسان ولا طغاة فيها يسومون الناس العذاب ٠٠ ولما سألت الملاك أين هى قال لها :

ـ أنت فى أمريكا ، فاتخذى فيها مقامك على بركة الله ٠٠

ولم تلبث (مارى) أن أفاقت من حلمها منتفضة على صوت أبيهـا وهو يقول :

ـ اننى أؤكد لكم أن الزعيم (أوكنيل) لم يدخل السجن الا انقاذا لماء وجهه ٠٠ هو الآن فى دبلن نائبا فى البرلمان يخطب ويتكلم عن تحرير زنوج أمريكا ٠٠ لكننا لا نريد كلاما بعد الآن ، بل نريد ذخيرة وسلاحا لطرد الانجليز الغاصبين الظلمة من أرضنا المقدسة ٠٠٠ علينا أن نعرض صدورنا للرصاص والقـذائف ونموت رجالا ، لا أن نبيـد كالارانب فى الجحور !!

واستلقت (مارى) فى النهاية على ظهرها تحدق فى السقف وتفكر فى الرؤيا التى تجلت لها ٠

الفصل السابع

جاء اليوم التالي بشيرا بتحسن كبير في صحة (ميخائيل) حتى استطاع أن يتناول بعض الطعام ..

واستمر العمل في جنى محصول البطاطس على قدم وساق ، وكانت (مارى) تساهم بنصيبها من هذا العمل ، تاركة لحماتها العجوز تطبيب المريض والعناية به ..

ثم ظهر لسوء الحظ أن البطاطس الذى امتدت اليه الآفة كان هذا اليوم أكثر من سابقه ... وانما كان عزاء أسرة (كيلمارتن) أن العطب في محصولهم كان أقل كثيرا مما أصاب جيرانهم ..

وبدأت عملية تخزين البطاطس عقب الفراغ من جمعه ، فكانت تشق حفر مستطيلة قليلة العمق يغطى قاعها بأوراق الشجر ويكوم فيها البطاطس ، ثم توضع فوقه طبقة أخرى من الاوراق والاغصان يهال عليها التراب وتسوى بالمجارف حتى تغدو مصمتة لا يتسرب اليها الهواء ...

وأسفر تقدير (بريان) للمحصول بعد تمام جمعه وتخزينه عن خسارة ما يعادل العشر بسبب الآفة ، فكانت نتيجة لا تثير القلق ... أما فداحة النكبة فقد تجلت في زراعة (أوهانلون) التى يتقاسمها مع أسرة (كيلمارتن) ... فبعد أن كان يجنى في المألوف نحو مائتى كيلو جرام ، لم يقدر له أن يجمع هذا العام أكثر من مائة وخمسين ، وهكذا لاحت في الافق سنة عصيبة مقبلة لن يجد فيها (أوهانلون) أكثر من نصف هذا القدر من البطاطس لاطعام أسرته طوال العام ..

ولكن زوجته (سالى) لم تجزع لهذا الاحتمال ، اذ قالت معقبة :

ــ ان الله قادر على كل شيء .. وعلى كل حال يقال ان الملكة ستوزع المعونة على الشعب تخفيفا للضائقة ..

والحق أن شعورا بالطمأنينة والثقة ساد طوائف الشعب ، برغم أن منهم من فقدوا نحو ثلث المحصول، وبرغم أن كثيرين في وادى (جليناري) وحده قد أتت الآفة على محصولهم عن آخره ..

وقد ساعد على ترويج هذا الاعتقاد ما رآه الناس من طواف رسل من قبل ادارة البوليس في مقاطعة (كروم) بالمزارع والحقول يدونون في سجلاتهم مقادير البطاطس التالفة ، حتى كان أناس يقول بعضهم لبعض :

ـ ألم نقل لكم ؟٠٠ ان المملكة ستحمل ملاك الاراضى على تعويض الزراع عن كل مقدار فقدوه !

وبهذه الروح المتفائلة أقبل الاهلون ، بعد أن تم لهم جنى المحصول وخزنه ،على ترميم سقوف دورهم المتواضعة ، واعداد ما لديهم من دواجن للسوق فى شهر أكتوبر ٠٠ واستطاع الغزال (جليسون) أن ينسج لهم أقمشة مما جمعوا من صوف الاغنام طيلة الصيف ، وهى أقمشة كان الحائك (تونى ديلاند) يطوف بدورهم فى الوديان ليخيط منها ثيابا لهم .

وفى الحق أن هذا الموسم كان عادة أبهج أيام السنة عندهم ، ولم تستطع الآفة أن تعكر كثيرا من صفو بهجتهم هذا العام ، ايمانا منهم بأن الحكومة عاملة لا محالة على تخفيف وطأة الخسارة لديهم ٠٠ والفقراء من أمثالهم معذورون وهم لا يستطيعون أن يدققوا النظر فى أطواء المستقبل، فمتى تهيأ لهم سد حاجاتهم العاجلة فانهم لا يحفلون بما يدخر لهم من كوارث تلوح نذرها فى الافق البعيد .

ومهما يكن فان مرض (ميخائيل) كان فى بيت (كيلمارتن) أكثر من نقطة قاتمة فى الافق ٠٠ فقد أصبح يقضى أيامه جالسا فى ركن المدفأة فى مقعد من القش مدثرا الى أذنيه ، لا يتكلم الا لماما ، حتى غدت الحياة فى البيت بسببه ثقيلة ممضة ٠٠ ومن عجب أن مرضه لم ينل من شهيته أى منال ٠٠ ورغبة من الأم فى التعجيل بشفائه ، جعلت تذبح له الدجاج واحدة بعد الاخرى ، عملا بما هو متواتر من أن حساء الدجاج هو أفضل علاج لامراض الرئتين ٠٠

ثم استفاضت فى الوادى شائعة مؤداها أن مالك الاقطاعية سينزل للفلاحين عن نصف قيمة الايجار السنوى ، حتى قال قائل منهم :

ـ سيبقى لنا محصول القرطم نأكل منه هذا الشتاء ٠٠ وسيظل ثمن الخنازير فى جيوبنا نتصرف فيه كيفما نشاء .

بيد أنه حدث قبل موعد يوم السوق بأسبوع ، وهو اليوم الذى تؤدى فيه الايجارات عادة ، أن هبط الجابى على الأهلين فبدد ما راودهم من أحلام ٠٠ وكان آل (كيلمارتن) منهمكين فى دعم سقف بيتهم بالقش، حين أتاهم صوته يقول وهو واقف فى الحارة لا يكلف نفسه عناء دخول ساحة الدار :

ـ أنت يا هذا !٠٠ انى أريدك أنت يا بريان !

وكان (بريان) مقتعدا زاوية السقف الشمالية حين سمع هذا النداء ، فسرعان ما رفع يده الى قبعته وأخذ يهبط السلم على الفور وهو يبالغ فى توقير الجابى واحترامه كما فعل من قبل مع الطبيب ٠٠ وطبيعى أن يفعل العجوز هذا وقد كان الناس يخشون الجابى أكثر من خشيتهم غيره من مبعوثى الطبقة التى تحكمهم ، وكانوا يطلقون عليه كذلك اسم

(السائق) ، مذ كان من عمله أن يسوق الدواب التى يتخلف أصحابها عن أداء ما عليهم ، لتباع فى المزاد ٠٠ وهو يقوم فوق هذا بتحرير الانذارات ، والتجسس على أحوال المستأجرين لابلاغ (شادويك) وكيل المالك كل شيء عنهم ٠٠ وبرغم أن الجابى هذا كان مكروها من الناس كافة ، فانهم درجوا على أداء جعل سنوى له مصانعة له وخطبا لوده ٠٠ والويل كل الويل لمن يقصر فى هذا من المستأجرين ، اذ كانت كلمة الجابى بمثابة قانون نافذ لدى (شادويك) ، وهو فى الغالب مخمور لا يساهم بنصيب فعال فى ادارة شئون الاقطاعية ، الا أن يأخذ الايجارات ٠٠

كان الجابى هذا يدعى (سيمون هيجارتى) ، وهو ضئيل الجسم ، مقوس الساقين ، مدبب الأنف ، بارز الأسنان العليا على نحو أكسب وجهه مسحة من البلاهة كان يعمل على ابرازها وتجسيمها ، لتدرأ سوء الظن به ٠٠ وأرهب ما فيه عيناه الزرقاوان النفاذتان ، المفعمتان بآيات المكر والختل ٠٠

ولما دنا منه (بريان) قال له وهو يدفع اليه بمذكرة مكتوبة أخرجها من رزمه أوراق بين يديه :

ــ كيف يومك يا كيلمارتن ٠٠ انك تكسو السقف فيما أرى ٠٠٠ كيف حال محصول البطاطس عندك ؟

فأجاب (بريان) وهو يمسح يديه فى بنطلونه :

ــ ويومك أطيب يا سيدى ٠٠٠ انه محصول لا بأس به ٠٠٠ اهو الايجار السنوى ؟

فناوله (هيجارتى) المذكرة ورد باقى الأوراق الى جيبه قائلا :

ــ نعم ٠٠٠ هو الايجار ٠٠٠ ان هذه المذكرة أعدت خصيصا ٠٠٠ أتحب أن أقرأها لك ؟ ٠٠ هاتها ٠

وأنشأ يقرأ للعجوز ما نصه :

« على مستأجرى الارض المملوكة للميجور تومسون بمقاطعة (كروم) أن يدفعوا بمكتبى فى الثانى والعشرين من شهر أكتوبر جميع الايجارات الحاضرة والمتأخر سدادها حتى الخامس والعشرين من سبتمبر ــ والا اتخذت ضدهم اجراءات مشددة لاستيفاء الايجارات الآنفة الذكر » ٠

« امضاء : جوسلين شادويك ــ ١٠ أكتوبر سنة ١٨٤٥ »

وأعاد (هيجارتى) المذكرة الى (بريان) وبصق من فيه قشة كانت بين يديه ، ثم ثنى سوطا بين يديه ، ثم ارتكز على عقبيه وقال للعجوز وهو يتفرس فيه وقد أمال رأسه جانبا :

ــ ما رأيك الآن يا صاحبى ؟

فقال (بريان) :

ـ لا أدرى والله ··· لكن الناس كانوا يقولون ···

فقال (هيجارتى) :

ـ ما هذا الذى يقوله الناس ؟·· قل !·· تكلم !··

فراح (بريان) يقول متلعثما ·

ـ ان هذا بسبب الآفة ··· كانوا يظنون أن المتأخرات ·· أعنى من هم متأخرون فى الدفع ··

فصاح به (هيجارتى) وهو يسدد اليه سوطه مهددا متوعدا :

ـ كفى ·· هناك اناس نحن نعرفهم جيدا ، يطوفون هنا وهناك قائلين : يجب وقف الايجارات بسبب الآفة ··· ونصيحتى اليك يا (كيلمارتن) ان تعرض عن هؤلاء الناس ، ولا تلتفت الى أقوالهم ، ان كنت حريصا على مصلحتك ··· بع ما عندك من محصول القرطم وغيره مما تستطيع بيعه ·· ادفع ما عليك تسلم وتأمن كل شر ، وبغير هذا تطرد الى قارعة الطريق طردا ·· والآن طاب يومك ·

قال الجابى هذا وتابع طريقه فى الوادى وهو يصفر ويهز سوطه··

ولما رجع (بريان) الى البيت قال له (مارتن) :

ـ ماذا قال لك يا أبى ؟

فقص عليه العجوز ما كان ، فقال (مارتن) :

ـ مسكين (باتش هرنون) · ماذا يفعل الآن ؟·· ان بقرته ماتت، ولم يبق عنده خنازير ··· وقد تراكم عليه الايجار من ستة أشهر ··· ان قارعة الطريق هى مصيره المحتوم ولا ريب ·

ولما كان المساء جاءت (كيتى) زوجة (هرنون) الى بيت (كليمارتن)، وما ان حلت بالمطبخ حتى ألقت (مريلتها) فوق رأسها وجلست الى الحائط قرب الباب وراحت تندب بصوت عال قائلة :

ـ انهم حتما سيطردوننا الى عرض الطريق ·

ولكن أفراد الاسرة أقبلوا عليها يطيبون خاطرها ويعدونها بالمساعدة اذا بقى لهم شىء من ثمن الخنازير والقرطم بعد الوفاء بما عليهم من ايجار· وقد قال لها العجوز فى هذا المقام :

ـ ثقى أنى لن أترك اناسا من لحمى ودمى يطردون الى عرض الطريق ·· فلا تخافى ولا تحزنى ·

الفصل الثامن

حل يوم السوق ، فاستتيقظ آل (كليمارتن) قبل الفجر ، وأحضر (مارتن) الفرس من مربطها وأسرجها، على حين انهمكت المرأتان فى تنظيف الخنازير وغسلها بالماء الدافىء والصابون ... وبعد أن تناولوا ما تيسر من الزاد لبسوا أحسن ما عندهم من الثياب ، الا (ماجى) التى اضطرت الى البقاء فى البيت لملازمة العليل..ثم خرجوا فى موكبهم الفريد يشقون طريقهم فى الوادى بين صفوف من الناس والدواب ، حتى اذا مروا بدار (جليسون) تخلفت عنهم (مارى) لزيارة والديها ..

وكانت فى الحق أجمل دار فى الوادى كله ، وقد شعرت (مارى) لدى بلوغها بالسعادة والزهو ... فمن أمامها حديقة صغيرة نسقت فيها الازهار ، يشقها ممشى مكسو بالحصى ، ويحف بها سياج من الشجيرات المنسقة ... ومن خلفها حديقة أخرى زرعت فيها خضر منوعة ، حتى كانت هـــذه المزية الفريدة مثار العجب والحسد من أهل الوادى ، وهم لا يعرفون من الخضر غير البطاطس .

ولما دلفت (مارى) الى الدار وجدت أمها تتأهب للخروج الى السوق، بعد أن سبقها والد (مارى) وشقيقها (باتريك) بما لديهم من الخنازير التى كان النساج يربيها ، برغم أنه لم يكن يملك أرضا زراعية ، بفضل البطاطس التى كان ينالها من الزراع أجرا لما يصنعه لهم من أقمشة ..
وكانت الدار برغم ذلك نظيفة لا تنبعث منها تلك الروائح الفاسدة التى تعهدتها (مارى) فى دار أهل زوجها .

وتعانقت الام وابنتها بحرارة وذرفتا الدموع ، فانهما لم تتلاقيا منذ تزوجت (مارى) ، طبقا للقاعدة المرعية التى توجب على العروس ألا ترى أمها أو تكلمها طيلة شهر العسل ..

وكانت بين الام وابنتها مشابهة كبيرة .. نعم ان الام فى الثانية والخمسين من عمرها وقد دب المشيب الى شعرها ، غير أنها كانت هيفاء القد رشيقة العود موردة الخدين تماثل ابنتهـا فى زرقة عينيها وطول أهدابها ، وفى تلك النظرات الواجمة المنبعثة من أعماق العينين ، والتى ولدتها تلك الرحلة المروعة التى قاستها الاسرة وهى تضرب فى الارض طريدة شريدة قبلما أتيح لها المقام والرزق فى موطنها الحالى .. وكانت الام فى رصانتها وجمالها الهادىء على النقيض من زوجها القصير الثرثار ، ولعل اختلافهما فى الطباع ناجم من كونها ابنة أب انجليزى وأم ايرلندية ...

وقالت الأم لابنتها :
ـ كيف حالك يا حبيبتي في بيتك الجديد ؟

فاجابت (ماري) :

ـ لا أدري بماذا أجيب ··· انه بيت جديد ، ومن الصعب أن اعتاد الحياة فيه ·· اني أشعر بالوحشة وأنا أقيم في ذلك الوادي محرومة من كل أنس وبهجة كأني في سجن سحيق ··· انه بيت لا يزورنا فيه أحد وارهب ما فيه ذلك الشاب العليل الجالس طول نهاره قرب المدفأة مطبق الفم لا ينبس بكلمة واحدة ·

فقالت الأم :
ـ يا له من مسكين !·· مما يثير الأسى أنه كان فتى قويا جميلا يرجى منه كل خير ·

فراحت (ماري) تقول بلهجة امتزج فيها الغضب بالخجل :

ـ انني أرثي له مثلك ·· لكن ماذا سيكون مصيري ومصير (مارتن) في هذا البيت ؟·· ان (ميخائيل)يؤثر فيه بكل شيء ·· وليس معنى هذا يا أماه أني أنفس عليه ما يناله ، لكنهم أناس لا يفكرون قط في المستقبل ! ·· ان البيت سيخلو قريبا من آخر دجاجة فيه وهم يذبحونه لميخائيل تباعا !··والزبد الذي كان ينبغي بيعه بثمن طيب يقدم له بغير حساب ··· اني أعلم أن كل هذا لن يجديه نفعا ، فقد كتب الموت على وجهه بحروف يقرؤها كل انسان ·· ثم ان محصول البطاطس يوشك أن يعطب وليس لدينا سواه ·· من عجب يا أماه أنهم برغم حيازتهم للارض المزروعة لا يكادون يدخرون شيئا !·· فليس في البيت سوى جنيهات معدودة ، وما سيجنونه اليوم من نقود في السوق من بيع الخنازير والقرطم مستحق سلفا لمالك الارض وحانوت البدال ·· فلا تعجبي بعد هذا يا أماه اذا رأيتني أستسلم للقلق والتفكير !

فقالت لها الأم :

ـ ان الله رحيم يا بنيتي ·

فقالت ماري :

ـ انما يرحم الله ويعين من يعينون أنفسهم ·· انهم أناس لهم أطوار غريبة محيرة ·· فهم مثلا لا يزرعون بعض الخضر ، اشفاقا من سخرية الجيران واشمئزازهم ·· ولا هم يكلفون أنفسهم عناء اصطياد سمكة في النهر أو اقتناص أرنب في البرية ، ولو فعلوا لكان فيه غناء لهم ، ولكنهم لا يفعلون ·· وقد كاد الرجل العجوز أن يفترسني عندما اقترحت عليه مرة بناء حظيرة للخنازير أو وضع الدجاج في (الجرن) كما تفعلون أنتم هنا ·· ترى ماذا يكون المآل اذا اشتدت الآفة وزادت وطأتها ؟·· ان البطاطس هو كل طعامهم ·· ولو كان (مارتن) يتولى زمام الامر في البيت لاختلف الموقف ، غير أنه لا يفعل ، فان الرجل العجوز يسيطر عليه سيطرة مطلقة ·

فقالت الأم :

ـ أليس (مارتن) عطوفا عليك ؟

فأجابت (ماري) في غضب متزايد :

ـ بلى ، لكن ما فائدة العطف والمودة ؟٠٠ انما ينبغي له أن يظهر عجوز قوته وبأسه وينازعه السلطان والنفوذ لتصبح كلمته هي العليا٠٠ ولو أنه فعل لتهيأ لي أن أدير أمور البيت بحيث أستطيع اقتصاد ما تيسر من النقود تاهبا ليوم عبوس مطير ٠٠ ما قيمة اقتناء الانسان الارض وهو لا يستطيع أن يجعلها تغل له مالا قل أو كثر ؟٠ لقد كان الناس يعيرون أسرتنا لاننا لا نملك أرضا ، لكننا كنا ننعم بالحياة خيرا منهم ٠٠ انني لن احتمل هذه الحياة يا أماه ! ٠ ولو استمرت الامور على هذه الوتيرة فسأقول (لمارتن) : اما أن تتولى أنت تصريف الامور في هذا البيت ، واما أن تهاجر بي الى أمريكا ٠

فهتفت الأم مروعة :

ـ أمريكا ؟!٠ ما الذي أدخل هذه الفكرة المخيفة في رأسك ؟

فهتفت (ماري) بدورها :

ـ ولم لا ؟٠٠ هناك يستطيع المرء أن يثرى !

فلم تجب الام ٠٠٠ ولم تلبث (ماري) أن ذهبت الى غرفة النوم حيث عكفت على تصفيف شعرها أمام المرآة ، وكان بيتها الجديد خلوا من مثلها ٠٠ ولم تكد تفعل حتى بدت موفورة الحسن مما بعث الدموع في عيني أمها زهوا وتيها ٠٠ وأسرعت الام الى صندوقها الخاص فأخرجت منه مشطا كبيرا أعطته لماري قائلة :

ـ احتفظي به لديك يا حبيبتي ٠٠٠ أنه أكثر ملاءمة لك مني ٠٠٠ أنه مشط جاء به أبي من أسبانيا وقدمه هدية لامي ٠٠٠ بارك الله فيك يا بنيتي ورعاك ٠

وعقدت (ماري) شعرها على الطريقة الاسبانية حتى غدت وقد رشقت المشط الكبير في قمة الشعر الذهبي أشبه بكرائم السيدات ٠٠

وفجأة سمعت أمها تنتحب من خلفها ، فاستدارت اليها قائلة :

ـ ماذا جرى يا أماه ؟

فأجابت الأم :

ـ لا شيء يا حبيبتي ٠٠٠ انني لسعيدة برؤيتك في هذه الصورة الفاتنة ٠٠ وكم تمنيت لو أتيح لاختك (ايلي) أن تحيا حياة مستقرة مثلك ٠

فقالت (ماري) وقد انحسرت عن محياها اشراقة السعادة :

ـ (ايلي) ؟ ماذا بها ؟

فأجابت الأم :

ـ لا أعلم ··· انني بدأت أقلق عليها ··· ان طباعها تغيرت منذ أن ذهبت الى ذلك القصر الذى تعمل فيه ·

ـ وعلى أى صورة تغيرت ؟

ـ هل تذكرين كيف كانت (ايلى) ضاحكة سعيدة ؟·· لقد تغيرت الآن وانحازت الى الصمت المطبق ··· انها كنت عندنا يوم الاحد الماضى ، وقد ثارت فى وجهى عندما أخذت أسائلها فيما أصبح الناس يتقولون به ·

ـ وما الذى يتقول به الناس ؟

ـ أعنى عنها وعن مستر شادويك ··

ـ أهذا هو السر اذن ؟ ·· وهل يعرف أبى أو (باتريك) شيئا عن هذا الموضوع ؟

ـ (باتريك) يعرف ، أما أبوك فهو منصرف الى السياسة ، لعنة الله عليها ··· وكل ما أخشاه هو أن يثور (باتريك) فى وجهها ويعمل على تفاقم الموقف اذا هو صادفها فى السوق ··· ان أخاك حاد الطبع ، وربما اندفع الى حد الاعتداء على مستر (شادويك) نفسه ·· كم تمنيت لو أن أختك تركت خدمة هذا القصر !··

فقالت (مارى) :

ـ أهذا هو الموقف اذن ؟ ·· اننى سأعالجها بما يجب ··

فقالت الأم :

ـ حاذرى يا بنيتى ··· ان الاستسلام للغضب لن يفيد ··· اننا نعيش فى أوقات عصيبة ، ومستر (شادويك) رجل غريب الاطوار ·· ليغفر لى الله اذ كنت السبب فى آلتحاقها بذلك القصر ·

وجلست الأم فوق الفراش وأنشأت تبكى وتولول ··· فطوقتها (مارى)بساعديها وراحت تسرى عنها قائلة :

ـ لا تتكدرى يا أماه ··· سأكلم أختى (ايلى) ··· ربما كان ما سمعته وشاية حاسد موتور ··· هلمى بنا ··· ضعى حرملتك ولنذهب الى السوق ·

وهكذا خرجت الام وابنتها الى سوق القرية على مسيرة نحو ميل من البيت ، فى طرقات منحدرة تتناثر حولها المساكن الصغيرة ، وأبرز ما فيها « كروم هاوس » ذلك القصر القائم العتيق المتاخم للبحيرة الصغيرة، تحف به الاشجار الجرداء ويحوطه سور خرب ··

الفصل التاسع

مرت الام وابنتها في طريقهما الى القرية بمدخل القصر ، ولمصادفتنا القس (كوبرون) البروتستانتي بادرته الام بتحية الصباح ، فرد القس بعبارة مبهمة وهو يبتسم ابتسامة مبتسرة ، ومضى في طريقه داخل سوز القصر ... والحق أنه لم يعرفهما برغم عطفه وزوجته على أسرة (جليسون) هذه ورعايتهما لها منذ حلول الاسرة بالمقاطعة ، وقد تجلت هذه الرعاية في منح الاسرة الطريدة الشريدة قطعة من الارض البور تبتني فوقها دارا ، وامدادها بعد ذلك بالطعام والكساء وما تيسر من المال لتقوم على قدميها ... أجل !.. لقد كان القس رجلا غريب الاطوار ، وقد انحاز بمشاعره من أول يوم الى النساج ذي الجلد الخشن ، بيد أنه بدا اليوم مستغرقا في أفكاره ، فلم يتذكر أصدقاءه القدماء .

كان القس ناحلا واهي البنية في الخامسة والستين من عمره ، شاحب الوجه ، رقيق التقاطيع ... وقد ولد في (دبلن) من أبوين انجليزيين ، ولكنه قضى أكثر سني حياته في مقاطعة (كروم) منذ أن اتخذ الكهنوت مهنة ، فلم يفارقها إلا مرات قلائل لزيارة البقية الباقية من ذوي قرابته المقيمين في لندن ...

وكانت واجباته كقس يسيرةمحدودة تبعا لقلة عدد المعتنقين للمذهب البروتستانتي في المقاطعة ، اذ كانوا لا يتجاوزون الخمسين ، من عدد السكان البالغ وقت ذاك زهاء خمسة آلاف نسمة ... ولكنه برغم هذه القلة العددية كان يعتمد في مباشرته لواجباته الدينيه على التبرعات والعشور التي كانت تجبى قسرا من سواد الاهلين الكاثوليك ــ أولئك الذين كانوا يمقتونه كواحد من أفراد الطبقة المحتلة الحاكمة التي تسومهم الظلم والجور ... وكان من أثر شعور القس بمقت الناس له والتواء السبيل أمامه ، أن فقدت ملامحه ما كان يطبعها من امارات البساطة والسماحة ، وبدا في صورة القلق السيء الظن بالناس والاشياء .. بل ان انقطاع الصلة بينه وبين المثقفين من الناس ، وهو يتقلب في بيئة جافية غير مصقولة المشاعر قوامها الموظفون وأعيان الناحية ، وبحكم اعتزاله سواد الاهلين من الخوارج على مذهبه البروتستانتي ــ كل ذلك قد أفضى به الى أن يصبح مخلوقا شاذا أقرب الى الخبال منه الى السداد والاتزان .

وفي هذا اليوم نراه وقد انحاز الى النشاط والرغبة في خدمة مجتمعه بعد أن تلقى رسالة جاءته من ميناء (كلوجر) في مركبة البريد ، فقرر أن يقصد من فوره للقاء (شادويك) ، كي يحدثه في الموضوع ... والواقع أن القس كان يعتوره بين الفينة والفينة هذا التصميم المفاجيء لاداء واجبه

كرجل من رجال الدين ، وان كانت هذه النوبة الطارئة لا تلازمه ٠٠٠ أما اليوم فان الموضوع الذى دارت حوله الرسالة ، وهوموضوع الآفة التى حلت بمحصـول البطـاطس قد بدا له موضوع الساعة وعليـه أن يواجهه بالمبادرة الى العمل والعلاج ٠٠

بهذا الروح دلف القس الى القصر ، فاذا هو مبنى عتيق كالح مغبر كأنه قائم فى مهب الاعاصير الهوج والامواج المصطخبة على حافة المحيط ، وقد تجردت نوافذه من الستر ، وانحسر الطلاء عن بابه المفتوح ، وتشققت العمد القائمة فى مدخله ، وعاثت يد الاهمال فى حديقته حتى استحالت الى رقعة تناثرت فيها الحشائش واختلطت بروث الدواب التى كان بعضها وقتئذ يسرح فيها طليقا ٠٠

وشاهد القس الى يساره نفرا من الناس وقفوا قرب حافة بركة فى الحديقة يشـاهدون جوادا يركض حول البركة امتطاه رجـل مخبول كان ذيل سترته يموج فى الهواء ، وقد أقيمت فى طريق الجواد حواجـز كلما تخطاها صاح المتفرجون وهللوا فقابلهم الراكب بتلويح قبعته فى الهواء حتى لم يتمالك القس ازاء هذا المشهد الغريب أن هتف وهو يدلف الى باب القصر الداخلى :

ــ عجبا أى عجب ! ٠٠ هذه فوضى ما لها مثيل !

ومضى القس الى البهو بعد أن جذب الجرس مرة وهو يعلم بالتجربة أنها محاولة فاشلة ، فاستقبلته رائحة عطنة شاعت فى ارجاء البهو المجرد من كل أثاث ٠٠ وما لبث القس أن شاهد رجلا يهرول فى ممشى موصل الى المطبخ وهو يرتدى سترته ، ولما سأله (كوبرن) عن سـيده أجابه فى قحة :

ــ انه فى الفراش يا سيدى ، وقد أرسلنا اليه فطوره منذ قليل ٠

ثم اندفع يجتاز البهو وهو يقول :

ــ يمكنك أن تصعد اليه ٠

وصاح الرجل صيحة مدوية وهو ينطلق الى ناحية البحيرة حيث كان الجواد يدور براكبه مجتازا تلك الحواجز التى أقيمت فى طريقه ، وترك القس يرتقى الدرج وهو يردد عباراته السالفة عن الفوضى الضاربة أطنابها حوله ٠

كان هذا القصر مقرا لآل (تومسون) ملاك الاقطاعية ، أقاموا فيه أجيالا تحوطهم مظاهر الابهة والجـاه العريض ، حتى اذا كان عام ١٨٠٠ عندما صدر قانون الاتحـاد مع انجلترا ، انتقل أفراد الاسرة الى لنـدن للاقامة بها ، أسوة بأكثر الاعيـان الارلنديين ٠٠ ومنذ ذلك الحـين وهم لايزورون (قصر كروم) هذا الا لماما ، وخاصة قبـل موعـد الانتخابات العـامة اذ يسوقون المسـتأجرين سـوقا الى المراكز الانتخـابية لمنحهم أصواتهم ٠٠٠ فلما تغيرت الظروف بعد ثورة الزعيم (أوكرنيل) وأخذ

الفلاحون يؤثرون المرشحين الوطنيين باصواتهم ،هجر آل (تومسون) القصر نهائيا حتى استحال الى شبه أطلال ٠٠ وفى غضون الثلاثين عاما الاخيرة انتقل الاشراف على الاقطاعيــة الى أيدى الوكلاء الذين لم يكونوا يقيمون بها طويلا لضعف الاسباب التى تربطهم بها ، وقــد اتخذوا من هذا القصر مقاما لهم ٠٠

هذا ، ولما وصل القس الطابق الاول سار فى دهليز قاتم حتى بلغ بابا فى نهايته فطرقه ، فصاح به صوت من الداخل يقول صاحبه :

كيف وجدت الحصان ياريلى ؟٠٠ ادخل يا مغفل !

واذ دلف (كوبيرون) الى الداخل تلقته ضحكة رنانة ، وقال المتكلم :

ــ معــذرة ٠٠٠ انى حســبتك (ريــلى) !٠٠ صــباح الخــير يا (كوبيرن) !

فغمغم القس وهو يوصد الباب خلفه :

ــ العفو !

كان (شادويك) جالسا فى سرير كبير ذى أربعة عمد تعــلوه كلة مزدانة ، متكئا الى الوسائد ٠٠ والى جانب السرير خوان فوقه دجاجة وخبز وخمر ، وقد أمسك (شــادويك) بيده كأســا مترعة ٠٠٠ وكان مظهره أدعى الى الغرابة وهو بقلنسوته الزرقاء ذات الزر الاحمر الطويل ، التى تشبه فى حمرتها شعره ووجهه٠ولعل أسوأ ما فيه عيناه العسليتان اللتان يطل الشرر منهما تحت حاجبين دبأليهما المشيب، حتى كان مشهده وهو بهذه السمات جميعا نابيا عن كل انسجام ٠٠ وكان أشد من كل أولئك تنافرا أن القاعة التى احتلها كانت رحبــة كثيرة الهواء مجردة الا من أيسر الاثاث ، بنافذتها فجوة سدت بالورق ٠٠

وما لبث (شادويك) أن وضع كأسه وراح ينفخ فى راحتى يديه المقوستين قائلا :

ــ أتشعر بالبرد هنا ؟ ٠٠ اننى مسرور برؤيتك عندى ، والحق أنى كنت أتمنى أن يزورنى أحد ٠٠ ومع أنى كنت أتوقع أن يكون القادم هو (ريلى) فمن دواعى سرورى أنك أنت الطارق ٠٠٠ هل لك فى كأس من الشراب ؟ ٠٠ ما هذا ؟ ٠٠ سحقا لفتحة النافذة هذه ! ٠٠ رحماك ربى ، أشتاء آخر ؟! اننى هالك حتما قبل انتهائه !٠٠٠ لكن لا بأس ٠٠٠ متى تم تحصيل الايجارات فانى مرتحل الى حين ٠٠ هلا جلست ؟

ولكن القس أبى أن يجلس فى المقعــد الحقــير الذى كان كل ما فى القاعة من مقاعد ، فمد (شادويك) يده الى حبل الجرس المجاور للسرير ، ولما أخطأه سب وصخب وطلب الى القس أن يجذبه له ؛ فلمــا فعل دعاه (شادويك) مرة أخرى الى الجلوس قائلا :

ــ ما وراءك من الانباء ؟٠٠ ان كنت جئتنى تطلب مالا للمساكين ، فليس لدى ٠٠

فقاطعه (كوبرن) قائلا في حدة :

ـ انى ما جئت أطلب مالا ، فانى أمقت المـــال ، انما جئت لشيء آخر •

فقال (شادويك) وهو يضج بالضحك ويتلوى فى الفراش :

ـ وأنا مثلك فى كره المال !

وانتفض فى الفراش فجأة وتجرع كأسه حتى الثمالة ، ثم ملأها من جديد قائلا :

ـ هل لك فى كأس معى ؟ •• تبا لتلك الفتـــاة ! لماذا تبـــاطأت فى تلبية دقات الجرس ؟ •• لعله كسر ! •• كم أتمنى لو أنى لم أضطلع بمهام العمل فى هذه الاقطاعية ! •• انظر يا (كوبيرون) وصارحنى •• كم تقدر سنى ؟

فأجاب القس ببرود :

ـ انك ما زلت فى ريعان سنك ، اذا عرفت كيف تعنى بصحتك •

فابتسم (شادويك) بخبث ، وجعل يرتشف كأسه متمهلا وقد هز منكبيه تلك الهزة المأثورة عن مدمنى الخمر ، وما لبث أن تملكه الوجـوم فجأة وقال :

ـ محض هراء •• اننى شخص محطم ولما أجاوز الخامسة والاربعين! هذه حياة تعسة تلك التى أحياها !•• لقد أصبحت شخصا آخر غير الذى كنته عند ما جئت الى هنا منذ خمسة أعوام !•• والآن قـــد تقطعت بى الاسباب ، ولم تعد لى وجهة أخرى أولى وجهى شـــطرها !•• ان (مارك تومسون) هو أفضل الناس ، وقد أراد بى خيرا عندما جعلنى وكيلا له على هذه الاقطاعية ؛ تقديرا منه لروابط الزمالة التى جمعتنـــا فى الخـدمة العســكرية ؛ وشفقة بى بعد أن فقـــدت أملاكى •• لكن انظـــر الآن يا (كوبيرون) ما فعلته بى هذه الاقطاعية اللعينة !•• لقد صيرتنى سكيرا مدمنا !•• انها مكان لا يصلح لانجليزى مثلى ؟•• هلا جلست على حافة الفراش وتناولت كأسا من الشراب ؟•• أجل !• اننى سكير مدمن ، قضى عليه بالعزلة بين قوم متوحشين صخابين •• لو كنت مكانى يا (كوبرن) لما واتتك الشجاعة لمواجهة موقفى هذا وأنا بلا زوجة ، ولا أبناء ، ولا رجاء لى فى شيء !•• تكلم يا (كوبرن) وقل ما كنت تفعل لوكنت مكانى!•• أكنت تنتحر ، أم تهرب الى المستعمرات ؟

فأجاب (كوبرن) :

ـ أننى قطعا ما كنت أسعى الى الانتحار بالافراط فى السكر حتى الموت •

فجعل (شادويك) يحدج القس برهة بنظرات يتجلى فيهـــا المقت والنفور ، وما لبث أن ضج بالضحك العنيف ، ثم مال على جانبه ومـــد

ساقيه وتثاءب وأغمض عينيه ٠٠ ولما فتحهما عمد الى كأسه فأفرغها فى جوفه حتى الثمالة وحاول أن يتجشأ ثم قال :

ـ الغازات !٠٠ انها تهلكنى ٠ ما هذا الذى بيدك يا فتاة ؟ ٠٠٠ أدخلى ! ٠٠

فقد طرق الباب وقتئذ ، وعندما بسط القس الرسالة التى جاء بها لكى يتحدث فى الغاية من زيارته ، دخلت (ايلى جليسون) فى تلك اللحظة استجابة لصيحة (شادويك) ٠٠ فما كاد الرجل يبصرها حتى لمعت عيناه وركز نظراته ودفع رأسه الى الامام على نحو ما يفعل الحيوان عند ما يشهد أنثاه ٠٠٠ والواقع أن (ايلى) كانت فى مثل ملاحة أختها (مارى) ، ولكن من النوع السوقى الرخيص ٠٠ وكانت تكبرها بعام ، وقد بدا محياها يفقد نضارته ، ولاحت امارات التبذل فى شـفتيها الحمراوين المليئتين وعينيها الواسعتين ٠٠٠ وكانت الى هذا تمتاز بشعر ذهبى جميل ؛ وقوام بديع التناسق والتكوين ، ورشاقة موفورة فى حركتها ٠٠ وقالت أخـيرا وقد وقفت بين الباب والسرير مواجهة مخدومها فى جرأة :

ـ هل طلبتنى يا سيدى ؟

والحق أن نظرات الجرأة والاعتداد التى كانت ترسلها اليـه دلت بجلاء على أن بين الاثنين روابط خاصة وثيقه ٠٠ وما لبث (شادويك) أن قال لها :

ـ احضرى كأسا للسيد (كوبيرن) ٠

فاستدارت وخرجت دون كلمة ، تتبعها نظرات (كوبيرن) ٠٠ أما (شادويك) فقد قال لزائره :

ـ والآن ٠٠ أرى معك رسالة ٠٠ أهى من سيدة ؟٠

فأجاب القس فى لهجة أقرب الى الصرامة :

ـ انها من مستر كامبل فوستر ٠

ـ وما موضوعها ؟

ـ انها عن آفة محصول البطاطس ٠٠ هل أقرؤها ؟٠

فقال (شادويك) :

ـ البطاطس !٠٠ انى أكره هذا اللون من الخضر ٠٠ اقرأ ٠٠ ماذا يريد فى رسالته ؟٠٠

فسعل القس وأنشأ يتلو الرسالة تلاوة متعثرة لانطماس خطها فى بعض المواضع حتى ذهب يغمغم فى تلاوته مما جعل كلامه يكاد يكون غير مفهوم ٠٠ ولكن جوهر الرسالة كان يدور حول اقتراح أدلى به مسـتر (فوستر) ، لمناسبة ما يخشاه على تلك البطاطس المخزونة فى الحفر الأرضية

مؤداه اقامة ممرات للتهوية تحت الحفر ، وتغطية المنـــافذ على نحو يدرا الصقيع والمطر عن المحصول المختزن ..

وعند هذا الحد ، عادت (ايلى) تحمل الكأس ، فنظر القس اليهــا ثم تابع تلاوة الرسالة فى حمية ، مبينا اقتراح كاتبها قيام نوع من الاكتتاب بين المقاطعات وتشكيل لجان من وجوه رجالها للاضطلاع بهذه المهمة ، وكذلك لشراء مقادير كبيرة من حبوب القرطم تختزن حتى الربيع والصيف ثم يصير توزيعها بالتجزئة على جميع المستهلكين ، توفيرا للقوت ، وتخفيفا للضائقة ..

واسترعى نظر القس وهو ماض فى تلاوته أن (شادويك) غير مصغ اليه ، فلما نبهه الى ذلك غاضبا اعتدل الرجل فى مضجعه وحملق فيـــه فاغر الفم قائلا :

ـ ماذا تقول ؟.. آه انها الرسالة !.. من هو كاتبها ؟ وما مضمونها؟

فلم يتمالك القس أن هتف مهتاجا :

ـ انها عن المجاعة !..

فقال (شادويك) :

ـ المجاعة ؟.. ماذا تقصد ؟.. لعلك تمزح ؟.. اليك كأسا أخرى

فهتف القس مرة أخرى :

ـ ليس هذا مزاحا .. ان (فوستر كامبل) خبير فى هذه المسائل ... انه يذكر فى رسالته .. هلا أصغيت الى ؟.

ـ قل ما عندك .. انني مصغ اليك ..

فتابع القس قراءة الرسالة قائلا :

ـ « ... وفى يقينى الراسخ أن التهاون والجمود وروح العـداء الفاشية فى صفوف الشعب الارلندى ، ستؤدى جميعا الى مضاعفات خطيرة، ما لم تبادر الحكومة الى اتخاذ هذه الاجراءات أو ما يماثلهـــا ، لرعاية الشعب والتخفيف عنه .. بل انى أعلم من طباع الاهلين ما أوقن معه أنهم لن يحركوا ساكنا حتى تطبق عليهم المجاعة وتأخذ بخناقهم » .

فقال (شادويك) :

ـ بديع جدا .. على الحكومة أن تبادر الى القيام بواجبها ، كما يقول كاتب الرسالة !.. ما الذى يعنينى من هذا الامر ؟.

فأجاب (كوبيرن) :

ـ بوسعك أن تشرح للناس تفاصيل هذه الخطط التى يشير بهــا مستر (فوستر) أو تعهد الى وكيلك (هيجارتى) باذاعتها بينهم !

فقال (شادويك) :

ـ لن يكون هذا حتى أرى هؤلاء الاوغاد فى قرار الجحيم ٠٠ ان المحامي (رتشارد) زارني منذ أيام للتحدث في مسألة الديون الكثيرة التي أصبحت الاقطاعية مثقلة بها ، وهو يعرف أحوال هذه البلاد معرفة الخبير ؛ وقد أخبرني في سياق الحديث ان المجاملة ظاهرة معهودة هنا ، تتكرر دوريا منذ عام ١٧٤١ ، وسببها كما تعرف راجع الى أن الاهلين الكسالى يعتمدون على محصول البطاطس وحده ٠

فراح (كوبيرن) يقول :

ـ لكن هذا ليس سببا لكى ٠٠٠

غير أن (شادويك) قاطعه وهو يقدم اليه الكأس قائلا :

ـ محض هراء ٠٠ نخب صحتك !٠٠ ألا ترى وجهة نظرى ؟٠٠ انه نبات كبير الحجم ، محدود التغذية ، يتعذر خزنه من سنة الى أخرى ٠٠ ان ارلندا بلد زراعى كما قال (رتشارد) ، وسكانها يتزايدون بسرعة ، ومع ان الحكومة شجعتهم على زراعة القمح ، ورصدت لذلك اعانات طيبة، فانهم ما زالوا يفضلون زراعة البطاطس ٠٠ فليس لك أن تنحى على باللائمة يا سيد (كوبيرن) اذا رأيتهم يموتون جوعا ٠٠ ان هذا ليس من شأنى ، ولا هو يعنينى فى شيء ٠٠ لقد سمح (تومسون) الأب لهؤلاء الاوغاد الافاقين النازحين من كل صقع باحتلال أرضه ، فانتشروا فى أرجائها ، وتكاثروا فيها كالارانب ٠٠ ورجال الدين يشجعونهم على الزواج والتوالد، لتكثر حصيلتهم من العشور ٠٠ انما يعنينى من أمورهم شيء واحد ، هو أن يوفوا ما عليهم من ايجارات مستحقة ٠

فقال له القس :

ـ لكنهم كائنات آدمية على الاقل ٠٠ ولن يضيرك فى شيء أن تعهد الى وكيلك (هيجارتى) بتفهيمهم تفاصيل المشروع المقترح لتهوية المحصول المختزن في جوف الارض ٠

فقال (شادويك) مغضبا :

ـ ولم لا تضطلع أنت بهذه المهمة ؟٠٠ أراك تتكلم وكأنى أنا الملوم لما قد يصيبهم ، وما أنا فى الواقع الا خادم مالك الارض ولا تعدو مهمتى تحصيل الايجارات وطرد المتخلفين عن الدفع !٠٠ أما أنت فانك تستمد مادة وجودك منهم ٠٠ انهم يؤدون لك العشور من المحصول ولك نصيب مفروض من الايجار فلم لا تتولى هذا العمل ؟٠

فلوح القس بيده محتدما ، وهتف قائلا :

ـ ثق أنى ما كنت أتوانى عن هذا لو تهيأت لى السلطة اللازمة ٠٠ لكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ ٠٠ اننى لو طفت بين الناس ناصحا مرشدا لاتهمنى قساوستهم الكاثوليك بالسعى لاستمالتهم الى المذهب البروتستانتى

كفاني ما أنا مستهدف له من المتاعب بسبب المساعدات الخيرية المحدودة التي يتاح لي اسداؤها ٠٠ فأنا لم ألجأ اليه تكاسلا مني ولا توانيا !

فرد (شادويك) قائلا :

ـ بديع اذن ٠٠ انني لن أدعك تحاضرني عن القحط والمجـــاعات وترشدني الى ما ينبغي لي حيال هؤلاء الفلاحين المناكيد ٠٠ دعهم يموتون جوعا !٠٠ هذا حل موفق للقضاء عليهم والخلاص منهم ٠٠أنت تعرف أنهم يكرهوننا معشر الانجليز ، ولا يترددون في اقتناصنا بالرصـــــاص اذا واتتهم الشجاعة والمقدرة ٠٠ فما الذى يحملنا على مساعدتهم ؟٠٠ ليهلكوا اذن وليبيدوا ! ٠٠ ان البلاد تضيق بالملايين منهم دون حاجة اليهم ولا نفع منهم ٠٠ انهم منحوا ما منحوا من الارض ليدلوا بأصواتهم في الانتخابات، وقد رأيتهم تنكروا لنا وآثروا بأصواتهم زعيمهم (أوكونيل) ٠٠ والآن ها هم أولاء يستغلون هذه الآفة التي حلت بالمحصول كذريعة للتملص عن الوفاء بالايجارات المستحقة ! ٠٠ من الطارق ؟٠

وتكرر الطرق على الباب ، وقال قائل :

ـ أنا (ريلي) يا صاحب السيادة ٠

ودلف الى القاعة رجل نحيل أخذ يدنو من الفراش على أطـــــراف أصابعه ، وكان بادي الانفعال يعلو الزبد شفتيه وقد لمعت عيناه وجعل يلوي قبعته بين يديه وما أن بلغ الفراش حتى راح يقول بصوت خفيض :

ـ هو أعجوبة يا صاحب السيادة !٠٠انه يثب كالطير !٠٠ولا يتعب أبدا ٠٠ اني لم أشهد له مثيلا قط !٠٠

فبرقت عينا (شادويك) حبورا وهمس بدوره لاهثا منفعلا :

ـ أهو جواد أصيل حقا ؟

ـ ليس في المقاطعة كلها جواد يدانيه في سرعته ٠٠؟

ـ تبارك الخلاق !٠٠ سأنزل لامتطائه ٠٠

قال (شادويك) هذا وقد وثب من فراشه وأردف يقول :

ـ ان لم يكن كما وصـــــفته فسأكسر رقبتك !٠٠ جئني ببنطلون الركوب ! خذ كأسا أخرى يا (كوبرن) ٠

فقال القس :

ـ يمكن أن أذكرك مرة أخرى ، لتطلب الى وكيلك (هيجارتي) أن ٠٠

فقاطعه (شادويك) قائلا وهو يرتدي البنطلون :

ـ دع هذا الآن يا (كوبرن) ٠٠ ليس هذا وقت الكلام في موضوع البطاطس ٠

فلم يسع (كوبرن) الا أن يرشف الكأس ولسان حاله يقول :

ـ ان مخالطة الاوشاب تفسد المثل العليا ٠٠ من الخير لي أن أنفض يدي منهم جميعا ٠٠ ان ما أستطيع فعله قليل محدود ، لكن الافضل أن أضطلع بهذا القليل وحدي !٠

الفصل العاشر

كانت السوق فى أوج نشاطها ، وقد اكتظ الطريق الرئيسى فى بلدة (كروم) بالناس والدواب ٠٠ وبرغم هبـــوب ريح جافة باردة من ناحية الجبال الشاهقة التى رقدت القرية فى أحضانها ، فقدكانت الروائح الكريهة تنبعث من روث الدواب وبولها تفوح فى كل أرجاء الطريق ٠٠٠ وامتدت أكشاك الباعة على جانبى الشارع تزحمه ، وتعالى الصياح هنـــا وهناك ، ووقفت ثلة من رجال البوليس أمام مبنى من ثلاثة طوابق ترقب هذه الجموع المائجة بنظرات عدائية ٠

وكان متجر (جون هاينز) والفندق الملاصق له هما مركز الحركة والنشاط فى هذا اليوم ٠٠ وقد ولد (جون) هذا فى (الوادى الاسود) حيث امتلك أبوه رقعة الارض البور التى سمحت الحكومة الانجليزية عام ١٧٤٢ للفلاحين الارلنديين المعدمين بامتلاكها على حوافى المستنقعات وقرب سفوح الجبال ، ولكن الأب ما لبث أن لقى حتفه قتلا بأيدى أفـــراد من الجمعيات السرية الوطنية لما لوحظ من اتصاله بالسلطاتالحاكمةووشايته بمواطنيه ، وقد انتهى الامر باعدام اثنين من الاهلين قصاصـــــا لمقتله ، واضطرار أرملته وأبنائها الثلاثة الى الهجرة من (الوادى الاسود) أمام عداء الاهلين لهم ٠٠

وفى ذلك الحين كان (مارك تومسون) ــ والد مالك الاقطاعيـــة الحالى ــ أحد القضاة الذين حوكم القتلة أمامهم ، فأخـــذته الشفقة على الارملة ، حتى منحها كوخا تقيم فيه فى الحى الكاثوليكى ببلدة كروم ، ومبلغا من المال تنشىء به حانوتا ٠٠ فقد كانت البلدة اذ ذاك منقســـمة قسمين ، القسم الانجليزى المجاور لقصر المالك ويحتله أبنـــــاء المذهب البروتستانتى من الانجليز والضباط والتجار وتابعى القصر ، والقســـم الارلندى ويقطنه المواطنون الكاثوليك وهم يتقلبون فى الفاقة ويعيشون فى مبان أقرب الى جحور ٠٠ وفى أحد هذه الجحور أنشأت الارملة حانوتها وأخذت تكد وتكدح بمساعدة ولدها (جون) الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره ، وابنتها (جوليا) التى كانت تكبره بعام ٠٠ ٠٠ وكان الاثنان يجوبان الاقليم وبرفقتهما حمار اشترته الأرملة بفضلة مالها ، يبيعـــان الاهلين سلعا زهيدة فى مقابل البيض والزبدة والملابس العتيقة ، وكان الفتى يستدر عطف الناس بيده المشلولة منذ طفولته حتى كفوا عن صب نقمتهم عليه وعلى أخته وتناهوا عن أخذ الابناء بجريرة الآباء ، وهـــكذا ازدهرت تجارتهم ٠

وقد توفيت الأرملة عند ما بلغ (جون) الثامنة عشرة ، وفى العام التالى نزح أخوه الاصغر الى أمريكا حيث وقع فى الأسر وهو فى عرض

المحيط وأكره على العمل في البحرية الانجليزية فلقى حتفه في الحـــرب ضد (نابليون بونابرت) ..

وكذلك بقى (جون) و (جوليا) وحيدين فى الحياة ، بيد أنهما تابعا تجارتهما الرابحة فى جهد ودأب متصلين .. ولم يلبث (جون) وهو فى الثلاثين من عمره ان تزوج (لويزا هيجارتي) شقيقة الرجـــل الذى رأيناه يشغل وظيفه الجابى عند مالك الاقطاعيه،وقد جاءته الزوجه بميراث آل اليها من قريب لها فى امريكا مما هيأ له أن يضاعف تجارته ، فانتقل الى متجر احسن موقعا ، وحاز رخصة لبيع الخمر .. بل انه استطاع ان يخمد عداوة الاهلين له ولاسرته بالمساهمه فى الحركة الوطنية تحت زعامة (أوكونيل) . وان كانت دوافعه الى ذلك نفعية أكثر منهـا وطنيـــة ، وخصوصا حين ألفى الحركه قائمة على أسباب اقتصاديه غايتهـا تقوية صغار التجارالكاثوليك ضد منافسيهم البروتستانت .. وقد أثمرت هذه المساهمة من جانب (جون) اقبال الناس على معاملته وانصرافهم عن معاملة منافسه الانجليزى (ريدر) .

وفى خلال الثلاثين عاما التى تعاقبت منذ زواج (جـــون هاينز) استطاع أن يزيد فى نفوذه ويضاعف من ثرائه تبعا لتطور حركة ابنـاء الطبقة التى ينتمى اليها فى ارلندا كلها تحت زعامة الثـــورى الكبير (أوكونيل) .. كما استطاع المواطنون الكاثوليك فى تلك الحقبـــة أن يزحفوا من جحورهم فى الحى الغربى من بلدة (كروم) ويتغلغلوا حتى مشارف الحى البروتستانتى ، وتهيأ لهاينز أن يحتل دارى (ريدر)التاجر الانجليزى ويقيم فيهما متجرا وفندقا .. وفضلا عن ذلك قد أصبح ولده الاصغر طبيب البلدة ، وبقى ولده الاكبر يعاونه فى ادارة المتجر .. وكانت له بنتان دخلت احداهما الدير ، وتولت الثانية الاشراف على أمور الفندق، تعاونها أخته (جوليا) التى بدأت الكفاح معه ، فى شئون الطهى .. وقصارى القول أن (جون هاينز) قد استطاع بهذه الجهود جميعا أن يصبح أقوى شخصية فى المقاطعة كلها ، بعد مالك الاقطاعية ...

ونراه يوم السوق هذا وقد وقف فى المتجر خلف الحاجز يقرأ من سجل بين يديه ما بقى لكل فلاح من ثمن حبوب القرطم التى اشتراها منه (جون) والتى كان يكدسها فى المخزن الخاص داخل المتجر .. ووقفت زوجته الى جانبه تناول النقود لاصحابها ممن تجمهروا فى الناحيةالاخرى من الحاجز .

وفى الحق ان (جون هاينز) كان يبدو أكثر من رجـل فى الستين بتأثير ما عانى فى طفولته من شدائد .. وكان طويل القامة نحيل الجسم مقوس الهامة عليه سمات البخيل الشحيح ، تختفى تحت قبعته الرحبة عينان ضيقتان تنضحان بالمكر والجفاء والريبة ، وقد شحبت وجنتـاه وتقوس أنفه ، ولولا قميصه الابيض المشدود وربطة عنقه السوداء لكان فى زيه أقرب الى الرثاثة ...

وفى هذا الوقت كان (هاينز) مستهدفا لحملة شـــديدة سببها اعتراض (هرنون) وزوجته على القيمة التى قدمت لهما ثمنا لما باعاه من قرطم •• وكانت (كيتى) زوجة (هرنون) تمت بصلة قرابة بعيـــدة لهاينز ، فكان (هرنون) يطمع تبعا لهذه القرابة فى معـــاملة أكرم ، وخصوصا أنه الرجل الدائم التذمر والشكوى من الزمن حتى اســتحال تذمره الى عقدة نفسية ، جعلته يعد نفسه ضحية لدهره الجائر •••

ولم يلبث (هاينز) ان قال له وهو يحدجه خلسة من تحت حافة قبعته .

ــ كيف يمكن أن أنقدك الثمن الذى تريد ؟ ألا تقنع بالسعر الذى أتعامل به مع الجميع ؟ •

فصاح (هرنون) قائلا وهو يلوح بيديه الى ناحية الجمهور المحتشد على الجانبين :

ــ أو تحسبهم قانعين حقا؟•• اسمع رأيى الصريح يا(جون هاينز)!•• ان السعر الذى حددته ما هو الا سرقة سافرة !

وهنا تدخلت زوجته (كيتى) قائلة له :

ــ انك تشهر بنفسك أمام الناس يا (باتش) ••• هات ما نستحق من الثمن يا مستر هاينز •

فقال (هرنون) وهو يبصق على الأرض :

ــ أنا لا أخاف أحدا !••• لو أن الناس كانوا فى مثل شجاعتى لما ارتضوا هذه السرقة !••• لكن ماذا يستطيع رجل واحد أن يفعل ؟••• خذوا الحبوب حراما وسحتا !•••

وتجمع الناس حول (هرنون) يهدئون ثائرته ويطيبون خاطره ، منهم العجوز (بريان كيلمارتن) والد زوجته و(تومسى) السكير و (تومى) زوج (نابا) ابنة العجوز الثانية ••• ولما ابتعدوا به الى أقصى المتجر حيث يباع الشراب راح يقول لهم :

ــ لن أسكت حتى أنال حقوقى ! ••• سيأتى اليوم الذى يحصل فيه الفقير على حقه كاملا ! ••• قريبا ستزول دولة الملاك والنهـــابين السلابين الذين يمتصون دماء الشعب الارلندى ويسمنون على أكتافه !

ولكن زوجته تخلفت لأخذ حقها • وما كان أقله وهما مدينان للمتجر بالكثير•• بل ان ما بقى لهما لم يكف لشراء قدر السمك المملح الذى أرادت شراءه ليكون منه مئونة الشتاء ••

ولم يلبث (هاينز) أن سرح بصره فى الموجودين بالمتجر قائلا بصوت أقرب الى نحيب المتسولين :

ــ ها قد رأيتم بأعينكم !•• يقول أناس منكم بأفواههم انى لص نهاب • ثم يتجهون الى بقلوبهم طلبا للمعونة والخير •

فردت عليه زوجه (هرنون) قائلة :

ـ بالله لا تجعل من الحبة قبة ونحن نواجه أوقاتا عصيبة ·· ان بقرتنا ماتت في الربيع ، وليس لدينا خنازير ، وما زرعناه من بطاطس حلت به لعنة الآفة··فهل من العجب أن يغلظ الفقراء فى كلامهم ويقولوا ما لا يفهمون ؟·· توسلنا اليك بالله أن تعطينا قدر السمك ليكون درعا تقى أطفالنا شر الجوع فى أيام الشتاء الطويلة التى تنتظرهم !

فقال لها (هاينز) بلهجته الناحبة :

ـ سأعطيك هذا القدر ما فى ذلك شك··لكننا جميعا نعرف ما هو الفقر ، وعند ما عض الفقر بعضنا يوما كنا نلوى ألسنتنا فى حلوقنا ونمسكها عن البذاء !

وأخذت (كيتى هرنون) قدر السمك وانزوت به عند جدار المتجر الخلفى حيث جلست فوق حافته ، وما لبثت أختها (نابا) أن انضمت اليها وجلست الى جانبها ·· وكانت (كيتى) فى الثلاثين من عمرها ، وهى وأختها الوحيدتان من بنات (بريان كيلمارتن) اللتان أفلتتا من براثن الموت ·· وكان لها سبعة أبناء ، صحبت معها ثلاثة منهم ، وقفوا مستندين الى الحائط وهم لفرط نحولهم وهزالهم كالاشباح ·· وكانت الأم تماثلهم هزالا ونحولا ، تعلو وجهها تلك السمات المروعة الاليمة التى لاترى مثلها الا فى وجوه الامهات البائسات اللاتى يعنين دائما بتوفير القوت لصغارهن ·· أما شقيقتها (نابا) فكانت تصغرها بعامين ،وكانت موردة الوجنتين ، مليئة الوجه ، تلوح عليها أمارات الرضا ، اذ لم يكن لها أبناء ·· وكان زوجها يعمل حدادا فى بلدة (جليناري) ·· وقالت(نابا) لاختها ، تعقيبا على ما حدث :

ـ ان من يرى معاملة هذا البخيل لك لا يصدق أننا من أقاربه ! ماذا أنتم فاعلون الآن فى مسألة ايجار الارض ؟·· ألستم مدينين أيضا بنصف يجاوز عشرة جنيهات ·

فأجابت (كيتى) بلهجة الشكوى :

ـ هذا هو الواقع يا حبيبتى ·· اننى لم أنم منذ أسبوعين وأنا أفكر فى هذا الامر ·· و (هرنون) نفسه يكاد يفقد صوابه لهذا السبب ·· ان كل الظروف ضدنا الآن ·

فقالت (نابا) :

ـ وهل كلمت والدك فى الموضوع ؟·· ربما كان فى امكانه المساعدة

فأجابت (كيتى) :

ـ انى كلمته ·· لكن من المؤكد أنه لا يملك سوى القليل ·· وقد وعد أن يساعدنا بما يستطيع ·· وان كان المبلغ الذى نحن مدينون به يجاوز عشرة جنيهات ·

فقالت (نابا) بحدة :

ـ لن يستطيع أحد أن ينال شيئا من الأب بعد أن احتلت ابنة النساج البيت وتربعت فيه ! ٠٠ انظرى اليها هنـــاك !! ٠٠ انظرى الى ملابسها !٠٠ انها تنتظر وفاة شقيقنا (ميخائيل) لكى تضع يدها على كل شيء فى البيت !٠٠ يا للعار !٠٠ ابنة نساج !٠٠

فقالت (كيتى) :

ـ مهما يكن فان الوالد ما زال هو القابض بيده على زمام المصروفات ٠٠ ولن يتخلى عن ذلك ما دام فيه رمق ٠٠ ولو كان على الوالد أن يختار بين بقاء (ميخائيل) و (مارتن) فى البيت لاختار (ميخائيل) ٠٠ واذا كانت ابنة النساج قد سيطرت على (مارتن) وجعلته فى أصابعها كالخاتم ، فسيكون لها شأن آخر مع الرجل العجوز ٠٠الواقع أنه لا يحبها ولا يرتاح اليها ٠٠ انظرى !٠٠ أمامك أمها أيضا ٠٠ انها متزينة كالملكة نفسها !٠

وكانت مسز (جليسون) قد دلفت الى المتجر وانضمت الى ابنتها (مارى) فكانت ملاحتهما ملحوظة الأثر فى هـــذه البيئة القاتمة ، وقد تضايقت الشقيقتان واشتد سخطها لما كان من حفاوة مسز (هاينز) بالأم وفتاتها ، حتى قالت (نابا) منددة :

ـ ان هذا الجلباب الذى تلبسه (مارى) غالى الثمن ، وقد سمعت أنه هدية من زوجة القس ٠

فقالت (كيتى) :

ـ ان الأم وابنتها متداخلتان مع القس (كوبرن) الى حد بعيد٠٠ والقس نفسه هو الذى مكن لابنتهم (ايلى) من الالتحـــاق بخـــدمة (شادويك) !٠٠ أليس بعجيب أن تخطر الاثنتان فى الثمين من الثياب، حين لا يملك الشرفاء الاطهار غير الشيلان العتيقة ؟

فقالت (نابا) :

ـ والشائع ان (ايلى) هذه على علاقة شائنة مع (شادويك) ٠٠ فيالهم من أناس فى بيت أبينا !٠٠

فقالت (كيتى) :

ـ انهما تشتريان حلوى !٠٠ ليتهما تغصان بها !٠

وردت عليها (نابا) قائلة :

ـ صه !٠٠ انهما شاهدتانا ٠٠ انهما قادمتان الينا ، وعلى وجههما ابتسامة النفاق والرياء ! ٠

ومن عجب ان الشقيقتين الحاسدتين الحانقتين استحالتا الى المصانعة لدى اقتراب الأم وابنتها ، وقالت (نابا) ردا على سؤال مسز (جليسون)

ان زوجها باع خنازيره حقا ولكن النقود لا تدخل اليـد حتى تخرج من اليد الاخرى ...

وكانت (مارى) موردة الوجه يتلألأ محياها اشراقا ونضرة ... فقد أسكرها ما لمست من اهتمام الناس بها فى كل مكان .. فان الطبيب وقف يتحدث اليها برهة وهو يدخل متجر أبيه ، وكان مع عضو البرلمان ومحرر الجريدة المحلية وقد جاءا للاشتراك فى اجتماع وشيك .. وما من واحد من هؤلاء الناس البارزين الا أطرى جمالها واختصها بالكلام الطيب الرقيق .. وبهذه الروح المنتعشة مدت (مارى) يدها بكيس الحلوى الذى ابتاعته الى الاطفال الثلاثة ، ولكنهم أخفوا وجوههم خلف أكمامهم حياء .. فقالت مسز (جليسون) :

ــ يا لهم من أولاد طيبين !.. بارك الله فيهم .. وكيف حال أخوتهم الآخرين يا (كيتى) ؟.. مسكينة أنت والله ، فبيتك ملء بالافواه التى تطلب الطعام !

فراحت (كيتى) تردد شكواها مما تلقى من الفاقة والعوز ، ومسز (جليسون) تواسيها وتدعـو الله أن يعينها على أمرها ، على حين قالت (نابا) تخاطب الاطفال :

ــ خذوا الحلوى يا أولاد .. كيف لا تتأدبون وتشـكرون السـيدة الكريمة ؟ كلوا ولا تخجلوا امكم .

وعززتها (كيتى) قائلة وهى تضرب على النغمـة التهـكمية الـلاذعة نفسها :

ــ ان الحظ لا يسعدهم برؤية مثل هذه السيدة الكريمة فى الوادى!. انهم لا يرون هناك أناقة ولا رقة ، فليس أمامهم سوى الخرق والاقذار ؟

فلم تتمالك (مارى) أن انتابها الغيظ لما تجلى لها من سـوء طويه الشقيقتين ، حتى دفعت بالحلوى أمام الاطفال فى حنق قائلة :

ــ كلوا ... ! انها ليست سما حتى تخافوا هكذا .

فتشجع الاطفـال واختطفـوا ما تيسر من الحـلوى ... وتبعتهـم الشـقيقتان بعد تمنـع وتأدب متـكلف ... وفى النهـاية قالت مسز (جليسون) :

ــ أرجو ألا تحدث متاعب فى اجتماع اليوم .. انى سمعت شائعات قوية عن التفكير فى الامتناع عن دفع الايجارات .

وفجأة راحت (كيتى) تقول محتـدمة وكأنمـا كانت ترتقب هـذه الفرصة لاطلاق سورة غضبها :

ــ ولم لا يكون ما تخافين ! ما أسهل أن يتمنى بعضهم عدم حدوث متاعب وليس عليهم ايجارات يلزم دفعها لا .. ان من لا يستأجر أرضا مثلكم يحق لهم ألا يخافوا التشريد فى الطرقات !

فقالت (مارى) وقد تملكها الغضب بدورها :

ـ نعم ··· ليس لهؤلاء أن يخافوا الا ألسنة السوء ! ·· هلمى بنا يا أمى !

وانصرفت كلتاهما من المتجر على الاثر ··· فقالت الأم لابنتها :

ـ ما كان يصح أن تعامليهم هذه المعاملة يا (مارى) !

فقالت (مارى) :

ـ ولم لا ؟··· ان السكوت يطمع الناس فى الانسان ···

ولم تلبث الأم أن قالت وهى تشير الى ناحية فى الطريق :

ـ ها هى ذى اختك (ايلى) ·

فقالت (مارى) :

ـ سأذهب اليها لاكلهما يا أمى ··· ابقى أنت هنا ، فان لى معها كلمة على انفراد ·

واجتازت (مارى) الطريق وقد عقدت العزم أن تصب جام غضبها على رأس أختها ···

الفصل الحادي عشر

كانت (ايلى) واقفة عند جدار بيت تتحدث الى أخيها (باتريك) والظاهر أن الأخ استبقى (مارى) ، بدليل أن (ايلى) أخفت وجههـــا فى طرف (حرملتها) وأخذت فى البكاء ، على حين راح (باتريك) يسر اليها كلاما بلهجة الانفعال ..

وقالت له (مارى) عندما اقتربت منهما :

ـ ماذا جرى يا (باتريك) ؟ ماذا تقول لها ؟

فالتفت اليها (باتريك) وأجاب بلهجة الغضب :

ـ انى أبين لها رأيى فيها صراحة ... انى لن أسمح لها أن تلطخ اسمى بالوحل .

فقالت (مارى) :

ـ دعها واهتم بشئونك ... تعالى معى يا (ايلى) ..

فامتثلت (ايلى) وسارت معها الى طرف القرية وما زالت تنتحب ، فانتهرتها (مارى) قائلة :

ـ جففى دموعك ولا تفضحينى فى السوق أمام الناس !

وفى بقعة خلوية يؤمها القرويون أيام الآحاد للسمر وازجاء الوقت بالحديث جلست الشقيقتان واستأنفت (مارى) كلامها قائلة :

ـ ماذا كان (باتريك) يقول لك ؟

فأنشأت (ايلى) تنتحب من جديد ، وقالت من خلال الدموع :

ـ لا أستطيع أن أبين لك .

ـ ولم لا ؟

ـ لانه شىء غير صحيح ...

ـ وما هو هذا الذى تقولين انه غير صحيح ؟

ـ أواه ! .. لاشىء ، سوى اننىأصبحت وحيدة فى ذلك القصر ، ولد أصبح الجميع ضدى .

فقالت (مارى) بغلظة :

ـ ولماذا يصبحون ضدك ؟ وما سبب وحدتك ؟ ٠٠ ألستم ستة من الخدم والحشم في القصر بين رجال ونساء ؟٠٠

ـ انهم لا يكلمونني !٠٠

والواقع أن (ماري) شعرت بكراهية جديدة لاختها ٠٠ لقد كانت (ايلي) دائما فتاة كسولة أنانية ، وطالما كانت تتهرب من العمل ٠٠٠ ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها كانت محط أنظار الرجال ، وكثيرا ما تولى الاب تأديبها بالعصا لئلا تجلب العار الى بيته ٠٠٠ ولما ألفتها (ماري) تفوح منها رائحة العطور مما ينافي دموعها وذلتها البادية تضاعفت كراهيتها لها وشددت النكير عليها في طلب الجواب ٠٠٠ فقالت (ايلي) متلعثمة :

ـ انه مخدومي ٠٠٠ انه ٠٠٠

وانخرطت في البكاء من جديد ، فصاحت بها (ماري) قائلة :

ـ كفي عن البكاء وصارحيني بالحقيقة ٠

فأجابت (ايلي) :

ـ ان خوفي شديد !٠٠ لو علم أبي لقتلني !٠٠ لكنها ليست غلطتي ٠

وتطلعت (ايلي) الى أختها في كرب وضني حتى ذهب الغضب فجأة عن (ماري) وحل محله شعور العطف والرقة ، واذا هي تطوق (ايلي) بساعديها وتهمس لها قائلة :

ـ يالك من مسكينة ! ٠٠ لم لاتصارحينني بكل شيء ، حتى أستطيع مساعدتك ؟

فأثارت هذه الكلمات دموع (ايلي) حتى أجهشت بالبكاء بين ذراعي شقيقتها ، ولما تمالكت أنشأت تقول بعبارات متلاحقة :

ـ لم يمض الا يومان على وجودي بالخدمة في قصر المالك عندما رآني السيد (شادويك) في البهو وهو عائد من الصيد ٠٠٠ وبعد أن سألني عن اسمي وموطني أمرني أن أصعد معه لاخلع له حذاءه الكبير ، فامتثلت وأنا أذوب رهبة وخجلا٠وقد أنهى بأن خصصني للقيام على خدمته مما أوغر صدور خدم القصر وحملهم على مقاطعتي ، ظنا منهم بأن ثمة علاقة بينه وبيني مع أني براء مما يقولون ٠٠٠ ومما قوى ظنونهم أنه جعل لي غرفة مجاورة لغرفته ، ليستنجد بي كلما انتابته نوبات الفزع التي تتملكه ليلا ٠٠٠ وهذه النوبات تعاوده بسبب ادمان الخمر ، وبتأثير ما ارتكبه من فظائع أثناء وجوده في الخدمة العسكرية في الهند ٠٠ وحين تلم به النوبات يأخذ في الصراخ والاستنجاد ، ويتعلق بي كما يتعلق الطفل المذعور بأمه ، ولا يتمالك حتى أغني له وألاطفه ٠٠٠ وهو في صحوه أقرب الى الطيبة ، وان كان يحلو له أحيانا أن يتظاهر بالقسوة فيهددني بالسوط أو المدية ثم يضج بالضحك عندما يرى فزعي وارتياعي ٠٠ ٠هذا كل ما بيني وبينه ، وليس فيه ما يوجب هذه الحملة المغرضة التي استهدفت لها !

وهنا قالت لها (ماری) ساخطة :

ــ وهو الذی أعطاك هذا العطر الذی يفوح منك ؟

فقالت (ايلى) وقد استردت جاشها وثابت اليهـا جرأتها السالفة حتى بدا بجلاء أنها كانت تصطنع بعض التكلف فيما روت لاختها :

ــ انه عطر أعطانيه لكى أنثره على نفسى ، لأنه لا يطيق روائح الناس كما قال ... رأى ضرر فى هذا ؟ .. يظهر أن بعض الناس يسوؤهم أن يروا غيرهم فى خير وتقدم !

فصاحت (مارى) مهتاجة .

ــ أهذا رأيك اذن ؟ .. تتصورين أنى أحسدك ؟ . ان كان ذلك فمن الخير أن تنزعى هذا الوهم من ذهنك ... سامحك الله يا (ايلى) !.. بل لطف الله بك اذا سمع أبوك عن فعالك !

فهتفت (ايلى) وقد تملكها الهياج بدورها :

ــ لعلك ستسارعين اليه وتخبرينه !.. افعلى ما يحلو لك ، لـكنه لن يجدنى بعد ذلك تحت سقف بيته !.. انى أفضـل الذهاب الى أمريكا على البقـاء معرضة لتأنيبـك لى أنت و (باتريك) !.. وحتى أمى راحت تنحى على يوم الاحد الماضى باللوم والتوبيخ !.. انكم جميعا تكرهوننى !

فردت (مارى) قائلة :

ــ لا أحد يكرهك يا مغفلة !.. آه .. لا فائدة من الكلام معك ... أنت أنت لم تتغيرى !.. لم لا تذهبين الى أمريكا اذن لئلا تجلبى العار على رءوسنا ؟

فوثبت (ايلى) قائمة وهتفت وهى تضرب الأرض بقدمها :

ــ سأفعل ما يحلو لى !

قالت هذا وهرولت عائدة الى القرية .. وللمرة الثانية رقت(مارى) لحالها وهمت أن تركض فى أثرها ، لولا أن ارتفع اذ ذاك هتاف عظيم فى شارع القرية جعلها تكف عن هذا العزم .

الفصل الثاني عشر

كان الهتاف صادرا من ساحة الكنيسة المجاورة لمتجر (هاينز) حيث عقد الاجتماع الشعبى ، ووقف راعى الكنيسة لدى باب الساحة يفتتح الاجتماع وقد احتشد الناس فى الشارع وفى الفناء بين راكعين وقاعدين فوق الحشائش ٠٠

كان الاب (روش) راعى الكنيسة رجلا ضئيلا أصلع الرأس شديد احمرار الوجه ٠٠٠ وهو خطيب فاشل ، لكنه اعتاض عن قصوره وعيه بحركات ذراعية وصراخه المدوى ، وقد راح يقول للجموع المحتشدة :

« انكم غارقون الآن فى الخمول والانحلال ، بعد أن كان لكم ماض مشرف مجيد ، وبعد أن كان انضواؤكم تحت لواء زعمائكم الوطنيين مضرب الامثال فى الدنيا بأسرها ! »

وصمت الخطيب هنيهة ريثما اختطف منديلا أحمر كبيرا من ذيل سترته ومسح به وجهه ، على حين انبعث هتاف الجماهير حماسيا يصم الآذان برغم تنديده بهم وحملته عليهم، فهم يعرفون فيه طيبة القلب وحب الخير والايثار ، ومن ثم أرهفوا آذانهم وهو يتابع حملته قائلا :

« والآن ، فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا ، لى أكبر الشرف والسرور أن أقدم لكم اليوم ، ممثلنا البارز فى البرلمان ، والساعد الايمن لزعيم الشعب ومحرره الخالد (دان أوكنيل) ! »

وتوقف الخطيب عندما انبعث هتاف حماسى عظيم لدى ذكر اسم (دانييل أوكونيل) ٠٠٠ وما لبث أن أتم عبارته وهو يشير الى رجل جلس على مقعد خلفه :

« مستر مكارثى لالور ! »

واستوى (لالور) على قدميه بين هتاف متجدد ٠٠٠ وكان عملاقا بدينا مكتنز الجسم موفور الشحم واللحم، وقد استفتح خطابه قائلا بصوت جهير شق عنان السماء :

« أيها الرئيس المبجل ، والمواطنون الأعزاء» ٠

ومرة أخرى دوى الهتاف تتردد أصداؤه فى جنبات الوادى ٠٠ والحق انه كان مشهدا فريدا يستهوى النواظر ٠٠٠ فمن خلف الخطيب قامت الكنيسة المستطيلة ذات الجدران البيضاء مطلة على الارض المعشوشبة التى تمتد أمامها منحدرة ٠٠٠ ومن وراء الكنيسة سلسلة الجبال الشاهقة

المتموجة ذات القمم الزرقاء التى تطاول الافق ··· وأمام الخطيب وفيما وراء طريق القرية الملتوية ، كانت الارض تمتد منحدرة حتى تصل الى البحر البعيد ، تقوم على حوافيه بلدة (كلوجر) ذات الابراج غارقه فى غلاله من الغمام ··· وفيما بين هذه المعالم احتشدت جماهير الشعب وقد أتلعوا رءوسهم وفغروا أفواههم ارتقابا (للكلمة) التى تخرجهم من ربقة العبودية والفقر ، وترفع عن كواهلهم نير الظلم والطغيان !·· وعن يسارهم كانت ثكنات البوليس الانجليزى بطاقاتها الضيقة المخيفة حيث وقف رجالها فى الساحة يحملون بنادقهم على أهبة الاستعداد ·· وفى مهاب رياح أكتوبر الباردة كانت تنبعث أصوات الدواب وهى تساق فى منحدر الطريق الى البحر ممزوجة بصلاح الموكلين بها ··

ولما هدأت الهتافات المدوية تابع الخطيب كلامه قائلا :

« زملائى المواطنين والمواطنات ··· جئت اليوم بصفتى ممثلكم المنتخب فى البرلمان ، تنفيذا لحملة شاملة ، نستهدف بها اذكاء المشاعر الوطنية فى البلاد ، من أقصاها الى أقصاها ، لكى نحمل الحكومة على العمل ، لوقف امتداد الكارثة التى تهدد بالقضاء علينا كأمة مجيدة ، وشعب عريق!· اننى أعنى بكلامى هذا تلك الآفة التى حلت بمحصول البطاطس ، وتلك المجاعة التى ستكون فى أعقابها حتما ، ما لم تبادر الحكومة الى اتخاذ اجراءات ناجعة فعالة ، لتفادى المجاعة ، ودفع أرزائها!!·· اننا معشر ممثلى الشعب ، لموقنون من كفاية الاقوات فى هذه البلاد : بفضل من العناية الالهية الرحيمة ، نتيجة لوفرة محصول الحبوب ، مما يزيد عن حاجة الشعب لو اتبعت سياسة عادلة حكيمة ··· لكن هذه الاقوات تتسرب الى خارج البلاد ، ومعها قطعان لا تحصى من الماشية ، طبقا لخطة موضوعة ، تحت أسماعنا وأبصارنا ؛ دون أن نحرك ساكنا ! »

وشفع الخطيب هذه العبارة باشارة كاسحة من ذراعه الى الطريق المؤدى الى البحر ، حيث كانت القطعان تساق باطراد للشحن الى الخارج·· ثم استطرد قائلا :

« اننا نريد من الحكومة أن تبادر بمنع تصدير هذه المؤن ، وبفتح الموانى لدخول الاقوات الاجنبية الى بلادنا ، وبوقف تقطير الكحول من الحبوب ··· وعلى الحكومة أن تستعين بأموالنا التى تبتزها منا عاما بعد عام فى صورة ضرائب مضاعفة ، لشراء المؤن اللازمة للتخفيف عن الشعب!· وعليها أن تمد السكك الحديدية ، وتنقد العمال أجورهم طعاما !·· ونريد من الحكومة مضاعفة الضرائب على الملاك الغائبين عن أرضهم بنسبة خمسين فى المائة ، وتخفيضها بالنسبة الى الملاك المقيمين ، وتخصيص الحصيلة المتجمعة من هذا ، لبناء السكك الحديدية اللازمة ·· أجل أيها المواطنون!· نحن نريد العدالة ، لا الصدقة والاحسان ، بوصفنا ممثلين لأمة عريقة ، وشعب كريم ! »

وما كاد الخطيب يبلغ هذا الحد حتى ارتفع الهتاف مدويا يشق أجواء الفضاء · وراح الناس يهمس بعضهم لبعض ، يقول الفاهمون منهم لمن

ثم يفهموا ، ان السكك الحديدية توشك أن تمد ، وان ملاك الاراضى سيعوضون الزراع عن تلف محصول البطاطس ، وان الحكومة ستمدهم بالمؤن والمال ٠٠٠٠ وما لبث أن استطرد قائلا :

« وأبشركم أن المجلس التنفيذى لمدينة (دبلن) ، قد شكل لجنة برلمانية برئاسة (لورد جون أرابين) عمدة المدينة ستنعقد فى الثامن والعشرين من هذا الشهر ٠٠٠ وفى هذا الاجتماع سيتولى زعيمنا الجليل (دانييل أوكونيل) بسط المشروعات التى أعدها ممثلو الشعب لمواجهة هذه الكارثة !٠ »

وضاعت الكلمات الختامية التى دعا فيها الخطيب الشعب الى التكاتف لمؤازرة نوابه المنتخبين ، فى اوار الهتافات المدوية التى انطلقت من كل جانب ٠٠ ولم يظفر باقى الخطباء من أمثال المحامى الناشىء (كونسدين) والصحفى (ديلون) محرر الجريدة المحلية الا بأقل حظ من الاهتمام ، عندما تحدثا عن تاريخ الكفاح الوطنى لهذا الشعب العريق ٠٠ فقد تركزت الحماسة كلها حول الخطيب (لالور) ، الذى كان يتقبل هذه الحفاوة الكبرى ملوحا بيده ورافعا قبعته تقديرا وامتنانا ٠٠

ثم انتهى الحفل أخيرا ٠٠٠ وتدافعت الجماهير تحمل السيد (لالور) على المناكب الى سيارته الفخمة ، وتابعوها مسافة فى طريقها الى ميناء (كلوجر) وهم يوالونه بالهتاف والدعوات ٠٠ وفى النهاية توافدوا خانعين الى مكتب ايجارات (شادويك) ، يدفعون ما أخذوه من مال ثمنا لمؤنهم التى كانت فى طريقها الى الخروج من ارلندا ، أسوة بسيارة السيد (لالور) ، منقذ الشعب !

الفصل الثالث عشر

ثم يشترك (باتش هرنون) ولا زوجته (كيتى) فى الحفل الشعبى المشهود ٠٠٠ ذلك أنه مهما يكن من طبيعة الاجراءات التى قد تتخذها الحكومة تحت املاء (ممثلى الشعب) ، فانها لن تدركهم الا بعد فوات الاوان، ولا بد لهم من مال عاجل يستعينون به فى أداء ما عليهم لمالك الارض ٠٠ وكذلك قصدت أسرة (هرنون) الى مكتب الايجارات ووقفت تنتظر قدوم (بريان) ٠٠٠ وقالت (كيتى) لزوجها حين ألفته قد بلغ الغاية من الانفعال والتأثر حتى كان يرتعد من رأسه الى قدميه :

ــ اقفل فمك ولا تنبس بكلمة ! ٠٠ سأكلم أنا العجوز !

والواقع أن الزوجين مع أولادهما الثلاثة وقفوا صفا الى جدران المكتب ، كمتسولين يعرضون أمام الناس حاجتهم الملحة التماسا للعون ٠

وجاء العجوز أخيرا بصحبة ولده (مارتن) وزوجته (مارى) ٠٠ وقد تطلع الى أسرة (هرنون) خلسة مما دل بجلاء على أنه راغب عن لقائهم ٠٠ ولكن (كيتى) تقدمت اليه قائلة :

ــ أيمكنك أن تسدى الينا معونة بحق الرحمن ؟

فقال لها العجوز :

ــ ماذا تقولين ؟

والحق ان العجوز ندم على كرمه وأريحته حين طولب بتحقيق وعوده ٠٠ وهو فى هذا متأثر بفزع الفلاحين التقليدى من بذل مالهم المكسوب بعرق الجبين دون داع ولا ضرورة ٠٠٠ ولم يلبث أن استخرج من صدره كيسا من قماش ونقر عليه بأصابعه العجفاء قائلا :

ــ لن يبقى فى هذا الكيس بعد دفع ايجار الارض أكثر من أربعة أو خمسة جنيهات !٠٠ فهل تطلبون منى هذا و (ميخائيل) مريض طريح الفراش ؟٠٠ كيف أعلم متى ينتقل الى جوار ربه وقد استحكمت العلة فى رئتيه ؟٠٠ أتريدون أن أبقى بغير مال لجنازته ؟

كان العجوز كاذبا فيما قال ، فسيبقى لديه تسعة جنيهات بعد سداد الايجار ٠٠٠ ولكن كان عليه برغم ذلك أن يدبر نصف ايجار العام القادم، ولا مفر أن يسدده من هذا المبلغ الباقى ، اذ لن توجد خنازير يمكن بيعها فى مايو القادم والافادة من ثمنها فى السداد ، وقد يقع حادث للعجل الذى كان ينتفع بثمنه عادة فى الوفاء بهذا الايجار ٠٠٠ ناهيك بما نال محصول

البطاطس ، ومرض (ميخائيل) •• وكذلك يبدو مسلك العجوز طبيعيا في مثل هذه الظروف ••• ثم ان العجوز قد عهد (هرنون) شخصا عاجز الحيلة لا يعول عليه قط في السداد والوفاء بالتزاماته ••

ولكن (كيتى) قالت له وهى تمسح دموعها بطرف (المريلة) :

ـ ان منحة جنيه واحد قد تسكت فمه •

فرد عليها العجوز قائلا :

ـ ان مبلغ جنيه فقط شيء آخر •• لانى حسبتك ستطلبين المبلغ الذى أنتم مدينون به كله ، وهو عشرة جنيهات !

فقال لها (مارتن) :

ـ لا تخافى يا (كيتى) •• اذا كان جنيه واحد لا يكفيكم فلن نبخل عليكم بجنيهين •

فقال (باتش هرنون) :

ـ بارك الله فى أخوتك •

واذ ذاك تدخلت (مارى) قائلة :

ـ ما أسخى يدك وأنت تجود بمالنا !•• عجبت لاناس يشمخون بأنوفهم ويعيرون من لا أرض لهم ، وهم فى الوقت نفسه لا يستحون من التسول والاستجداء !

فردت عليها (كيتى) فى شراسة قائلة :

ـ اننى لاأستجديك أنت ! دون هذا موتى تحت التراب !

فقال (مارتن) لزوجته برقة :

ـ ألا يمكن أن تترفقى يا (مارى) ؟

فهتفت (مارى) قائلة :

ـ وما الذى يدعونى الى الترفق ؟••أتراك تزوجتنى أنا ، أم تزوجت جميع المنتمين اليك بصلة القرابة ، حتى فرع العمومة الثانى والثلاثين !؟ ••• ان بيتك أولى بالمعروف • والاحسان أوجب لذويك الأول ••• ماذا ترانا فاعلين ، اذا حلت بنا الأوقات العصيبة ؟

ـ ألم تسمعى النائب يقول ان الحكومة ••

فقالت (مارى) :

ـ الحكومة حقا ؟ ••• اعتمد على نفسك ، ودع الحكومة وشأنها ••• ان الحكومة لا تهتم •••

وهنا همس العجوز بغلظة قائلا :

ـ صه ؟ ولا كلمة منكم ! تعالى يا كيتى ... وأنت يا (باتش) دع الكلام لى ، فأنت متسرع فى كلامك ... سأكلم مستر (شادويك) فى الأمر ، وهو يعرفنى مستأجرا طيبا ، محافظا على وعودى .

ودلفوا جميعا الى داخل المكتب ، فاذا هو غاص بالناس ... وجلس (شادويك) نفسه الى منضدة ، وأمامه سجل الايجارات ؛ ووقف عن يمينه (هيجارتى) الجابى ، وجلس عن شماله الكاتب يأخذ الأموال ويقدم الايصالات ... وقد اشتمل المكتب فوق ذلك على دولاب ذى أدراج كثيرة ، وخزانة لدى الحائط ، وصورة للملكة (فكتوريا) علقت بالجدار خلف المنضدة ... وكان جو الغرفة قارس البرد شديد الرطوبة ؛ حتى ظهر أثرها فى تلك البقعة السوداء الكبيرة البادية فى السقف ... ولم تفلح نار المدفأة الفاترة فى تدفئة جو الحجرة ...

وكان (شادويك) فى لباسه بادى الشعث والتهدل ، فى كم سترته مزق وفوق عينيه عصابة ، وقد نجم كلاهما من ركوب حصانه الجديد صباح اليوم ... وقد ثبت بالتجربة أنه أبعد ما يكون عن الاصالة ، كما صوره (ريلى) ... وكانت نتيجة سقطة (شادويك) من فوق ظهر الجواد ان غدا حاد الطبع ملتهب المزاج ، حتى راح يصب جام سخطه على رءوس المستأجرين ، وجعل يصرخ فيهم صراخا جنونيا مرعبا ..

كان يقول لهم :

ـ ماذا تقصدون ؟ ... ألا تستطيعون دفع الايجار كاملا ؟ ... هراء ! ماذا يهمنى اذا تلف محصولكم ودب اليه الفساد ! ادفعوا ماعليكم والا احتملتم النتائج ! ... ما رأيك فى هذا الشخص يا (هيجارتى) ؟

وكان الناس بين يديه أذلة صاغرين ، يتقدمون اليه مسلمين وقد شدوا قبعاتهم الى صدورهم .. وكانت (مارى) تسجل هذا كله فى ذهول ... ولم تكد تصدق أن هذا الرجل الخيف الأحمر الشعر البادى السلطان ، هو المخلوق المستضعف الذى يتعلق بأختها مستنجدا فى نوبات سكره ... لقد استهواها هذا المشهد ، وفى الوقت نفسه أفعم قلبها رعبا ...

ولما جاء دور العجوز (بريان) رفع (شادويك) رأسه وشاهد (مارى) ... فسرعان ما سمرت نظراته فيها وأمال رأسه فوق عنقه الغليظ كعنق الثور ، تماما كما فعل حين أبصر أختها (ايلى) من قبل ... وما لبث أن همس فى أذن (هيجارتى) دون أن يحفل بالعجوز ، فرد (هيجارتى) همسا بهمس ، وأدركت أنه يسأل عنها ، ولم تتمالك أن تراجعت ما وسعها التراجع وأخفت وجهها فى طرف مريلتها ..

وقال العجوز على حين كان الكاتب يعد ايصال سداد الايجار :

ـ سألتك العفو يا صاحب السيادة ··· ان (باتش هرنون) هذا متزوج ابنتي ، وبودي أن أقول كلمة من أجله ··

فقال (شادويك) ومازالت نظراته مسمرة في (ماري) :

ـ ماذا يقول ؟

ولكنه كان يناجي نفسه بهذه العبارة :

ـ هذه أختها اذن ؟ ·· انها والله أحلى منها وأجمل !

وقد أجاب العجوز قائلا :

ـ ان (باتش هرنون) في موقف سيىء يا صاحب السيادة ·

وانشأ العجوز يشرح موقف (هرنون) التعس ويبين استحالة قيامه بسداد الايجار كاملا ··· واذا (شادويك) يلتفت نحوه بشراهة ويصيح فيه قائلا :

ـ ما هذا ؟ ·· عمن يتكلم هذا الرجل يا (هيجارتي) ؟

فأجاب (هيجارتي) :

ـ ان (باتش هرنون) الذي يتحدث عنه في موقف سيىء فعلا ·· ان بقرته ماتت في الربيع ·· وتأخر في سداد نصف ايجار العام الفائت ··· ثم جاءت الآفة فأصابت محصوله ·

فقال (شادويك) :

ـ تبا للمحصول ! ·· وما ذنبي أنا ؟ ·· ليدفعوا ما عليهم ! ·· انك تخفي النقود ! انني أعرفك ! ·· أخرج النقود من مخبئها وادفع في الحال !

فقال العجوز :

ـ انه خالي الوفاض ··· وقد جئت أعرض سداد جنيه مما عليه ، حتى تتهيأ له الفرصة لبعض الكسب ، ولا أطمع الا في وقف الحجز ·

فهتف (شادويك) قائلا :

ـ جنيه ؟! ما هو دين هذا الرجل يا سمبسون ؟

فأجاب الكاتب :

ـ عشرة جنيهات وستة شلنات وثمانية بنسات حتى اليوم يامستر شادويك ·

ـ ماذا ؟ ·· وتعرض مبلغ جنيه واحد ! ·· يا الهي ! انك لمجنون أيها الرجل !

فغمز (مارتن) العجوز الذي قال :

ـ بوسعى تدبير جنيهين من أجله ، ولن يبقى لى ٠٠٠

وبيدين راعشتين أخرج العجوز من كيسه جنيهين ذهبيين وضعهما فوق المنضدة ، على حين راح (هيجارتى) يهمس فى اذن (شادويك) مسترحما ٠٠٠ فما لبث (شادويك) أن نظر الى (مارى) مرة أخرى ولسان حاله يقول :

ـ من الخير ألا أشتد عليهم ٠٠٠ انها بارعة الجمال حقا ٠

ثم قال بصوت مرتفع :

ـ حسنا ٠٠٠ سأمنحك فرصة أخيرة ٠٠ ما اسمه ؟ هرنون ؟ ٠٠ لا بأس ٠٠٠ عليك تدبير المبلغ كاملا فى ٠٠٠ سأمهلك ثلاثة أشهر ٠٠٠ فان لم تدبره فى هذا الموعد ، حق عليك مواجهة النتائج ٠٠٠ وستكون وبالا عليك والله ! ٠٠٠ انصرفوا !

ولما تقاطروا مبتعدين عنه تبع (مارى) بنظراته ، وهمس فى اذن (هيجارتى) قائلا :

ـ ما صلتها بالمدعو (هرنون) هذا ؟

فأجاب (هيجارتى) همسا :

ـ ان أخت زوجها متزوجة منه ٠

وفى الشارع وقف النساج فى نفر من الناس يتحدثون ٠٠ ومالبث واحد من الواقفين أن هتف به وهو يجذبه من سترته :

ـ ألم تسمع ما قاله الخطيب (كونسيدين) عن تعريض صدورنا للرصاص دفاعا عن الوطن ؟

فرد النساج قائلا :

ـ لعنهم الله ! ٠٠٠ وهذا كلام يتشدقون به ! ٠٠٠ انهم لايفعلون شيئا ! ٠٠٠ وكن على كلامى مع الشاهدين !

ولما أبصرته (مارى) قالت لنفسها :

ـ يجب أن أكلمه فى أمر (ايلى) ٠٠٠ لكن ما الفائدة ؟ ٠٠٠ انه مشغول فقط بالمسائل التى لا تعنيه !

واشتد البرد بحلول المساء ٠٠٠ وعصفت الرياح ٠٠٠ فولى أفراد الأسرة وجوههم شطر البيت ، وقد وضعوا ما اشتروه فى خرج الفرس ٠٠٠ وعند مشارف القرية أوقف (مارتن) الفرس واركب(مارى) فوقه ٠٠٠ وقال لها برقة :

ـ ما كان يجب أن تحملى على (كيتى) هذه الحمالة ٠

فبادرته (مارى) قائلة :

ـ لو أننا أخذنا على عاتقنا دفع الايجار عن كل مسكين محتاج ، لما كفانا ذهب الارض !

فرد عليها (مارتن) قائلا :

ـ لكن لا يمكن مع ذلك أن نكون قساة متحجرين !

واستاء كل منهما من الآخر حتى تابعا طريقهما الى الوادى فى صمت وقد تلبدت سحب سوداء مستطيرة فى السماء حتى كست أديمها، وبدت اغانى القرويين العائدين الى دورهم موحشة ثقيلة .

الفصل الرابع عشر

هطل المطر هذه الليلة ، ودام هطوله سبعة أيام غزيرا دافقا حتى استحال على أبناء (الوادى الاسود) أن يخرجوا البطاطس المختزن من الحفر الارضية كما كان شأنهم فى أعقاب السوق ...

والحق أن هذا العائق أهاج العجوز (كليمارتن) وأسخطه ، وأضحى لا يقر له قرار برغم عجزه عن القيام بعمل ما حيال المحصول ، اللهم الا أن يعمد الى الانتحار بالعمل فى هذا السبيل المهلك ... ناهيك بشدة البرد وانهيال الثلج على فترات بين سيول المطر ... وبرغم ذلك كان العجوز يبدى من النشاط المستغرب فى كهل مثله ما جعله فى حركة دائبة من مطلع الفجر حتى يأوى الى مضجعه فى الليل على كره منه وهو يتوجع من علة (الروماتزم) التى به ... وكان يغطى كتفيه بكيس ويذرع الطريق ركضا فيما بين البيت و (الجرن) وهو يقلب بصره فى السماء صائحا ناقما ... فان دخل البيت أطبق فمه ولزم الصمت بسبب حال (ميخائيل) الصحية ، ولكن سكوته كان أشد اثارة من صياحه ونقمته وهو جالس متأهب تقدح عيناه شررا كمن يتحفز للوثوب ...

ولم يكن هذا القلق الشديد من جانب العجوز ناجما كله من خشية تلف المحصول تلفا تاما بفعل المطر المنهمر بعد أن نالت منه الآفة ما نالت ... فقد كان أخشى ما يخشاه أن يستفيق الزوجان الفتيان من أحلام السعادة لينازعاه السلطان فى دائرة البيت ... وكذلك جعل يراقب ولده الاكبر كما يراقب الايل العجوز منافسا فتيا فى القطيع...

ولكن لم يبد من (مارتن) حتى الآن أدنى اهتمام بشىء فى الحياة فوق سعادته بزواجه الجديد ... وانما كان يحلو للعجوز فى سورة غيرته لما يرى من افتتان الزوجين أن يفعل كل ما يؤدى الى مضايقتهما، وكان على الأخص يعير (مارتن) بخموله قائلا :

— ما كان أحراك أن تبحث عن شىء كسلة تصلحها ، بدل الجلوس هكذا عاطلا ! ... ان الرجل المجد لا يعدم شيئا يفعله ! ... يا لقسوة الاقدار اذ اختارت العلة أعز أبنائى هدفا !

وكان فى الحق يسبغ على ولده العليل جل رعايته واهتمامه ... وكان العجوز يتكلف الايمان بتماثل ولده للبرء العاجل برغم اطراد الاضمحلال فى صحته بعد ما نزف من دمه ... لكن العجوز كان يعلم أن (مارتن) لن يجسر على منازعته السلطان فى البيت ما بقى (ميخائيل) على قيد الحياة ... ولذلك اختص (بريان) ولده العليل بكل مافى البيت

من طيبات يغدقها عليه اغداقا ويبذلها له في غير ضن : من دجاج يذبح تباعا برغم عزوف (ميخائيل) عن لحمه واقتصاره على النزر اليسير من الحساء ، ومن زبد وبيض يؤثر بها ايثارا ويذاد عنها كل انسان سواه ... فاذا انتابه السعال ليلا خف العجوز الى جانبه كالسهم يسأله عن حاله ويقدم له الشراب ويشد حوله الأغطية ويجلس اليه يسامره في سهده وأرقه ....

ولم يكن يعنى العجوز أن يقابل (ميخائيل) هذا كله بالفتور والاعراض ... فقد كان مدفوعا الى هذا المسلك بشيء أقوى من محبته لولده ... اذ كان يحس الشيخوخة تدب اليه وتطبق عليه ، فكل قصاراه أن يدرع بكل ما فيه من حيلة ونشاط ليبقى صاحب السلطان النافذ والكلمة العليا بين ذويه ...

فلما كان اليوم السابع وانقطع هطول المطر ظهرا ، لم يتمالك العجوز أن صاح من الفرح كغلام أطلق من محبسه ، وهتف يقول لمارتن:

ــ جهز الفرس واسرجها ، على حين أذهب لفتح حفر البطاطس !

فقال له (مارتن) متكاسلا :

ــ انتظر الى ما بعد الغداء ، نقد أوشك الطعام أن يعد .

لكن العجوز جعل يسب ويلعن ، واندفع الى خارج البيت ... واذ ذاك نهض (تومسى) من حيث كان جالسا في ركن المدفأة ، فجعل يتمطى قائلا :

ــ هيا بنا يا (مارتن) ... يحسن أن نرافقه .

وأخذا يسيران في اثر العجوز ... أما هو فقد حمل مجرفته من (الجرن) وجعل يركض عبر الحقول الى مزرعة البطاطس المتاخمة للنهر ... وكانت الارض غارقة في مياه الامطار حتى كان الرشاش ينبعث في اثره وهو يركض ... وقد صاح فيهما على مبعدة :

ــ يا اله السموات ! ... لقد فاض النهر !

فقد طمت مياه النهر حتى أغرقت شاطئيه وأوشكت ان تبلغ مزرعة البطاطس ... لكن الحفر بقيت برغم ذلك بمنجاة من المياه... وسرعان ما أخذ العجوز يحفر بالمجرفة ويزيل التراب عن أوراق الشجر التي تغطي محصول البطاطس المختزن ... وما أن أزاح الاوراق حتى استقام متباطئا وجعل يحدق منعقد اللسان الى اكداس البطاطس المتعفنة التي دب اليها العطب في الحفرة ...

وتراجع العجوز خطوة وجعل ينظر الى السماء في اشفاق وقد انعقدت في وجهه ابتسامة بلهاء كأنما يسأل المقادير تفسير هذه النازلة المروعة ... وما لبث أن ركع على ركبتيه قرب الحفرة الكبيرة ودس ذراعيه حتى المرفقين في جوفها وجعل يتفقد أرجاءها بيديه ليقدر مدى العطب الذي حل بالمحصول المختزن ...

واقبل (تومسى) وهو على هذه الحال ، فلم يتمالك أن فغر فاه وهتف قائلا :

ـ ماذا جرى بحق الرحمن ؟

فانتفض العجوز فى مكانه ، ومال الى الوراء ، ثم استوى قائما ببطء ، ثم استدار وبسط نحو (تومسى) ذراعين يقطر منهما ذوب المحصول العفن ، وقال متلعثما منعقد اللسان :

ـ هذا هو كل ما بقى من المحصول !

فقال (تومسى) وهو يرفع قبعته رهبة ووجلا :

ـ الرحمة يا اله السموات !

وبارح العجوز المزرعة مقوس الظهر مدلى الذراعين وقد تجلت فى هيئته فجأة علائم الشيخوخة والعجز ... فان الضربة قد استنزفت حيويته واستنفدت طاقته ...

ولم يلبث وهو يجتاز سياج المزرعة ليفضى الى الحقول المجاورة أن كف عن السير وراح يجيل نظره فى أرجاء الوادى ...

كان المشهد مروعا ... فان السحب لم تنحسر بعد المطر ، وما برحت السماء قاتمة ملبدة بالغيوم ، يتساقط منها الرذاذ هنا وهناك.. وفى هذا القتام السائد ، بدت الجبال المحيطة بالوادى وكأنها تحدق به وتطبق عليه ... ولاح هذا الأخدود الضيق بين الجبال ، وكأنه فى أقفاره من كل زرع ، شاطىء موحش انحسرت عنه المياه بفعل الجزر ... وكانت السيول الجياشة تنحدر من سفوح الجبال الى التربة المسودة المشبعة بالبلل لتخفى عريها وتدارى سوءتها ... ولم يكن ثمة من صوت الا جيشان المياه المتساقطة من عل ...

وقال العجوز متأثرا بهذا المشهد المروع وهو يتابع طريقه الى البيت :

ـ انها لعنة حلت بأرضنا !

ولما وجد (مارتن) يسرج الفرس خارج (الجرن) قال له :

ـ وفر على نفسك هذا العناء ! لقد ضاع كل شىء !

فقال (مارتن) وهو يمسك عما كان بسبيله :

ـ ماذا تقول ؟

فكان جواب العجوز أن بسط ذراعيه الملوثتين ثم تابع سيره الى البيت ، حتى لم يملك (مارتن) الا أن يهرول شطر المزرعة لينظر الامر بنفسه ...

ولما دلف العجوز الى المطبخ استفهمت منه (ماجى) عما جرى ،

بيد انه لم يجب ، بل خلع سترته وذهب يغسل يديه من دلو خلف الدار ... وكانت (ماجى) منهمكة فى ذبح دجاجة (لميخائيل) وتنظيفها. فلما رأت زوجها على هذه الحال ألقت الدجاجة على الارض وهرولت الى الفناء تتبعها (مارى) ... وبقى (ميخائيل) وحده مدثرا بغطاء قرب النار ... فما أن رجع أبوه متجها نحو المدفأة حتى قال له (ميخائيل) بصوت أقرب الى النحيب :

ــ الى أين تذهبان ؟ وماذا جرى ؟

فأجاب العجوز بسكون :

ــ ان البطاطس المختزن ناله العطب فى جوف الحفرة .

وفجأة شاعت فى سحنة (ميخائيل) الكاسفة أمارات جذل غامر ، وقال :

ــ عطب حقا ؟ هل دب فيها العطب ، مثلى ؟

وانطلق يضحك ضحكات مروعة حتى نظر اليه العجوز فاغر الفم، وقال له :

ــ عفا الله عنك يا بنى !

ثم ذهب العجوز الى غرفته وتجرد من ثيابه واندس فى الفراش ...

ولما رجعت (ماجى) الى المطبخ سألت (ميخائيل) عن أبيه فهز الفتى العليل منكبيه وأشار الى غرفة النوم .. فدخلت اليها .. ولم تتمالك أن انتفضت حين وقع نظرها على العجوز ممددا على ظهره فى الفراش ... وقالت له :

ــ ماذا يؤلمك ؟

بيد أنه راح يحدجها بنظراته صامتا وقد استلقى على ظهره مشبك اليدين فوق صدره كأنه جثة مسجاة ، وقد برزت لحيته البيضاء فوق حافة الغطاء ... فكررت سؤالها له ، واذا هو يجلس فى الفراش ويهتف مهتاجا وهو يلوح بقبضته شطر النافذة متوعدا :

ــ لقد قضيت حياتى كلها أصارع وأكافح ! ... والآن قد غلبت على أمرى ! ... فلينزل (ابليس) سخطه ! ... ولتحل اللعنة !

ثم استلقى مرة أخرى وشبك يديه فوق صدره ، وجمد فى مكانه ...

الفصل الخامس عشر

تبين أن عطب البطاطس المختزن لم يكن بالقدر الذى صوره العجوز ... فقد وجدت حفرة تامة العطب ، ولكن الحفرتين الباقيتين، ومنهما تلك التى ينال (أوهانلون) نصف محصولها ، سلمتا من العطب، باستثناء بعض ثمار قليلة ... ومهما يكن من ذلك كله ، فقد تهيأ لآل (كيلمارتن) أن يستخلصوا لأنفسهم فى النهاية قدرا من البطاطس لا بأس به .

وقال (مارتن) تعقيبا على هذه النتيجة :

ـ لن تكون أمامنا فرصة لتربية الخنازير فى العام المقبل .. فلن يتوافر من البطاطس لطعامنا نحن ، وبعد ما يلزم (للتقاوى) ، الاالقليل، دع عنك طعام الخنازير ...

والواقع أن هذه الكارثة كشفت عن معدن أصيل ، ظل كامنا تحت مظهره الهادىء .. وقد تضاعفت محبة (مارى) له فى غضون الايام الثلاثة التى دأبت الأسرة فيهما على نقل البطاطس المختزن الى (الجرن) ، وزاد تعلقها به ، اعجابا بما تجلى لها من جلده ودأبه ..

وما لبث (مارتن) أن نزع فجأة الى السيطرة كأبيه .. فقد حدث وهم يتناولون طعام الغداء فى ذلك اليوم الاول أن راحت أمه تندب ما نزل بالمحصول المختزن ، واذا هو يسكتها غاضبا ويرميها بنظرات شزراء كما كان يفعل أبوه من قبل ، حتى لم يتمالك العجوز عندما سمع هذه الغضبة وهو مستلق فى فراشه أن قال لنفسه راضيا :

ـ مرحى ! ... ان الروح قد انتقلت اليه ، ما فى ذلك شك !.

وفى الحق ان العجوز الماكر لم يكن الا متكلفا شدة الحزن لهذه النازلة ... فهو لم يلزم فراشه ويتظاهر بالاستسلام لأجله القريب ، الا لكى يسلم ولده زمام السلطة ، موفور الكرامة ، عزيز الجانب . وقد ظل فى مضجعه طيلة الايام الثلاثة التى استغرقها نقل المحصول وتنقيته وخزنه فى (الجرن) ، حتى اذا فرغوا من ذلك استدعى (مارتن) الى غرفته وقال له وهو يقدم اليه الكيس المشتمل على راس مال البيت:

ـ خذ هذا واشرف على شئون البيت والارض ، والله يباركك.. اننى وأمك قد اقتربت نهايتنا ، وقد حان الوقت لكى نستريح ونتأهب للقاء ربنا .

وارتعشت يد العجوز وهو يقدم الكيس وتندت عيناه بالدمع .. وفجأة دفع لحيته الى الأمام وأردف بعنف :

ـ لكن ضــع نصب عينيك هـذه الحقيقة ··· ان لعنة الله خليقة أن تحل على رأس كل ابن يتنكر لوالديه !

فقال له (مارتن) بهدوء :

ـ لا تخف شيئا من هذا ... ان لكما أن تستريحا وتقرا عينا .. وثقا أني و (مارى) سنكون مضرب المثل في الجد والنشاط ·

فقال له العجوز :

ـ بارك الله فيك يا (مارتن) ... ولعلك تذكرنى ، اذا ذكرتني ، بالخير ·

واستيقظ العجوز غداة يوم التسليم هذا عند الفجر ، وأيقظ أهل البيت كعادته بصوته المجلجل ... بيد انه لم يخرج لحلب البقـرة ، ولم يصدر أمره لأحد ... وما أن تناول فطوره حتى خرج يدب على عصاه مهرولا ، وأنشأ يطوف بأرجاء أرضه اليسيرة وما من شبر فيهـا الا وهو معروف له عزيز عنده كحبة قلبه ... وقد تفقد البقرة والعجل والفرس والغنم ، وقادها جميعا من مكان الى مكان ، وتحدث اليها كما يتحدث الى انسان عاقل ... فلما اطمأن الى أن كل شيء فى أرضـه الحبيبة على مايرام ، وبعد أن سوى الحجارة المتساقطة من الســياج ونثر السماد الحيوانى فى التربة ، سار فى طريق القرية وقضى نهاره فى الحديث والســمر مع أقرانه من الكهــول ، أولئك الذين لا ينعمون فى حياتهم براحة الا تلك الراحة الوحيدة المتاحة للفلاح ، والتى تسبق نهاية الأجل ...

على أن أحاديث هؤلاء الشيوخ لم تكن كأحاديث الفلاحين فى الايام الخوالى ، من أسمار حلوة ، وأنبـاء عن الاهل والأرضين ، وحفـلات الزواج ، وحلبات المصارعة . فان عطب المحصول ونذر الجوع شابت أحاديث الناس ، وطبعتها بطابع المرارة والوجوم والحزن ... والواقع أن هذا العطب كان عاما شاملا ، ومن الناس من أصبحوا يعولون فى قوتهم على ما ينــالونه من صــدقة الجيران ··· أما الملقون منهم واللاجئون والمستأجرون الذين خوت أرضــهم من كل زرع أو ضرع ، فقد ظلوا فى عقر دورهم يتطلعون الى عون الحكومة واسعافها . ولئن لم يأت هـذا العون المرتقب لساء المآل ولم يبق أمامهم سوى الطريق الى الملجأ ... وعلى هذه الصورة قبعوا فى أكواخهم حيارى عاجزين .

وعلى النقيض من هذه البأساء الشاملة ، كان الزوجان الفتيــان فى بيت (كيلمارتن) يعملان دأبا كالنحل ... فان (مارى) لم تكد تملك زمام السلطان فى يدها حتى عقدت عزمها على اجراء تغيير تام فى نمط الحياة بالدار ومن فيها ... وكانت خطوتها الأولى فى هـذا أن حملت (مارتن) على استصلاح رقعة الارض الصخرية المهملة الممتدة خلف البيت ، وهى أرض تناهز مساحتها ربع فدان لم تمتد اليها اليد من قبل ، وقد قررت (مارى) أن تجعل منها حديقة لزراعة الخضر .. وقالت لزوجها فى هذا المقام :

ــ ان هذه الارض أفضل كثيرا من الارض التى اتخذ فيها والدى حديقة ... وانظر الآن الى ما استنبته أبى فيها من بصل ولفت وكرنب مما هو خير غذاء فى الارض جميعا ... ما كان لامرىء أن يجوع قط وله شبر من الارض يقتنيه ... واذا فسد فى أرضه محصول كان له فى المحصولات الأخرى خير البديل ونعـــم العوض ... قم يا (مارتن) بتمهيد هذه الارض حتى الربيع ، لكى نبذر البذور فيها وقت ذاك ... وليقل الناس فى ذلك ما يقولون ، لكنا سنضحك منهم ملء أفواهنا حين نأكل مما تنبت هذه الارض لنا !

وكذلك بثت فى(مارتن) من روحها وحميتها ماجعله يشمر عن ساعد الجد ويعمـــل مع (تومسى) فى تفتيت الارض الصـــخرية وتسويتها وخلطها بطبقة من التربة جىء بها من حفرة خلف (الجرن) ...

وكان العجوز يسخر من هذا العمل ويعرض عن المشاركة فيــه بنصيب ، فهو فى نظره عمل انقلابى خطير ، حتى قال فى صدده :

ــ لن تجنوا من هذا غير تقرير زيادة الايجار ، اذ يرون ما يطــرأ على الارض من اصلاح وتحسين .

فانبرت (مارى) ترد عليه قائلة :

ــ لن يكون شىء من هذا الذى تقول ، حتى لو اضطررت الى خنق وكيل المالك بيدى هاتين !

والحق ان (مارى) كانت معينا لا ينضب من النشاط والافكار الجديدة المبتكرة فى كل شأن من شئون الحياة ... وكانت تجــوب الارض من أقصاها الى أقصاها متناولة كل شىء بالتغيير والتبــديل ، حتى لم تتمالك (ماجى) المسكينة أن ثارت لتغير أســـاليب الحياة المعهودة على هذا النحو الصارخ ، وكانت تقول لزوجة ابنها :

ــ لا فائدة من محاولة التخلص من القذارة فى هــذا البيت ... فقد خلق الفقراء للقذارة .

فجابهتها (مارى) قائلة :

ــ اذن ... سأعمل على أن أصبح من الاغنياء ... وقد وجدت أن هذه القذارة هى العقبة الأولى فى طريقى .

وكان (تومسى) أشد المناضلين ضد حملة النظافة هذه ... فقد أصرت (مارى) على أن تكون له حلة جديدة من صوف هذا العام ... ولما اتم الحائك صنع الثياب اللازمة لأصحاب الدار وذهب لشــأنه ، أراد (تومسى) أن يلبس حلته الجديدة فوق أسماله العتيقة ، ولكن (مارى) حالت دونه قائلة :

ــ عليك بالاغتســـال أولا ، قبل أن تضع هــذه الملابس فوق جسدك القذر !

فقال لها (تومسى) :

ـ رحماك يا أختاه ! ... اتحبين أن أموت من البرد ؟

فقالت له :

ـ لا تخف ... من الآن ستحيا حياة انسان كريم

وجاءت بطشت كبير وضعته في غرفة نومها وملأته بالماء الساخن ... ثم أمرت (تومسى) ان يدخل الى الغرفة قائلة :

ـ انزع خرقك القذرة ونظف جسدك ... ادخل معه يا (مارتن) ونظفه بالفرشاة والصابون هذين .

فهتف بها (تومسى) مشدوها مرتاعا :

ـ هل طار صوابك حتى تفعلى بي ماتريدين ؟ .

فضج (مارتن) بالضحك حين شهد ارتياع خاله على هذه الصورة ... وقالت (ماجى) بدورها ساخطة !

ـ ليس من الصواب أن تسخرى من المسكين هكذا !

فردت عليها (مارى) قائلة :

ـ أنا لا اسخر منه ... انما أبتغى خيره ... من المخزى أنه قضى حياته على هذه الصورة ... وسوف ترون فيه رجلا آخر متى فرغت منه .

وعند ذلك صاح (تومسى) وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ أبدا ! لن أدعك تغسليننى وحق القديسين ! ... ان الموت والعذاب والتقطيع أهون عندى من هذا !

واذ ذاك عمد (مارتن) الى (تومسى) المنكود وحمله الى داخل الغرفة غير عابىء بصراخه وهو يقول له :

ـ دعنى أيها الشيطان ! ... اتركنى وشأنى !

وقالت (مارى) لزوجها :

ـ ناولنى خرقه متى نزعتها عن جسده .

وكانت صرخات (تومسى) تسمع على مسافة نصف ميل وقد أخذ (مارتن) يجرده من ثيابه ويغرقه في الماء الساخن ... وبعد أن قذف الخرق البالية الى (مارى) أخذ يدلكه بالفرشاة والصابون في غير ترفق ...

أما (مارى) فقد حملت الأسمال الى الحوض واشعلت فيها النار ... ثم صعدت الى الغرفة العليا بمزبد من الماء والصابون والقت مافيها من الخرق التى هى قوام فراش (تومسى) واعملت في المكان تنظيفا ... حتى اذا مافرغت من هذا كان الفتى (تومسى) قد أتم حمامه ولباسه النظيف الجديد ... فقالت له :

ـ الا تشعر الآن بأنك اصبحت احسن حالا مما كنت ؟

فتكلف (تومسى) الشعور بشدة البرد وجعل يصك اسنانه صكا ويقول متلعثما :

ـ غفر الله لك ياأختاه ! .. ستقع على رأسك تبعة موتى !

وجلس القرفصاء قرب النار يرتجف كأن زوال القذارة عن جسده قد أصابه بهذه الرعدة ... ولكن ما هو الا ان قضى ليلته الاولى فى فراشه النظيف حتى اعرب لها عن عرفانه بالجميل ، وقال مصطنعا التبرم وهو يهبط من عل :

ـ عجبا يا أختاه ! قالوا فى الامثال ان استبدال سيد بسيد شيء كريه ... ولكنى والحق لم اجد مصداقا لهذا الذى قالوه !

وعلى هذه الصورة تقبل افراد الأسرة هذه الحياة الجديدة التى اشاعتها (مارى) بينهم ، وقد اسلسوا لها القياد وهى تغرس فيهم بذور التحضر التى انتقلت مع أبيها النساج الى (الوادى الاسود) ... وكانت (مارى) بدورها سعيدة كل السعادة أن يكون لها حظ تشكيل بيتها الجديد وفق ما تحب وتشتهى ، الى حد أنها لم تلق بالا الى الكارثة المخيمة فى الأفق ...

لكن هذه الكارثة ما عتمت أن اتسع نطاقها فجأة وانتشرت سحبها فوق الوادى كله ... فقد استفاضت شائعة مؤداها أن الحكومة الانجليزية رفضت أن تبذل للشعب عونها ومساعدتها ... وسرعان ما أخذت مواكب المعدمين تجوب طرقات القرية ...

الفصل السادس عشر

جلس الأب (روش) فى بيته مع ضيفيه الدكتور هاينز والقس (توماس جيلان) يتلو عليهما مقتطفات من مقال ورد فى احدى صحف مدينة « دبلن » وهما يصطليان قرب المدفاة وينصتان اليه وهو يقرأ فى انفعال شديد :

« لقد انقطع كل رجاء في معونة تأتي من انجلترا للتخفيف من حدة هذه الكارثة ... فقد كان من أثر الاجتماعات الشعبية العدائية ، ومقابلة المساعدات السابقة بالجحود ونكران الجميل ، والاكتتابات الوطنية لتعزيز حركات الزعماء الوطنيين — كان من أثر هذه العوامل جميعا أن ضعفت لدى أهل البر والاحسان كل نزعة للتيسير على الشعب الارلندى واسداء المساعدة له » .

والحق أن الأب (روش) لم يكد يتم هذه الفقرة حتى فرك الصحيفة بعنف فى يده ونزع منظاره عن عينيه بيسراه وجعل يهزه فى وجه سامعيه وقد احتقن وجهه الملىء المستدير غضبا ... ولم يلبث أن مال نحوهما وهتف قائلا وقد انعكس لهب المدفاة على صلعته فزادها بريقا :

— ذلكم هو جانب من المفتريات التى يسوقها السير روبرت بيل رئيس وزراء انجلترا الى زملائه ! .. أرأيتم كيف يعدون المساعدة المنشودة لونا من الاحسان والصدقة ؟

ثم بسط الأب (روش) ذراعيه نحو ضيفيه واستطرد قائلا :

— ان انجلترا تستولى على خمسة ملايين من الجنيهات سنويا من الايجارات الزراعية وحدها ! .. أو بالأحرى ايجارات الارض التى اغتصبتها اغتصابا وتضع يدها عليها بحكم الغصب والسلب ، وبحد السيف والنار ! .. أجل ! .. خمسة ملايين من الجنيهات عن الايجارات الزراعية وحدها ... ناهيكم بالضرائب التى تجبيها ، وثلاثة ملايين طن من الحبوب تستولى عليها ، ومليون من رءوس الماشية بين ابقار واغنام وخنازير ... والآن ، فعندما ينكب الشعب الارلندى المسكين ، الذى يمدها بهذا الثراء عاما بعد عام ، فى محصول البطاطس الذى تضطره انجلترا اضطرارا الى الاعتماد عليه وحده فى طعامه ، نراها تتحدث عن الصدقة والاحسان ! الا اننا نطلب العدالة ! .. اننا نريد ما هو حق لنا ! ..

فقال الأب (جيلان) باكتئاب وهو يبسط يديه نحو لهب المدفأة .

ـ العدالة !..ما أيسر نيل هذه العدالة المنشودة ونحن نستجديها بالأيدى الخاوية .. ان الأيدى الخاوية لن تنيلنا من انجلترا سوى الهباء والعدم !

فلم يتمالك الدكتور (هاينز) أن تطلع الى الأب (جيلان) مشفقا متحيرا ... فان الطبيب لم يكن حاد الذهن سريع الخاطر ، وما كانت اشارات القس وعباراته الا لتزيده حيرة وبلبلة ... بيد انه من ناحية اخرى كان شديد التعلق بهذا الرجل ، ومنذ عودته الى مقاطعة (كروم) طبيبها الرسمى وهو يزيد تأثرا بشخصية هذا القس العالم الحصيف.

والحق ان الأب (جيلان) كان شخصية فريدة .... فهو برغم غزارة علمه وحدة ذكائه لم يزد فى مراتب الكهنوت عن هذه الوظيفة الثانوية المتواضعة فى الريف مع أنه ناهز الستين من عمره ، فى حين أن من هم دونه سنا ومقدرة قد فاقوه رقيا وغدوا من رؤسائه ... لكن مصابه كان ناجما من تمسكه بآراء سياسية معينة ... فهو يؤمن بالثورة المسلحة ضد الظلم والاستبداد ... ولا شك أن ايمانه بالالتجاء الى السلاح للتحرر من ربقة الطغيان ، كان هو العامل الاكبر فى بقائه قسا مغمورا يعظ قوما جاهلين ...

ولم يلبث الطبيب أن قال للأب (روش) :

ـ وماذا تظن الزعيم (اوكونيل) سيفعل ؟ .

فضحك الأب (جيلان) مرة اخرى متهكما ، على حين وضع الأب (روش) منظاره فوق عينيه وأجاب قائلا :

ـ لن تنجح مساعيه لدى الحاكم العام الانجليزى الذى يأتمر بأوامر رئيس وزراء انجلترا ، وقد عرفت نواياه واتجاهاته .. واخجلتاه ! . انه لعار أى عار أن يطرق (أوكونيل) وزملاؤه من ممثلى ايرلندا المفخمين فى البرلمان الانجليزى ، أبواب الحاكم العام ، سائلين مستجدين !

ثم بسط الأب (روش) الصحيفة مرة اخرى وأخذ يتلو فيها ما نصه :

« وقد عرضت على أنظار الحاكم العام تقارير اللجنة البرلمانية التى شكلت لفحص الحالة ، والتى جاء فيها ان المجاعة والأوبئة ستحل بالبلاد عاجلا اذا لم تبادر الحكومة باتخاذ الاجراءات الكفيلة بدرئها... وكان من أنجع الحلول المقترحة لبلوغ هذا الهدف تشغيل الأهلين فى أعمال تعود عليهم بالنفع ، ومنع اصدار الحبوب الى الخارج ، وانشاء مخازن للغلال فى مختلف الاقاليم تباع فيها بأسعار معتدلة ، ووقف تقطير الكحول من الحبوب الغذائية » .

وتوقف الأب (روش) عن القراءة ، فقال الطبيب معقبا :

ـ انها مقترحات معقولة .

فقال الأب (جيلان) :

ـ ولهذا السبب ترفضها حكومة اجنبية غاصبة تتحرق لهفة لابادتنا كأمة لها كيان متميز .

فاستطرد الأب (روش) يتلو من الصحيفة ما يلى :

ـ وكان رد الحاكم العام أن قال لأعضاء اللجنة بالحرف الواحد :

« ان حالة محصول البطاطس محل عناية بالغة لدى الحكومة .. وقد عهد الى طائفة من العلماء فى انجلترا بالتعاون مع زملائهم فى أرلندا لفحص طبيعة هذه الآفة الزراعية وابتكار الوسائل التى يمكن أن تؤدى الى وقف انتشارها ... ولم يفرغ أولئك العلماء بعد من أبحاثهم ودراساتهم ، ولكنهم أرسلوا حتى الآن تقريرين هما محل الدراسة » .

ومرة أخرى ضحك الأب (جيلان) ضحكة خشنة قائلا :

ـ لقد طلب الشعب الخبز ، فأعطوه تقارير مكتوبة !

وتابع الأب (روش) تلاوة أقوال الحاكم العام :

« والحكومة تتلقى تباعا تقارير رجال الحكم والادارة فى الاقاليم ، بعد أن عهدت اليهم مراقبة انتشار الآفة الزراعية وتطورات حالة المحصول ... وهذه التقارير تختلف يوما عن يوم ، وكثيرا ماتكون متضاربة ... ومن هذا يبدو استحالة تكوين صورة واضحة دقيقة لمدى الاضرار الناجمة عن الاصابة بالآفة ... وهناك مايدعو الى الامل فى انها اضرار جزئية فى بعض المناطق ... فليست الحالة اذن متفاقمة موجبة للتعجيل ... وسأعمل على رفع مقترحاتكم الى مجلس الوزراء ... ولكن أكثر هذه المقترحات لايمكن وضعها موضع التنفيذ الا بتشريعات تسن خصيصا ، ولا بد الى هذا من دراستها الدراسة الوافية قبل تقريرها نهائيا ... فانه لايمكن الفصل فى هذه الامور قبل عرضها على وزراء التاج ومستشاريه ... »

ونظر الأب (روش) الى ضيفيه من فوق حافة منظاره قائلا :

ـ وهل علمتم ماقاله وزراء التاج الانجليزى ومستشاروه فى صدد هذه المقترحات ؟ اسمعوا ماورد فى المقال الافتتاحى عن ذلك ، وهو فصل الخطاب .

وتلا الفقرة التالية من مقال الصحيفة الوطنية :

« ليهلكوا جوعا ! ذلك هو جوهر رد نائب الملك الانجليزى على طلبات الوفد الممثل لنواب ولوردات ارلندا ، فى صدد ملتمسهم الذى قدموه لابقاء الاقوات فى البلاد ، لئلا يهلك الشعب جوعا !.. أجل !.. هذا هو الرد جوهرا ومعنى ، ان لم يكن لفظا ومبنى ! »

وعند هذا الحد نهض الأب (جيلان) من مجلسه وتمطى قائلا :

ـ لكنك أيها الأب (جون) لم تكن تتوقع حقا أن تمد الحكومة يد الغوث والمساعدة !

فالقى الأب (روش) الصحيفة فوق المنضدة واخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يبسط يديه ويقبضهما خلف ظهره ويقول :

ـ لا اعرف ماذا كنت اتوقع ... انى لم يغمض لى جفن منــذ رأيت الناس المساكين يتجمهرون فى القرية منـذ ايام قلائل ... ترى ماذا أفعل ؟ ... ان صيحات أولئك البائسين كخناجر تمزق قلبى ... انهم يأتوننى مستنجدين ، ولا أدرى ما أقول لهم !

فقال الأب (جيلان) ساخطا :

ـ لقد سبق السيف العذل ، ولا فائدة من الشكوى ... انأقوات الشعب الارلندى تذهب الى الخارج ، لتمتلىء بها البطون الانجليزية الواسعة ... لكن يوم السوق كان مناسبة سانحة لنفعل شيئا ، ولنقول للناس مايجب أن يقـال ... كان ينبغى أن نشـير عليهم بأن يحتفظوا بغلالهم ولحومهم لبطونهم هم أنفسهم .

فاستدار الأب (روش) نحوه فجأة وقال له مغضبا :

ـ ماهذا الذى تقول ياتوماس ؟ هل فقدت صوابك ؟

فما كان من الأب (جيلان) الا أن هز منكبيه وراح يقول بهدوء :

ـ كلا ... لم أفقد صوابى ... ولكن الذين فقدوا صوابهم هم زعماء الشعب ، اذ يدعون أقوات الشعب تتسرب الى خارج البلاد ، ثم يستجدون لاسترجاع ماتيسر منهـا ! .. هاها ! لم أسمع فى حيـاتى أسخف من هذا حقا ! .. ليس فى انجلترا من الطعام مايكفى لاشباع الانجليز ، واذن فلتكن ارلندا مخزنا للغلال واللحوم عن كثب ... أليست هذه هى السياسة المرسومة ؟

فقال الأب (روش) :

ـ هذا كلام يلقى جزافا دون تقدير للعواقب .. لو عمد الشعب الى الامتناع عن سداد الايجارات الزراعية نقدا وعينا ، لهيئوا للحكومة الانجليزية الفرصة التى تنتظرها ، ولارسلت جنودها يعملون فى الاهلين العزل المساكين تقتيلا وتذبيحا ، ويطردونهم من الارض مشردين ، الى حيث لا رجاء لهم فى عودة ..

فقال (الأب) جيلان :

ـ ما أحمق هذا الشعب اذا ارتضى أن يبقى أعزل مغلوبا على أمره !

فقال الأب (روش) وقد تزايد غضبه !

ـ انى أعرف ماتريد ... تريدها ثورة مسلحة ، كما حدث عام ١٧٨٩ .

فقال الأب (جيلان) :

ـ اسمعوا ... اسمعوا ! ..

واحتدم النقاش بين الرجلين ، والطبيب الشاب ينصت اليهما باهتمام شديد .. والحق أنه شعر بأنه مسئول الى حد ما عن الكارثة القومية الوشيكة ... فهو منذ طفولته كان يتنازعه عاملان متناقضان ... أحدهما يجذبه الى صفوف الشعب الذى تربطه به وشائج الدم والمنشأ ... والثانى عداوته لهذا الشعب الذى أذاق جده وأباه الهوان فى أيام كفاحه الاولى ... ثم ان والديه كان لهما مطمع واحد هو ان ينشأ ولدهما نشأة السادة الاشراف ... ولهذا حرصا على أن يكون حتى فى طفولته بمعزل عن أطفال القرية المساكين ، كما لقنوه فى المدرسة أن يفاخر بانتمائه الى الرعوية البريطانية ... والنتيجة أنه لم يكد يتم دراسة الطب فى (دبلن) حتى أضحى يحتقر سواد الشعب الارلندى ، ويعده شعبا منحطا يجتهد ماوسعه الجهد ليتبرأ منه ويبتر ما يجمعه به من روابط الفكر والمذهب واللغة والتبعية ...

لكن ماهو الا أن أصبح طبيب المنطقة فى (كروم) حتى شعر بضميره يثوب اليه ، واضحت وشائج الدم أقوى من ذلك اللغو الذى لقنوه اياه فى معاهد (دبلن) ... وجاءت رحلته الى (الوادى الأسود) والتقاؤه بمارى كيلمارتن فأثارا شديد خجله وخزيه من نفسه ... والحق أن تلك المخلوقة ذات المهابة الموفورة قد أظهرت له ما انطوت عليه آراؤه من عبث وخواء ... ومن ذلك الحين اضحى يستبشع الاحوال التى يتقلب فيها شعبه المنكود ، بل أصبح يعد حتى أباه أقرب الى اللصوص وهو يحتال للاثراء على حساب الشعب ... وكذلك كان احساس الطبيب بأنه مسئول الى حد ما عن الكارثة القومية الوشيكة..

ولم يلبث الطبيب أن قال للاب (روش) :

ــ لكن أليس فى مقدورنا أن نفعل شيئا ؟ الا يمكن ان نتعاون لاجراء اكتتاب أو شىء من هذا القبيل ؟

فما كان من الأب (جيلان) الا أن قلب جيوبه ظاهرا لباطن رداعلى هذا الاقتراح ... فأومأ الطبيب ايجابا ، ثم قال :

ــ مفهوم ... لكن القس (كوبرن) يقوم الآن بتشكيل لجنة و..

فهتف الأب (روش) يقاطعه قائلا :

ــ انما يفعل ذلك لتحويل الناس الى مذهبه البروتستانتى ! .. انه يناشد أصدقاءه المساهمة فى اكتتاب سوف يستخدم لتغيير المعتقدات الدينية ! .. انه سيمنح الشعب القوت اذا استحالوا بروتستانت ! انه سيدخل أبناءهم المعاهد لكى يشبوا اعداء لعقائدهم المقدسة !

فقال الطبيب !

ــ مفهوم ... لكن من المؤلم أن نعجز عن كل عمل ! ...

فقال الأب (جيلان) :

ــ لم يبق لنا الآن من عمل سوى الاضطلاع بواجبنا الوحيد .

وفى هذه اللحظة جاءت (جوليا مولنز) المشرفة على شئون البيت متأبطة مفرشا وقالت لرب البيت :

ـ أأنت مستعد لطعام العشاء أيها الأب جون ؟ .

فقال الأب (روش) :

ـ نعم يا (جوليا) . . . وان كنت والله أستحيى أن آكل والناس يتضورون جوعا فى الطريق !

فقالت له المرأة وهى تتقدم بالمفرش الى الخوان :

ـ أوه ! . . . دع هذا اللغو !

واستأذن الأب (جيلان) والدكتور (هاينز) للانصراف . . فتبعهما الأب (روش) الى الباب قائلا :

ـ لاينبغى أن نفقد الامل . . . لابد من حمل الحكومة على العمل . .

كان الظلام حالكا خارج الدار . . . وشعر الطبيب بالاستياء من الأب (روش) لانه لم يستطع ان يرسم له خطة ايجابية للعمل ، وقال له مودعا :

ـ ان رأيت أيها الأب أن هناك ما يمكنني فعله ، فيسرنى أن تزورنى

ـ شكرا لك . . . بارك الله فيك .

وسار الرجلان فى شارع القرية وهما يتلمسان طريقهما بصعوبة وليس لهما من دليل فى هذا الظلام الحالك سوى مصباح حمله الأب (جيلان) عاليا . . .

وقال الطبيب فى طريقهما الى مسكن القس المجاور للكنيسة :

ـ ماذا تظن انه سيحدث أيها الأب توماس ؟

فأمسك القس بذراع الطبيب حتى أوقفه فى الطريق ، وقال له مهموما :

ـ انى أشفق عليك من التفكير فى هذا .

وارتعدت اليد القابضة على كتف الطبيب عندما استطرد القس يقول :

ـ قد لانكون أنا وانت على قيد الحياة لنروى ماسوف يكون . . . انى لاخشى أن تقع فى أرلندا أحداث ستجعل من أبناء امتنا مشردين يهيمون على وجوههم فى الارض ! . . . انى أحلم بأمور كثيرة . . . وفى هذه الاحلام ارى نكبات جساما واقعة حتما . . . لكنى أحلم كذلك ببعث الشعب الارلندى من جديد ، وعودته الى أرض آبائه وأجداده . . فاذكر هذا يابنى ! . . . قلب النظر حولك . . ارهف سمعك الى زفير الريح !.

فجعل الطبيب ينصت الى زفير الريح الدافقة الهابطة من الجبال عبر القرية ، على حين استطرد القس يقول هامسا .

ــ تعلم يابني أن تحب ثرى ارلندا كأنه أمك التي أرضعتك ! .. واذ ذاك ستجد هذا الثرى يناجيك ويفضي اليك بأعمـــق الأسرار وأبهى الخوالج التي ستكون أقوى من كل الصروف والارزاء ! ... انني لا أمل الحلم كلما أرهفت سمعي الى زفير الرياح ... هلم بنا الآن ...

وشعر الطبيب بلون غريب من البهجة وهو يسير الى جانب القس الذي كان له شهيق وزفير يدرج بجسده البدين ... وعلى حين غرة ارتفع من أطواء الظلام صوت يهتف قائلا :

ــ استحلفكم بحق الرحمن أن تغيثوا أما جائعة وطفلها !

فرفع القس مصباحه الى مصدر الصوت ... فبدا لهما في الضوء الحسير وجه طفل يطل من ثنيات شال الام الممزق ... فدس القس يده في جيبه بحركة آلية وسرعان ماقال واجما مكتئبا :

ــ تعالي معي أيتها المرأة الطيبة ... ليس عندي ما أعطيك سوى عشائي .

فقالت المرأة :

ــ بارك الله فيك ياصاحب القداسة ... انني لاأرضى أن آخـــذ اللقمة من فمك وأنت في حاجة اليها ، لكنني في الطريق الى الملجأ هذه الليلة ، وأمامي مسافة عشرة أميال حتى بلدة (كلوجر) ... واني لا أخاف الا على الطفل ، وليس في طريقنا مكان نلجأ اليه .

فأعطاها الطبيب بضعة دراهم ثم سلم على القس مودعا وهرول في طريقه الى فندق أبيه الذي كانت أنواره تلمع من بعيد وقد ساورته رعدة كأنما مسه البرد .

وما كاد يدنو من الفندق حتى رأى مركبة واقفـة ببابه ، وسمع صوتا يناديه قائلا :

ــ تعال معي حالا ياسيدي ! .. قد أصيب السيد بجرح .

كان المتكلم هو (ريلي) سائس (شادويك) ... وقـد ناقشـه الطبيب برهة ثم أسرع الى الداخل في طلب حقيبته ...

الفصل السابع عشر

هرول الطبيب عائدا بعد قليل وبيده الحقيبة واستقل المركبة الصغيرة ، فألهب (ريلى) ظهر الجواد بسوطه وانشأ يصيح بصوته الحاد قائلا :

ــ هي الخمر ! ... انه ذهب عنا بعد تحصيل الايجارات ، ثم رجع وهو فى حالة سكر شديد وعربدة ! .. لقد جاءنا اليوم السيد (برودريك) وانهمك الاثنان فى لعب الورق ... ولما رأيناه بعد ذلك كان مصابا بقطع فى حلقه والدم ينزف منه غزيرا كأنه خنزير مذبوح !

واستحث (ريلى) الجواد حتى راح يركض ركضا عنيفا جعل المركبة تتخبط فى سيرها بصورة خطرة ، وما برح (ريلى) يصيح مبينا كيف قاموا بالاسعافات الاولية لوقف النزيف ريثما يصل الطبيب ...

ولما وصلت المركبة الى القصر وقفت بعنف حتى كادت عجلتها القريبة تتهشم فى الدرج ... فهرع الطبيب الى البهو حيث قابلته امرأة مهدلة الثياب بادية المشيب وقالت له وهى تعصر يديها :

ــ أسرع ياسيدى ! ... ان الدم اخذ يتدفق منه مرة أخرى !.. اننا لانستطيع تهدئته وهو فى فزع من الموت ! .. من هنا ياسيدى !

فارتقى الطبيب و (ريلى) خلفها الى غرفة (شادويك) ...وهناك شاهدا (ايلى جليسون) وامرأتين أخريين يصارعن (شادويك) فوق الفراش الذى غرق فى الدم كأنه ساحة قتال ... فقد تخضب وجهه بالدم كما تخضبت الفوط التى لفت حول عنقه حتى غدت كعقدة حبل المشنقة ... وخضب الدم أغطية الفراش وملابس النسوة الثلاث جميعا ... وقد تصور الرجل أنهن يردن قتله ، فما كاد يبصر الطبيب حتى صاح مستنجدا به :

ــ انقذنى منهن !

وبنظرة واحدة من الطبيب أدرك أنه جرح غير خطير ... فان (شادويك) لم يعد أن أجرى النصل بسرعة فوق حلقه فشق طبقة اللحم السميكة فوق البلعوم دون القصبة الهوائية والاوردة ، وان سال الدم غزيرا برغم ذلك ...

وقد قال له الطبيب :

ــ تمالك نفسك ... انه لايزيد عن جرح سطحى فى اللحم .... وستكون بخير .

وجعل (شادويك) ينتحب ويشهق كالطفل وقد زاغت عيناه وأخذته رجفة شملته من رأسه الى قدميه ...

وأنشأ الطبيب يقوم بمهمته بمساعدة النسوة حتى تم له رتق الجرح وتضميده . ومن عجب أن (شادويك) احتمل الرتق بشجاعة لم تكن منتظرة منه ، حتى لكأنه فى منعة من الالم الجثمانى ، ولكنه فزع مروع من شىء يستبد بعقله ..

وقال له الطبيب حين فرغ نهائيا :

ـ أرأيت ؟ ... هانت ذا بكل خير !

فاضطجع (شادويك) خائر القوى يرتجف بعنف ... وما لبث أن أغمض عينيه واستسلم لنوم مضطرب على حين كان الطبيب يغسل يديه ...

وهمس الطبيب للنسوة قائلا :

ـ عليكن بمراقبته جيدا ... من منكن تشرف عليه شخصيا ؟

فقالت (مارى هالوران) المراة المهدلة الثياب البادية المشيب مشيرة الى (ايلى جليسون) ، بلهجة عدائية :

ـ انها هى التى تشرف عليه ياسيدى .

وانتفض الطبيب حين فطن من فوره الى المشابهة بين (ايلى) وشقيقتها ، هذه المشابهة التى كانت الآن على اشدها بسبب ماعترى الفتاة من بالغ الانفعال . فقد بدت مضطربة يلوث الدم خدها الايمن ، وقد ارتعشت شفتاها كأنما كانت مجهدة من أثر الجرى ... فقال لها الطبيب :

ـ هل بك مرض ؟

فأجابت وهى تهز راسها سلبا :

ـ أيمكن أن أتكلم معك فى الخارج ؟

فتبعها الى خارج الغرفة ... فذهبت به الى غرفتها المجاورة وأغلقت الباب ، وراحت تقول له بانفعال شديد وقد تعلقت به :

ـ أنك تسدى الى جميلا ياسيدى اذا كتمت هذه المسألة ... لو سمع أبى بما حدث لساءت العاقبة واضطررت الى الخروج من هنا، وأنا لا ريد هذا لانه لايجد من يعنى به غيرى ، أما الآخرون فلا يهمهم اذا أهلك نفسه ! .. ان الخمر وحدها هى التى تفسده ... استحلفك ياسيدى أن تقول ان ماوقع لم يكن سوى حادث عارض ... فهلا فعلت بالله ؟

فقال لها الطبيب مندهلا :

ـ انني لاافهم !

ـ عدنى الا تقول شيئا ! ..

ـ انى لا أفهم قصـــدك ... ما الذى يلزمنى بوعد كهـــذا ؟ ... ما الذى جرى ؟

ـ هلا وعدتنى بالله ؟

ـ من تكونين أنت ، على أى حال ؟

ـ أنا (ايلى) ، ابنة (بارتى جليسون) النساج ..

ـ آه ... هذا ماقدرته ... اريد أن تقصى على كل شىء ...

فشبكت الفتاة يديها فوق صدرها وراحت تقول :

ـ انها قصة يطول شرحها ... لقد جاء مستر (برودريك) الى هنا صباح اليوم وأخذ الاثنان فى لعب الورق .. ولبثا طول النهار يلعبان ويشربان الخمر .. وبعد انصراف مستر (برودريك) قال لى السيد أن الضيف غشه فى اللعب ، ومما زاده هياجا أن مستر (برودريك) ربح منه الجواد الذى ابتاعه من الكولونيل (بودكن) ... وعند ذلك أشرت عليه بالنوم والراحة بعد أن ظل يعربد أياما . فجلس فى فراشه يندب ويبكى ويتحدث عن أبيه ، اذ كان كلما انتابته هذه النوبات يتكلم عن أبيه وما لطخ به اسمه من العار ... وبينمـــا كنت أعاونه فى خلع حـــذائه الضخم اذ استدار الى فجأة وسبنى سبا قبيحا ... ولما رددت سبابه بمثله هاج وماج وامتدت يده الى موسى قريبة منه ، وهجم بها على ... فجمدت مكانى رعبا وأيقنت أنى هالكة لا محالة ، لانه كان اذا سكر فقد وعيه وتملكه الجنون ... على انه مالبث أن ضج بالضحك وقال لى :

ـ خذى الموسى ! .. خذيها واجهزى على ! .. أنا مخلوق لافائدة من وجوده ! .

فجعلت أهدىء روعه واسكن ثائرته ... ولكنه صرخ فى وضرب حلقه بالموسى ، فانفجر منه الدم غزيرا ! .

فهتف بها الطبيب قائلا :

ـ يا الهى ! .. ولماذا تريدين البقاء هنا بعد هذا ؟! ... ان هذا رجل مجنون ! ... ولابد من الابلاغ عنه .

ـ أواه ... كلا ياســـيدى ! أنت لاتعـــرف ماتقول ... انه ليس مجنونا ... ان آفته هى السكر والافراط فى شرب الخمر ! ... الايمكن على أى حال أن تتمهل حتى الصباح وتتكلم معه ؟ ... وعند ذلك تقدر بنفسك ... لو تسرب هذا الحادث الى الخارج لاضطررت الى مغادرة القصر ! ...

فقال لها الطبيب متضايقا :

ـ لكن لماذا تريدين البقاء هنا ؟

فأجابت فى تبرم .

ـ لان هذا ما أريده .

فقال الطبيب :

ـ هذه مسألة لا أفهم أولها من آخرها !

فهتفت به وقد طوقت عنقه بساعديها :

ـ عدنى قبل ذهابك ألا تقول لأحد .

فقال الطبيب بصوت أجش وقد غالبه شعوره :

ـ أعدك .

فقالت له الفتاة مغتبطة قريرة العين :

ـ شكرا لك ... بارك الله فيك .

وعادا الى غرفة (شادويك) ... فألفيا الجميع يتهامسون ، وما برح (شادويك) مستغرقا فى رقاده المضطرب ... وبعد أن لقنهم الطبيب تعليماته بصدد المريض أومأ الى (ريلى) أن يتبعه ... فقال له هذا همسا وهما يهبطان السلم :

ـ لم يقع ضرر كبير برغم ذلك .. لقد أخبرتنى (مارى هالوران) أن ماحدث كان بسبب خسارة الجواد فى اللعب ... لكن شيئا كهذا لايمكن أن يؤدى الى هذه المتاعب ... وليس مستر (برودريك) بالذى يستغل وجود صديقه فى حالة سكر ... ألا قبح الله الخمر ! ... انها أشد آفة ينكب بها الانسان !

ودرجت بهما المركبة الى الفندق وقد انهمر المطر ، وما أن ابتعدا عن القصر حتى مال (ريلى) فى مقعده وقال همسا :

ـ ان تلك الفتاة النكدة هى سبب هذه المتاعب ! .. فقد اختل عقل السيد منذ قدومها الى البيت ! ... انه لم يكن كذلك من قبل!.. كلا ... ليقل الناس عنه ماشاءوا ، لكنه كان يعاملنا دائما معاملة كريمة .. ولو كنت مكانك ياسيدى لما صدقت كلمة مما قالته تلك الفتاة .

فقال له الطبيب :

ـ ماذا تعنى ؟

فأجاب (ريلى) :

ـ ان لها سلطانا عليه ! .. انى لم اعرفه نظر قط الى امراة طيلة السنين الماضية ، حتى جاءت هذه الفتاة الى القصر ... انما كان الشراب كل همه ... لكنه أصبح بعد مجيئها خطرا على نفسه وعلى كل من حوله !

فقال له الطبيب :

ـ اذا لماذا تبقون معه وهو بهذه الحال ؟ . . . ان رجلا كهذا يجب وضعه فى مستشفى الامراض العقلية .

فقال (ريلى) :

ـ لا ياسيدى . . . لاتضع تقريرا عنه . . . ان الفتاة هى السبب . . . يجب حملها على الرحيل . . . ان مستر (شادويك) لايضر احدا.. وليس أكرم منه طبعا وهو متمالك شعوره . . . ارجو الا تبلغ عنه ياسيدى ، والا فقد منصبه ونكب الناس بشر منه .

فلم يتمالك الطبيب أن ناجي نفسه بهذه العبارة :

ـ نعم ... ما أكثر حب الناس لهذا الجابى المخيف المخمور !

ولما بلغا الفندق قال له (ريلى) :

ـ أتحب ان أجىء بالمركبة صباحا ؟.

فأجاب الطبيب :

ـ كلا . . . سأذهب سيرا . . . ولك أن توقظنى فى الليل اذا حدثت مضاعفات . طابت ليلتك .

وشعر الطبيب باضطراب عصبى شديد وضيق بالغ . . . ولما قابلته أمه فى البهو جعلت تهول لابتلال ملابسه ، وقالت له :

ـ اصعد الى فوق واخلع ملابسك حالا .

فقال لها مغضبا :

ـ آ ! .. لاتضايقيننى ! ... أحسبتنى واهيا ضعيفا الى هذا الحد ؟

وذهب الى غرفة البهو التى كانت من قبل بمثابة غرفة جلوس وطعام مشتركة ، ولكنها خصصت فيما بعد مكتبا للطبيب ، وقامت بها خزانة حديدية يضع فيها أبوه أمواله ومستنداته . . . وكانت غرفة مستطيلة ضيقة ، يتوسطها خوان أعد جانب منه لتناول طعام العشاء ، وتوهجت فى مدفأتها نار أشاعت الدفء فى جو الغرفة . . . وما لبث الطبيب أن جلس أمام المدفأة وبسط يديه الى اللهب ، وناجى نفسه قائلا :

ـ ماذا دهانى ؟ .. ما الذى جعلنى أخاشن أمى على هذه الصورة؟

ثم اعتمد رأسه بين كفيه وقال بصوت مسموع :

ـ رحماك ياربى ! .. انى سأجن فى هذا البيت ؟ . . . ماكان ينبغى أن أرجع الى هنا !

وارتعد حتى بسط يديه مرة أخرى نحو اللهب . . . واقبلت أخته تحمل اليه طعام العشاء ... لكنها لم تكلمه ، بل دنت من الخوان

ببطء خافضة البصر متصلبة الجسم ، تسير وكأنها تثب ... وكانت كبيرة الشبه بأخيها ، ذات شعر ذهبي غزير ، وقوام أدنى الى القصر والامتلاء ، وتقاطيع صغيرة ... وكانت تشاركه نظراته القلقة واحساسه بالضعف الذاتي ، وكانت هذه الصفة أشد بروزا فيها بسبب مامنيت به من اعتلال المعدة منذ الصغر ، مما جعلها دائمة الوجوم مرهفة الاحساس ... وكان الناس يتغامزون عليها لصمتها ولانها أحيانا قد تضحك وحدها ، دون سبب واضح .

وقال لها الطبيب :

ـ ماهذه الضجة التي أسمعها في المطبخ يا (بريجيت) ؟

فتمتمت كلاما مبهما وهي تضع الطعام فوق الخوان ، ثم تسللت خارجة من الغرفة كأنها شبح ... فنظر الطبيب في أثرها مستاء ثم أرهف سمعه الى صوت الضحك العنيف المنبعث من المطبخ ... ولما عرف صوت (ريلي) تملكه أشد الغضب حتى ناجي نفسه قائلا :

ـ انه يتخلف هنا لاهيا ضاحكا بدل أن يذهب للعناية بسيده .. ياله من عديم الشعور !

وبدأ يتناول طعامه وهو يفكر مهموما في حياته التعسة ... جبال موحشة جرداء ... ووديان قاتمة ، ومستنقعات ممتدة ، وقرية بائسة ـ كل أولئك روعه ترويعا ، وضاعف من وجومه وهمومه ... لقد أوصاه القس أن يحب الثرى كما يحب أمه ... فياله من هراء ! ... لقد ريع لمجرد التفكير في قضاء حياته كلها بين هذه المعالم المكتئبة الموحشة ، محروما من أنس الحياة وبهجتها ، لايربطه بالعالم الخارجي سوى مركبة البريد التي تأتي مرتين في أسبوع من ميناء (كلوجر) ... وما تكون (كلوجر) هذه ؟ .. وماذا يجد الانسان فيها أكثر مما يتطلع اليه من لاتتجاوز مطالبه احتياجات الحيوان الا قليلا ؟ الا انها لاتفضل بلدة (كروم) التاعسة الا في الاتساع وامتداد الرقعة ...

ولم يلبث أن لعن أسرته اذ حاولت أن تجعل منه سيدا ، واذ أذكت فيه مدارك ورغبات لا يستطيع اشباعها ، واذ فتحت له رحابا مشرقة ثم ردته الى ظلمات قريته الراكدة الآسنة .

لقد زعمت الاسرة انها تضحي بنفسها من أجله ، وبعثت به الى المدرسة والى الكلية لتثقيفه ، وآثرت الآن أن تقيم في المطبخ لكي تفرد حجرة خاصة لسيد الاسرة .. فما جدواه من البقاء في هذا المكان وحيدا منزويا ، وهم يلهون في المطبخ وينصتون الى أحاديث (ريلي) عما يجري في القصر ؟ .. أسيد هو حقا ؟ .. انهم يوالونه بالرقابة وكأنه ما يزال حدثا غريرا .. انه لا يستطيع أن يتناول الشراب ولا أن يعابث الفتيات كغيره من الرجال .

آه ! .. هنا موطن العلة ! .. ان ذكرى (ايلي جليسون) لم تكد تعرض له حتى وضع السكين والشوكة وجعل يحدق في الخوان مأخوذا

مضطربا ٠٠ ولما اشتد اضطرابه واستبد به شعوره نهض واتجه الى المدفأة راجفا راعشا ٠

وفي هذه اللحظة أقبل أبوه يحمل سجلا وكيسا صغيرا به حصيلة اليوم من النقود ٠٠ فتفرس في ولده من تحت حافة قبعته السوداء وهو يسير خافض الهامة الى الخزانة الحديدية ، ثم قال بصوته الكئيب :

ـ كنت في القصر ٠٠ قال لنا (ريلى) السائس ان (شادويك) مريض ، بعد أن سقط وجرح ٠٠ أكانت الخمر هى السبب ؟ أين أصيب بجرحه ؟ ٠٠ وكيف وقع له هذا ؟

وكان أبوه يلقى هذه الأسئلة المتلاحقة وهو لا يحفل بارتقاب جواب عنها ٠٠ فلم يتجشم الطبيب عناء الجواب ٠٠ والواقع أن الصلة بينه وبين أبيه كانت فريدة في بابها ٠٠ فهو يزدرى هذا الأب ويكرهه ، ولكنه كان يخشاه في الوقت نفسه ٠ بل كان الرجل العجوز موضع الازدراء والمقت من كل انسان ، لكنه كان يملك القوة ، على حد تعبير الناس ، ومن أجل هذا كان موضع الخشية ٠٠ ولم يكن موقف الطبيب منه الا صورة لشعور الناس خارج البيت ٠٠ وكذلك انعدمت بينهما كل رابطة شخصية ٠٠٠ والحق أن (جون هايتز) لم يتحر قط أن تكون بينه وبين أحد من الناس مثل هذه الرابطة الشخصية ٠٠ فهو لم يجد فى حيـــاته وقتا لذلك ، ولا هو انبعث اليه بميل ذاتى ٠٠ وانما جعل أكبر همه تهيئة أســـباب (القوة) ، ليكون فيها الترضية والعوض عما تجرع فى طفولته من هوان ومذلة ٠٠ وما كان توجيه ولده ليصـــبح طبيـــبا الا جزءا من سياسة (الترضية) التى شرعها لنفسه !٠٠

وقال الأب وهو يجلس فى مقعد أدناه من الخزانة :

ـ تبا لشادويك !.. كان أولى له أن يسدد لى ما هو مدين به ٠

فلم يتمالك الطبيب أن نظر الى أبيه مغضبا وهو منهمك فى اخراج مفتاح الخزانة من جيبه ٠٠ بيد أنه أمسك عن التعقيب حين قـــدر أن السكوت يمكن أن يكسبه الرضى وأن يهيىء له الفرص التى قـــرر أن يقتنصها فى البيت أو خارجه للترويح عن نفسه ٠٠

واستطرد الأب يقول وهو يدير مفتاحا عصيا فى قفل الخزانة :

ـ انه مدين لى حتى الآن بأكثر من ثمانين جنيها ٠٠ والأمل ضعيف فى أن أفوز منها بدرهم واحد ٠٠ لقد تغـــير الزمن ٠٠ وقلت الامانة بين السادة الأكابر ٠

وانفتـــح باب الخزانة ٠٠ ودس الرجل يده السليمة فى الكيس وجعل يعد النقود فى شغف واعزاز وهو يضعها داخل الخزانة ٠٠ ثـــم استودعها السجل أيضا وأغلقها كما كانت ٠٠ واستوى قائما وهو يدير المفتاح الكبير حول أصبعه ، والتفت الى ولده قائلا :

ـ ماذا قال الاب (روش) عن نتائج اتصال الوفد البرلمانى بالحاكم

العام ؟ ·· هل في نيتهم أن يدبروا للناس عمـــلا ؟ ·· أم أن الوفد باء بنتيجة غير سارة ؟·· ان هذا هو ما أقدره ، فان رجال الحكومة الانجليزية قوم من الخطافين ·· وليس الشعب بخير منهم ·· لم لا يذهب الناس الى الملجأ ؟ ·· الست وأمثالى نمدهم بمالنا ؟·· لكنهم يفضلون التســـول والاستجداء على البقاء هنـــاك ·· هيه ! ·· لم تبق فى النـــاس أمانة ولا شرف !

فلم يجب الطبيب أيضا ·· فدس العجوز الكيس الخاوى فى جيب سترته وسار الى الباب خافض الهامة كما جاء ، ويده العاجزة قريبة من جنبه كمن يحصل شيئا ·· وغمغم قائلا لدى الباب :

ـ السيد شادويك ·· ياله من سيد بديع ·· ان حظى ضئيل فى استرداد ما ··

وذهب ·· ومرة أخرى وضع الطبيب رأسه بين يديه وجعل يفكر فى حال أبيه وهو مفعم النفس كراهية ·· فهو لا يجد فى سجل حياته الماضية ما يثير عنده الرقة والحنان من هذه الناحية ، وهو لا يذكر فى أبيه سوى تلك النظرات الجائعة المقيتة ، وتلك الهمهمة التى لا تنقطع عن المال ، وذلك النحيب المتصل عمـــا يوجد فى البيت من عوامل الاسراف والتبذير ··

وجاءت بريجيت ورفعت الصحاف فى صمت ·· وقد حاول الطبيب أن يطالع قصة قديمة عنوانها (معركة أوجريم) بيد أنه لم يلبث دقائق حتى ألقاها جانبا ونهض قائما ·· وهتف فجأة وقد بســـط قبضتيه ملوحا :

ـ لقد شبعت من هذا كله ومللته ·· سأعيش بعد الآن كما يحلولى ·
وقضى الطبيب ليلة ممضة ثقيلة ذاق فيها الامرين من هذه الثورة العاتية التى استبدت بمشاعره ·· فلما كان الصباح أفطر وقد عقد العزم على الذهاب الى القصر ··

كان اليوم صحوا مشرق الشمس ·· وفى طريق القرية الرئيسى انتشرت جموع الناس ممن هاموا على وجوههم قادمين من صميم الريف فى طلب المساعدة وقد بدت لهم القرية ملاذا ومصدرا للرزق ·· فلما بلغوها فعلا راحوا يتسكعون هنا وهناك حيارى عاجزين ، لا يجدون ما يملئون به بطونهم الخاوية سوى دفء شمس الشتاء ··

وفى الحق ان مشاهد الجيـــاع الحيارى اليائسين كانت فى الايام الاخيرة تمض الطبيب وتملأ نفسه خجلا لعجزه عن اسداء العون ·· أما اليوم فانه لم يحفل بهذا ولم يلق اليه بالا ·· فمنـــذ ليلته الماضية التى باع فيها نفسه للشيطان أصبحت مصاير الفقراء المساكين لا تعنيه فى كثير ولا قليل ··

وما كاد الطبيب يدنو من القصر حتى شـعر بقلبه يخفق عنيفا ·· وصادف فى طريقه أحد الخدم يسوى الحشائش بمنجلة ·· ولما أبصره

الطبيب يحدجه بنظرات غريبة وقد اتكأ على المنجل شـــعر بوجهه يلتهب خجلا وكأنما تسلل الرجل الى ذات نفسه وأدرك ما جاء به الى هذا المكان.

على أن الرجل قال له مجيبا :

ـ انه أحسن حالا ياسيدى .

ودلف الطبيب الى البهو .. فوقف برهة مترددا .. ولم يكن أحد حوله . وفجأة عرته رعدة شديدة حتى أراد أن يفر من القصر .. وتلفت حواليه متلصصا وهو يستعيذ بالله مما تملكه من اغراء الشيطان ..

الفصل الثامن عشر

حدث في خلال الفترة الممطرة التى أعقبت يوم السوق أن اشتبكت (كيتي هرنون) مع جارة لها في معركة سباب حامية بسبب حجر ألقاه أحد أبناء (كيتى) على دجاج الجارة ٠٠ وفي أثناء المعركة المحتدمة عيرت الجارة (كيتى) بما عيرتها به (مارى كيلمارتن) من قبل ، من تكلف الكبرياء مع التسول والاستجداء ٠٠ فكان هذا التعريض مدعاة لخجل كيتي وخزيها حتى ارتدت الى دارها باكية منتحبة ٠٠ فلما عاد زوجها (باتش هرنون) من الخارج وعلم بما جرى ، خرج الى زوج الجارة متحدياً مناجزا حتى لقد خلع سترته ووقف في الحارة غير عابيء بالمطر وبيمناه حجر كبير وجعل يسب جاره سبا قبيحا ٠٠ وكان الجار المسمي (هالوران) رجلا هاديء الطبع ، ولم يلبث أن خرج من بيته يحاول تهدئة ثائرة هرنون قائلا له :

ـ ان الأحمق من يشترك في معارك النساء وهي كلام في كلام ٠٠

فما كان جواب هرنون الا أن قذف الجار بالحجر في صدره حتى سقط هالوران على الارض وهو يتألم ويتوجع ٠٠ وعند ذلك فر هرنون هاربا الى الجبال معتقدا أنه قد قتل جاره ٠٠

وقد أسرع الجيران ونقلوا هالوران الى داره حيث تبين أنه لم يصب الا بجرح من ضربة الحجر ٠٠ ولكن هرنون الذى كان يجهل هذا ظل يجرى في شعاب الجبل وقد اشتد به الخبل الذى كان يراوده منذ حين حتى جن جنونه أو كاد ٠٠ وقد خيل اليه لفرط ما به أنه رأى العين الشريرة تطارده أينما ولى وجهه في مسالك الجبال ومغاورها ، حتى هم أن يلقى بنفسه في البحيرة السوداء المستقرة بين أحضان القمم الجبلية ، تخلصا من مطاردة العين الشريرة له ، فلم ينقذه الا صياح زوجته التى لحقت به ورأت ما هو مقدم عليه ، فجعلت تلوح له بيديها صارخة ٠٠

هنالك ثاب الى الرجل المنكود بعض صوابه ، ووقف ينتظر حتى لحقت به كيتى التى هتفت به قائلة :

ـ ماذا أصابك أيها الأبله ؟٠٠ هل جننت ؟ أظننت أنك قتلت (ميك هالوران) ، ولهذا هربت ؟ ٠٠ انى جئت خلفك خوفا من أن تمضى في طريقك حتى مقاطعة (مايو) ، فأنا أخبر الناس بجبنك !

فقال لها هرنون :

ـ هل مات هالوران ؟

فأجابته قائلة :

ـ ليس به شيء ٠٠ الآن عد الى بيتك يا أبله ٠

فأخذ هرنون يضحك ، وقال بلهجة غريبة :

ـ اذن فقد كانت العين الشريرة مخطئة !

فقالت (كيتي) مذهولة :

ـ عم تتحدث يا رجل ؟

فضحك مرة أخرى ضحكة الجنون ، قائلا :

ـ اني رأيت العين الشريرة ٠٠ وكانت تتبعني في كل مكان بين الجبال ٠٠ اني سأطلب الى العمة (كاتي) أن ترقيني من العين ٠٠ اسرعي لكي ندركها الليلة ٠

فارتاعت الزوجة من كلامه وهيئته ، ولكنها عجلت معه بالعودة الى القرية ٠٠ وفي الطريق لقيهما أكبر أبنائهما ، فذعر الصبي لما ارتسم في عيني أبيه من علائم الجنون حتى اختبأ خلف صخرة ولم يخرج الا بعد أن لاطفته أمه وهدأت روعه ٠٠ وكان بعض أهل القرية قد خرجوا للبحث عن الهارب ، فلم يكادوا يرون نظراته حتى أيقنوا أنه رأى العين الشريرة مافي ذلك شك ، اذ كان ذلك وصفهم لمعنى الجنون ، وقد همسوا في أذن كيتي قائلين عندما بلغت بزوجها البيت :

ـ عليك بطلب الحكيمة ٠

فتركت كيتي زوجها في رعاية بعض الجيران وسعت من فورها الى (حكيمة الوادي) ، وكانت تمارس ألوانا من السحر والشعوذة على نحو ما كان شائعا في ذلك العهد ٠٠ وجاءت وقامت بطقوسها المريبة الغريبة التي وجدت تربة خصبة في عقول الجهال ، حتى ظن الجميع أن هرنون شفي حقا من لوثته وبريء من فعل العين الشريرة ٠٠

غير ان (هرنون) وان كان قد شفي من العين الشريرة ، ما برح مخبولا يتخبطه المس ٠٠ فقد كان يشعر في رأسه بضربات كوقع المطارق ٠ وكان يرى في هذه الضربات تذكيرا له بأنه سيطرد من أرضه طردا ان لم يسدد متأخر الايجار ٠٠ وكانت الضربات تقول له فوق ذلك ان الناس قد تحالفوا ضده واجتمعوا على اهلاكه والقضاء عليه ٠٠ لكنه برغم ذلك قد توسل بالحيطة والمكر ٠٠

وتطورت حاله حتى أضحت زوجته وأطفاله وجيرانه جميعا يخافونه ويبتعدون عن طريقه مااستطاعوا الى ذلك سبيلا ٠ ٠ وسعى اليه (هالوران) يوما وكان أشد الناس خوفا منه فأهدى اليه أرنبا اقتنصه كلبه في الجبل ٠٠ لكن هرنون طوح بالارنب من فوق سياج الارض وصاح بجاره قائلا :

ـ لن آخذ منك لحما ٠٠ ان عندي سمكا مقددا وان لي غنما ترعى في

الجبل ٠٠ وعندى كذلك حمـــار وبقرة أملأ من لحمهـــا بطنى ٠٠ ولن يستطيع أى جاب أن يأخذ ماشيتى منى ٠

وبعد ذلك أصبح الناس يبتعدون عنـــه كلما رأوه فى طريقهم ٠٠ وأصبح هو نفسه راغبا عن لقائهم ٠٠ وظل الحـــال كذلك حتى كان يوم قال فيه لزوجته :

ــ اننى ذاهب الى (كروم) لمراقبتهم ٠

قالت كيتى :

ــ من هم ؟

فأجابها قائلا :

ــ المحضر وأعوانه ٠

ثم ركب حماره وقصد الى القرية ٠٠ وعندما مر ببيت (كيلمارتن) رآه مارتن وتومسى وهما يفلحان حديقة الخضر الجديدة ، فصاحا مسلمين، ولكنه لم يرد التحية ، فقد سلكهم فى عداد أعدائه ، اذ كانوا هـم الذين دفعوا لشادويك جنيهين من متأخر ايجاره ، فمهدوا للنـــاس أن يدمغوه بالتسول والاستجداء ٠٠

وكذلك فعل عندما مر ببيت (جليسون) النساج ، فقد بصق وتوعد بالانتقام ٠٠ أليست (مارى) هى القائلة :

« عجبا لأناس يشمخون بأنوفهم ، وهـــم لا يستحون من التسول والاستجداء !٠٠ »

ووصل هرنون فوق حمـاره الى القرية حين كان الطبيب يدلف الى القصر ٠٠ وسرعان ما راودت الآمال هذا المسكين حتى قال لنفسه :

ــ حمدا لله ياربى !٠٠ لعـــل مستر شادويك على وشك الموت ٠٠ وعندئذ قد أجد العون عند خلفه ٠٠

وهمز الحمار بعقبيه ليستفسر من الطبيب ٠٠ غير أنه ما كاد يبلغ البوابة حتى ألفى الطبيب قد اختفى عن نظره فى الداخل ٠٠ فخاف أن يتبعه ٠٠ وسار فى القرية حتى اذا وجد أناسا من أهل الجبل يتسكعون، سألهم عما دعا الطبيب الى دخـول القصر ومعه حقيبته الصغيرة ٠٠ لكن أحدا منهم لم يستطع أن يمده بالجواب الشافى ٠٠

ولم يلبث حوالى الظهر أن شاهد الطبيب عائدا من القصر الى الفندق ٠٠ فذهب اليه وقال له :

ــ رعاك الله يا صاحب السيادة ٠٠ أهناك مريض فى القصر ؟

فوقف الطبيب ونظر اليه وهو يتمايل يسيرا وقد فاحت منه رائحة الخمر قوية ملحوظة واحتقنت عيناه ٠٠ وما لبث أن زم شفتيه ومضى فى

طريقه دون أن يتكلم ·· ففزع (هرنون) لما رأى وقفل راجعا الى داره ·· ولم يحل هذا المساء حتى صعد الى الجبل وجاء بنعجة مما يملك وذبحها وذهب بها الى الدار ·· فلما سألته زوجته مروعة عما دفعه الى هذا العمل قال لها في جنون :

ـ انهم في القصر يشربون الخمر من مالى الذى أخذوه سدادا للايجار ان مستر شادويك دعا الأعيان لمشاركته في الشراب ·· لقد رأيت الطبيب خارجا من القصر مخمورا ··وحق السماء لأذبحن ماشيتي ولآكلنها أكلا ، حتى اذا جاء المحضر ومعاونوه لم يجدوا شيئا يأخذونه ·

وقامت الاسرة ليلتها واليوم التالى تأكل النعجة الذبيحة ·· فلما أتوا عليها ركب (هرنون) حماره وذهب الىالقرية مرة أخرى ·· لكنه ذهب هذه المرة أشد جرأة وأوفر عزما بمـــا استنبط لنفسه من هذه الخطة الجديدة القائمة على الدهاء واستغفال أعدائه ، وبما امتلأ به بطنـــه من هذا اللحم الموفور ·· وكان من أثر هـــذا أن خرج هرنون عن الصمت والحيطة ، فجعل يطوف هنا وهناك في صلف وغطرسة مفـاخرا بدهائه متوعدا أعداءه ·

ولم يلبث (هيجارتى) الجابى أن سمع بأن هرنون يذبح غنمه · وعلم بالسبب الذى من أجله يفعل هذا ·· فقد كان حتما أن يعـــلم بعد أن أصبح هرنون يرفع عقيرته في شوارع القرية بين النـــاس الذين كانوا يجتمعون حوله لسماع هذيانه قائلا :

ـ أيها الناس الاخيـــار ·· اعلموا أنه قد ورد في كتاب القديس (كولمسيل) أن جيش الطغاة سيأتيكم من شرقكم ، وسيجرد أرضكم من كل شيء ·· سيأخذ منكم كل دابة تمشى على أربع ، وسيبذر في أرضكم الجدب فلا تنبت شيئا ، ولن يترك لكم سوى الطاعون يتفشى في أعقابه ·· فاستعدوا لهم ، وكلوا كل ما ملكت أيديكم ، فاذا جاءوا لم يجدوا شيئا وضعفوا من شدة الجوع ، وعنـــد ذلك يتهيأ للفقراء الشرفاء أن ينقضوا عليهم ويبيدوهم عن آخرهم ·· وهنالك تتحرر البلاد ، وترتفع عنهااللعنة والضر ·

وسعى (هيجارتى) من فوره الى شادويك وقص عليه ما يقول هرنون وأضاف من عنده قائلا :

ـ ان لم تبادر يا صاحب السيادة بوضـــع حد لهذا الكلام وتظهر للناس قوتك وبأسك فسيعجلون جميعا بذبح أغنامهم وماشيتهم · واذ ذاك لن يبقى هناك ايجار يدفع في الربيع ·

وكذلك استصدر هيجارتى أمرا بالحجز على هرنون ·· وذات يوم · أو بالأحرى قبل عيد الميلاد بأسبوع ، سار في الوادى وبرفقته أربعة من رجال البوليس الى حيث استولوا على بقرة هرنون والنعـــاج الاربعالتى بقيت له ، وساقوها لتباع في (كلوجر) وفاء للمتأخر من الايجـــارات المطلوبة من هرنون ·

أما هرنون فقد اختفى في الجبل أثناء توقيع الحجز والاستيلاء ·· فلما كان المساء هرع الى القرية عاريا مسلحا بمنجل لقتل هيجارتى ·· وعند ذلك اعتقله البوليس باعتباره مجنونا ، وأودع مستشفى الامراض العقلية فى كلوجر على الاثر ··

وكانت النتيجة أن (كيتى هرنون) وأطفالها السبعة غدوا بلا معين وأصبحوا عالة على أسرة (كيلمارتن) ··

الفصل التاسع عشر

فى ليلة عيد الميلاد ، وبينما كان آل كيلمارتن يتناولون طعـــــام العشاء ، دخلت عليهم كيتى هرنون فى المطبخ ، وبعد أن حيتهم جلست على الارض قرب الباب كالمتسولة وقد حجبت وجهها تحت الشال ، وجعلت تهتز أماما وخلفا دلالة على الذلة والاسى ٠٠

وقد أثار هذا الأمر شديد حرجهم ، بسبب حملات (باتشُ هرنون) على الاسرة طيلة الشهر الماضى ، وبسبب اساءة كيتى الى مارى وتشهيرها بمسلك أختها (الين) فى قصر (كروم) ٠ وها هى ذى بعد ذلك كله تأتيهم، وتفترش الارض كالمتسولة ٠٠

لكن الناس درجوا فى مثل هذه الليلة على الصفح والتسامح وفتح أبوابهم لكل طارق ٠٠ وكذلك تقدمت مارى الى كيتى وأمسكت بيديهـــا وأنهضتها قائلة :

ـ تعالى واجلسى معنا الى المائدة بالله ٠٠ ان طعامنا ليس بالكثير ، لكن كلى منه هنيئا مريئا ٠

فانهمرت دموع كيتى وطوقت مارى بســـاعدها واحتضنتها ، حتى لقد رقت مارى لبلوى هذه المنكودة وصفحت عن اساءتها اليهـــا ٠٠ لكن ما أن تلامس جسداهما حتى شعرت كيتى أن مارى حامل، واذ ذاك تملكها الغضب وراحت تقول :

ـ ما أمر الحياة ! ٠٠ لكن خجلى مما قيل فى حقكم أشد من المصيبة التى حلت بى ٠

فقال لها مارتن :

ـ لقد ذهب كل ذلك فى طوايا النسيان ياكيتى ٠٠ اجلسى معنا

فجلست كيتى وهى تدعو لهم ٠٠ وما لبثت أن أدارت نظرة خاطفة فى أرجاء البيت ثم تنهدت قائلة :

ـ انى لا أكاد أعرف بيت أبى ، فقد تغـــير كل شىء فيه ، وأصبح أشبه ببيوت الاغنياء وهو لامــع مزدان ، لا خنزير فيه ولا دجاجة لتلوث رونقه ٠

فقالت أمها ماجى :

ـ هذه النظافة من الفقر ٠٠ فليس لدينا بطاطس لاطعام الخنازير ، والدجاج ذبحناه لميخائيل ٠

فقالت (كيتى) بلهجة تقطر مرارة :

ــ ما أبدع أن يصبح الانسان من الاغنياء !

والظاهر أن الشيطان تقمصها منذ احتضنت مارى وعرفت سرها . فقد فاضت نفسها ضغنا ورغبة فى الاساءة الى هؤلاء الذين جاءت تلتمس عندهم العون ٠

ولم تلبث كيتى أن انقضت على الطعام تأكله بشراهة برغم أنهــا لم تكن قط جائعة ، بعد أن تناولت فى بيتها عشاء أطيب وأوفر من بقايا النعجة الاخيرة ٠ على أنها لم تكد تزدرد بعض لقمات حتى أنبهــا ضميرها بسبب مسلكها الباغى ، فانفجرت باكية منتحبة وراحت تقول :

ــ الحمد لله أن نهايتى وأولادى أصبحت قريبة ٠٠ لم يبق لنا سوى الكفن وحفرة باردة ساكنة فى بطن الارض !٠

ووثبت قائمة فجأة وهرولت الى الغرفة التى رقد فيها ميخائيل بعد أن أصبح يعجز عن الجلوس قرب نار المدفأة ، فارتمت على ركبتيها قرب الفراش وتشبثت بالغطاء وراحت تقول نادبة مولولة :

ــ أواه يا أخى ٠٠ لقد صرنا صنوين متشابهين ٠٠ أحدنا تلتهمه ديدان العلة ، والثانى تنهشه أنياب الجوع ٠٠

والواقع أن هذا الاسلوب روع الفتى العليل حتى ارتفع نواحه بدوره وانتابته نوبة ســـعال ٠٠ فأسرعت ماجى فى أثر كيتى تجرها الى حيث كانت فى المطبخ ، وهى تقول لها :

ــ هدوءا يا ابنتى ٠٠ لا فائدة من استسلامك لليـــأس على هـــذه الصورة ٠٠ تشجعى وتجلدى ٠٠

فاستمرت كيتى فى نواحها قائلة :

ــ لن نستطيع حضور القداس يوم العيد غدا ولا أملك شلنا أعطيه للكاهن ٠٠ فاذا مات الاولاد من الجـــوع فلن يأتى القس اليهم بالزيت المقدس ، وسنعامل كالوثنيين !٠

والتف حولها أفراد الاسرة جميعا يهدئون ثورتها ٠٠ ولكن ماهو الا أن جاءها (مارتن) بشلن من كيس المال حتى سكنت من فورها واختطفت المبلغ دون كلمة شكر ٠٠ وأخيرا رفعت الشال فوق رأسها وقالت بلهجة الغضب :

ــ أننى ذاهبة الآن ٠٠ انما كان حضورى لرغبتى فى ألا يحل العيد وبيننا خصام ومرارة ٠

وتبعها (مارتن) الى الفناء ، وسألها أن كان مخزونهم من البطاطس قد نفد ٠٠ فلما أجابت بالايجاب ملأ سلة كبيرة بالبطاطس وحملها على ظهره الى دارها ٠٠ وبرغم أن (مارى) كانت تعرف ما هو بسبيله فانها لم تقل شيئا حتى خرج ٠٠ وعند ذلك التفتت الى العجوز (بريان) قائلة :

ـ لابد من وضع حد لهذا ·· عليك أن تكلمه فى الأمــــر ·· ماذا يكون الحال ومخزون البطاطس قد عطب فى الجرن ولن يبقى منه ما يكفى لتقاوى الربيع ، ناهيك باعطائه لمن لاتقف مطالبهم عند حد ؟

فقال لهاالعجوز :

ـ صدقت يا (مارى) ·· كلميه فى الموضوع ··· انه زوجك أكثر مما هو ابنى ! وانى لأجد فيك أثرا من دمى !· ان لك عقلا راجحا ورأيا سديدا !

وقد درج العجوز فى العهد الاخير على الانحياز الى جانب (مارى) فيما كان يدور من مناقشات ·· فقد راقه أسلوبهـــا فى تصريف الأمور حتى أصبح يتحمس فى مناصرتها بعد أن كان يجاهرها بالجفاء ·· وكان مبعث هذا أنه ألفاها مدبرة مقتصدة صلبة العود كفلاحة أصيلة ، بل كانت فوق هذا تحب الأرض وتتعلق بها ·

فلما عاد (مارتن) فى النهاية تولى العجوز مهاجمته لاسرافه ،قائلا:

ـ أما كفانا أن عندنا أسرة (سالى أوهانلون) الكناسين نطعمهم مما لدينا ؟ ·· اننا لن نستطيع اطعام الوادى بأكمله ·

فرد عليه (مارتن) قائلا :

ـ أتقارن ابنتك (بسالى أوهانلون) ؟ ·· انك لاتحب ولا شك أن تدع ابنتك تموت جوعا لاحتياجها الى حبات من البطاطس ·

فانبرت له (مارى) قائلة :

ـ تذكر أنك ستكون أبا عما قريب ·· فهل تريد أن تدع طفلك يولد وليس هناك مايقوته ؟

فتطلع اليها مارتن فى استكانة وقد تملكه العجب من أمرها حتى لكأنها أضحت غريبة عليه ·· والحق أنها استحالت الآن الى مخــــلوق شديد الاختلاف عن تلك الفتاة التى استأثرت بحبه ·· وبرغم هذا فانها كانت فى هذه الشخصية الخشنة التى اصطنعتها فى العهد الأخير أقرب الى نفسه مما كانت من قبل ·

كانت من قبل اذا ابتسمت له أو بادلته الحب ، بدت له نائية عنه لايكاد يتطاول اليها ، وكأنها تراقبه عن كثب وتمسك عنه ثقتها الكاملة أما الآن ، وبرغم هذه الصلابة البادية فى مسلكها ، فانها غدت أكثر حنوا عليه وكأنها أمه ، وأسخى عليه فيما تؤثره به من العطف والمحبة ·

على أن (مارتن) لم يتمالك أن هتف بها غاضبا :

ـ ماذا دهاك يا (مارى) ؟ ·· انك أصبحت أقسى من أبى ·· أليس فى قلبك رحمة وبر ؟ ·· تبا لهذا ! ·· مادام فى هذا البيت لقمة لآكل فلن أدع انسانا يجوع ، قريبا كان أو جارا ، أو كائنا من كان ! ·· اننى مؤمن بالله ! ·· ان رحمة الله أقرب من كل شىء ·

وتمادى (مارتن) فى غضبته وأبوه ينظر راضيا قريرا ٠

فلما انسحب الزوجان الى غرفتهما فى النهـــاية ، راحت (مارى) تغمره بقبلاتها كأنما تعوضه عما كان من خشونتها وجفوتها ٠٠ وهمست فى أذنه وهما يتأهبان للرقاد :

ـ ان الحياة فى الايام المقبلة ستكون قاسية يا (مارتن) ٠٠ فعلينا أن نتدبر أمورنا ٠٠٠ ان البيت يروعنى بعد أن خلا من كل خنزير أو دجاجة ! ٠٠ دع عنك كل هذه البطون الجائعة من حولنا ، والطعام شحيح عزيز المنال ٠

الفصل العشرون

ذهبت (ماري) في اليوم التالي الى بيت أبويها وهي في طريقها لحضور القداس ، فألفتهما مشتبكين في نقاش ، ولكنهما لزما الصمت عند حضورها ..

فقالت لهما :

ـ ماذا جرى ؟ .. أتتخاصمان يوم العيد ؟

فتلقاها أخوها (باتريك) بالسخط قائلا :

ـ لعلنا لم نعد نليق لك بعد أن صرت من الملاك ! انك أصبحت تخجلين منا ، أليس كذلك ؟

واندفع الشاب خارجا وهو ينادي أباه ، فقالت (ماري) :

ـ ماالذي يضايقه ؟

فأجاب والدها :

ـ انه متضايق من نفس الشيء الذي كان يجب أن يضايقك ، لو كنت تهتمين بمن هم من دمك ولحمك !

وحمل عصاه وبصق .. وخرج لايلوي على شيء .. فقالت الام وهي جالسة تبكي في ركن المدفأة :

ـ هاقد رأيت بعينيك أسلوب حياتهم !

فقالت (ماري) :

ـ اني لاأرى شيئا سوى الغفلة ! .. هل أصابتهم جميعا جنة دون سابق انذار ؟

فأجابت الأم :

ـ ليس هذا .. وانما هي (ايلي) .

فجلست (ماري) أمام أمها وقالت لها :

ـ ماذا فعلت (ايلي) هذه المرة ؟

ـ كيف تسألين هذا السؤال ؟ .. حتى الأطفال أصبحوا يتصايحون علينا ..

ـ اني لاأسمع شيئا ٠٠على الناس أن يلتفتوا الى ما يعنيهم فقط٠٠ اذا كانت أختى قد ارتكبت ذنبا ، فلم لايؤدبها أبى ؟

ـ انه حاول هذا ، ولكنها لم تسمع له ٠٠ وهكذا ذهب الى القسيس وأغلب الظن أننا سنطرد من الكنيسة ٠

ـ نطرد ؟ ٠٠ وما السبب بالله ؟

ـ ان الأب (روش) يعدنا ملومين بسبب أسلوبنا فى تربيتها ٠٠ انها أصبحت مسبة للأسرة بعد اقامتهـــا فى القصر حيث يدور الشراب والمقامرة كل ليلة ٠٠ وقد صار القصر مجمعا للفساد يغشاه كل ماجن من هنا حتى (كلوجر) ، وخصوصا الطبيب الذى اشتد اعوجاجه حتى اضطر أبوه أن يذهب الى القس أيضا طالبا منه التدخل لمنع ولده من الانحدار فى الهاوية ٠٠ وقد ذهبت الى أختك لنصحها ، لكنها أعرضت عنى ، وهكذا قلت لها انى نفضت يدى منها بعد أن تمادت فى الغواية على هذه الصورة٠

فقالت (مارى) لأمها :

ـ أما أنا فلن أنفض يدى منها ٠٠ هيا معى ٠٠ كان عليك أن تخجلى اذ تتخلين عن ابنتك فى وقت حاجتها اليك ٠

فقالت الأم :

ـ لن أتحرك من هنا خطوة واحدة ٠٠ اننى لن أقوى على مواجهـة القس وهو يندد بابنتى ويطردها من حظيرة الكنيسة ٠

فقالت (مارى) :

ـ ابقى اذن ٠٠ لاعجب اذا ضلت ابنتك ، كحمل تخلت عنه أمه جبنا ٠

واندفعت خارجة من البيت وهرولت شطر القرية وقد زال من نفسها ماكانت تحس من سخط على أختها، ولم تعد تذكر الا أن المنكودة فى حاجة الى معونتها ٠ ٠ وأخذت تناجى نفسها :

ـ لا بد من ابعادها عن هنا ٠٠ بامكانها أن تذهب الى ابنه عمنـــا (جوليا) فى لفربول ، وهناك لن تعجز عن العثور على عمل تنال منه ما يفى بنفقات رحلتها الى أمريكا ٠٠ قبحا لهم اذ يعاملونها هذه المعاملة ٠

ووجدت (ايلى) تنتظرها عند بوابة القصر وهى دامعة العـــين ٠٠ فهرعت (مارى) اليها وانتحت بها ناحية بعيدة عن الانظار وتعانقتا ٠٠ واذ ذاك أطلقت (ايلى) لدموعها العنان واضعة رأسها على كتف (مارى) ٠٠ فقالت لها :

ـ كفى ٠٠ ارفعى رأسك وتشجعى حتى لا يظن الناس أنك خائرة العزم ٠٠ تعالى معى ٠٠ ان القداس يوشك أن يبدأ ٠

فقالت (ايلى) :

ـ لااستطيع مواجهة هذا الموقف وقد علمت أن الأب (روش) سيذكر اسمى من جانب الهيكل •

فقالت (مارى) :

ـ هيا معى ولا تكونى بلهاء •• من الآن ستفعلين كل ماأطلب منك• ليتك سمعت نصحى قبل الآن •

وسارت الشقيقتان الى الكنيسة •• فما ان بلغتا الفناء حيث احتشد جمع غفير من الناس حتى تعلقت الأعين بهما ودار الهمس بصورة عدائية بيد أنهما اجتازتا الفناء مرفوعتى الهامة وقد بدا حسنهما موفورا وكلتاهما بالحرملة القرمزية والثوب الازرق القاتم •

وكانت الكنيسة غاصة بالناس ، وهكذا ركعتا قرب الباب وأخذتا فى الصلاة •• ولما حان موعد الخطبة الوعظية وقف الاب (روش) متجهم الوجه وأنشأ يقول بصوت أجش من فرط الانفعال :

ـ هناك أعمال صارخة ترتكب فى هذا الاقليم •• فبالأمس رجم الناس محضرا بالحجارة فى منطقة (تورلو) •• ومن قبل سرقت بقرة من ضيعة الكولونيل (بودكن) وأكل لحمها وهى نصف حية •• ان هذه الاعمال منافية للدين ، وان كان يلتمس العذر لاصحابها بسبب توانى الحكومة فى مساعدة الاهلين وهم يتضورون جوعا •• لكن مرتكبى هذه الافعال الصارخة يستحقون العقاب ، لانهم بذلك يمهدون السبيل الى الحكومة لاتخاذ اجراءات تأديبية رادعة •• على أن الأدهى من ذلك تلك الموبقات التى ترتكب فى القرية ، مستوجبة من الله شديد السخط والانتقام انكم جميعا تعلمون من أعنى بهذا الكلام •• ألا يستحى أولئك الضالون لما يقترفون من هذه المعاصى ، وهؤلاء اخوانهم المساكين يموتون من الجوع ؟ الا أنه لابد من وضع حد لهذه الآثام •• وعلى المرأة التى هى أس هذا الفساد أن ترتحل عن هذا الاقليم ، قبل أن أدل الناس عليها •• ألا انى سأستمطر اللعنات عليها وعلى أولئك الذين كان ينبغى أن يكونوا قدوة للناس اذا لم يرعووا عن غيهم قبل فوات الأوان •

ولم تستطع (ايلى) أن تحتمل أكثر من هذا ، فنهضت قائمة وهرولت خارجة تتبعها (مارى) التى أدركتها عند بوابة الكنيسة وجذبتها من ذراعها وهى تبكى وتنتحب •• وقالت لها (مارى) غاضبة :

ـ ليس هذا أوان البكاء •• سأدبر كل شيء لأجلك •• اذهبى الآن الى القصر واحزمى متاعك وقابلينى لدى البوابة •• سأذهب الى البيت وأعود فى الحال •

فأطاعت (ايلى) فى انكسار وقد أفزعها وعيد القس وزلزل كيانها •• وافترقت الشقيقتان لدى بوابة القصر وهرولت (مارى) الى بيت أبويها•• فدهشت أمها لرؤيتها وسألتها عما هناك •

فقالت (مارى) :

– أين الكيس ؟

فقالت الأم :

– أى كيس ؟

فهتفت (مارى) قائلة :

– جدير بكم أن تستحوا اذ تنجبون الابناء ثم تهملون تربيتهم كما يجب ٠٠ ان مافعلت (ايلى) لاتسأل عنه بقدر ماتسألون انتم عنه ٠٠ انها الآن راحلة ٠٠ سأدبر عربة تذهب بها ٠٠ أين كيس النقود ٠٠ ان أقل ماتفعلون هو أن تدفعوا ثمن رحلتها الى لفربول !

فجاءت الأم بالكيس وقد رفعت الصوت بالبكاء والعويل ٠٠ فأخذت منه (مارى) ثلاثة جنيهات وأسرعت لاتمام مهمتها ٠

الفصل الحادى والعشرون

لم تعد (مارى) الى بيت أبويها الا بعد حلول الظلام ، فوجدتهما جالسين فى صمت قرب المدفأة مع شقيقها (باتريك) ٠٠ وكان البيت فى أمسيات الاحد يشـهد عادة وفود زائرين للنساج ، أما هذا المساء فلم يحضر أحد بسبب خطبة القس ٠٠

وقالت مارى على أثر دخولها :

ـ انها ارتحلت ، ولا فضل لكم فى هذا ٠٠ انى اسـتأجرت عربة وأركبتها بعـد مسير خلف الحقـول حتى لا يراها الناس وهى راحلـة وستقضى ليلتها في بيت (شيلا تونر) فى بلدة (كلوجر) ثم تستقل فى الصباح مركبة البريد الى دبلن ٠٠ وكنت أود البقاء معها لولا رغبتى ألا ازعج زوجى (مارتن) لطف الله بها من فتاة منكودة ٠٠ أنت المسئول ياأبى عما آلت اليه ، فقد ربيتها بالعصا والصراخ بدل أن تتولاهـا بالرفق والرحمة ٠

قالت (مارى) هذا وغادرت البيت على الأثر ٠٠ فلم يجبها أحد ٠٠ وخيم فى أعقابها صمت ثقيل شعر فيه (جليسون) أن زوجتـه وابنه يشاطران (مارى) رأيها فيما قالت ٠٠ وهكذا لم يتمالك أن استوى قائما وخرج الى الفناء حيث وقف يفكر متكئا على السياج ، وناجى نفسـه قائلا :

ـ لن أستطيع قط أن أرفع رأسى بعد الآن ٠٠ ولن يستمع أحد الى كلامى باحترام ٠

واختلجت شفتاه وتصلب عنقه ٠٠ وخامرته رغبة جامحة للانتقام حتى استشعر لذة فريدة وكأنه يوشك أن يهب حياته من أجل غاية سامية نبيلة ٠٠ وطال به التفكير حتى قال لنفسه :

ـ ان الطاغية جنى عليها ٠٠ فلينل الطاغية قصاصه بغير مهل !

ولم يلبث أن ساقته قدماه دون تفكير الى حظيرة الخنازير خلف غرفة النسيج ، فجعل يتفقد بين القش منجلا قديما كان قد أخفاه بعد أن عثر عليه فى منطقة المستنقعات وقد تركه أحد الثوار الهاربين فى ثورة عام ١٧٩٨ وما كادت يده تلامس مقبض المنجل حتى سرت فى جسده رعدة شاملة ، وسارع باخفائه بين القش ثم عاد الى البيت ودلف الى فراشه ٠

لقد كان يشعر بدقات فى رأسه كدقات الساعة حتى ذادت النوم عن عينيه ٠ وكانت زوجته الى جانبه تبكى طويلا فى سكون ٠٠ فلما تكلمت

في النهاية قالت انه لامفر لهما من احتمال هذه المحنة بصبر وايمان ٠٠ لكنه لم يجبها ٠٠ وشعر في هذه اللحظة بوقوف دقات الساعة في راسه واستسلم فترة للضعف حتى أحس حنينا لفتاته التي ذهبت عنه ، ولكنه مالبث أن تمالك حين عادت الدقات الى رأسه ، وعادت اليه صلابته مرة أخرى ٠٠

وبين فينة وأخرى كانت زوجتــه تنتفض في منامها وتهمهم بكلام مبهم واذ ذاك اشتدت دقات الساعة في رأسه وأضحت واضحة مفهومة تقول له :

ـ الموت للطاغية ٠٠ الموت للطاغية ٠٠

وأخيرا تنفس الرجل من أعماق رئتيه ، وأومأ برأسه ايجابا ، وقال بصوت مسموع :

ـ سيكون هذا حتما ٠

الفصل الثاني والعشرون

أيقن الدكتور (هاينز) أنه باء من الله باللعنة والسخط منذ أن تسلل الى القصر غداة اليوم الذى جرح فيه (شادويك) نفسه ٠٠ ولو سئل الطبيب أى آثام اقترفها واستحق اللعنة والسخط من أجلها لما حار جوابا فالواقع أن تلك الشائعات التى راجت خارج القصر عن تبذل (ايلى) لم تكن مطابقة للحقيقة ٠٠ فان سر العلاقة بين (شادويك) وبين الفتاة بقى مكتوما عن ضيوف القصر ممن كانوا يشاطرون الرجل عبثه ولهوه ٠٠ وصحيح أن الطبيب كان يشاطرهم الشراب والمقامرة ، بيد أن ذلك كان ديدن الشبان الذين هم فى مركزه من أبناء الاقليم وليس لهم من أسباب اللهو والترفيه الا هذا اللون ٠

كان الطبيب يرى أنه لم يستوجب تلك اللعنة بسبب هذه الفعال ، بل بسبب البيئة التى خالطها والصحب الذين خادنهم ٠٠٠ فقد اصطفى (شادويك) وبطانته ليمارس معهم هذه الفعال ، وهو الرجل الذى قطع ما كان يربط الطبيب من صلات بقومه ، وذلك ما جعله حقيقا باللعنة والسخط ، بعد أن استباح لنفسه أن يغدو منبوذا من شعبة منكورا لديهم ٠

وكان (شادويك) قد اختفى باختفاء (ايلى) ، ولهذا السبب انقطعت زيارات الطبيب للقصر ٠٠ وبعد أسبوعين من اختفاء الفتاة كان الطبيب يعالج بعض المرضى فى مستوصفه ، واذ ذاك مر به (الكابتن موردو) مفتش المنطقة وهو فى طريقه الى ثكنات البوليس ، ووقف يجاذبه أطراف الحديث وكان (موردو) هذا واحدا ممن كانوا يغشون بيت (شادويك) ، وقد توطدت العلاقة بينه وبين الطبيب ٠٠ غير أن الطبيب لم يلبث وهو واقف خارج المستوصف يجاذبه الحديث ان ساوره الخجل من مدلول هذه الصلة الوطيدة ٠٠ بل انه شعر بالنظرات العدائية المنبعثة اليهما من جمهرة الأهلين الفقراء المنتظرين ، وكأنها تقول بأفصح لسان : « ذلكم هو ابن جون هاينز ، يخادن واحدا من الطغاة الظلمة ٠٠ انه باع نفسه للعدو الغاصب ! » ٠

كان مفتش البوليس يقص على الطبيب قصة فكهة وهذا يضحك مجاملة له ، عند ما سقط شاب من بين هذا الجمع الغفير مصروعا : ولكن المفتش أتم القصة وسار فى طريقه دون أن يتكلف عناء النظر الى الشاب الصريع ٠

وفيما كان الطبيب ينحنى فوق الشاب لاسعافه سمع عبارات السخط واللعنة تنهال من حوله ، وقالت امرأة منهم :

ـ ولماذا لا ينحـاز الى جانب الطغاة ؟ ٠٠ ألا يجرى فى عروقه دم الخونة الواشين ؟

فشعر الطبيب باحمرار فى وجهه وارتعاش في أطرافه ٠٠ بيد أنه لزم الصمت ولم يكلم أحدا ٠

ولم يستطع الطبيب تلك الليلة أن يذوق طعامه ، بل جلس الى نار المدفأة يضطرم كراهية لكل انسان ٠٠ لكنه اختص نفسه بالنصيب الأوفر من هذه الكراهية ، اذ هيأ لشادويك أن يستغفله ويعبث به حتى ذهب يناجى نفسه قائلا :

ـ انه لم يتظاهر بمصادقتى ولم يعاملنى معاملة الند للند الا لانه مدين لأبى ، طامع فى المزيد من ماله ٠٠ ثم انه أرادنى أن أكون عن كثب منه لكى أعنى به كلما ألمت به نوبات السكر ٠

ولم ينس الطبيب أن (شادويك) ورفاقه ذهبـوا يعرضون به فى سياق اللعب ويتغامزون عليه كواحد من (الاهالى الوطنيين) ، وقد كان يتوهم أنهم يعدونه خارجا عن دائرة هذا الوصف ٠٠ فلمـا تذكر الآن عباراتهم وأسلوبهم لم يبق عنده شك فى أنهم قصدوا اذلاله وتحقـيره عامدين ، فوضع رأسه بين كفيه متوجعا وصر على أسنانه ألما ٠

وبينما هو كذلك طرق الباب بغتة ، فانتفض فى مكـانه ، ووثب هاتفا :

ـ من القادم ؟

ففتح الباب ، ودخل الاب (جيلان) ، وبعد أن أغلق الباب خلفه وقف ينظر الى الطبيب صامتا ٠٠ ولم يتكلم الطبيب بدوره ، وانما تضرج وجهه بالحمرة وعرته من فرط الارتباك رعشة يسيرة ٠٠ فهو قد تحاشى لقـاء القس منذ رافقه فى عودتهما من دار الأب (روش) تلك الليـلة ٠٠ ولم يتمالك أن ساوره الخوف منه هذه اللحظة لما توسم فى هيـأته من نذر الوعيد ٠٠ غير أن الطبيب لم يلبث أن نزع عنه مخاوفه حين اسـتجلى نظرات القس وهو يدنو منه فى الضوء ، فألفاها مشبعة بالرقة والعطف ، وهكذا بسط له يده محييا مرحبا ، فجلس القس قرب المدفأة باسطا يديه للهب مصطليا ، وقال :

ـ ياله من طقس لعين متقلب ! ٠٠ لكن هل يجوز لنا ان نشكو فى أوقات كهذه الاوقات ؟ ٠٠ كان الله فى عون المساكين ، ممن قضى عليهم أن يبيتوا فى العراء ، معرضين لهذا الطقس ، وبطونهم خاوية ٠

وتطلع الاب (جيلان) برهة فى وجه الطبيب الذى جلس أمامه وراح يقول بلهجة الحالم :

ـ ان المجاهدة لبلوغ الكمال ، هى الغـاية التى ينشـدها الانسان المتحضر ٠٠ ألا رحمة من الله لنا ، فما زلنا بعيدين عن هذا الكمال بعـدا شاسعا !

وابتسم في كآبة ودس يده في جيب سترته ، فلما أخرجها كان بها منديل كبير أحمر تخالطه نقط بيضاء ، وخرجت مع المنديل أشياء أخرى منها ثلاثة أزرار وكتيب سقط على الارض ·· فرفع الطبيب الكتيب ورده الى ضيفه الذى جعل يتصفح ما اشتمل عليه من كتابة خطية قائلا :

ــ ان ذاكرتي ضعيفة·· ولذلك أدون في هذا الكتيب روائع المأثورات ولطائف الفكر التي أصادفها في مطالعاتي ، لكي أحملها معي على ما رأيت فاذا طوفت بعد ذلك في جولاتي بين الجبال ، جعلت استعيد قراءتها ·· ان الشعراء والقديسين هم وحدهم الذين يبلغون حد الكمال من دون سائر البشر ·· أو هم بالأحرى يحاولون الوصول الى السماء ·· وانهم لينسون كل شيء في كفاحهم لادراك هذه البدائع · وانهم ليكابدون الآلام في تساميهم هذا ، لكن هذه المكابدة هي مصدر سعادة قصوى لهم ·· بيد ان الناس يخشون هذه المكابدة أشد الخشية ·· والا فانظر الى هذا الوطن والى ماصارت اليه أموره ·· ليس ثمة ما هو أقدس من الكفاح دفاعا عن الحرية ، والفناء في سبيلها ، تحريرا للأرض التي حملتك ، وتوفيرا للسعادة والرفاهية لمن تحبهم من أبناء عشيرتك ومواطنيك ·· لكن هذا الكفاح يجلب المكابدة ويجر الآلام ، والجبناء المستضعفون يخشون المكابدة ويشفقون من الآلام ·· وبرغم ذلك لايستطيع هؤلاء الجبناء المستضعفون اجتناب المكابدة والآلام بالتقاعس والنكول عن الكفاح ·· ان المجاعة آتية لاريب فيها ·· المجاعة والموت ·· ولن يطبقا على الناس الا لانهم تقاعسوا وهربوا من مواجهة الكفاح ·· أجل ·· ان اعتناق هذه المبادىء السامية هو الطريق الى الحرية ، والظفر بالحياة النقية الكريمة ·

وكان الضيف يداعب الكتيب بأصابعه وهو يسوق هذا الكلام الفريد ·· وما لبث أن رد الكتيب الى جيبه ·· واذ ذاك تعالى الضحك من ناحية المطبخ ، فضحك القس بدوره ، وقال وهو يبسط يديه الى لهب المدفأة :

ــ دمعة وابتسامة ·· بكاء هنا وضحك هناك ! ·· سيأتي يوم يبلغ فيه البشر عامة حد الكمال ·· سيحبون جيرانهم كما يحبون أنفسهم ·· لكن لابد قبل بلوغ هذه الغاية من عملية شاقة ، هي عملية التمهيد والاعداد ·· انها عملية جميلة هي أيضا ·· لاتضارع عمل الشعراء والقديسين حقا ·· فهؤلاء يرشدون الى الطريق ويهدون الى سواء السبيل أما أنت وانا ممن لسنا شعراء وقديسين ، بل عاملين متواضعين ، فعلينا يقع العبء في عملية التمهيد والاعداد ·

وما لبث الضيف أن عبس وراح يقول للطبيب بلهجة الوعيد وهو يتفرس فيه :

ــ ان السلسلة لاتكون قوية الا بتكامل حلقاتها جميعا ·· ان فقراء المستأجرين ، والمهاجرين المطرودين من أرضهم ، والعمال الاجراء ، والمعوزين المعدمين ــ كل أولئك هم قبلة الشعراء والقديسين ·· ومحال أن نبلغ نحن حد الكمال المنشود ، ولا أن نظفر بالسعادة وراحة الضمير ،

اذا أدرنا ظهورنا لمن اختارهم الشعراء والقديسون قبلة لهم ·· خذ حذرك يابني ! ·· نحن كالبيت المنقسم على نفسه ·· نحن كالبيت القائم فوق ربوة ، تهدده الزوابع والأعاصير ·· ان محتلا غاصبا قد استقر في بيتنا ووطد فيه أقدامه ! ·· انه وضع النير في أعناقنا ، واستعبدنا بمعاونة مأجوريه وأذنابه من السلابين النهابين الانتهـــازيين ! · · لقد جردنا المستعمر الغشوم من كل قوة نعتدها ، واستنزف مادة حياتنا ·· انه أغرى بعضنا ببعض ، وفرق بيننا ، حتى أصبحنا عاجزين ، مغلوبين على أمرنا ·· والنتيجة أن ضعاف النفوس منا ، يحاولون الافلات من هــذا كله ، بمصانعة الغاصب واحتذاء أسلوبه في كل شيء ، حتى في الملبس والكلام ·· لكن مهما يغيروا فلن يستطيعوا تغيير الدماء الأصيلة التى تجرى في عروقهم ·

ومال الضيف نحو الطبيب ثم استطرد يقول هامسا في شراسة :

ـ لن تستطيع أن تغير الدم الذي يجرى في عروقك !·· فسيصرخ دمك في سكينة الليل مستنكرا حماقتك ! ·· لقد قلت لك من قبل ان تحب أرض وطنك كما تحب أمك ·· كيف ؟ ·· سل الناس ! ·· علمه عندهم ! ·· هو في شرايينهم ·· استمع اليهم ·· أحس احساسهم ·· أحن رأسك أمامهم ·· اننا لانزل الا حين نتكر مشاعرنا الأصيلة طمعـــا أوجبنا ·· فلتهذب نفســك ولتطهرها ، لا باللســـان ، ولــكن بالقلب والسريرة ·· ان المستقبل مايزال مشرقا طهورا ·· دع الناس يرجمونك بالحجارة ان شاءوا ·· فالناس في مجموعهم هم كتلة الشعب ، وهم أبدا على حق اذا اجتمعت كلمتهم ·· وهم قد يخطئون حينا أو جيلا بأسره ·· لكن هذه الحقبة ليست الا فترة يسيرة في تواريخ الامـم والشعوب ·· ولسوف يصح تقديرهم ويستوون على الجادة في النهاية ·· أدر ظهرك لاعوان المستعمر الغاصب ، واتجه الى الشــعب ·· ان الشعب سيتلقاك بأذرع مفتوحة ·· انك لم تبلغ مرتبة الطبيب الا على حســاب الشعب ، ومن مجموع الدراهم التى كان أبوك يجمعها من المساكين ·· ان هـــذه الدراهم لم تتجمع الا من كد رقيق الارض وهم يضربونها بالفئوس بحثا عن القوت ·· هو مال الشعب ·· نحن جميعا أسرة واحدة ، وكل فرد في الاسرة عليه تبعات يؤديها للآخرين··ان هذا البيت الذى يؤويك ، وهذا المقعد الذى تجلس عليه ، وهذه الملابس التى تكسوك ، هى جميعــا من خيرات الشعب وفضله عليك ·· فلترد للشعب هـذا الدين ، ولتؤد له الفضل مضاعفا ·

وعلى هذه الوتيرة مضى القس يتحدث ، والطبيب ينصت اليه مبهورا طروبا ·· واذا هو يرى السحب القاتمة التى رانت على بصره قد تبددت فجأة ، وانبلجت له الحياة المستغلقة واضحة كالصبح ·· وكذلك أفعمت نفسه سعادة وغبطة ، وامتلأ عقله رجاحة وسدادا ، وعمر قلبه بأسباب القوة والبأس ··

الفصل الثالث والعشرون

بينما كان الطبيب يتناول فطوره صباح اليوم التالى اذ جاءه (ريلى) وأخبره أن (شادويك) رجع وانه يريد لقاءه حالا ٠٠ فأجفل قائلا :

ـ أهو مريض ؟

فأجاب (ريلى) :

ـ انه ليس مريضا بالمعنى المفهوم ، وان كان فى حالة غير عادية ٠ وربما كان السبب هو الوحدة التى يعيش فيها ٠٠ ثم انه لم يبق منا فى القصر غير اثنين ، بعد أن رحل الباقون ٠

فقال له الطبيب :

ـ ماذا تقصد ؟

فجعل (ريلى) يلتفت حواليه مستطلعا ، ولما اطمأن الى عدم وجـود أحد غيرهما فى الحجرة ، مال على أذن الطبيب وقال هامسا :

ـ انهم قد تلقوا انذارا ٠ ٠ وقد أنذرت مثلهم ، لكنى لم أتخل عنه وهكذا رحل الباقون ، ولم يبق معى سوى (مارى هالوران) ٠

فقال له الطبيب وقد ساءه أن يعده (ريلى) من زمرة (شادويك) كما تجلى ذلك من همسه وحديثه ٠

ـ اننى مشغول هذا الصباح ٠

فقال (ريلى) مهموما :

ـ لقد أمرنى أن أصحبك معى ٠

فصاح به الطبيب :

ـ قلت اننى مشغول ٠

وهكذا انسحب (ريلى) مذعنا متعثرا ٠٠

أما الطبيب فقد خرج لعيادة مرضاه ، ولما رجع حوالى الظهر وجد فى انتظاره رسالة من (شادويك) هذا نصها :

« عزيزى هاينز ـ لقد أدركت ولا شك أنك أصبحت متورطا معى فى الأحداث القريبة المؤسفة التى جعلت للقصر سمعة سيئة ٠٠ ولـــكن واجب الصداقة كان يقتضيك أن تكون الى جانبى تشد أزرى ٠٠ ويحك

يا (هاينز) ·· لامناص لنا من مواجهة الواقع كرجال ، لا كأطفال يعبثون انني أقصد تلك الشائعات الدائرة · · انني مازلت على علم بما يجرى برغم أني أصبحت في شبه عزلة بعد أن هجرني خدمي قبحهم الله ، فيما عدا (ريلى) وامرأة عجوز ·· فلا تبخل على بزيارتك أيها الصديق ، وثق ان تصرفاتي ستكون من الآن بعيدة عما قد يسبب لك الحرج أو المضايقة.
المخلص : جوسلين شادويك» ·

والحق أن الطبيب لم يكد يتم تلاوة هذه الرسالة الغريبة حتى ضج بالضحك ، وما لبث أن ألقى بها في نار المدفأة ، ثم قصد من فوره الى قصر (كروم) معتزما أن (يضع حدا نهائيا لعلاقته بهذا الوحش) ، على حد تعبيره وحتى لايبصره أحد من الأهلين وهو يدخل القصر ، دلف اليه من باب خلفى ووجد (شادويك) في انتظاره بحجرة الاستقبال الكبرى ·

كانت الحجرة صورة مجسمة للفوضى ، وراح (شـــادويك) يذرع أرضها جيئة وذهابا ، وقد لف عنقه (بكوفيه) اخفاء لجرحه··وقال الطبيب وهو يصافحه باشتياق :

ـ انى لم أرك قادما من الباب الامامى ، فقد كنت أرقب الطريق من النافذة ، فمن أين جئت ؟

فأجاب الطبيب :

ـ جئت عن طريق الباب الخلفى ·

ـ آه ! ·· هل وصل الامر الى هذا الحد ؟

قال (شادويك) هذا وهو يحك ظهره حكا عنيفا لفرط ماكان عليه من قذارة وسوء حال ·· فقد ظل طيلة أسبوعين منذ رحيل)ايلى(هائما على وجهه في أرجاء المقاطعة مخمورا معربدا لا يقر له قرار ولا يغير ملبسه ·· وما لبث أن استطرد مخاطبا الطبيب في قحة :

ـ هل خوفوك اذن ؟ ·· كنت أحسبك أشجع من هذا يا(هاينز) ·· أم تراني كنت مخطئا في تقديرى لك ؟ ·· تبا لهذا ·· أتنوى أن تقاطعنى وتهرب كالآخرين ؟

فقال له الطبيب :

ـ انى لاأعرف ماذا تقصد بهذا الكلام ·

فأثارت هذه اللهجة حنق (شادويك) حتى نزع عن أسلوب الملاينة الذى كان يتكلفه حيال الطبيب وهو مفتقر الى رعايته الطبية ، وتجلت الآن غطرسته واحتقاره للطبيب وهو يقول له :

ـ حسنا · · سنتحدث عن هذا فيما بعد · · والمهم الآن أنك هنا وعلى كل حال لابأس أن نبدأ الحديث لتسوية هذا الموضوع في الحال ·

قال هذا واتجه الى المدفأة حيث أذكى ضرامها بركلة من قدمه ·

فقال الطبيب :

ـ وما هو هذا الموضوع ؟

فلم يتمالك (شادويك) أن استدار بسرعة وخطا خطوتين نحو الطبيب قائلا :

ـ بالشيطان ٠٠ ألا تعرف حقا ؟ ٠٠ انى يارجل فتحت لك بيتى على سعته ، ونعمت عندى بالكثير ٠

فقال الطبيب بحدة :

ـ انى دفعت ثمن كل مانلته هنا ٠

فقال (شادويك) بصوت خافت حافل بالوعيد

ـ أتخاطبنى بهذا الاسلوب ؟

فأجاب الطبيب بعنف وهو يرتعد انفعالا لفرط ما توسل به من شجاعة وتجلد :

ـ انى أخاطبك بالأسلوب الذى يعجبنى

فاستضحك (شادويك) متكلفا قلة المبالاة ، وتظاهر بالمودة قائلا :

ـ هذا عبث لا فائدة منه ٠٠ علينا بالشراب يا (ريلى) ٠٠ أين هذا المخلوق ٠٠ (هالوران) ٠٠ أين أنت أيتها المرأة المجنونة ؟

واندفع الى خارج الحجرة ٠٠ فوقف الطبيب مستندا الى جدار المدفأة يحاول تمالك أعصابه ويقول لنفسه :

ـ واجهه ولا تخف منه ٠٠ كيف تخاف هذا الخنزير المخمور ؟

ومع ذلك لم يتمالك الطبيب أن ارتعد حين سمع (شادويك) يصيح فى البهو بصوت مجلجل ٠٠ وما لبث أن عاد يحمل زجاجة وكأسين اترعهما وقدم احداهما الى الطبيب الذى رفض الكأس ٠٠ فقال (شادويك):

ـ ماذا ٠٠ ألا تشرب ؟

فأجاب الطبيب :

ـ شكرا ٠٠ انى قررت الامتناع عن شرب الخمر ٠

فرماه (شادويك) بنظرة تشف عن الحقد ثم أفرغ كأسه فى جوفه وقال له :

ـ اجلس ٠

فجلسا متواجهين ٠٠ وأنشأ (شادويك) يقول فى نبرات تشف عن التأثر ولكنها لاتخلو من القحة :

ـ سأحدثك عنها ٠٠ أعنى (ايلى) ٠٠ انها كانت عشيقتى ٠٠ هذه

هي الحقيقة التي لاأجد بأسا من مصارحتك بها الآن ·· نعم هي الحقيقة وأعتقد أنها كانت تبادلني الحب ، والا كنت مغفلا يشار اليه بالبنان ·· لكن ذلك اللعين (روش) ذهب يعرض بها ، فتدخلت أختها وحملتها على الرحيل ! ولو كنت هنا وقتها لجلدت تلك الأخت اللعينة التي يسمونها (ماري) ·· ماذا يريد أولئك المناكيد ، وكان الوفاق بيني وبين (ايلي) على أتمه ؟ · · ألم ترها يا (هاينز) ؟ لقد كنت تحضر الى هنا مع الآخرين متمسحا متوددا ! هل تنكر ؟ ·· ولكنك لم تلبث أن وليت هاربا عندما لمحت بوادر المتاعب ·

فلم يتمالك (هاينز) أن وثب قائما وهتف بصوت مرتفع :

ـ اسمع يا (شادويك) :

فقاطعه (شادويك) قائلا بغطرسة وهو يميل نحوه :

ـ اسمي الكابتن شادويك ياعزيزي المحترم ·

فجعل الطبيب يحملق فيه برهة وهو يرتعد بعنف ·· وما لبث أن عاد الى الجلوس دون أن يتم كلامه ، فاستطرد (شادويك) قائلا بعد أن تناول كأسا أخرى :

ـ اني عشت هنا حياة موحشة لم يؤنس وحشتها سوى تلك الفتاة الفلاحة ·· ولكنها لم تلبث أن رحلت ·· ولم تقبل قط أن تعود ·· اني تبعتها حتى ميناء (كلوجر) ·· وكدت أركع تحت قدميها من فرط الالحاح والرجاء ·· وتابعت مركبتها بجوادي وهي متجهةالى (دبلن) محاولا اقناعها والتأثير فيها لآخر مرة ·· لكن دون جدوى ! ·· أنا واثق مع ذلك انها كانت في قرارة نفسها تميل الي، لولا أولئك الملاعين الذين أفسدوا مابيني وبينها ! · أولئك الهمج المتوحشون ·

واشتد هياجه ، فراح يقول وهو يضغط على أسنانه :

ـ هناك مخلوق لن أصفح عنه بعد ماكان ·· انني قد أصفح عنكم جميعا ·· (بورك) وأنت وسائر الزملاء ·· لكني لن أصفح عن تلك الأخت اللعينة · · سأشفيها من داء الوقاحة ·· انها عرضت بي امام الخدم ·· انني سأجعلهم جميعا يندمون ·· يقولون اني طاغية ظالم ؟ سأريهم اذن ماهو الطغيان والظلم حقيقة ·· اني كنت حتى الآن متسامحا مع هؤلاء الكلاب ·· أما الآن فسيعرفون من أنا ·

وتناول كأسا أخرى ، ومضى يقول بلهجة المخمور :

ـ اني جعلت أغريها بالمال حينما رفضت مغادرة المركبة ·· لكن الفلاحين الملاعين كانوا حولها ، وقد تصدى لي ملاح يريد الاشتباك معي·· وأحسبها قررت أن تصاحبه قبحها الله ·· فليكن ما أرادت ، ولتهنأ بملاحها ·· أما عن ذويها فسيكون لي معهم حساب آخر ·· انهم طلبوا المناجزة ، وقد قبلت تحديهم لي ·· مازال للقانون كلمة مسموعة في هذه البلاد ·· اني سأصيدهم كالفئران في الجحور ·· فصبرا يا (هاينز) سوف تشهد بعيني رأسك صيدا حافلا في هذه البقاع أيها الفتى العتيد-

وهنا لم يتمالك (هاينز) أن تشجع قائلا :

ـ أتحسب هذا مادة للفكاهة والتسلية ؟ ·· موت الناس من الجوع؟ أهذا هو مذهبك في اللهو ؟

فقال (شادويك) مستغربا :

ـ أى أناس تعنى ؟

فهتف الطبيب وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

ـ أنت المسئول عن هذا ·· انك وقومك قد جلبتم على هذا البلد الخراب والانحطاط ·· الناس يموتون الآن من الجوع ·· ثم انك عملت جهدك للقضاء على ·· فانك لم تستدرجنى الى هنا الا لأنك مدين لأبى ، وكنت تسعى لطلب المزيد ·· انى أعرف حقيقة صداقتك لى ·· أنا لاأريدها ·

واستوى (هاينز) على قدميه وهو يقول هذا الكلام ·· فنهض (شادويك) بدوره وواجهه فى سخط قائلا :

ـ انى جلدت بالسوط رجالا لمثل هذا الكلام ·

فرد عليه (هاينز) بعنف قائلا :

ـ كان هذا قبل أن تصبح سكيرا مخمورا ·

والحق أن الطبيب فاه بكلماته تلك فى نبرات لا تخلو من البهجة ، فلأول مرة فى حياته أحس أنه أضحى رجلا من الاحرار ·

أما (شادويك) فقال بصوت كالفحيح وقد دنا منه خطوة ورفع قبضته :

ـ أيها الوغد الحقير ·· أيها الكلب !

فضحك الطبيب ضحكة ان تكن ضعيفة متخاذلة فانها أدهشت (شادويك) حتى تراجع فى مكانه ·· وما لبث أن اتجه الى الباب وهو يبتسم ابتسامة غريبة وقد انحرف فى مشيته كأنما يتأهب للدفاع عن نفسه من هجوم مباغت ·· على أنه توقف قبل أن يبارح الحجرة ، وهتف قائلا :

ـ لك الآن أن تمضى فى السكر حتى الموت · لاتطمع فى مساعدتى اذا انتابتك نوبات الفزع التى تصيبك وأنت مخمور ·· ولا تكن جبانا هذه المرة ·· فان استعمال المسدس أضمن للموت من الموسى ·

وأغلق الباب خلفه وابتعد مسرعا ·· ولكن (شادويك) لم يتبعه ، بل لزم مكانه وهو يقول بصوت مرتفع :

ـ ياالهي ··· ماذا بعد ذلك ؟

وجمد مكانه طويلا وقد احتقن وجهه غضبا ·· وما لبث أن تهالك في مقعد وحجب وجهه بيديه حينا ·· ثم نهض فجأة ومد يده الى زجاجه الشراب ولكنه جذبها دون أن يلمس الزجاجة ، وجعل يحدق في السقف فاغر الفم ·· وأخيرا أطبق فمه وشد على عضلاته وأمسك بالزجاجة ثم حطمها على جدار المدفأة وألقى بعنقها في النار ·· وبعد فترة حطم الكأسين أيضا ·· وفى النهاية فرك كفيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مالبثت أن استحالت الى ضحكة ·· وفي خطى واسعة جبارة تقدم الى البـــاب وصاح قائلا :

ـ (ريلى) أيها المهرج ! ·· أين أنت ؟ أعد جوادى حالا !

الفصل الرابع والعشرون

استأنف الدكتور (هاينز) نشاطه الطبي بهمة مضاعفة بعـــد تلك المصاولة التى كانت بينه وبين (شادويك) ٠٠ وقد زاد اتصـــاله بالأب (جيلان) حتى غدا كلاهما لايفترق عن صاحبه الا قليلا ٠٠ فكان ذلك مدعاة لسرور أبيه (جون هاينز) الذى اشتد انزعاجه عندما كان ولده مندمجا فى زمرة (شادويك) منغمسا فى مباذله ، حتى أشفق اذ ذاك أن يؤدى مسلك الطبيب الى ضياع الهدف الذى رسمه لنفسه فى الحياة ، وقصوره عن ادراك (القوة) التى لامزيد عليها _ ذلك الهدف الذى ظل يكافح طوال حياته لادراكه ٠

أما الآن وقد ثاب ولده الى الصواب بفضل الخطبة النارية التى ألقـاها الأب (روش) فى الكنيسة يوم العيد ، والحديث القيم الذى اختصـــه به الأب (جيلان) فى زيارته له على ما رأينا _ فقد رضى (جون هاينز) واغتبط وتبدلت أطواره من الوجوم الى البشر ، حتى عجب الناس من أمره وما عهدوه الا منطويا سيىء الظنّ بالناس والأشياء ٠

ويخطىء من يظن أن انصلاح أمر الطبيب كان هو العامل الوحيـد فى تبدل أطوار أبيه على هذا النحو ٠٠ فقد كان ثمة عامل آخر لفرح الأب واستبشاره ، هو ابتداء أعمال الاغاثة والترفيه التى قررتها الحكومة أخيرا فقد قررت الحكومة فى النهاية أن تقوم بعمل ايجابى ازاء المجاعة الشـــاملة الوشيكة ، وأدرك العجوز أن هذه المساعدات قد تكون سببا فى مضاعفة ثروته اذا هو أحسن انتهاز الفرصة ٠

كانت خطة الحكومة الانجليزية فى هذا الشأن تقضى بمنح ارلنـدا قرضا ماليا بفائدة قدرها خمسة فى المائة ، ولكنها اشترطت عدم انفاق هذا القرض فىأى من المشروعات الانتاجية كاصلاح الاراضى الزراعيـــة أو اقامة الصناعات ، حتى لايكون فى هذا منافسة للصناعـة الانجليزية الناشئة ٠٠ بيد أن جماهير الارلنديين الجياع تلقفوا هذه المعونة بالفرح وكان (جون هاينز) أشدهم فرحا ٠٠ وكما تحلق الطيور الجارحة مرحة فوق ساحة قتال غطتها الجثث والأشلاء ، فقد طرب (جون هاينز) لهـذا الشقاء الذى حل بالناس ، لأن هذا الشقاء سيفعم جيوبه بالمال ٠٠ فــان المعونة المالية التى يتلقاها الأفراد ستصب فى متجره حتما ، وسيغص فندقه بالنازلين من الموظفين المنوط بهم أعمال الاغاثة والترفيه ٠

فهل من عجب اذا كان لسان حاله يقول :

«بارك الله فى هذه المجاعة ٠ انها نعمة وبركة» ٠

وقد قلق (جون هاينز) أول الامر اذ رأى الجريدة المحلية التى تصدر فى (كلوجر) تدعو الحكومة الى انشاء محال لتوزيع المواد الغذائية على الأهلين بالأسعار الأساسية ، انقاذا لهم من الوقوع فى براثن الاستغلاليين الجشعين ٠٠ ولكن سرعان مابادرت الحكومة الى نفى هذا الاتجاه ، مؤكدة عزمها على عدم التدخل فى حرية التجارة ، وعلى عدم انشاء محال فى المناطق التى يوجد بها تجار يستطيعون تزويد سكانها بحاجاتهم من هذه المواد ٠٠ كما أذاعت الحكومة قرارها باستيراد مقادير من القمح الاصفر من الولايات المتحدة لبيعها للأهلين بأسعار زهيدة ٠٠ وهكذا اطمأن (جون هاينز) وهدأت مخاوفه ، ولهج لسانه للحكومة الانجليزية بالدعاء ٠

ولكن المشكلة التى واجهت (جون هاينز) كانت تدبير المقادير الكافية من المواد الغذائية لتسد حاجات أهل القرية ، والا اتجهت الحكومة الى فتح محل تحت اشرافها ٠٠٠ ومالبث أن هداه التفكير الى خطة باهرة جريئة توسم من ورائها نتائج طيبة ٠

والحق أن (جون هاينز) لم يكد يأوى الى فراشه هذه الليلة حتى أشار الى الموضوع أمام زوجته ، لا تقديرا منه لرأيها وهو هين عنده ، بل لكى يزن الفكرة فى سمعه عند ما يبرزها من عالم الخواطر والاحلام الى دنيا الحس ومدلول الكلام ٠٠٠

قال لها الزوج :

ـ أترين أن الوقت قد حان لزواج ولدنا (تونى) ؟٠٠٠ أتعرفين من تصلح له زوجة فى (كلوجر) ؟٠٠٠ أهذا وقت مناسب للقيام بمشروعات جديدة ؟ هل من الحكمة أو الحماقة أن يسحب الانسان أموالا من البنك فى مثل ظروفنا الحاضرة لا ستغلالها فى التوسع التجارى ؟ هل يقبل الناس على استهلاك هذا القمح الاصفر الذى سيرد من أمريكا ؟٠ هل تقوم الحكومة بتحديد سعر معين للبيع بالتجزئة ؟٠٠

وكانت زوجتة تعلم انه لا يطلب منها جوابا عن هذه الاسئلة التى لاتجمعها رابطة ظاهرة ٠٠ ولكن موضوع زواج ابنها (تونى) قد استأثر باهتمامها ، فهو قد جاوز الثامنة والعشرين وحان الوقت لاستقراره بالزواج ٠٠ ولذا قالت لزوجها :

ـ لا بد من حمله على الزواج ، فهو بطبعه لا يفكر فى شىء كهذا ٠٠ وانى أعرف أنك تفكر فى ابنة (رابيت) زوجة له ٠٠

فهتف بها الزوج مغضبا :

ـ من قال هذا ؟ ٠٠ وما الذى يحملنى على مثل هذا التفكير ؟ ألا يوجد عشرات من الفتيات الموسرات يمكن أن يختار منهن زوجة له ، وهو شقيق طبيب ، وراهبة ؟ فى الواقع ان أرقى بنات الاقليم كله لا تصلح واحدة منهن زوجة لمن هو فى مركزه ٠

ـ لكنى كنت أقول ٠٠٠

ـ اسكتى !

وكذلك انتهرها وألزمها الصمت .. فقد استقر عزمه على خطة محدودة ، ولم يبق سوى المبادرة الى وضعها موضع التنفيذ .

وقد بلغ من شدة اهتمام (جون هاينز) انه استيقظ من نومه قبل الفجر خلافا لعادته ، وتسلل من غرفة النوم على أطراف أصابعه الى حيث أيقظ ولده (تونى) فى الغرفة المجاورة ، وطلب اليه أن يتبعه فى سكون بعد أن يرتدى ملابس يوم الاحد ، ثم قصد الى المطبخ فجاء برغيف من الخبز الجاف وقدح من اللبن وشطر الرغيف نصفين فاستبقى لنفسه النصف وأخذ يقطع منه لقمات يغمسها فى اللبن ويزدردها فلا تلين تحت ماضغيه ليبسها وصلابتها .

وجاء (تونى) على الأثر ، فقال متثائبا متضجرا :

ـ ان الديوك لم تستيقظ بعد ، والظلام حالك ، فماذا بك هذا الصباح ؟

فقال أبوه :

ـ اسكت ... كل ... ستعرف قريبا ... عجل ..

وطوح اليه بنصف الرغيف فوق الخوان حتى كان لوقوعه صليل معدنى فوق الخشب ، وقال له :

ـ لاأريد أن يرانا أحد ونحن خارجان من القرية .. أمامنا عمل نؤديه ..

كان (تونى) أقرب الى المكر منه الى الذكاء .. وقد أدرك من فوره أن العجوز فى أثر صيد ثمين أو صفقة ضخمة،حتى لم يتمالك أن تلقى كلمات أبيه ضاحكا وكان غليظ السحنة متنافر الملامح،يمتاز ، خلافاً لأبيه وشقيقه بضخامة الجسم ووفرة القوة .. ولكن ضخامة جسمه ووفرة قواه كان لهما من الأثر ماجعله أبعد عن الشعور مثلهما بالضعف والضعة والخمول وهى السمات الغالبة فى سائر أفراد الأسرة .

وقال (تونى) وهو يمضغ الخبز بأسنانه القوية :

ـ أرى فى رأسك شيئا يختمر ! أليس كذلك ؟

فما كان من الأب العجوز الا أن جمع فتات الخبز من فوق الخوان فى كفه وغيبها فى فمه ، ثم نهض قائلا :

ـ سأخبر (جوليا) بخروجنا .

وكانت شقيقته جوليا راقدة فى غرفة صغيرة مجاورة للمطبخ .. وهى هى (جوليا) التى طالما جابت معه الأزقة فى طفولتهما مع الحمار .. وكان يثق بها أكثر مما يثق بزوجته .. فهى مثال الشح والتقتير ، وان كانت لا تطلب أجرا عن خدماتها .. وهى مازالت برغم شيخوختها تتولى شئون الطهى للأسرة ولنزلاء الفندق ، تلافيا لاسباب السرف والتبذير .

ولما دخل عليها وجدها مستغرقة فى النوم فى فراشها الرث ٠٠ وما كاد يلمس منكبها حتى هبت جالسة ومدت يدها الى ثوبها دون كلام ٠٠ فلقنها ماكان يريد من التعليمات وهى ماضية فى لبسهـــا دون أن تفوه بكلمة ٠٠

وفى عودته الى المطبخ أبصر زوجته تهبط السلم حافية وبيدها شمعة مضاءة ، فقال لها مغضبا :

ــ ما الذى أيقظك ؟

فجاءت آليه وبيدها اليسرى زجاجة صغيرة بها ماء مقدس وقالت له بانفعال وتأثر

ــ لم أرد أن أدعكما تذهبان دون تلقى البركة

فقال لها مكابرا :

ــ نعم ٠٠ والى أين تظنين أننا ذاهبان ؟

ومهما يكن فقد تركها الأب تنثر الماء عليه وعلى ولده بركة وتيمنا ، وبعد برهة تسلل الاثنان الى الاسطبل حيث أسرجا فرسا أشهب شد الى مركبة مكشوفة فاستقلاها وخرجا بها من القرية والبرد قارس يكاد يهرأ الاجسام حتى رفع كلاهما ياقة معطفه وجعلا يضربان أكفهما بعضها ببعض التماسا لشيء من الدفء ٠٠ وكان الثلج قد تساقط يسيرا فى الليل مما هيأ للمركبة أن تدرج دون أن يسمع لها ولحوافر الفرس صوت فى هدأة الفجر البازغ ٠٠

وعنـــدما ابتعدا عن القرية تكلم الأب أخيرا ونفض الى ولده حقيقة خطته فى اسهاب تبير ٠٠ ومع انه كان يتكلم وعيناه تلمعان ، فقد بقيت نبرات صوته مكتئبة يشوبها الوجوم حتى لكأنه يتوقــع كارثة من تنفيذ خطته الجريئة ٠٠ أما (تونى) فقـــد استمع اليه صامتا حينا ، وما لبث أن تنهد قائلا :

ــ موافق ٠٠ قيل لى ان العروس تشكو ورما فى ساقيها ، لكن متجر أبيها طيب ٠٠ وهى قصيرة النظر ، لكنها سليمة البنية ويمكنها انجـــاب الاطفال ٠٠ انه مكان طيب جدا ، وأنا موافق يا أبى ٠٠

فمال هاينز نحوه قائلا :

ــ وما رأيك فى المجازفة ذاتها ؟ ٠٠ أموالنا ٠٠ أهذا وقت المجازفة بهـــا ؟

فاخلد تونى الى الصمت مرة أخرى ، ثم قال فى جد :

ــ لا مجازفة فى الامر ما دامت الحكومة تعضد المشروع ٠٠ لا مجازفة الا أن تتدخل القدرة الالهية بشيء فوق طاقة البشر ٠٠

واشرقت الشمس ساطعة فوق بساط الثلوج الرقيقة التى اكتست بها الحقول والطرقات الملتوية الضيقة ٠٠ وسرى الهواء جافا لاذعا ٠

ودرجت بهما المركبة فى الارض الزراعية المنبسطة بعيدا عن تلك السفوح الجرداء التى قامت القرية فى أحضانها بين الجبـــال الشم والقمم المكللة بالثلوج ·· وفى الحق أن هذه المشاهد كانت تســتهوى الأفئدة بجلالها وجمالها فى ضوء الشمس المنعكس على الثلوج ، بيد أنهما كانا فى شغل عن كل جلال وجمال ·· فمثلهما كمثل ذئبين تسللا من جحرهما بين الجبال الى البلدة الهاجعة للانقضاض والافتراس ··

كانت (كلوجر) بلدة تعدادها زهاء عشرين ألف نسمة ، ولكن من يرى الجماهير التى ازدحم بها شارع البـــلدة الرئيسى فى بكرة الصباح يكاد يتصور أن السكان أضعاف هذا العدد ·· فقد انتشرت فى أرجائها مواكب الجياع يتسكعون على الارصفة وكأنهم اسراب نمل انقطع اتصالها بالجحافل الكبيرة فهى تنتظر من يردها الى ســواء السبيل ·· وقد راح هؤلاء المتسكعون يرمقون المركبة وراكبيها بأعين مفعمة بالرجاء والابتهال ، ولكن الأب وابنه كانا عنهم معرضين اعراضهما عن جمال الشمس المشرقة وهى ترسل أشعتها فوق الثلوج ··

وتابعت المركبة طريقها حتى سوق السمك القريب من مصب النهر فى المحيط ·· وكانت البائعات يملأن الجو بنداءاتهن الحـــارة اجتذابا للشارين ، والطيور البحرية تحلق على ارتفاع قريب فوق السوق ومصب النهر ، واشرعة السفن تلوح خفاقة بين أمواج البحر ··

وانعطفت المركبة يسارا فى محاذاة أرصفة الميناء ، ثم وقفت أمام بيت قاتم مكون من طابقين يجاوره متجر تكدست أمامه ألواح الخشب وعلى باب البيت الواطىء علقت لوحة كتب فيها :

« جيمس رابيت وولده ــ مستوردون وتجار خمور » ·

وترجل الاثنان تاركين عنان الفرس فى رعاية صبى وهبطا درجات الى الطابق الارضى للمتجر الذى كان بانخفاضه أشبه بكهف ·· وقد بدا المكان ضيقا لوفرة ماتكدس فيه من أكياس الغلال ، واجتمع فيه نفر من الفلاحين رجالا ونساء جلسوا القرفصاء فى ركن منه ·· وحيا جون هاينز امرأة شابة وقفت خلف المتجر ، فردت تحيته بمثلهـــا ومدت له يدها مصافحة ··

كانت المرأة هى (مارى آن رابيت) حفيدة صاحب المتجر من ولده المتوفى ·· وكانت شديدة القبح والدمامة نتيجة لهذه الشامة القانية التى امتدت فـــوق جبينها وخدها الايسر ·· وكانت منتفخة الساقين حتى لتمشى بجهد وعناء ·· وفيما عدا ذلك كانت قوية البنية ، ذات ابتسامة جذابة ·· وقد سألها (هاينز) همسا :

ــ وهل (جيمس) فوق ؟·

ــ انه الآن يتناول فطوره ·· اصعدا اليه ··

فخرج الأب من باب صغير خلف المتجر ·· وقد تخلف (تونى) برهة

كأنما كان فى نيته أن يقول شيئا للفتاة ، بيد أنه أمسك ، وتبع أباه فى سلم ضيق الى الطابق العلوى ·· ولما طرق (هاينز) الباب أجابه صوت خشن يدعوه الى الدخول ·· فدخل مع ولده ·· وشاهدا (رابيت) العجوز جالسا الى خوان صغير قرب نافذة تطل على الميناء وهو يفطر ·· وبرغم أنه كان فى الخامسة والسبعين من عمره ، فقد ترقرق فى وجهه ماء الصحة ، وبقى شعره الأشيب المجعد كاملا ·· وكان الى هذا يتحلى بقرط ذهبى فى أذنيه وقد فقد ساقه اليسرى فى معركة (أبى قير) البحرية فبدت هيأته أقرب الى القراصنة ··

وقال لهما بصوت أقرب الى الزمجرة والهدير :

ـ صباح الخير ·· اجلسا واشربا شيئا من القهوة معى ·· البرد شديد هذا الصباح ··

فقال له هاينز وهو يخرج زجاجة صغيرة من جيبه :

ـ عندى ما يبعث الحرارة والدفء ·· اننا بكرنا حقيقة فى الحضور اليك ياجيمس ·· لكن أمامنا عملا لا يحتمل الانتظار ··

فقال له رابيت :

ـ تخطفك الشيطان ·· أنت دائما فى رأسك أشياء لا تحتمل الانتظار ·· ماذا عندك الآن ؟ ·· كيف حالك ياتونى ؟ ·· لم يتغير قبحك ، لطف الله بك ·· اجلسا ··

فجلسا ·· ووضع هاينز الزجاجة فوق الخوان قائلا :

ـ لطف الله بنا جميعا ·· لكنى أراك فى صحة جيدة يا جيمس ··

فقال جيمس وهو يدب الى دولاب قريب لاحضار الكئوس ··

ـ ما الذى ينال منى ؟ ·· لو شاء الله ووقانى الكوليرا وحمى الخنازير ، فسأعيش حتى أشهد دفنك يا جونى ·· نعم ·· وارقص على قبرك ، أيها الثعلب العجوز ·· !

فراح هاينز يقول بصوته الكئيب :

ـ أشهد أنك رجل قوى عظيم حقا ، وأنت تعيش هنا وحدك ، لايعاونك سوى (مارى آن) ، وبعد أن فقدت نصفك فى المعارك والحروب ·

فقال رابيت وهو يضع الكئوس فوق الخوان :

ـ تلقفتك نيران الجحيم يا رجل ·· هلا فتحت هذه الزجاجة وأمسكت عن الكلام ؟ أظنها أرخص ما وجدت ، أيها البخيل ؟

فأجاب هاينز وهو يفتح الزجاجة ·

ـ ابدا ·· انها من اجود الانواع ·· خذ كأسك يا جيمس ··

وشرب الثلاثة ٠٠ وما لبث رابيت أن وضع كأسه فوق الخوان بقوة وقال :

ـ أنا فى مكانى هذا أستطيع أن أرى كل شيء دون أن أحرك قدما ٠ هذا خير مجلس ٠٠

فسرح هاينز بنظره من النافذة الى السفن الراسية فى الميناء ، وراح يقول بلهجة المحزون :

ـ يأتى على كل مخلوق يـــوم لا يستطيع فيه حتى الصقر أن يميز وهو فى الجو بين الفأر والحجر ٠٠ ان هذا اليـــوم أتانى يا جيمس ٠٠ أتانى بالشيخوخة وضعفها ٠٠ لكننى أحمد الله أنى أستطيع الاعتماد على ولدى هذا ٠٠

فقال رابيت :

ـ هو كبير فعلا ٠٠ على بكأس أخرى من هذا الشراب يا جونى ٠٠ ثم هل لى أن أسأل ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

فصب له هاينز كأسا أخرى ، على حين مضى رابيت يقول :

ـ أظن أن (مارى آن) هى هدفك مرة أخرى ؟

ـ لقد أصبت كبد الحقيقه يا (جيمس) ٠٠٠ ولكننى جئت هذه المرة بصفقة سوف تسيل لعابك ٠٠٠

فقال (رابيت) وهو يرفع الكأس الى فمه :

ـ نخب صحتك ٠٠ ما هى هذه الصفقة ؟

والحق أن الشراب حل عقـــدة لسان هاينز ، فتدفقت فصاحته ، وشرح مشروع المعونة الحكومية باسهاب ، وأشار بصفة خاصة الى ماتقرر من استيراد مقادير القمح الاصـــفر الرخيص من أمريكا ٠٠ ثم استطرد يقول بحمية وقد مال نحو صاحبه :

ـ هناك ثروة طائلة من هذا المشروع يا جيمس ٠٠ لقد علمت أن حمولة سفينة كاملة ستصل الى ميناء ليفربول قريبا وستباع بسعر ستة جنيهات للطن ٠٠ ويمكن بيع هذا القمـــح بالتجزئة بسعر يكفل أرباحا مغرية ٠٠ ولا يتطلب الامر سوى المبادرة الى شراء أقصى ما يمكن من هذه الشحنة قبل أن يتشمم التجار الخبر ويتخاطفوها ٠٠ ان السابق هـــو الفائز يا جيمس ٠٠ ان الحكومة ستمد الشعب بالمال ، ومن يبادر باغتنام هذه الفرصة السانحة العظيمة سيضمن أرباحا يعجز عنهـــا التصـــور يا رجل ٠٠ نعم ٠٠ هى أرباح يروعك التفكير فيها ٠٠ ان الايدى المليئة بالنقود الفضية الخالصة ستتخاطف هذه الغلال حال نزولها الى الارصفة ٠ ولكى لا أطيل عليك ، أقول لك اننا على استعداد لاشراكك معنا فى هـــذه الصفقة ٠٠

وتناول هاينز يد رابيت وبسط أصابعها ثم ضرب عليها بكفه فى قوة وهو يقول :

ـ اننا خصصنا مبلـــــغ ألف جنيه حصتى وابنى فى هذه الصفقة المشتركة ، مع اشراك (مارى آن) فيها ، وعلى أن تؤول اليها حصتك عند وفاتك ... أبصق على يدك وصافحنى تصديقا للقبول والمشاركة ...

بيد أن (رابيت) مال الى الخلف وقد تغيرت حاله واستحال تبسطه الى حرص التاجر الماكر المدقق ، قائلا :

ـ رويدك (ياجونى) .. أننى شخصيا فكرت فى هـــــذا القمح الاصفر .. هل يقبل الناس على أكله ؟ .

فأجاب هاينز بلهفة :

ـ ولم لا يقبلون ؟ ان الافواه الجائعة ليس أمامها فرصة للمفاضلة .

ـ لكنها مع ذلك مجازفة كبيرة .. لقد جرب الناس هذا القمـــــح الاصفر فيما مضى .. ولن يقبلوا عليه هذه المرة خوفا من أن يحيلهم الى وثنيين سود .

ـ ان الحاجة التى اضطرتهم اليه فى الماضى لا تذكر بالقياس الى المجاعة الحالية .. أين الفهم والتمييز يا رجل .

ـ ان عندى منهما الكثير .. ولولا خوفى من هذه المجازفة لما انتظرت حتى تغرينى بجنيهاتك الالف ..

ـ هل لك فى كأس أخرى يا جيمس ؟

ـ لن تلين قناتى وتستميلنى بالخمر ! .

فابتسم هاينز ابتسامة الدهاء وهو يصب الكأس .. لقد كان يعلم أن رابيت لا يملك ألف جنيه أو ما يقارب هذا المبلغ .. صحيح أن تجارته ازدهرت حينا من الزمن ، لكنها لم تلبث أن صارت الى كساد عقب انتهاء حروب نابليون وظل رابيت طوال السنوات العشر الاخيرة بعد وفاة ولده وهو يجاهد ليبقى طافيا فى خضم التجارة المائج .

كان هاينز يعلم هذه الحقائق علم اليقين .. وقد ظل زمنا طويلا وهو يتدبر المزايا التى يجنيها من تزويج تونى بمارى آن .. وكان موقنا أنه كلما توسل بالصبر والانتظار كانت الصفقة أجزل .. ولم يلبث الآن أن راح يضرب على نغمة أخرى قبل أن تضيع الفرصة ، فجعل يقول بلهجة المكتئب :

ـ ربما كنت على حق فيما تنطوى عليه الصفقة من مجازفة ياجيمس . انك رجل حكيم بعيد النظر .. كيف فاتنى أن أتدبر هذا الاحتمال ؟.. من الخير أن ننسى ما دار بيننا الآن .. نخب صحتك يا جيمس ..

فما كاد رابيت يسمع هذا الكلام حتى اصفر وجهه ومال نحـــــو صاحبه وهتف به مغضبا :

ـ ماذا دهاك يا رجل ؟ ٠ ما الذى جاء بك الى هنا ان كنت لا تريد الاتفاق على الصفقة ؟ ٠

فتكلف هاينز الدهشة والاستياء قائلا :

ـ أنا لا أريد الاتفـــاق على الصفقة ٠٠ يا الهى ! اسمعوا يا ناس كلامه ، وهو نفسه الذى ٠٠

ـ لست أنا ٠٠ بل أنت ! ٠٠

وأخيرا تدخل تونى ، فدفع مقعده الى الامام قائلا :

ـ كفى يا هذان ٠٠ قل لنا رأيك يا جيمس ٠٠ أتوافق على الصفقة أم لا ؟ ٠٠ ألف جنيه للمشـــاركة بحق النصف فى الصفقة ، مـــع يد مارى آن ٠ نعم أم لا ؟ هناك آخرون ينتظرون هذا العرض ٠٠

فجعل رابيت يتفرس فى الشاب مليا ، وما لبث أن بسط له يده قائلا :

ـ يدك فى يدى ٠٠ اننى أساهم معك فى الاعمـــــال ، وان كنت لا أساهم مع أبيك البخيل الكذوب ٠٠ اتفقنا ٠٠ ابصق فى يدك ٠٠

فبصق كلاهما فى كفه ثم تصافحا ٠٠ واذ ذاك ضج هاينز بضحكة رنانة وضرب فخذه بيده وقد انتابه ثمل يسير ، ثم هتف قائلا :

ـ اذن تم الاتفاق والتعاقد أخيرا ٠٠ قم الآن يا تونى ، أيها الجبل من اللحم والشحم ٠٠ اذهب واحضر لنا عروسك ، لنرى حظها من الانوثة ٠ أى طراز من الرجال أنت ، حتى تفعل هذه المعجزة ؟ ٠٠

فنهض تونى وقال فى وجوم :

ـ أنا من الطراز الذى لا يعترف بالمستحيل ٠٠

وخرج من الغرفة ٠٠ فجلس العجوزان متقابلين حول الخوان ، ومال كلاهما على صاحبه حتى كاد أنفاهما يتلامسان ، وبدآ يتبادلان الثناء ، ثم انتهيا بالاشتباك فى نقاش عنيف بصدد اجراءات الزواج ٠٠

الفصل الخامس والعشرون

كان جون هاينز مسرفا فى تفاؤله بصدد العون المالى الذى قدر أن الحكومة الانجليزية ستغدقه على الاهلين فى المقاطعة ٠٠ فقد تبين أن هذه العون لا يعدو أن يكون قطرة فى محيط ٠٠

عقدت لجنة المعونة أول اجتماعاتها فى قاعة المحكمة ، فاذا أكثر من ألف رجل قد احتشدوا خارجهـــا انتظارا لتشغيلهم فى الاعمـــال التى ستقررها اللجنة تخفيفا للضائقة ٠٠ وقد اضطر مستر (سوان) رئيس اللجنـــة أن يشق طريقه الى الداخل فى غمار هذا الحشد الصاخب تحت حراسة رجال البوليس ، حتى لقد روعته هذه المغامرة وأثارت سخطه مما حدا به الى رجاء الأب (روش) أن يطالب الجمـــاهير بالانصراف ٠٠ فغضب القس بدوره وقال له :

ــ ولم أطالبهم بالانصراف ؟ ألم يجيئوا الى هنا ليجدوا عملا ؟

فقال مفتش البوليس :

ــ لن يمكن تشغيلهم جميعا ٠٠ انهم جموع زاخرة فى الخارج ٠٠ ولن يتيسر الا تشغيل ثلثمـــائة شخص كل مرة ٠٠ وعلى كل حال لا بد أولا من فحص حالة كل فرد بدقة ، للاطمئنان الى صلاحيته للعمل ٠٠

ومضى يبين للقس اجراءات الفحص تفصيلا ٠٠ فاستمع اليه القس صامتا ٠٠ وما لبث أن تملكه الغضب وهرع الى الجماهير المحتشدة خارج المحكمة ، فاستقبلته بالهتاف المدوى ٠٠ أما هو فقد اعتلى مركبة وصاح فيهم قائلا :

ــ ان أوزة الحكومة الانجليزية قد تمخضت عن بيضة عصفور ، وهى بيضة ليس فيها الا القمح الاصفر ٠٠ فيأيها النـــاس ٠٠ من كان منكم عفيفا قادرا على العمل ، ومن كان له سقف يظله ، ومن كان يملك بقرة أو حصانا أو خنزيرا أو حتى حمارا أعرج ــ من كان منكم هـــذا أو ذاك ، فليرجع من حيث أتى ٠٠ ليس لهؤلاء شأن هنا ولامكان ٠٠ ستقصر المعونة على اللاجئين ، والمتسولين ، والمتسكعين ٠٠ لن يستوعب العمل أكثر من ثلثمائة فرد لا أكثر ٠٠ ان أموال الشـــــعب الارلندى التى أقرضتها له الحكومة الانجليزية بفائدة قدرها خمسة فى المائة ، لن تستخدم فى أعمال انتاجية نافعة ، وانما تستخدم فى اطعام أولئك الذين لم يعينوا أنفسهم بأنفسهم ، أولئك الذين يعيشون سبة وعارا فى جبين الاقليم ٠٠ فليبق الذين هم شركم حالا ، ولينصرف الآخرون ، مشمولين بعناية الرحمن ٠٠

والحق أن هذا الخطاب النارى كان له أشد وقع فى نفوس الجماهير

حتى اضطر الكابتن (موردو) أن يستعين بقوة البوليس المحلى كلها لاخماد الشغب ..

بل ان الشعب فى داخل المحكمة ذاتها كان أشد منه خارجها ، حتى انصرم النهار كله دون الاتفاق على خطة معينة .. فقد شكلت اللجنة من مستر (سوان) والقس (كوبرن) البروتستانتي والكولونيل (بودكين) قاضى المحكمة و (جون هاينز) التاجر المعروف وثلاثة من المزارعين انتخبوا لأنهم أغنى دافعى الضرائب فى الاقليم ، وان كانوا ثلاثتهم من الاميين .. وقد ظلت اللجنة تجتمع وتنفض مدى أربعة أيام كاملة ، فى مناقشـــات جدلية غير مثمرة ، حتى اتفق أعضاؤها أخـيرا على خطة معينة ، وانتقلوا بعد ذلك الى فحص حالات طلاب العمل .. والى هذا الحد تبخرت حماسة الاهلين وقل اهتمامهم حتى استحال الى اعراض ظـــاهر ، فلم يتقدم الى اللجنة سوى أتعسهم حالا .. وكان بين هؤلاء (تومسى) ..

ولم يذهب تومسى مختارا ، بل تحت ضغط مارى التى كانت تستحثه قائلة :

ـ لو تمكنت من الفوز بتصريح للعمل لكان فى ذلك فائدة لنا جميعا .. وما كان مارتن ليتردد فى الذهاب قـــط ، لولا أنهم لا يريدون من يعملون فى الارض .. فاذهب ولا تتأخر ..

وهكذا ذهب تومسى الى المحكمة أياما متوالية وقدم نفسه فى عداد المتقدمين حتى حل دوره ونودى أمام اللجنة لفحص حالته .. وهنـــا قال مستر سوان للكولونيل بودكن رئيس لجنة الفحص وهو يقلب فى أوراقه

اعتقد أن هذا الرجل غير صالح ، فقد حكم عليه بالحبس مدة بتهمة التمرد على القانون والاعتداء على أحد ممثلى صاحبة الجلالة الملكة ..

فهتف بودكن قائلا :

ـ ما هذا الكلام ؟ .. انى أعرف هـــذا الرجل يا سيدى .. انى شخصيا حكمت عليه بالسجن مع الشغل مدة شـــهر للسكر والشغب ومهاجمة جندى بوليس ..

فقال تومسى :

ـ وحقك يا صاحب السيادة انك فعلت هذا فى هذه المحكمة نفسها وفى يوم شـــديد الحر .. وأنا أذكر جيدا يا صاحب السيادة أنك كنت نائما فى هذا المقعد ثم استيقظت فجأة ونطقت بالحكم قائلا :

(شهر مع الشغل) ..

فقوبل كلام تومسى بعاصفة من الضحك حتى ابتسم لنفسه راضيا لما يلقى من اهتمام الناس به ، بل انه كان يجـــد لذة عظيمة فى ابتعاث الضحك بكلامه الساخر ونكاته اللاذعة ..

واسترسل تومسى يبين ما كان بينه وبين جندى البوليس فى الواقعة

الماضية بعبارات أثارت مزيدا من الضحك ، حتى قال الكولونيل (بودكن) (لمستر سوان) :

ـ أهذا يبدو فى حكم المتمرد ؟ ٠٠

ـ أنا آسف يا كولونيل ٠٠ لا مفر من التزام التعليمات ٠٠ ان هذا الرجل غير صالح ٠٠

فقال الكولونيل بودكن :

ـ سحقا لتعليماتكم ٠٠ يبدو ياتومسى أنك لن تنال العمل المطلوب ٠٠ فاذهب واشرب حتى تسكر ، لكن حذار أن تعتدى على رجال البوليس ٠

ونفحه نصف جنيه ، فشكره تومسى وغادر المحكمة ٠٠

وعلى الأثر قصد تومسى الى متجر هاينز ودخل من باب خلفى حتى لا يتبعه أحد ويطلب نصيبا من النفحة ، فابتاع زجاجة ويسكى وكيسا من الحلوى لاسترضاء مارى ، ثم رجع الى الوادى الاسود من طريق بين الجبال ٠٠ وعرج فى سيره على بقعة غير مطروقة جلس فيها يشرب الزجاجة حتى أتى عليها ، وعند ذلك تابع طريقه الى البيت وهو يتمايل ويغنى ٠٠

وفى خارج القرية قابل (باتسى أوهانلون) عائدا الى داره مسرعا ، فهتف به تومسى :

ـ يا للشيطان ! ٠٠ من أين لك هذا التبغ ؟ ٠٠

كان أوهانلون يسير منتصب القامة مرفوع الهامة يهز ذراعيه بقوة وينفث سحائب الدخان من غليون جديد فى فمه ٠٠ وما لبث أن رد على تومسى فى ترفع شديد قائلا :

ـ من المتجر ٠٠ من أين غير المتجر ؟

وتابع طريقه تاركا تومسى يحك رأسه مشدوها من هذا الاسلوب ٠ واذا به يصيح فى أثر أوهانلون قائلا :

ـ ماذا أصابك يا رجل ؟٠ ألا تعرف جارك ؟٠٠

فرد أوهانلون صائحا بدوره :

ـ أنا مستعجل ٠٠ انى حصلت على تصريح للعمل ٠٠ وسأبدأ من صباح الغد ، ولا بد أن أستيقظ عند الفجر ٠٠ كلنا ثلثمائة فى هـــذا العمل ٠٠ وأنا الوحيد الذى اختاروه من (الوادى الاسود) ٠ ٠

فصاح تومسى غاضبا بعد أن أعجزه السكر عن ملاحقته ٠

ـ هذا هو الواقع اذن ٠٠ لقد صرت عظيما ذا مكانة فى الدنيا ٠٠ من كان يصدق شيئا كهذا ؟ ٠٠ (باتسى أوهانلون) ٠٠ أخذتك الابالسة يا قذر ٠٠

وراح تومسى يهز قبضتيه فى أثر صاحبه وقد اغرورقت عيناه بالدموع غضبا واهتياجا ٠٠

ولما مر فى طريقه بكوخ أوهانلون صاح بأهله سابا منددا ٠٠ فخرجت اليه (سالى) متحدية وقالت له :

ـ ما أنت الا حاسد غيور أيها السكير الوقح ٠٠ انك لا تطيق أن ترى طعاما يهبط على الافواه الخاوية ٠٠

وبلغ الدار فى النهاية ودخل من فوره الى المطبخ مترنحا وراح يقول على الأثر :

ـ قالوا عنى انى من المتمردين ٠٠ ذكر مندوب الحكومة أن هذا مكتوب فى السجل ٠٠ ولكن الكولونيل (بودكن) ٠٠ لكن ماذا بكم أيها الناس ؟

وأدرك فجأة أن الجميع سكوت على نحو غريب ٠٠ ورأى (ماجى) فى ركن المدفأة مستسلمة للبكاء ٠٠ وتكلمت مارى ، فقالت له :

ـ صه ! ٠٠ ان (ميخائيل) يلفظ أنفاسه الاخيرة ٠٠

الفصل السادس والعشرون

استحال (ميخائيل) فى الشهر الأخير الى هيكل عظمى ، فكان ذلك بدء النهاية ...

وقد قضى المسكين ليلته الاخيرة وهو يصارع الموت ، ثم صعدت روحه الى بارئها فى الفجر ... وسرعان ما علا الصراخ والعويل فى أرجاء البيت ، وتوافدت نساء الجيران يشاركن الاسرة فى النواح ، تتقدمهن (كيتى هرنون) ، على حين انهمك (مارتن) والعجوز فى اعداد مايلزم للجنازة ...

وفى النهار أقبل الرجال الى البيت يترحمون على الفقيد ويعددون مناقبه بين كئوس الشراب التى تدار عليهم طبقا للتقاليد المرعية ...

وجاءت والدة (مارى) ليلا ، فانسحبت معها (مارى) الى مخدع نومها وقالت لها بعد أن أغلقت الباب :

ـ لم لم يأت أبى ؟

فانهمرت دموع الام ، وأجابت قائلة :

ـ لا أعرف ماذا دهاه منذ رحيل (ايلى) ... اننى لا أستطيع أن أفوز منه بكلمة واحدة ، ومثله فى هذا أخوك (باتريك) ... ان والدك مشغول بشىء يفكر فيه ، فهو لايخرج من المنزل قط ...

ـ ألم تأت أنباء عن (ايلى) ؟

ـ ولا كلمة يابنيتى ... انها لم تذهب عند عمتها (جوليا) ... لاشك أنه حدث لها مكروه ...

فقالت (مارى) مكروبة :

ـ يالقسوة الاقدار ! .. كل هذه المصائب متتابعة !؟

وتمددت (مارى) فى الفراش واغمضت عينيها وشبكت يديها تحت رأسها ، على حين استطردت مسز (جليسون) تقول :

ـ لم تبق عندنا نقود فى البيت ... وقد ذهبت الى مستر (شادويك) للمطالبة بأجور (ايلى) ، فما كان منه الا أن قال لى بالحرف الواحد :

« أى أجور تطلبين ؟ .. دعى أخت (ايلى) التى حرضتها على

الذهاب تطالبني بالاجور ... راكعة على ركبتها أمامي ! » ... ترى ماذا يكون مصيرنا بعد الآن ؟

ـ انا في شدة التعب يا أماه ... الحمد لله ان (ميخائيل) ذهب عنا ، غفر الله لي .. انه كان كدودة تأكل كل مافي البيت ، وقد أصبحنا لانملك خنزيرا ولا دجاجة ولا بطة ... هذا ومولودي في الطريق الى هذه الدنيا ! ..

فانحنت الام فوقها تمسح على جبينها مواسية ، فقالت (ماري) هامسة :

ـ ماذا قلت الآن عن أبي وعن (باتريك) ؟.

ـ لاشيء ياحبيبتي ... استريحي الآن ... سأجيئك بغطاء لكي تنامي ، وسأتولى عنك كل شيء في المنزل .. لابد لك أن تعتني بصحتك منذ الآن ، خصوصا قبل مولودك الاول ...

ـ الا يقول أبي شيئا ؟

ـ لاتقلقي نفسك بهذا الامر ...

ـ لماذا لاتذكرين لي مايقوله أبي ؟

ـ الحقيقة يابنيتي انه أصبح لايتكلم وهو الذي كان ثرثارا ... وبالامس انتابه انفعال شديد فوثب من مكانه واخذ يسير في الغرفة حافي القدمين ، ثم عاد الى الجلوس وهو يضغط على أسنانه ..

ـ لماذا يريد مستر (شادويك) أن أذهب اليه ؟ ... انه طعننا بما فيه الكفاية ...

وفجأة تعلقت (ماري) بأمها قائلة :

ـ أماه ! . انني خائفة من هذا الرجل .. صلي لاجلي يا أمي ! .

فاحتضنتها الأم حتى سكنت (ماري) بين يديها .. ثم جذبت الغطاء فوقها وهي ترتعد ، وما لبثت أن استغرقت في نوم عميق من أثر التعب ..

واستيقظت (ماري) من نومها على أصوات تهمس في الغرفة .. فلزمت مكانها وأنصتت .. فسمعت (ماجي) وابنتيها يتهامسن لدى النافذة .. وكانت (نابا) تقول :

ـ انه لشيء فظيع في الحقيقة ان نضطر الى المهاجرة من الارض التي نشأنا فيها ، وان نعبر المحيط الى بلاد غريبة ندفن فيها احياء ، دون صوت نعرفه ، ولا وجه نطمئن اليه ، ولا حتى حفنة عزيزة من تراب الوطن .. لكن ماذا بقي لنا غير ذلك ؟ .. ان زوجي (دان) بعيد عن الجبن كما يعرف كل انسان ، لكن حانوت الحدادة قد انصرف عنه الناس ، ولم نأخذ شيئا من ريع الارض هذه السنة .. وان الجنيهات القليلة الباقية لنا لن تلبث أن تذهب ، ولذلك كان من الافضل أن نبتاع بها تذاكر الرحلة الى بلاد يقال انها غنية بالخيرات ! ..

فردت عليها (كيتى) قائلة :

ــ ليتك تأخذيننى وأولادى معك ... ان حالتى اسوأ من حالتك وعندى هذا العدد الكبير من الافواه الصغيرة تطلب القوت ...

فقالت (نابا) :

ــ على الرحب والسعة ياحبيبتى لو كان ذلك ممكنا ... انالقليل الذى بقى لنا بعد دفع نفقات الرحلة لازم لنا فى نيويورك ... فاننا لانستطيع النزول هناك بلا نقود ، وهم يقولون ان وجود الانسان هناك بلا نقود شىء فظيع ... وهناك حيتان البحر تتلقف المسافرين لدى نزولهم من السفن وتمزقهم تمزيقا ... ثم هناك لصوص مهمتهم بيع تذاكر السفر بالسفن النهرية الى داخل البلاد ، وقد حذرونا منهم كثيرا ! ...

فقالت لها (كيتى) :

ــ الا يمكنك أن تأخذى معك حتى طفلين ؟ ...

ــ سأكلم (دان) فى الموضوع ... ربما دبرنا الامر من هنا وهناك لآخذ ابنك الاكبر ...

ــ الابن الذى يلى الاكبر ... فان الاكبر نافع لى ولايمكننى التفريط فيه ...

وهنا استدارت (مارى) فى فراشها واستسلمت للنوم مرة أخرى فلم تستيقظ الا فى الصباح ، عندما بدأ الاستعداد للجنازة .

وسار موكب الجنازة فى النهاية يتبعه رجال القرية ويتقدمه (بريان) العجوز ممتطيا جوادا وقد أردف زوجته خلفه ... ولكن (مارى) تخلفت فى الدار لتنظيفها وترتيبها بمعاونة (سالى أوهانلون) التى راحت تقول لها :

ــ ان الناس سيحقدون علينا لان (باتسى) فاز وحده بتصريح للعمل دون سائر أهل الوادى ، وانه لشىء عظيم أن يختار الفقراء دون الاغنياء للعمل ، ودون من يملكون بقرة أو حصانا ... ان العملسيكون شاقا لانهم سيحفرون التل الذى يمتد جنوب القرية فى اتجاه (كلوجر) ... وهم يعطون ثمانية بنسات عن حفر مسافة فرسخ يوميا ...وهذا مبلغ كاف ننال به كل شىء ... لكننا لسنا من الذين يستكبرون اذا اغتنوا ... ان لك الآن يا (مارى) جارة لن تنسى طيبتك وكرمك ... لن أدعك تشعرين بالحاجة ياحبيبتى مادام فى بيتنا بنس واحد ...

فلم تتمالك (مارى) أن ضحكت برغم ضيقها وشقائها حين رأت (سالى) تفكر فى الجود والبر بالجيران من مبلغ زهيد لايجاوز ثمانية بنسات يوميا عن الفرسخ الواحد ، وبعد اطعام سبعة أفواه جائعة ، والطعام غال شحيح ... لكنها أعربت لها عن شكرها قائلة :

ــ ما أطيب قلبك يا (سالى) ... بارك الله فيك .

ومضت (مارى) فى تنظيف البيت بمساعدة (سالى) ، حتى اذا رجع الرجال بعد الجنازة لم يبق من مخلفات الميت سوى الذكرى ....

الفصل السابع والعشرون

قبلت (نابا) وزوجها أخيرا أن يصطحبا في رحلتهما الى أمريكا الثانى والثالث من أبناء (كيتى هرنون) ... وقد أبحروا فى اواسط شهر مارس بسفينة ركابها جميعا من المهاجرين قامت بهم من (كلوجر) الى نيويورك ، وأقلت السفينة عداهم ثلاث أسر من سكان (الوادى الأسود) ، بل كان أكثر من نصف ركاب السفينة من مقاطعة (كروم) وحدها ... وقد توفى أربعة وثمانون من هؤلاء التعساء بالحمى فى خلال الرحلة الطويلة ...

وكان من أشق الأمور على (كيتى هرنون) أن تطعم أبناءها الخمسة الباقين ... وقد أصبحت تعيش على الصدقات من أول العام الجديد ، ولكن الصدقات غدت بدورها فى حكم العدم ، لان الفقير مهما توافرت لديه الرغبة لايجد ما يعطيه ... وقد أتى الناس فى أكثر جهات الوادى على ماكان لديهم من أغنام ، ونفد ما اختزنوه من البطاطس ، ومنهم من أصبحوا يقتاتون بالنباتات الحريفة التى تنبت فى البرارى .. ولم ينقطع آل (كيلمارتن) عن منح (كيتى) المنكودة ماتيسر من الزاد ، بيد أنهم لم يلبثوا ، حتى ضاقوا ذرعا بها وهى لاتكف عن الخصام كلما زارتهم ... وقد أصبحوا ينفقون مابقى لديهم من شلنات قليلة على الطعام بعد أن جردتهم نفقات جنازة (ميخائيل) من كل مال وأشرفت بهم على الاملاق ... ولم تجد (مارى) الا أن تقول لكيتى فى النهاية :

ــ لماذا لاتذهبين الى لجنة المعونة ؟ .. ربما أمكنهم مساعدتك ..

فقالت (كيتى) :

ــ انهم لايمنحون أحدا نقودا ، ماعدا القس البروتستانتى . وفى هذا مايجلب على اللعنة ... ثم انهم لايسمحون للنساء بالعمل ، ولو سمحوا لما ترددت لانى قوية برغم نحولى ... ليتنى أجد من يأخذ طفلى الصغيرين ، اذن لاستطعت أن اتدبر الأمر على أى وجه ...

ــ بامكانك أن تجربى حظك امام اللجنة على اى حال ... ان شيئا كهذا لايضيرك ...

ــ صدقت يا (مارى) ... ربما أمكنهم تدبير مكان لى على ظهر سفينة مسافرة ... ولو استطعت السفر الى (ليفربول) لما عدمت العمل هناك ...

وهكذا قررت (كيتى) أن تقصد الى لجنة المعونة ... وكان يوما منحوسا ذلك الذى اختارته للمثول أمام اللجنة بسبب تفاقم الخلاف

بين أعضائها على خطة العمل ، وخصوصا بين الاب (روش) والقس البرونستانتى (كوبيرن) ، حتى اضحت العداوة بينهما حربا سافرة .. وقد انحاز الفلاحون الاميون الثلاثة أعضاء اللجنة الى جانب الأب (روش) ، على حين انضم الكولونيل (بودكن) الى جانب (كوبيرن).. ولزم (جون هاينز) الحياد ، بيد انه كان مكروها من سائر أعضاءاللجنة ... وكان الخلاف فى أساسه ناجما عن مسألة توزيع القمح الاصفر .. وقد دأب الأب (روش) الذى انزعج لما سببته خطبته من هياج وشغب بين الناس ، على نصح الاهلين بالثقة فى الحكومة واطاعة القانونوالاعراض عن المهيجين ... بل انه راح بايعاز من رئيس اللجنة يحض الناس على أكل القمح الاصفر ، مؤكدا أنه لن يحيلهم سودا وثنيين كما زعم لهم الزاعمون ، وتأييدا لهذا صنع أمامهم عصيدة من دقيق هذا القمح وأكلها ليقطع لهم الشك باليقين ... وكذلك أقبل الناس على هذا الطعام الذى عافوه حينا..وانهالت النقود على خزانة (جون هاينز) تبعا لذلك..

والواقع أن الخطة التى رسمها (جون هاينز) فيما رأينا قد نفذت بحذافيرها ... فقد اشترى مع (رابيت) شحنة السفينة الاولى التى وردت الى ميناء ليفربول محملة بالقمح الاصفر ، ونقلت الشحنة الى (كلوجر) على الاثر ... وتربع (تونى) فى متجر (رابيت) ، ولم يكن ينتظر الا نهاية فصل الصيام ليعقد زواجه على (مارى آن) حفيدة (رابيت) ... واضيف اسم (هاينز) على اللافتة كأحد الشركاء ... وكان القمح يباع فى متجر (هاينز) الاصلى بسعر ثلاثة شلنات للكيل المحلى ... ولكن الأب (روش) تملكه اشد السخط حين راى الذئاب تسمن هكذا على حساب القطيع الجائع ، حتى صاح فى أحد اجتماعات اللجنة بأعلى صوته قائلا :

ــ ان هذا القمح يجب أن تتولى الحكومة توزيعه بالسعرالاساسى ... ان جوع الفقراء يجب ألا يكون وسيلة لملء خزائن المرابين !

كان ذلك هو الجو يوم أن قررت (كيتى هرنون) الالتجاء الى لجنة المعونة مستنجدة ... واليوم شجر بين الاعضاء خلاف جديد مبعثه عدم حصول العمال الذين يعملون فى شق الطرق على أجورهم منذ عشرة أيام بسبب سوء الادارة فى (كلوجر) ، مما جعل اللجنة فى احجام تام عن احتمال تبعات جديدة ..

ومهما يكن فان (كيتى) انشأت تبسط شكواها لاقرب الاعضاء الى ناحيتها ، وتصادف لسوء حظها انه كان (كوبيرن) البروتستانتى ، مما احفظ منها الأب (روش) على الاثر ...

قالت (كيتى) وهى تسوق أبناءها الخمسة أمام اللجنة :

ــ انظر الى والى أطفالى .. ان زوجى نزيل مستشفى المجانين.. انه لم يمت ، لكنهم برغم ذلك كالايتام ، بل شر من الايتام ... ولو أنهم كانوا ايتاما فعلا لتزوجت رجلا آخر ... فان لى رقعة من الارض وهى كفيلة باجتذاب اى رجل .. ان لى يدين وانا على اتم استعداد للعمل فى كل مايؤدى الى سد الافواه الجائعة . دعونى اشتغل فى مد الطرق ...

انى عليه قادرة كالرجل ... هناك أناس فازوا بالعمل وهم ميسورون ، لكن لهم أصدقاء ... اما أنا فلا ناصر لى ولا معين ! .

ومضت المنكودة تتحدث طويلا بهذا الاسلوب المؤثر وهى مضعضعة واهنة الجأش ، حتى قاطعها مستر (سوان) فى النهاية قائلا :

ــ ان تشغيل النساء مخالف للتعليمات ...

وهنا لم يتمالك (كوبيرن) أن وثب صائحا :

ــ هذا أمر شائن ... هذا تهريج !

فقال (سوان) بهدوء :

ــ أنا على استعداد لمسامحتك يامستر (كوبيرن) ، اذا اعتذرت عن هذا الكلام .

فهتف (كوبيرن) قائلا :

ــ اعتذر ؟!. أنا لا أعتذر قط فى الحق .لقد ضقت ذرعاباجراءاتكم العابثة ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع . ان هذه الاعمال التى لا فائدة منها للشعب ، والتى ينفق عليها برغم ذلك من ماله ، يتولاها جيش من الموظفين الانجليز الجهلة ، الذين جىء بهم من انجلترا خصيصا للارتزاق وتعقيد الامور بما يكدسون من الاوراق والمستندات والسجلات ... وبرغم ذلك لايستطيع العمال المساكين أن ينالوا أجورهم من الاموال التى اقترضناها من انجلترا بفائدة مقدارها خمسة فى المائة ... ردوا الينا أموالنا ! ردوها الينا لكى نسعف بها أمثال هذه المراة التعسة وأطفالها الجياع ، بدل أن تشوهوا ارضنا الجميلة بمشروعات لاتفيد .. والقمح ...أنه لمن السلب والنهب أن يباع القمح ابان المجاعة بالسعر الذى يباع به ، وكأنه شىء نفيس.هل من المروءة،والدين ، والوطنية ؛ أن يغتنى أناس على حساب القحط والمجاعة ؟ هذا ظلم وجور .. هذا تخبط وتهريج ... أولى لكم من هذا أن تقرضوا الناس وتدعوهم يعملون فى الارض التى يزرعونها ... واذ ذاك ترون منهم المعجزات فى الداب والانتاج والابتكار ... انى مستقيل من لجنتكم ... انى ارفض أن أكون لكم شريكا فى هذا الفساد والافساد ... تعالى معى أيتها المراة الطيبة ... انى سأساعدك بكل ما استطيع ...

ويمم (كوبيرن) شطر الباب تتبعه (كيتى) ، بيد أنه لم يخرج حتى تصدى له الأب (روش) متحديا مناجزا وقد شق عليه أن يراه ينفرد بهذه البطولة وهو البروتستانتى المذهب ، حتى نشبت بينهما مشادة كلامية حامية فزعت منها (كيتى) أشد الفزع فولت هاربة من ساحة المحكمة وهى تقول لنفسها :

ــ الآن قضى على نهائيا ، بعد أن استوجبت غضب الأب (روش) .

وقررت (كيتى) أن تعود الى البيت من فورها ... لكن المسكينة لم تذق طعاما فى يومها ، وقد اضناها حمل طفليها الصغيرين ... واذا اليأس يضرم فيها روح الشجاعة حتى قالت لنفسها مرة أخرى :

ـ ان مستر (كوبيرن) دعاني للذهاب معه ... فالى أين ؟ ..الى بيته ؟

والتوت امعاء طفلها الاكبر من الجوع والاعياء حتى انبعث صراخه ... فقر قرارها وزال عنها كل تردد ... وولت وجهها شطر بيت (كوبيرن) القس البروتستانتي وهو في ضواحي القرية مواجها لثكنات البوليس ... وتلقتها خادمته الكاثوليكية بشيء من الاستغراب والناس لايطرقون هذا البيت الا لماما ... فقالت لها (كيتي) :

ـ أيمكن ان أنتظر هنا حتى يعود مستر (كوبيرن) ؟

ـ وماذا تريدين منه أيتها المراة الطيبة ؟

ـ انه دعاني الى الحضور ...

ـ صحيح ؟.. ان السيدة زوجته في الداخل ... وربما أمكنها مساعدتك .

ـ ربما ... انني في شر حال ... ان أطفالي هؤلاء يكادون يهلكون جوعا .

ـ سأخبرها بحضورك ... ومن أين أنت أيتها المرأة الطيبة ؟ .

ـ من (الوادي الاسود) ...

ـ هكذا ؟.

وشفعت الخادمة كلمتها تلك بنظرات استنكار عدائية ...

وكانت مسز (كوبيرن) عليلة بسبب داء في ساقيها ، وقد مضت فترة طويلة قبل أن تستطيع النزول من حجرتها ، وفي تلك اللحظة اقبل (كوبيرن) حانقا مهتاجا بعد المناقشات الحامية العنيفة التي كانت في جلسة (لجنة المعونة) ... وقد استقبل وزوجته (كيتي) في غرفة صغيرة مجاورة للمطبخ ... وفي خلال هذه المقابلة كانت الخادمة تسترق السمع من ثقب الباب مما هيأ لها فيما بعد أن تنقل مادار الى الاب (روش) قس الكنيسة الرسمي ، مضافا اليه ماتيسر من المبالغة والتحريف ...

ومهما يكن فان (كيتي) أضحت في شر حال من الاضطراب حتى ذهبت تقول للرجل وزوجته وقد فقدت صوابها أو كادت :

ـ خذا طفلي الاثنين ، هذين ! . خذهما ياسيدي ، وضعهما في ملجأ وان كان ذلك سيجعلهما (بروتستانت) ... اني كافحت طول الشتاء ، وفي خلال الامطار والزوابع الثلجية ، لكني عجزت وأفلست حيلتي ! ... اني حاولت العمل في الملجأ ؛ لكنه مليء مزدحم حتى عتبته واللاجئون اليه ممدون على الارض مرضى يتقلبون في الاقذار ... ان لكم ياسيدي ملجأ في (كلوجر) ، وأناشدك أن تضع فيه الطفلين ؛ ولتقع على راسي تبعة هذا العمل الذي لاذنب لهما فيه ! .. انظر ياسيدي الى هزالهما وضعفهما ، تأخذك الشفقة عليهما ... ليقل الناس في عملي

هذا مايحلوا لهم ، لكن على الام أن تطعم أطفالها ، حتى لو شقت طريقها في نيران الجحيم ... ولا تظن ياسيدى انى لن احتمل العذاب بابتعادهما عنى ... أن أخوين لهما قد ارتحلا الى أمريكا مع أختى ، والله يعلم كم أكابد وأنا أفكر فيهما ليلا ونهارا ، وأسمع صوتهما ينادينى وكأنهما يتقلبان فى النار ... ان الله أعطانيهما ، والجوع أخذهما منى ... لكن سيبقى لى من بعدهم ثلاثة ، ليكونوا سلوة لى ...

وكانت مسز (كوبرن) تسمع هذا الكلام المؤثر ودموعها تجرى .. فقد تذكرت أبناءها الخمسة الذين كانوا بعيدين عنها بعد أن تزوجوا وتفرقوا فى البلاد الخارجية ، عدا أحدهم الذى كان يعمل فى أحد البيوت المالية بلندن ...

أما (كوبرن) فقد هاله هذا المطلب الشاذ الذى طلبته (كيتى) ، فقال لها :

ــ يجب أن تعلمى أيتها المرأة الطيبة أنه يستحيل أن أفعل ماتطلبين
ــ ولم لا ياسيدى ؟.

ــ لاصلة لى بملجأ الأطفال فى (كلوجر) .. وانى لاأحول الناس عن مذاهبهم ومعتقداتهم ... ولابد لك من ابقاء أطفالك فى رعايتك ..

فقالت مسز (كوبرن) :

ــ لكن لايمكن يا (آرثر) أن تطرد هذه المرأة المسكينة ! ..

ــ ليس فى نيتى أبدا أن أطردها .. لكن لايمكننى أن آخذأطفالها.. اننى لا أبيح لنفسى سلوك هذا المسلك بأى حال ... لكننى على استعداد لمساعدتك أيتها المرأة الطيبة ... انتظرى قليلا ...

وغادر الغرفة ثم عاد بعد قليل ومعه خمسة جنيهات قدمها لكيتى .. فركعت المرأة على ركبتيها وقبلت يديه وهى تدعو الله أن يباركه .. وكانت تقول :

ــ انى نجوت ياسيدى !.. انى نجوت !.. ان هذاالمبلغسيوصلنى مع أولادى حتى ليفربول ...

واقترح عليها (كوبرن) أن تقلها مركبته الى (كلوجر) متى استعدت للرحلة ، فقالت له :

ــ سأكون مستعدة فى غمضة عين ... وارجو ابقاء أطفالى هنا ريثما اذهب وأجمع حوائجى ..

فسمح لها (كوبرن) بابقاء أطفالها مع الخادمة ... فأسرعت الى دارها ثم عادت ومعها لفافة كبيرة من الملابس ، وهكذا استقلت مركبة (القس)ووجهتها ميناء (كلوجر) .

ولما كانت (كيتى) موقنة أنها لن تعود الى الوادى أبدا ، فقد دفعها الحقد على الاهلين الذين أمسكوا عن مساعدتها ، الى التنديدبهم

علانية وهى فى طريقها الى خارج القرية .. أجل .. لقد راحت تندد بكل انسان ... حتى الأب (روش) لم يسلم من لسانها ...

ولكن سائق المركبة اضطر الى الوقوف عند المنطقة التى كان يشتغل فيها العمال خارج القرية ، حيث عم التخريب والدمار وتعذر المرور بسبب فوضى الاعمال الجارية التى تمت ارتجالا ودون هدف معين ... وكان العمال أنفسهم مستسلمين للتذمر والكسل بتأثير الجوع والاعياء بعد أن حبست عنهم الاجور مدى أسبوعين .. ولم تلبث (كيتى) أن صاحت فيهم على حين كان السائق ممسكا برأس الجواد يخوض به الاوحال :

ــ أيها الصعاليك ! .. انتم الذين فزتم بالعمل ، على حين بقى الفقراء الشرفاء بغير زاد ! .. أمثلى تهجر الاقليم بسبب الجوع ، وأنا التى ربيت على لبن البقر فى أسرة تملك الارض ؟.. ان مستر (كوبيرن) سيعرف كيف يردكم الى مكانكم فى الحضيض، ويضع الشرفاءمحلكم ! .. أيها الاوغاد الذين لم ينالوا هذا العمل الا بالرشوة وخراب الذمم !

فجعل الرجال يحملقون فيها مشدوهين وقد جلست فى عربة القس زائغة البصر منفرجة الثنايا ممزقة الاسمال تحتضن صغارها كما تحتضن الدجاجة أفراخها الجائعة تحت جناحها .. ومضت بها المركبة فى منحدر التل أخيرا وهى تصرخ فيهم قائلة :

ــ اذا حلت على اللعنة بسبب فعلتى هذه ، فسوف تقع التبعة على رءوسكم يوم القيامة .. ان حب الام لاولادها هو الذى دفعنى الى هذا العمل ؟

وأخذ فريق من الرجال يصفر فى أثرها استهزاء وسخرية .. لكن ماهو الا أن تسامع الناس بأنباء مافعلت وما كان من أمرها فى (كلوجر) حتى تفاقم الامر ، وكانت لآثار فعلتها ذيول أكثر من مجرد الصفير ..

الفصل الثامن والعشرون

بينما كان (شادويك) يتناول فطوره وقد مضت ثلاثة أيام على ماتقدم اذ رأى (هيجارتى) يندفع الى داخل الحجرة دون استئذان والدم يسيل فوق وجهه .. فقال (شادويك) :

ـ ياللشيطان ! .. ماذا دهاك ؟

فراح الجابى يقول لاهث الانفاس :

ـ هو القتل وسفك الدماء ياسيدى !.. ان الاهلين قد ثاروا !.. أعطنى بالله شربة ماء ! ..

وجاء (ريلى) و (مارى هالوران) وأعطياه الماء .. وكان الرجل فى حالة يرثى لها من الفزع والاضطراب حتى ذهبت ركبتاه تصطكان على حين تولى زميلاه تنظيف الجرح الذى أصيب به فى وجهه .. ولم يطل به الوقت حتى قص قصته ..

لقد بدا أن الاهلين تملكهم السخط بعد أن أذاعت خادمة (كوبيرن) قصة (كيتى) .. ثم جاءت فيما بعد أنباء من (كلوجر) تقول ان (كيتى) أودعت طفليها فى الملجأ البروتستانتى .. ولم تتسرب هذه الانباء الا لان هذه المرأة المخبولة قد تملكها الندم بعد ايداع طفليها فى الملجأ ، فذهبت تطوف فى (كلوجر) قائلة ان (كوبيرن) هو الذى أغراها بهذا العمل .. ثم ان أبناءها الثلاثة الباقين أصيبوا بنزلة معوية حادة بعد أن أسرفوا فى الاكل مما منحها القس ، فكان معنى ذلك فى نظر (كيتى) ان الله قد سلط غضبه ونقمته عليها ، حتى راحت تكيل الاتهامات الباطلة لمستر (كوبيرن) وتحمل عليه حملة شعواء وهى تدفع أجر رحلتها وأطفالها الى ليفربول من المال الذى تصدق به عليها .

والواقع أن هذه الانباء لم تكد تبلغ مسامع الناس فى مقاطعة (كروم) حتى ثارت ثائرتهم ، فقاموا فى جنح الليل بهجوم على دار (كوبيرن) أدى الى تخريب مقر المعونة الذى أنشأه تحت اشرافه وتسلل فريق منهم الى الارض الملحقة بالدار حيث احاطوه ببقرة (كوبيرن) وقطعوا ذيلها ، وكادوا يقتحمون مسكن الرجل لولا أن خفت الى مكان الحادث قوة من رجال البوليس فرقت جموعهم ، فاتجهت طائفة منهم الى دار (هيجارتى) حيث فتشوها وأحرقوا اخطارات المطالبة بالايجار .. وبرغم أن (هيجارتى) تمكن من الهرب فقد اصيب فى جبهته بحجر قذفه به أحد الفتيان ، وهكذا أسرع الى القصر يروى قصته المثيرة .. وقد اختتمها قائلا :

ـ انهم ثاروا ! .. الشعب قام بالثورة !.. انهـا ثورة لاشـــك فيها !..

فقال (شادويك) لخادمه :

ـ اعد جوادى يا (ريلى) ··· ان حوافر الجواد هى مايثير الرعب فى قلوب هؤلاء الارلنديين الكلاب ···

فقال (ريلى) لسيده حين رآه يجرد سيفا معلقا فى الجدار من غمدة

ـ ما هذا الذى تفعل يا سيدى بحق الرحمن ؟

فقال (شادويك) وهو يهز السيف فى يده :

ـ على بالجواد ! ... أسرع ! ...

فهرول (ريلى) الى الاسطبل ، على حين قال (شادويك) لتابعيـه الباقيين :

ـ أقفلوا الأبواب وتسلحوا فى الداخل ...

وخرج من القصر وامتطى الجواد الذى جاء به (ريلى) وقد أمسك فى يمناه بالسيف المجرد ... فهتفت (مارى هالوران) قائلة :

ـ رحماك يا الهى ! .. انه عاد الى الهياج من جديد بعد أن كف عن الشراب طيلة الأشهر الأخيرة حتى ظننت أنه شفى ! ..
واجتاز (شادويك) القرية بجواده وقد أقفر شارعها من الناس ، حتى اذا وصل الى ثكنات البوليس ألفى كبيرهم واقفـا فى الفناء مـع بعض رجاله ، فقال له (شادويك) :

ـ هل سيطرت على زمام الموقف يا (أدواردز) ؟

فابتسم الرجل قائلا :

ـ لابد أنهم أبلغوك انباء خاطئة يامستر (شـــادويك) ··· فان القرية فى حالتها الطبيعية المعتادة ...

فتطلع اليه (شادويك) مهتاجا وقد أسخطه هدوء الرجل حتى قدر أنهم يستخفون به ... بيد أنه عاد أدراجه الى القصر دون تعقيب، وقال للسائس لدى وصوله :

ـ اركب الى الفندق وجئنى بويسكى ... عشر زجاجات !..

فأطاع (ريلى) ، ودلف (شادويك) الى غرفة الجلوس حيث كان (هيجارى) قابعا فى مقعد يرتجف من رأسه الى قدميه ... فصاح فيه (شادويك) :

ـ عليك فورا بطبع اخطارات جديدة للمطالبـة بالايجارات ... مهلا ... سأجرى فى الصيغة بعض التعديلات ...

وجلس يحرر صيغة جديدة أبدل فيها عبارة (مطلوب سداد)بعبارة (صدر الامر بالسداد) ... فقال له (هيجارتى) :

ـ لا بد من حماية البوليس لى فى قيامى بالتحصيل ...

فصاح به (شادويك) :

ـ سيكون هذا ! .. قم لعملك ! ..

وما كاد (هيجارتى) يخـــرج حتى عاد (ريلى) ، فصـــاح به (شادويك) :

ـ أين الويسكى قبحك الله ! . .

ـ ان (جون هاينز) رفض اعطائى شيئا ... وهو لم يكتف بهذا، بل هدد بمقاضاتك اذا لم تسدد ما عليك ... ان (جون هاينز) أصـــبح شخصا آخر غير الذى كنا نعرفه ، منذ انضم ولده الى متجر (رابيت)..

ـ هل قال لك هذا ؟ ...

وجلس (شادويك) وحجب وجهه بيديه وزفر متثاقلا ، ثم أردف بلهجة المضنى :

ـ اذهب ياهذا وهات لى ويسكى من أى مصدر ! .. لكن اذا رجعت بغيره فسأخترق جسدك بسيفى هذا .. مفهوم ؟ .. اسرع..

فاتجه (ريلى) الى الباب ، واذا (شادويك) يستوقفه قائلا :

ـ هل عندك شىء من ذلك الشراب الجهنمى الذى تشرب منه؟..

ـ عندى يا سيدى ... لكنك كدت تغص بهذا الشراب عنـــدما جربته فى المرة الاخيرة ...

ـ على به ... ان الغصة موجودة فعلا ...

فذهب (ريلى) ثم عاد بعد برهة ومعه اناء صغير تناوله (شادويك) وأخذ يكرع منه ... وما لبث أن قال وهو يضحك عاليا :

ـ هذا أحسن ... المدهش ان الانسان ... آه ... الى أين طلبت منك أن تذهب ؟

ـ لم تطلب شيئا ياسيدى ... كنت فقط تقول ...

ـ لا بأس ... خذ المركبة الجديدة والفرسين واذهب بهـــا الى متجر (ولاس) فى كلوجر ... تظاهر بالعظمة يا غبى ، لان رصـــيدنا تلاشى وتبخر فى الهواء ، ولا بد من (التهويش) ... اننى مدين له بدين ثقيل ، لكن ظهور المركبة الجديدة والفرسين كفيل باتمام الأثر المطلوب.. اخترع له قصة عن ميراث سأرثه ، كما فعلت فى مناسبات مماثلة أيهـــا الاحمق ... وانت يا (ريلى) ، كم بلغت أجوركم المتراكمة عندى ؟... لا بأس ... سنسوى هذه الأمور كلها قريبا ... التظاهر و (التهويش) يا غبى ... تحرك ... ولا تقف هكذا كالصنم ! ...

ولما ذهب (ريلى) عكف (شادويك) على اناء الشراب حتى أتى

عليه ، ثم خرج مع كلبين لصيد الطيور بين الجبال ... وعنـد عودته تلقاه (ريلى) فى الحديقة ملوحا بيديه مما يدل على انه جاء بأنباء سارة.. فقال له (شادويك) على مبعدة :

ــ هل نجحت ؟ ...

فصاح (ريلى) من مكانه :

ــ وزيادة ... مهلا ياسيدى حتى تسمع الانباء التى جئتك بها..

ولحق به (ريلى) وهو يدلف الى داخل القصر ، فراح يقول له :

ــ انى ما كدت أصل الى متجر (ولاس) والمركبة تخطر بكل أبهة حتى تقدم سيد كان موجودا وسألنى :

« لمن الفرسان ؟ ..» .. فلما قلت انهما لسيدى الكابتن (شادويك) أبدى دهشته وسروره ، وقال انه يعرفك حق المعرفة ، لانه كان زميلك فى الخـدمة ، وكلفنى بابلاغ تحيـاته اليك ، قائلا انه سيزورك ظهر الغد ...

ــ كل هذا ولم تذكر لى اسمه أيها الوغد !

ــ اسمه (جاك كرامتون) ، وهو يعمل مهندسا استشاريا للاشغال الجارية فى الاقليم ...

ــ يا الهى ! .. قلت انه مهندس ؟ .. كلام فارغ ! .. انه متزوج من امرأة متوافرة الغنى ، وقد اعتزل الخدمة منذ مدة ...

ــ انه ياسيدى ليس مهنـدسا بالمعنى الحـرفى ... انه رئيس الاشغال التابعة للجنة المعونة .

فلم يتمالك (شادويك) أن هتف قائلا :

ــ زميلى السابق فى الخدمة مهندس ؟ .. لا يمكن أن يكون هـو الشخص نفسه ... ما أوصافه ؟ .. فى نحو الخمسين ؟ ..ضخم؟.. يميل الى السمنة ؟ ..

ــ طبق الاصل ياسيدى ! ..

ــ مدهش ؟ قلت انه سيزورنى ظهر غد ؟

ــ نعم ياسيدى ... وقال انه سيتفقد الاعمال التى تنفـذ هنا غدا ... واعتقادى أنه أعجب بالفـرسين ... ولو أردت الاسـتغناء عنهما فانه سيدفع فيهما مبلغا طيبا...وقد علمت من بعض التحريات انه يبعثر الاموال فى (كلوجر) بغير حساب ...

ــ يا الهى ! .. لا بد لنا من ترتيب البيت ... اسرع ... ناد (مارى هالوران) فى الحال ...

كان (شادويك) كالتائه فى البيداء ، ولذلك عد ظهور (كرامتون) نجدة هبطت عليه من السماء ... والواقع ان موارده انقطعت فى العهد الاخير ، ففرق فى الديون ، وبلغ منه اليأس مداه ... بل فكر اخيرا

ى الهرب من المقاطعة - ان تيسر له من المال ما ينفذ به هذا العزم ... ألم يكتشف الذهب فى كاليفورنيا حيث أتاح للناس أسباب الثراء ؟.. ولكن ظهور (كرامتون) كفيل بانتشاله مما هو فيه على أيسر وجه ، وهو الرجل الغنى الموسر ... ومن اجل ذلك كان (شادويك) محقـا فى اعداد الترتيبات الكفيلة باستقبال زميله السابق فى الخـدمة الاستقبال اللائق ...

وهكذا جرى تنظيف الحـديقة وتنسـيقها ، وأصلحت الدرجات المؤدية الى البهو ، وامتدت يد النظافة لاول مرة الى الطابق الارضى ، ونقل الاثاث السليم الى غرفة الجلوس ، وألبس (ريلى) لباس الوصيف ، واعد طعام للغداء قوامه ذلك الطير الذى خرج (شادويك) لصـيده ببندقيته ، وساعد (مارى هالوران) بيديه فى اعداده ... حتى اذا تم هذا كله ، جلس يرتقب قدوم (كرامتون) فى لهفة ...

بيد أن (كرامتون) لم يحضر ... وعندما أزفت الساعة الثانية برد الطعام ، وضاق (شادويك) ذرعا ... فأرسل (هيجارتى) يجوس خلال القرية ويستطلع الطريق المؤدى الى منطقة الاعمال بحثا عن الزائـر المنتظر ... فلما رجع (هيجارتى) خائبا استشـاط (شادويك) غضبا ، وأغرق همه فى زجاجة من الويسكى ... وأخيرا جاء (كرامتون) فى المساء ، فوجد مضيفه مخمـورا ، وبرغم ذلك كان لقاؤهما بالغا أوج الحماسة ، اذ هتف (شادويك) قائلا وهما يتصافحان أمام الباب :

ــ مرحبا بك أيها الصديق القديم ! .. أصحيح ما تراه عينى ؟.. يا الهى ! ... ان سرورى برؤيتك لا حد له !..

وهتف (كرامتون) بدوره :

ــ ويحك أيها الشيطان العتيد ! .. انك لم تتغير كثيرا ! .. هل تذكر ...

وجعلا يتذاكران كثيرا من الاحداث الماضية عندما كانا فى الخدمة ، وقد تأبط كلاهما ذراع صـاحبه ، وسارا الى غـرفة الجـلوس وهما يتوقفان بين فينة وأخرى ويربت كل منهما على ظهر صاحبـه ... وكان حـديثهما متشابها فى اختلاطه وتناوله كل شـاردة وواردة ، وضحكهما قهقهة صاخبة ... وكان (كرامتون) كما وصفه (شادويك) لتابعه .. فى الخمسين من عمره ، موفور السمنة ، متين البنيان ، أصلع الرأس ، اشيب الشعر ، يطل المرح من عينيه الزرقاوين ، واذا ضحك لاحت الأخاديد الدهنية عميقة فى وجنتيه الموردتين ... وكان الى هذا غزير العرق ، رث الملابس لفرط ما كان يمضى نهاره كله راكبا فى الطرقات المقلوبة ظهرا لبطن ..

وقال (كرامتون) وهو يدخل غرفة الجلوس :

ــ المائدة معدة ! .. هذا احب شىء عندى اذا دخلت بيتـا ... بوسعى ان التهم جملا بأكمله !.. لا تكلمنى ياصاح حتى أرضى شهيتى .. ولا تنس الويسكى لتدفئة أوصالى ... لعن الله طرقاتكم .

وتولى الخدم تسخين طعام الغداء ليكون منه العشاء بعد أن ضاعت مزيته ... لكن (كرامتون) لم يحفل بهذا وهو الأكول الشره، حتى لقد راح يلتهم كل ما يقدم اليه وهو يتلمظ وينثر الطعام فى أرجاء المائدة كافة ..

ولم يلبث (شادويك) أن قال له بعد ان كسر حدة شـــهيته :

ـ كيف أصبحت مهندسا بحق الشيطان ؟ ... أنى لم أعهد فيك موهبة لمثل هذا العمل ؟ ..

فراح (كرامتون) يقول وفمه ملىء بالطعام :

ـ هو أداء الواجب ياصديقى...بل هو استجابة لدواعى الوطنية فى مثل هذه الظروف ... انى كنت دائما رقيق المشاعر ! .. نساء وأطفال يموتون من الجوع ، فلم يكن بد أن يتقدم انسان لأداء الواجب تلبية لدواعى الانسانية ... اننا معشر الانكليز معروفون برقة المشاعر! وعلى أى حال منذ أن توفيت زوجتى ..

ـ يا الهى ! ... انك لم تخبرنى بهذا ...

ـ الكلام كثير متشعب النواحى ... وكيف تعلم وأنت مدفون على قيد الحياة فى هذه البقاع السحيقة ؟ .. هات الويسكى ! .. ان زوجتى توفيت منذ ثلاثة أعوام ، وقد تركتنى بلا ...

وتجشأ مرات ... وأشار الى نوع الشراب اشارة لم تخل من النقد والغمز حتى لم يتمالك (شادويك) أن احمر وجهه ... والواقع انه ثاب الى وعيه لدى مقدم (كرامتون) وذهب عنه كل سخط ، بيد أن لهجة الضيف المتعالية ضايقته ، وان تحامل على نفسه برغم ذلك وجلس معه الى المدفأة يشربان ويدخنان الغليون و (كرامتون) يتحدث فى افاضة عن أعبائه كمهنـدس استشارى يساهم فى أعمال المعـونة فى ارلندا ، برغم جهله بكل ما يمت الى الهندسة بسبب ، ولكن ماذا يفعل وقد توفيت زوجته تاركة له ثروة طيبة ولا ولد له ؟

وجعل (كرامتون) يقول :

ـ ان الاعمال التى تجرى هنا مفيدة صالحة ... وقد يكون فيها تحسين أحوال هذه البلاد لو أحسن توجيهها ، وهو ما يخالف الواقع لسوء الحظ ... ان الوسـاطة والمحسوبية هما الاسـاس فى اختيار العمال ... ثم ان حرمان من يملكون أرضا أو ماشية من العمل قد أساء الى الفلاحين ، حتى فضلوا أخيرا أن يهاجروا أفواجا ...

فرد عليه (شادويك) قائلا :

ـ ليتنى أستطيع التخلص من بعض الفـلاحين الذين تغص بهم هذه الضيعة ، وما هم الا الحثالة .. والمصيبة ان الضـيعة أصبحت تنفق عليهم ... فان نصف المال الذى ينفق على هذه المشروعات يجبى من الملاك ، ولو استمر الحال كذلك لأضحى مالك الضيعة متسولا ...

ثم ان هذه الاعمال يشرف عليها جيش جرار من الموظفين لا ضرورة لهم ... أنا لا أقصد تعريضا ولا اهانة لأنك فى غنى عن الاجر ، لكن أى هدف لهذه الاموال التى تبذر فى أعمال لا جدوى منها ؟..

ــ أنت مخطىء ياصديقى العزيز فى هذا التقدير ... دعنى أشرح لك نظام العمل حتى يمكنك ... هلا أعرتنى ورقة أبين عليها ما أريد؟.

فلم يتمالك (شادويك) أن راح يسب ويلعن فى سره وهو يحضر الورقة المطلوبة ... فانه اغدق الشراب على ضيفه اغــــداقا ، ولكن الرجل بدا فى مناعة من السكر ، مع أن (شادويك) نفسه تأثر واهتزت حواسه بتأثير ما شرب مجاراة لصاحبه .

وأنشأ (كرامتون) يرسم على الورقة خطوطا لا عداد لها ويفيض فى بيان الانظمة الادارية التى تفتقت عنها عبقريته فى اختيار العمــال والملاحظين والمراقبين والمفتشين ، الى آخر السلسلة التى لا نهاية لها، حتى قال (شادويك) متضجرا :

ــ لكن ما الغاية من كل هذا ؟ . ما فائدة هدم التل وقلب الطرقات رأسا على عقب ؟ ان كان لا بد من تدليل هؤلاء المناكيد على حســاب ملاك الارض ودافعى الضرائب ، فلم لا يكون تشغيلهم فى أعمال مثمرة؟. ان الطريق الى (كلوجر) أصبح يستحيل السير فيه ...

فقابل (كرامتون) هذا الكلام بابتسامة مترفعة وأفرغ فى جوفه كأسا من الويسكى وهو يقول :

ــ انك ياعزيزى لم تتغير عما عهدتك ... أنت دائما عجول ضيق الصدر متشائم ، لا تؤمن بقدرة الانسان على صنع المســتحيلات ..ان العبقرية الكامنة وراء هذا العمل ، هى الرغبة فى تطبيق نظام اجتماعى محكم ، فى هذه البلاد المتخلفة ..

وهنا أيقن (شادويك) أنه لو ترك لضيفه الثرثار الحبــل على الغارب لظل يتكلم طول الليل ، ولضاعت الفرصة التى ينشدها هو .. ولذا قاطعه قائلا :

ــ اسمع ياصديقى .. أيمكنك أن تقرضنى مائتى جنيه لفــترة شهر أو نحو ذلك ؟

فقال (كرامتون) وهو يعتدل فى جلسته ويدير رأسه الى جانبه كالأصم :

ــ عفوا ... ماذا قلت ؟ .

فجعل (شادويك) يشرح موقفــه فى ايجاز ، وكيف تورط فى الديون حتى استحال عليه مواجهة الموقف .. فما كاد الضيف يســمع هذا الكلام حتى بدا عليه التحفظ واضحا ، وقال حينما فرغ (شادويك) من بيانه :

ــ ايمكن أن اعرف المرتب الذى تتقاضاه من عملك هنا ؟

واذا كان (شادويك) قد كره لهجة السائل المتعالية ، فانه أجاب مع ذلك وهو يتكلف الادب :

ـ خمسمائة جنيه سنويا .. ان هذه الضيعة يجب أن تغل ايرادا يجاوز أربعة آلاف جنيه فى العام ، لكنى لا أستطيع مهما فعلت ان اجمع أكثر من الفين وخمسمائة ... فازاء هـذه الظروف لا يستطيع (مارك تومسون) المالك أن يمنحنى أكثر من هذا القدر ...

ـ هذا مرتب سخى فى الواقع ... ثم لديك هذا القصر الـذى تشغله مجانا فيما اعتقد ، مع الارض الملحقة به ، وهى صالحة للزراعة، وفيها المراعى ، والغابات وغيرها من المرافق ... ما هى مساحة الارض الخاصة الملحقة بالقصر ؟ ...

ـ نحو مائتى فدان ... لكن لا تنس أن هناك نفقات طائلة تذهب أجورا للخدم والاصلاحات وما اليها ، وهى تستهلك أكثر المرتب ...

لكن (كرامتون) قاطعه قائلا :

ـ ما اجدرك يا عزيزى (شادويك) أن تستغل هذه الخـيرات كلها فيما يعود بأكبر النفع والفائدة .. .

وهنا لم يتمالك (شادويك) أعصابه ، فصاح بضيفه :

ـ قل لى رأيك ... هل تقرضنى المبلغ المطلوب ؟ .

فقال (كرامتون) بلهجة الاستغراب والتأذى :

ـ عفوا ... لكن هل تظن أن هذا الاسلوب الجاف ، وهذا الطلب الغريب ، مطابقان لمـا ينبغى أن يكون عليـه مسلك المضيف ، حيـال ضيفه ؟ ...

فغمغم (شادويك) لنفسه :

ـ تخطفك الشيطان

وسار (شادويك) الى أقصى الغرفة وهو يضم قبضتيه ويبسطهما خلف ظهره ، فقال له (كرامتون) بعد برهة :

ـ عندى حل للموقف ... اننى معجب بفرسيك ، ولا أمانع فى شرائهما منك ... فكم تقدر الثمن ؟ ...

فقال (شادويك) مموها ، وان كان هذا العرض قد أسال لعابه :

ـ لن ابيع الفرسين ... ان لهما منزلة عندى ...

وبرغم هذا عاد شادويك الى مجلسه بجانب المدفأة وقد بدا اقرب الى الهدوء والتمالك ... فقال (كرامتون) :

ـ كما تشاء ... وان كان رأيى الشخصى أنه خير للانسان اذا كان فى ضائقة أن يتحاشى الاقتراض ، الذى هو فى الواقع سياسة ضارة

ولم ألجأ اليه قط فى حياتى ... ثم ما هى فى الواقع قيمة الفرسين فى بقعة نائية كهذه ؟ . أما فى مدينة مثل لندن ، فستكون لهما قيمة حقيقية ...

ــ انهما أكرم فرسين فى الاقليم كله ... هل رأيتهما يخطران ؟. انهما ينفعان فى الصيد ، والسباق ، والفروسية ، وغيرهما من الاعمال الممتازة ! ... تبا لهذا يارجل ! ... أنا لا أفرط فيهما ! .

ــ كما تشاء أيها العزيز ... هل لنا فى كأس أخرى ؟ .

وعاد اليهما الوئام مرة أخرى بمعجزة ... فقرعا كأسيهما ، وشربا نخب الفرسين وقد تملكهما أشد الثمل ، وان ظل (كرامتون) محتفظا باتزانه الظاهرى .. وقال له (شادويك) فى النهاية :

ــ الافضل أن تمضى ليلتك عندى أيها الصديق ... وفى الصباح سأذهب معك الى (كلوجر) ... فى الواقع اننى لا أحتاج الى جوادين من هذا الطراز فى هذه البقعة الموحشة ... ثم ان ركوب الانسان مركبة تشق الطريق فى (كلوجر) وبها مثل الجوادين الأصيلين لا يستقيم مع الديون المتراكمة ، وهو يحدث أثرا عكسيا فى نفوس الأهلين ... اننى لن أدع أحدا غيرك يفوز بهما أيها الصديق نظرا لما لهما من مكانة عندى ، ولكنى أعلم أنك تقدر الجياد الأصيلة ، ولذلك سأطلب منك مبلغ مائتى جنيه بلا زيادة ولا نقصان ، أما المركبة الجديدة فهى هدية منى اليك .

فصاح (كرامتون) وهو يرفع يديه ارتياعا :

ــ مائتا جنيه ؟ . رحماك ياربى ... أهذا ثمن عادل أيها الصديق ؟

فهتف (شادويك) بدوره :

ــ أيها الشيطان ، لا تقل انك أصبحت من البخلاء ... وحتى ان هذين الفرسين لو بيعا فى دبلن لما قلت قيمتهما عن أربعمائة جنيه، دع عنك المركبة ، وهى جديدة كما قلت لك ....

ــ انك تسبح فى عالم الخيالات أيها العزيز .. لن أدفع أكثر من مائة وخمسين جنيها بأى حال من الاحوال ... ان الحياة فى مدينة (كلوجر) باهظة التكاليف كما تعرف ... والنادى هناك موطن للصوص ... انى خسرت فى الليلة الفائتة مبلغا طائلا فى المقامرة ....

ــ سحقا لهذا ... انى أكره المساومة ... لنحتسب الفرق مناصفة ...

ــ انى بينت لك أقصى طاقتى يا عزيزى (شادويك) ... ولن أدفع بنسا واحدا اكثر من هذا ...

فقال (شادويك) أخيرا مغلوبا على أمره :

ــ خذهما ، لعن الله الشيطان ...

الفصل التاسع والعشرون

لم يفد (شادويك) شيئا من بيع جواديه المطهمين ومركبته الجديدة ... والحق أنه غاب عن القصر فترة ولم يعد اليه الا بعد أن أنفق المبلغ عن آخره في السكر والعربدة ، مما قضى نهائيا على البقية الباقية من سمعته . وبرغم أنه كان تواقا للحصول على هـــذا المبلغ ليوفى ديونه لهاينز قبل سواه ، حتى يبرهن للطبيب أن (السيد حريص على التمسك بمقاييس الشرف) ، فان فكرة السداد لم تخطر قط بباله عندما احتاز المـال ... ولما أتى عليه فى النهاية ، أصبح فى حالة سيئة من المرض والاعتلال، نتيجة افراطه فى الشراب طلبا لنسيان هذه المسائل المكدرة ...

وما أن عاد (شادويك) الى القصر حتى واجهته أنباء مزعجة ..فان (هيجارتى) استهدف مرة أخرى للضرب والعدوان وهو يقوم بتسليم اخطارات سداد الايجار فى وادى (جليناري) .. وقد بلغ من اشـتداد فزع الجابى لما ناله انه رفض ارشاد البوليس عن أشخاص المعتـدين ، واكتفى بأن قال :

ــ انهم كمنوا لى وراء حائط ، وانهالوا على ظهرى ضربا حتى اغمى على ...

أما الحقيقة فهى أن سكان عزبة (بوهركام) قد حاطوا بالجابى فى وضح النهار وجردوه من ملابسه وأشبعوه ضربا بالعصى ، ثم توعدوه بالقتل ان هو أبلغ البوليس .. وكانت النتيجة ان (هيجارتى) لم يسلم ما كان معه من اخطارات المطالبة بالايجار ، وظل ينتظر عودة (شادويك) ..

وقال (هيجارتى) لسيده :

ــ انهم سيرفضون دفع الايجارات .. ان (جليسون) النساج هو المحرض لهم على عدم الدفع .. وهناك أيضا شخص من أرباب القـــوة والعنف يدعى (رافرتى) من أهل (كلوجر) ، يشترك فى أعمال التحريض والشغب .. وكان البوليس يبحث عنه فى الاسبوع الماضى مدة غيابك يا سيدى .. وقد أصبح الناس يقولون انهم لن يدفعوا الايجار .. ثم ان عشرين أسرة من أهل الضيعة قد رحلت حتى الآن الى أمريكا ، آخذة كل ما تملك .. وكان هؤلاء الراحلون ممن سيدفعون ما عليهم حتما .. ومن المشكوك فيه يا سيدى أن نتمكن من تحصيل أية ايجارات من (الوادى الاسود) أو (وادى جليناري) الا بالقوة ..

فقال (شادويك) :

ــ القوة ؟.. سيذوقون طعم القوة !.. انى سأطوق كل مخلوق

في الضيعة ، انسانا كان أو حيوانا !٠٠ سيرى أولئك المتسولون ما أنا فاعل بهم !٠٠

وفي اليوم التالى وزعت اخطارات جديدة في أنحـــاء الاقليم تحت حماية البوليس ، تعلن للناس أن كل من يرفض منهم دفع ايجـار الارض سيكون عرضة لمصادرة ممتلكاته بأمر المحكمة ٠٠ وعلى الأثر أسرع (كوبيرن) لمقابلة (شادويك) وقال له :

ـ لا شك أنك لا تعنى هذا الانذار يا مستر (شادويك) ؟٠٠

والحق أن (كوبيرن) أبدى كثيرا من التسامح ، فان ما لقيه من أذى الأهلين لم يؤثر في نفسه ولم يثر نقمته عليهم ، حتى جاء الآن مدافعا عنهم ٠٠ وقد استطرد يقول (لشادويك) :

ـ ناشدتك الله أن تمسك يدك في هذه المرحـــلة الدقيقة ٠٠٠٠ ان الناس قد وضعوا (تقاوى) البطاطس الجديدة منذ فترة قصيرة ٠٠ ولم يبق لهم ما يأكلونه سوى الحشائش والفتات ٠٠ ومن بقيت له منهم شلنات قليلة سيحتاج اليها الى حين المحصول الجديد ٠٠

فكان جواب (شادويك) ان قال له :

ـ اسمع يا (كوبيرن) !٠٠ انى سئمت هذا التطفل ٠٠٠

ـ تطفل ؟!٠

ـ نعم ٠٠ هذا ما أعنيه ٠٠ ان الميجور (تومسون) لا يقتنى هـــذه الضيعة لتكون مؤسسة خيرية ٠٠

ـ لكن مالك الارض عليه واجباته كما أن له حقوقه ٠٠ وهـذا هو الاساس في تأجير الارض ـ ان المسألة ليست صراعا ناشبا بين فريقين يناصب أحدهما الآخر العداء ، كقطعان متوحشة في الغابة ٠٠ وعند ما تتدهور الامور الى هذا الحد ، فان قوام المجتمع الارلندى ينهـــار بفعل الثورة ، كما رأينا في الثورة الفرنسية منذ عهد قريب ٠٠

فقهقه (شادويك) بصوت صاخب قائلا :

ـ ها ها !٠٠٠ ثورى في رداء الكهنوت !٠٠ اصغ الى يا (كوبيرن) ٠٠ ليس هذا وقت الخطب والمواعظ ٠٠ انها حرب مســلحة بينى وبين هؤلاء الاوغاد !٠٠ ولو تهيأت لى القوة لاصطدتهم بالرصاص كالكلاب ٠٠ ألا تحترم نفسك يا رجل ؟٠٠ انهم خربوا مسكنك وقطعوا ذيل بقرتك!٠ وكان الاحرى أن تخجل من نفسك ٠٠٠ اننى سأبلغ أمرك الى السلطات العليا ٠٠

ـ افعل ما يحلو لك ٠

وخرج (كوبيرن) يتمتم ويهمهم ٠٠ فقد كانت تلك محاولته الاخيرة لآداء واجبه ٠٠

الفصل الثلاثون

في يوم الأحد الأول من شهر مايو وقع في المقاطعة حادث خارق لم يسبق له مثيل في تاريخها ..

فبعد أن ألقى القداس في الكنيسة ، ألقى الأب (روش) خطبة عنيفة حذر فيها الناس من التأثر بأقوال المهيجين ودعاة العنف ، مؤكدا لهم أن أعمال العنف لا تثمر غير المصائب ، حاثا لهم على اعطاء ما لقيصر لقيصر ، أى دفع الايجارات الزراعية المطلوبة منهم .. بيد أن هذه الخطبة أحدثت تأثيرها العكسي .. فقد أيقن الاهلون أن زعيمهم الروحي هذا الذى كانت لهم فيه ثقة مطلقة ، قد تخلى عنهم ، بعد أن مناهم من قبل بأن الحكومة ستصدر في الربيع اعلانا رسميا بتأجيل الدفع .. وهكذا ثارت ثائرتهم

ومهما يكن من أمر ، فان ما حدث بعد ذلك لا بد أن يكون وليد تدبير سابق ، وليس بتأثير خطبة الأب (روش) وحدها ..

وتفصيل ذلك أن جموع الاهلين الذين حضروا لشهود القداس بلغت الضعف هذا اليوم ، وكان مما استرعى النظر قلة النساء الحاضرات ، وتسلح أكثر الرجال بالعصي .. وبعد انتهاء القداس تفرق الناس في القرية جماعات يتبادلون الأحاديث ، حتى انصرف القس الى داره .. واذ ذلك التأم شملهم مرة أخرى ، وساروا في حشد كبير الى قصر (كروم)، مارين بثكنات البوليس ، حيث عجز رجال البوليس القلائل الموجودون وقتئذ عن منعهم من مواصلة الزحف الى القصر ..

وكانت الجموع تتقدم أول الامر في صمت وسكون ، لكن ما أن بلغوا مشارف القصر حتى ارتفعت هتافات عنيفة من الصفوف الخلفية ، وأخذت الايدى تلوح بالعصي في الهواء ، وانبعثت بعض الاناشيد الثورية من الأفواه .. وكانت هذه اللحظة ايذانا بظهور النساج (جليسون) متسلحا بحربته في طليعة المتقدمين ، من حيث كان كامنا خلف أشجار متشابكة في الطريق ... ولم يلبث أن صاح فيهم وهو يكشف عن صدره بيده ويلوح في الاخرى بالحربة :

– استقبلوا الرصاص بصدوركم ! ... ازحفوا بسرعة الى الأمام ! لتحى أرلندا ! .. ليسقط الطغاة .

فارتفعت هتافاتهم مدوية ، ثم سادهم السكوت ، الا (جليسون) الذى راح يتقدم وهو يهيب بهم للسير خلفه بخطى عسكرية منتظمة ، حتى بلغوا مدخل القصر ..

وعند ذلك فتح الباب ولاح لهم (شادويك) .. فوقف (جليسون)

من فوره وأمسك بحربته متحفزا للضرب وهو يصيح فيهم أن يقتدوا به ·· وقد كاد الرجل يندفع فوق السلم مسددا حربته الى صدر (شادويك)، لولا أن خف (مارتن) الى جانبه وأمسك بذراعيه ·· فصاح به (جليسون) :

ـ دعني !·· دعني أتمكن منه !·· انى سأمزق أحشاءه بحربتي!·· هذا هو الطاغيه الذى قضى على ابنتى !·· انى سأنتقم منه ·· دعنى قلت لك !···

لكن الجميع أيقنوا من حركاته وكلماته أن الرجل فقد صوابه ··· وهنا خف أربعة رجال الى جانب (مارتن) وعاونوه فى تجريد (جليسون) من سلاحه وسحبه عنوة الى الخلف ، حيث راح يصرخ ويجاهد للتخلص الى أن اشتد به الانفعال ، فهوى على الارض تجرى دموعه على خديه ، حتى غدا فى حال مؤثرة ··

اما (شادويك) فقد وقف لدى باب القصر ساكنا يراقب ما يدور وهو يبتسم ازدراء وقد وضع احدى يديه فى جيب بنطلونه وأمسك بالثانية سوط ركوب جعل يضرب به على حذائه ··

وما لبث (مارتن) بعد أن فرغ من (جليسون) أن تقدم الى الامام وخاطب (شادويك) قائلا :

ـ اننا ياسيدى لم نقصد بك شرا··فما جئنا الا للكلام فى موضوع الايجارات ·· أما هذا الرجل فلم يكن بيننا قط ، وهو غير متزن ··

وقدفاه (مارتن) بكلامه هذا بلهجة الاحترام · بيد انه لم يرفع قبعته تحية ، وحذا الجميع حذوه ، مما دل على توافر روح التمرد لديهم جميعا ··

فقال (شادويك) بهدوء وهو يخطو خطوة الى الأمام :

ـ وما شأن الايجارات ؟··

فارتبك (مارتن) ·· ونظر خلفه الى الجمع المحتشد نظرة المتسائل وقد خجل من نفسه اذ تقدم الصفوف وكأنه زعيمهم المختار ·· بيد أنه شهد فى وجوه اخوانه ما هزه من الاعماق ، اذ رأى أعينهم تقدح شرارا· وأيديهم مطبقة على العصى فى عزم وقوة ··

ثم تكلم (شادويك) مرة أخرى ، فصاح فيه قائلا :

ـ تكلم يا كلب !·· ماذا تقصدون بحضوركم الى هنا ؟··

فاستدار (مارتن) وواجه (شادويك) بنظرات مضطربة ، وصاح بأعلى صوته وهو يضغط على أسنانه قائلا :

ـ لن ندفع الايجارات !·· اننا عاجزون عن الدفع !·· اننا لا نريد أن نموت من الجوع ···

فانبعثت من أفواه الجمع الحاشد همهمة عالية سرت بين صفوفهم كهبوب الريح ، ثم ساد السكوت مرة أخرى ٠٠ وما لبث (شادويك) أن نظر حواليه وقد رفع رأسه عاليا ، ثم هبط درجتين ، ووقف أمام (مارتن) يقول بصوت كالفحيح :

ـ ارفع قبعتك يا صعلوك !٠٠

فجعل (مارتن) يحدجه بنظرات ثابتة مليئة بالعزم دون أن يتحرك ٠٠ فرفع (شادويك) صوته قائلا :

ـ هل سمعت ؟٠٠ قلت لك ارفع قبعتك !٠٠

فنفخ (مارتن) صدره وفتح عينيه على سعتهما وأطبق قبضتيه الى جانبيه ٠٠ واذ ذاك صاح (شادويك) وهو يرتعد يسيرا :

ـ أنت اذن ترفض رفع القبعة ؟٠٠

وبدا كأنما يوشك أن يرفع سوطه ليضرب (مارتن) ٠ وعند ذلك برز من خلال الجمع رجل ضخم وهتف قائلا :

ـ لايمكننا دفع الايجارات يا صاحب السيادة دون أن نبيع مواشينا، ومعنى هذا خرابنا الشامل ٠٠ فهلا أمهلتنا حتى تنتهى هـذه الاوقات العصيبة ؟ اننا قد نستطيع الدفع فى فصل الربيع ٠٠

فرد (شادويك) قائلا :

ـ لا تقلقوا بشأن مواشيكم ٠٠ سأتولى بيعها نيابة عنكم ٠٠ أيها الصعاليك ! ٠٠ هل جئتم الى هنا لتخويفى ؟٠٠ اخرجوا حالا ، والا جلدتكم بالسوط ٠٠ تأكدوا ان الايجارات ستحصل عن آخرها٠٠اخرجوا من أرضى !٠٠

وعند ذلك صاح الرجل الضخم فى زملائه :

ـ اركعوا أمامه أيها الرفاق ٠٠ لنتقدم اليه بالرجاء مرة اخرى راكعين ٠٠٠

وركع الرجل على احدى ركبتيه وقد أمسك العصا بكلتا يديه ، بيد أنه لم يرفع قبعته ٠٠ وما لبث الجمع الحاشد أن اقتدى به تباعا ، حتى جثوا جميعا أمام (شادويك) وهم يشخصون اليه سكوتا وقد اضطرمت أعينهم بنظرات الحقد الدفين ٠٠ فكانت هذه الحركة مبعث دهشة الرجل حتى لقد تراجع أمامهم قليلا وهو لم يشهد لها مثيلا فى حياته ، وان كانت برغم ذلك قد زادته سخطا ٠٠ ثم هتف الرجل الضخم قائلا :

ـ اننا نسألك ، بحق الاله ، ونحن ركوع على أقدامنا ، ألا تحصل الايجارات ؛ حتى الخريف ٠

فصاح بهم (شادويك) بصوت قاصف :

ـ اخرجوا ٠٠ اذهبوا !٠٠

ورفع سوطه ولوح به للجمع الحاشد مهددا٠٠فاستووا على أقدامهم ٠٠ والتفت هو الى (مارتن) الذى لم يركع ولم يتحرك قيد شعرة،وتقدم نحوه قائلا :

ـ خذ هذه يا حقير !٠٠

وضرب (مارتن) بالسوط ٠٠ فوثب (مارتن) جانبا وتلقى ضربة السوط بعصاه الشوكية ، ثم التحم بضاربه على الاثر٠٠فأطبق(شادويك) بيسراه على رقبة الشاب ودفع رأسه الى الخلف ، ورفع السوط مرة أخرى وأهوى به وهو يسبه سبا قبيحا ، فمزق السوط ظهر (مارتن) ٠٠

وفى خلال ذلك دفع (مارتن) الى الخلف بيسراه وهو يضرب باليمنى، فترنح (مارتن) لحظة ، ولكن سرعان ما اندفع نحو (شادويك) وقد بسط يديه كالمخالب ، فاطبق بها على وجهه ، وركله بركبتيه فى بطنه ٠٠٠ واذا (شادويك) يقع على الارض وغريمه لا يتخلى عنه ٠٠ وما لبث الجمع أن انقض عليهما وهمـا يتدحرجان على الارض ، ولـكن هذا التـدافع مقترنا باشتباك العصى ، أنقذه من موت محقق ، اذ حال دون انفراد مهاجم واحد به والقضاء عليه ٠

واذ صاح واحد منهم :

ـ لا تقتـلوه !٠٠ خذوه الى مـكتب الايجارات ، وألزموه بتـوقيع ايصالات السداد ٠٠٠ الى مكتب الايجارات !٠٠

فقوبل هذا الاقتراح بهتاف شديد ٠٠ وسرعان ما امتدت الايدى الى (مارتن) ترفعه من فوق (شادويك) وتوقف هذا الاخير على قدميه وقد دمى وجهه ومزقت ملابسه كل ممزق ، وأثخن ضربا بالعصى فى كل موضع من جسده ٠٠٠ ولكنه برغم ذلك لم يستكن ، بل صاح فيهم قائلا :

ـ سأراكم فى جهنم ، قبل أن أوقع أى ايصال !٠٠

فردوا عليه صائحين :

ـ سوف نرى ٠٠٠ خذوه أيها الرفاق !٠٠

ودفعوه أمامهم وهم ينهالون عليه بالعصى٠٠٠ وفى هذه اللحظة أقبل رجال البوليس يركضون من ناحيـة الثكنات بعـد تعزيزهم بالنجـدة ، يتقدمهم رئيسهم (ادواردز) ، وكانوا يناهزون الاربعين ، وقـد تسلحوا بالبنادق ٠٠وعندئذ صاح فيهم من يقول :

ـ البوليس ٠٠ البوليس ٠٠

وتدافعوا هاربين يبغون النجاة والاعتصام بالقرية ٠٠٠ ولكن رجال البوليس كانوا فى طريقهم اليها ، ولم يلبث هؤلاء أن أطلقوا الرصاص فى الهواء ظنا منهم أن الهاربين يريدون مهاجمتهم ، فســـاد الذعر صفوف الناس ، حتى ارتفع بينهم صوت يصيح بهذه الكلمات :

ـ اهجموا على الطغاة المستبدين !٠٠ الى الامام كالرجال الشجعان !٠

ولم يكن القائل سوى (جليسون) النساج الذى تمالك فى خلال ذلك واسترد حريته ··· وقد هجم بها على رجال البوليس وأصاب أحدهم فى فخذه قبل أن يدرك أحد من زملائه ما فعل ·· ولـكنه تلقى على الاثر ضربة على رأسه من طرف بندقية أحد الجنود ، فهوى على الارض ·· بيد أن جرأته الجنونيــة سرت فى نفوس زملائه الذين هجموا بعصيهم على رجال البوليس ، فكانت معركة عنيفـة بين الفريقـين دامت زهاء نصف ساعة ، تفوق فيهـا رجال البوليس بحـكم تنظيمهم ،حتى اضطروا الجمـاهير الى الفرار ، تاركين وراءهم عددا من المصابين سقطوا على الارض ، بينهم أربعة من رجال البوليس ··

وقد ظل (مارتن) مشتبكا فى القتال حتى النهـاية فلما اضطر الى التراجع حتى لا يقـع فى الاسر ، حاول أن يسحب (جليســون) المغمى عليه ··· بيد أنه لم يكد يبتعدحتى أطبق عليه اثنان من جنود البوليس، فتخلى عن صهره واشتبك معهما فى معركة فردية أفلح خلالها فىانتزاع بندقية أحدهما وأصاب بها الثانى اصابه بالغة فى رأسه ، ثم ولى هاربا بالبندقية الى حيث لا ذ بأرض كثيفة الاشجار·· وما كاد يتقدم قليلا حتى أطلقت فى أثره رصاصة اســــتقرت فى ذراعه واضطرته الى التخلى عن البندقية ·· ولكنه تحامل على نفسه وتابع الفرار ، علىحين قبض البوليس على (جليسون) وستة منالاهالىوساقوهم جميعا الى الثكنات حيث أودعوا (زنزانة) مظلمة ···

الفصل الحادي والثلاثون

لم تذهب (ماري) الى القداس ، اذ حان أوان وضعها ··· ولزمت (ماجي) البيت هي الأخرى بعد أن أصيبت بأورام في ساقيها جعلتها قعيدة الدار ··· وأما العجوز (بريان) فقد قصد بجواده الى وادي (جليناري) حيث أراد أن يكشف على بقرة مريضة يملكها أحد أقربائه وكان حجة في أمراض الماشية وهكذا لم يعلم أحد من أهل الدار بما كان في القرية من أحداث جسام ، حتى رجع اليهم (تومسي) ···

فقد اشـــترك (تومسي) في زحف الاهلين على القصر ، بيد أنه كان في طليعة الهاربين ، ولم يلبث أن تسلق شجرة جعل يرقب منهـــا كل مادار وهو على مبعدة من مكان المعركة ··· ولما شاهد (مارتن) يمر قرب الشجرة وهو مصاب بجرحه ، هبط (تومسي) من مكمنه وتبعه مسافة وهو يرتقي الى الجبل ، بيد أنه لم يلبث أن فقد أثره ··· وهكذا عاد أدراجه الى القرية ومنها الى البيت ركضا ، وما كاد يدخل حتى هتف لاهث الأنفاس :

ـ لقد أصيب (مارتن) برصاصة !.. وأسروا والدك يا(ماري) !.. ولكن (مارتن) صعد الى الجبل للاختفاء عن نظر البوليس ·

فلم تكد (ماري) تسمع هذا النبأ المشئوم حتى خرجت مغمى عليها ··· فنهضت (ماجي) من مجلسها قرب المدفأة وقالت بلهجة حادة :

ـ أيها الأحمق ! ·· ماكان يجب أن تفزعها هكذا ! ··

وتعاونت العجوز مع (تومسي) على حمل (ماري) ونقلها الى غرفتها حيث مددت في فراشها ··· وبينما هما يبللان جبينها بالمـــاء البارد اذ أقبلت (سالي أوهانلون) تقول :

ـ اني ناديت (تومسي) ولكنه لم يسمعني ··· لقد ضعفت (ماري) المسكينة عند سماع الخبر ، وهي قريبة من وقت وضعها ··· آه ! ··· ها هي تفتح عينيهـــــا ! ·· تشجعي ياحبيبتي ، فنحن هنا بجانبك ···

وفتحت ماري عينيها ، وتطلعت اليهم قائلة :

ـ أين مارتن ؟ ··

فأجاب تومسي :

ـ انه في الجبل ·· انه تمكن من الهرب ، وقد رأيته بعيني رأسي · هرب سالما ··

فعادت ماري الى الاغماء ·· وعكفت سالي على ترطيب جبينها وهي تقول :

ــ أدعو الله ألا تكون السقطة قد آذتها ··

وفي تلك اللحظة فتحت ماري عينيها وهي تشهق وتصرخ لما انتابها من ألم عنيف ·· فقالت لها سالي :

ــ اطمئني يا حبيبتي ·· اسمع يا تومسي ·· تعالى أكلمك ··

وانتحت سالي به جانبا وأسرت اليه كلاما هز رأسه على أثره ايجابا وخرج من الدار مسرعا ··

وفهمت ماجي بدورها ما حدث ، فتملكتها رعدة شديدة حتى عادت أدراجها الى المطبخ وقبعت في ركنه وأسنانها تصطك بشدة ·· وبعد برهة سمع وقع حوافر جواد ، فاذا القادم هو بريان الذي قال لتومسي حين شاهده يخرج مهرولا :

ــ علام هذه السرعة ، والى أين تذهب ؟ ··

فقال تومسي انه ذاهب لاستدعاء كاتي الحكيمة ، وابتعد على الأثر ·

ولما دخل بريان ورآهم على هذه الحال وجم وأطبق شفتيه ·· فهو قد علم بما حدث حين التقى بفريق من الأهلين وهم يفرون الى (وادي جليناري) ·· ولم يلبث أن اتجه الى غرفة ماري على أطراف أصابعه ، فاذا هي تصرخ لما عاودها من الوجع ، وكانت سالي تلفها بالاغطية بعد ما نزعت ملابسها ·· وما كادت ماري تبصر العجوز حتى هتفت به قائلة :

ــ أين مارتن ؟ ·· ماذا فعلوا به ؟ ··

فاقترب العجوز منها وأمسك بيدها الممدودة قائلا :

ــ تشجعي يا ابنتي ··

ــ هو مجروح وأنا لست بقربه·· رباه ·· الرحمة يا الهي ·· اذهب اليه وساعده ·· ابحث عنه في الجبل ··

ــ سأبحث عنه يا حبيبتي ·· أنا ذاهب في الحال ·· اعتني بها يا سالي ··

بيد أنه برغم ذلك وقف مكانه ينظر الى ماري والدموع تترقرق في عينيه حتى صاحت به سالي قائلة :

ــ لماذا لا تذهب للبحث عنه ؟ · وان كان مصابا فدع جابر العظام يداويه ·· اذهب الى الأب (جيلان) فهو صديقك الحميم ·· اذهب قبل أن يحضر رجال البوليس للبحث والتجسس ، فانهم لن يدعوا فريستهم تفلت منهم بسهولة ·· اذهب وعجل ··

فخرج العجوز مهرولا ، واذ ذاك التفتت ماري الى سالي قائلة :

ـ أواه يا سالى ! ٠٠ هل آذيت الجنين بسقطتى ؟ ٠٠ هل تظنين أنه مات ؟ ٠٠ لو حدث شيء من هذا لما سامحنى مارتن أبدا !٠٠

فأخذت سالى تطيب خاطرها وتطمئنها حتى جاءت أمها يتبعها باتسى زوج سالى وبعض الجيران ٠٠ وقد امتلأ المطبخ بالقادمين الذين قالوا ان رجال البوليس انتقلوا الى الجبـــل للبحث عن الهـــارب ، وانهم أخذوا يستجوبون العجوز بعد أن صادفوه فى الطريق ، وظلوا كذلك حتى جاءت كاتى الحكيمة أخيرا ٠٠

وهتفت كاتى وهى تدخل الدار :

ـ بوركتم أيها الحاضرون ٠٠ أنت يا الهى قد اخترت واحدا من أهل البيت الى جوارك ، فاخرج المولود سليما معـافى ليكون فيه العوض عن المفقود الراحل ٠٠

وأسرعت الحكيمة الى غرفة مارى تهدىء روعها وتهمس فى أذنهـــا قائلة :

ـ أغمضى عينيك يا ابنتى واسلمى نفسك لعناية الرحمن تسلمى ٠٠ اغمضى عينيك يا ابنتى ٠٠

فقالت سالى لمستر جيسون هامسة :

ـ ساعدى كاتى فى كل ما تريد ٠٠ أما أنا فقد اهتديت الى وسيلة لمساعدة مارتن ٠٠ فان رجال البوليس لن يلتفتوا الى امرأة تعبر الطريق ٠ اننى ذاهبة حالا ، فلا تتكلمى ٠٠

الفصل الثاني والثلاثون

بعد أن عرج تومسى على كوخ الحكيمة كاتى القائم فى واد ضيق بين جبلين ، تركها تذهب وحدها الى بيت كيلمارتن ، وتابع طريقه فى الوادى الجبلى حتى بلغ كوخا حجريا كان يستخدم فى الماضى لتقطير الكحول ·· وكان الكوخ فى بقعة منعزلة لا يمكن الوصول اليهـــا الا من طريق هذا الوادى ، ومنه يتفرع شمالا درب ضيق يؤدى الى مقاطعة (مايو) ، وموقع الكوخ الى هذا يشرف على القرية جنوبا بحيث يمكن منه مراقبة القادمين ·

وقد صح ما توقعه تومسى ، اذ وجد مارتن مختبئا فى هذا الكوخ ·· وكان ممددا فوق فراش من أوراق الشجر ، ومعه شاب من أهـــل وادى جليناري يدعى فاهى ··

وما كاد تومسى يبصر مارتن على هذه الحال حتى ركع بجانبه قائلا ·

ـ حفظك الله يابنى ·· أأنت حى أم ميت ؟

فأجابه مارتن :

ـ أنا بخير ·· هل أخبرتهم فى البيت ؟

فأومأ تومسى ايجابا ·· وكان فاهى اذ ذاك منهمكا فى ربط ذراع الجريح بقطعة من قميصه بعد أن نزف دمه غزيرا حتى غدا شاحب الوجه·

وقال له تومسى :

ـ هل حدث كسر فى الذراع ؟

ـ كلا ·· ولكن الرصاصة استقرت فى الذراع ·· هل هنـــاك أثر لرجال البوليس ؟

ـ حتى الآن لا ·· لكن من المؤكد أنهم سيبحثون عنك ·· والافضل أن تذهب الى مقاطعة (مايو) ··

ـ ليتنى أستطيع استخراج الرصاصة من ذراعى ·· انها تؤلمنى ألما فظيعا ·· أواه ! ·· ترفق يا فاهى ··

ـ صبرا ·· لا بد من شد الرباط ، لوقف النزيف ··

وسأل مارتن عن زوجته ، فغمغم تومسى :

ـ أنى أرسلت اليها كاتى منذ قليل

فهتف مارتن وهو ينهض جالسا ويجذب ذراعه من صاحبه :

ـ ماذا تقول ؟ ·· هل جاء وقتها ؟ ··

ـ أظن ، بمشيئة الله ··

فهتف مارتن وهو ينهض قائما من فوره :

ـ كيف لم تخبرنى بهذا من أول الأمر ؟

فصاح تومسي بدوره :
ـ أين تذهب وأنت بهذه الحال ؟ ·· ان رجال البوليس سيصلون الى القرية بين لحظة وأخرى ·· ابق مكانك يا رجل ، حتى نحضر لك جابر العظام أو الطبيب ·
ـ وماذا يهمني من البوليس وماري في هذه الحال ؟ ·· ابتعد من طريقي ! ··
وتخلص منهما عنوة وأخذ يهبط الوادي الجبلي ·· وفي تلك اللحظة استرعى نظر تومسي وهو يتطلع نحو بيت كيلمارتن عن بعـــد ، مشهد رجال البوليس وهم يستوقفون (بريان) ·· فصاح في اثر (مارتن) قائلا :
ـ قف يا مارتن ·· انظر هناك ·· ان رجال البوليس يقبضون على أبيك ·· انظر اليهم وهم يسددون بنادقهم اليه ·· ارجع يا بني ! ··
فأمسك مارتن عن الهبوط ، وراح يرسل نظره الى القرية حينا ، ثم قال أخيرا :
ـ صدقت ·· لعنة الله عليهم ··
وعاد أدراجه الى الكهف ·· فقال له تومسي :
ـ قلت لك انهم سيكونون هنا ·· لا بد لكما الآن من العمل برأيي المتواضع ، والانتقال الى مقاطعة (مايو) ·· ان القـــادمين ثلاثة من رجال البوليس فقط ، ولن يتمكنوا من اللحاق بكما ·· ويمكن أن تعـــودا الى الكهف بعد قضاء الليل هناك ·· وسأعمل من ناحيتي على احضار جابر العظام أو الطبيب الى هذا الكهف بعد قضاء الليل هناك ·· وستعرفان ذلك متى رأيتما ضوءا ينبعث منه ·· فان رأيتما الضـــوء فادخلا آمنين ·· اتفقنا ··
فأمن الشابان على هذا الكلام ، وقالا ان هذه أمثـــل خطة في هذه الظروف
فقال تومسي :
ـ حسنا ·· اسرعا الآن قبل وصولهم الى هنـــا ·· أما أنا فسأعود أدراجي من جانب الجبل ·· أدعو لكما بالتوفيق والسلامة ··
فأسرع الشابان باجتياز الدرب الجبلي الضيق متجهين شـــمالا في طريق (البحيرة السوداء) ·· أما تومسي فقد انبطح على وجهه ولبث طويلا يراقب حركات رجال البوليس ·· فشاهدهم يأخذون العجوز (بريان) الى البيت ويدخلون معه ·· وبعد أن غابوا عن نظره نحـــو ربع ساعة أخذوا يرتقون الى ناحيته ·· ولمح تومسي من مرصده كثيرين من الشبان يسرعون بارتقاء الجبل في اتجاه البحيرة السوداء ·· وأبصر رجال البوليس الثلاثة وهم يفتشون أكثر البيوت حيث قابلتهم النساء بالصراخ والعويل مما فت في عضدهم وحملهم على العودة دون أن يقبضوا على أحد ، بعـد أن هرب الرجال جميعا من بيوتهم ·· فقال تومسي وهو ينهض في النهاية :
ـ أصبح الجو آمنا الآن ·· ولن يعود هؤلاء الاشقياء قبـــل حلول الظلام ·
وأسرع تومسي يهبط الى القرية وقد أوشـــك النهـــار أن ينصرم وانتشرت ظلال قاتمة مديدة فوق سفوح الجبال ··

الفصل الثالث والثلاثون

ما كاد الليل يرخي سدوله حتى وضعت مارى مولودها ٠٠ وقد جاء الطفل قبل وقته ، ولكنه كان قويا كامل التكوين ٠٠ ولم يكن فى الدنيا أسعد من العجوز (بريان) بظهور هذا المولود ، حتى ليظن الانســـان أنه وليده الاول ٠٠ بل لقد بلـــغ من شدة فرحه أنه لم يتذكر أن ابنه جريح مختبىء فى الجبل ٠٠ فقد كان الرسل يتوافدون على الدار تبـــاعا بأنباء مارتن ، ومنها أن سالى بسبيل احضار الطبيب لاســـعافه ، فكان العجوز يقول لهم كل مرة بلهجة أحفل بالشراسة :

ـ بهـذا يعلمون أن الخطر كل الخطر فى الاقتراب من ولدى ! ٠٠ انه أعطاهم ما يستحقون ٠٠

وعلى هذه الصورة بدا العجوز وكأنما قد استعاد شبابه بتأثير الحادث العظيم المفرح الذى شهدته الدار ، بمولد حفيده ! ٠٠

وكذلك بدت مارى وكأنها غير عالمة بما أصاب زوجها ، بعد أن بزغ مولودها الى نور الوجود ، فان معجزة الحيـــاة الجديدة التى انبثقت من أحشائها وتجلت الآن فى وجود المولود الى جانبها محاطا بلفافاته مرددا صرخاته الاولى ـ ما لبثت أن حجبت عنها كل شىء عداها فى هذا العالم ، حتى لتكاد تلتهم بعينيها ذلك المحيا الدقيق ، وتينك القبضتين الضئيلتين المطبقتين كأنما تتحفزان للنضال ٠ وظلت مارى فى استغراقها ذاك حتى جاء الطبيب قبيل منتصف الليل ، فتذكرت ما حدث ، وأخذت تهتم بمـا حولها ٠٠

ومهما يكن فقد جاء الطبيب يحمل اليهم أنباء طيبة ٠٠ فهـــو قد استخرج الرصاصة من ذراع مارتن وتبين أن الجرح غير خطير ٠٠ بل انه أعلن اليهم عزمه على اخفاء مارتن فى القرية حتى يتم شفاؤه ٠٠ وقال فى هذا الصدد ٠٠

ـ ليس لك أن تنشغلى يا مارى ٠٠ ســنعمل أنا والاب جيلان على توفير أسباب العناية به ٠٠ انى أعرف مكانا أخفيه فيه عن أعين البوليس٠ ان آخر مكان يفكرون فى البحث فيه عنه هو القرية ذاتها ، تحت أنوفهم ٠ وسأحضر بين وقت وآخر لتزويدك بأنبائه ٠٠

فقالت له مارى :

ـ بارك الله فيك يا سيدى ٠٠ هل تظن أنه يمكنه الحضور الى هنا لرؤية مولوده ؟ ٠٠

ـ هذه خطوة غير مأمونة الآن ٠٠ فان رجال البوليس يبحثون عنه

فى كل مكان ، والمهم هو أن نعمل على شفائه قبل كل شيء ٠٠ فلا تشغلى بالك ، ودعى الأمر لى ٠٠

ـ بارك الله فيك يا سيدى ٠٠ هذا فضل عظيم منك ٠٠

فقال الطبيب برصانة :

ـ هذا أقل واجب ، وعلينا جميعا أن نقوم بنصيبنا ٠٠ ان كل فرد من أبناء الشعب عليه واجب يؤديه ٠٠ اننا الآن فى معركة ضد الطغـــاة الانجليز ٠٠ الشعب ضــد حكامه المحتلين ٠٠ وأنا من صميم الشعب ٠٠ فلا تشكرينى ٠٠ ليته كانت لى شجاعة زوجك ٠

فقالت مارى وهى تتناول يده وتقبلها :

ـ بارك الله فيك من أجل هذه الكلمات ٠٠ صدقت ٠٠ انها معركة الشعب الارلندى ضد الطغــاة المستبدين ٠٠ وأنا فخورة لأن مارتن لديه الشجاعة للمكافحة من أجل حقوق الشعب ٠٠ انى ياسيدى سأنام الليلة راضية سعيدة بعد كلامك هذا ٠

ـ وأنا أكثر منك رضى بعــــد أن تحدثت معك ٠٠ فقد كنت أظنك تحقدين على بسبب ٠٠ بسبب أختك ٠٠

ـ كلا يا سيدى بتاتا ٠٠ انى لا أضمر لك أى حقد ٠٠ وان ما تفعله الآن كفيل بازالة كل حقد يمكن أن يخامر الانسان ٠

وغادر الطبيب البيت وهو فى أوج الاغتباط ٠٠ فان هذه الحيـــاة الجديدة ، التى أصبح يحياها بتأثير الأب (جيلان) عليه ، قد أفعمت نفسه سعادة وسكينة ، حتى سار الى بيته وهو جذل طروب ٠٠

فلما كان الصبح زاره (ادواردز) رئيس البـــوليس ، وأبلغه أن الواجب يحتم عليه اذا هو دعى لعلاج مارتن الجريح ، أن يبـــادر بابلاغ البوليس ٠٠ فتلقى الطبيب هذا التحذير بهزة من منكبيه ، حتى قال له (ادواردز) :

ـ اننى أحذرك ، فان الاحكام العرفية ستعلن فى الاقليم ٠٠

فقال له الطبيب :

ـ ليس فى هذا ما يعنينى ٠٠ ان على واجبات مفروضة أؤديها ٠٠ وسأؤدى هذه الواجبات بكل ما فى وسعى ، شاء القانون أو أبى ٠٠

وصح ما أنذر به رئيس البوليس فعـــلا ٠٠ فقد وافق نائب الملك الانجليزى على ما طلبته السلطات المحلية الانجليزية من اعــــلان الاحكام العرفية فى مناطقها ٠٠ ذلك أن الاضطرابات عمت جهات أخرى غير منطقة (كروم) التى تقع فيها ضيعة الميجور (تومسون) ، كمــا حدثت فى بلدة (كلوجر) اعتداءات كثيرة وخصوصا على المخابز ٠٠

وقد نصت الاحكام العرفية على الزام الاهلين بالبقاء فى دورهم فيما

بين غروب الشمس وشروقها ، وحتى المشردون الذين لم تكن لهـم دور يأوون اليها كان عليهم أن ينزووا فى المغاور والجحور ٠٠ كمـا نصت الاحكام العرفية على منح مكافآت للمرشدين الخونة ، ودفع تعويضـات لأقارب المعتدى عليهم ٠٠ وأصبحت عقوبة مخالفى القوانين العرفية السجن والاشغال الشـاقة مدى خمسة عشر عاما ٠٠ وصدرت الاوامر الى قوات البوليس الملكى الارلندى التى ضوعفت الى اثنى عشر ألفـا من الجنود المدربين على القتال ، باعتبار أنفسهم فى حالة حرب فى المناطق التى أعلنت فيها الاحكام العرفية ، وبهذا أعدت لهم مراكز مراقبة فوق التلال المشرفة على دور المشتبه فيهم من الوطنيين ، وتحتم عليهم أن ينبشوا فى الخنادق والزراعات ، وأن يفاجئوا الاهلين فى دورهم ليل نهار ٠٠ وبمقتضى هذه القوانين والقرارات الصارمة ، قضى على الاهالى المنكودين فى مقاطعة كروم أن يعاملوا وكأنهم فى حالة ثورة مسلحة مناهضة للقانون ، وليسوا على شفا مجاعة شاملة تنذرهم بالفناء !

وأما النساج « جليسون » الذى أودع السجن مع عشرين آخرين من المعتقلين فى ذلك الحادث ، فقد أصـبح لو طبقت عليه القوانين العرفية الجديدة ، عرضة للحـكم عليه فى مختلف التهم الموجهة اليه ، بالسجن والاشغال الشاقة لمدد لا يقل مجموعها عن مائة وعشرين عاما ٠٠ وقـد أضحى معروفا مقررا أن الحكومة تعتزم أن تجعـل منه عبرة لغيره من المواطنين ٠٠ وحبطت المحـاولات التى بذلت للافراج بالضمان عنه وعن سائر زملائه المقبوض عليهم ، وقبعوا جميعا فى السجن ينتظرون المحاكمة أمام المحكمة العليا ٠٠

لكن محـاولة جليسون لم تلبث أن جعلت منه بطلا شعبيا ٠٠ ولم تمض أيام معدودة على اعتقاله حتى أخذ الاهلون فى شوارع كلوجر يرددون أغنية شعبية مطلعها (بارنى جليسون الجسور) ٠٠ بل حدث برغم الارهاب الذى فرضته الحكومة المحلية بأمر المستعمر الانجليزى الغشوم ، أو بسبب هذا الارهاب ، أن شاعت روح التمرد والثورة فى نفوس الفلاحين ، بدل أن تخمد ٠٠ فان دوريات البوليس الليلية كانت تستهدف دائما لرجمها بالحجارة ، وأضحى الخونة والمتعاونون مع الحكومة عرضة لكل صنوف المضايقة والعدوان ٠٠ فكان من شأن ذلك أن اشتدت غلظة رجال البوليس وشراستهم ، حتى رابطت فصيلة كبيرة منهم فى (الوادى الاسود) نهارا وليلا تفتش الدور وتستجوب السكان ، وقد أهاجهم على وجه الخصوص عجزهم عن الاهتداء الى أثر مارتن الهارب ٠٠

وكان من اجراءات القمع والارهاب التى لجئوا اليها اعتقالهم باتريك شقيق مارى ، وان أطلقوا سراحه بعد أن أثبت لهم أنه لم يكن بين المشتركين فى حادث الهجوم على قصر كروم ٠٠ وبرغم ذلك لم ينج الشاب بعـد الافراج عنه من اعتداء بعض رجال البوليس عليه بالضرب المبرح عنـد مقابلتهم له ليلا قرب داره ٠ وهكذا اضطر الشاب الى الهرب والاختفاء بين الجبال ، أسوة بكثيرين من شباب الوادى ممن سبقوه الى الاعتصام بالمكامن الجبلية شمالا ٠٠

بل لم تسلم ماري من تنكيل رجال البوليس الانجليزي بها ، فقد اضطروها ولما تمض أربعة أيام على وضعها ، الى مغادرة الفراش للتفتيش بحرابهم في الحشية التي كانت تنام فوقها ٠٠ ولم يكتفوا بهذا ، فقد أوقفوا جميع أفراد الاسرة عدا ماري ، صفا واحدا في فناء البيت ، وظلوا يستجوبونهم ساعة كاملة للوقوف منهم على مخبأ مارتن ٠٠ ولما تهيئوا أخيرا للانصراف قال لها رئيس القوة :

ـ لا بد من اعتقاله ، حيا أو ميتا ٠٠

وفي تلك الليلة جاءت مسز جليسون الى بيت كيلمارتن وأخبرتهم بهرب ولدها (باتريك) الى الجبال ٠٠ وقد اشتد بها الكرب لما نالها من أرزاء ، فجلست في ركن المدفأة تبكي زوجها الذي قالت انهم سوف يشنقونه ٠٠ واذ ذاك استدار اليها تومسي وراح يقول لها :

ـ ماذا يحزنك يا امرأة ؟ ٠٠ ألم يصبح (بارني) شخصية شهيرة ؟٠ ان هذا هو أقصى ما يتطلع اليه انسان ٠٠ وأكبر عقوبة يمكن أن ينالها بسبب جرح أحد الجنود ، هي النفي مدى الحياة الى استراليا ٠٠ وهناك يستطيع أن يباهي بتلك الضربة التي وجهها الى العدو ٠٠ ألا انه لشيء عظيم أن ينتمي الانسان الى شخص من أبناء هذا الوطن المنكوب بالاستعمار ، تهيأت له الشجاعة لتوجيه ضربة مهما كانت ٠٠ بل أن مجرد قذف حجر في نافذة احدى ثكنات البوليس الانجليزي لهو عمل رائع نبيل ٠٠ وخير للمساكين الذين يموتون من الجوع في الحفر والوهاد أن يواجهوا الموت بسبب قذفه مثل هذا الحجر ٠٠ لكن عار على ألف عار وأنا عاجز عن توجيه مثل تلك الضربة ٠٠ ان لك يا امرأة أن تفاخري بزوجك البطل الشهير ، لا أن تندبيه وتولولي من أجله ٠٠

وهنا انبرى العجوز بريان مخاطبا تومسي :

ـ كفى لغوا وثرثرة ٠٠ ما أسهل عليك أن تتحدث عن القتال ٠٠ اصعد في الجبل وتفقد الغنم ، فهناك أشقياء لا يتورعون عن سرقتها ٠٠

ـ تقول انهم أشقياء ؟ ٠٠ أولئك اللاجئون الى الجبال ؟ ٠

ـ اذهب ولا تجادل ! ٠٠

فامتثل تومسي ٠٠ ودلف العجوز الى غرفة ماري حيث وجدها جالسة على حافة الفراش تبكي ٠٠ فقال لها :

ـ من الافضل أن تبقى أمك معنا ، بعد أن تركها أخوك (باتريك) ٠٠ أي رجل هذا الذي يترك أمه هكذا ؟٠٠

فقالت ماري :

ـ ان رجال البوليس ضربوه ضربا شديدا ٠٠

ـ ليس هذا عذرا يبرر التخلي عن أمه ٠٠ لا بد أن تبقى معنا ٠٠

فراحت ماري تقول :

ـ كم أخشى ألا يبقى أحد منا هنا بتاتا ٠٠ ان نهايتنا جميعا باتت قريبة ٠٠ ان مستر (شادويك) سيستولى على كل شيء هنا ، ولن يبقى لنا سوى السقف فوق مدفأة خاوية ، وزوجى جريح فى كهف مهجور !

ـ ما هذا الكلام يا مارى ؟ ما زالت عندنا البقرة التى ستلد بين يوم وآخر ٠ وما زال عندنا الحصان والغنم ٠٠

ـ من الخير أن نعمل على بيعها سرا قبل أن يأخذها شادويك منا ٠٠ ونجمع كل ما يمكننا جمعه من النقود ، نستطيع السفر حتى ليفربول ٠٠

فقال العجوز وقد روعه مجرد التفكير فى هجر الارض :

ـ ما هـــذا ؟٠٠ ما أنت الا مريضة يا امرأة ، حليفة الجبن بسبب متاعبك ! ولو كنت فى تمام العقل والاتزان ما قلت مثل هذا الكلام !٠٠ أنهجر الارض لاول متاعب تلوح لنا ؟ ٠٠ أين فى غير أرضنا تجدين مثل هذه الارض ، وما تنبت لنا من الخيرات ؟ ٠٠ ان التفكير فى هجرها لهـو الحماقة وهو وسوسة من الشيطان ٠٠ ولو ذهبنا نوازن حلو الحياة ومرها لما وجدنا فى الدنيا أنعم وأرغد من حياتنا هنا ٠٠ انها الحياة التى زكاها الله ووصانا بها ، أن نحرث الارض ونخرج مكنونها بعرق الجبين ٠٠ نعم!٠ ما أبدع أن تكون للانسان رقعة من الارض يزرعها ويرفع فيهـــا سقفا يؤويه ٠٠ ما أبهى انبات الزرع من الارض الميتة الباردة ، وكأنه بمعجزة يخرج من بطنها ويزكو ويترعرع !٠٠ ان الحكام الطغاة يأتون ويذهبون ، ولكن الزراع خالدون ما دامت الارض والسماء ، يحصدون ويبذرون الحب، على تعاقب الفصول وكر الاجيال ٠٠ ألى ليفربول تريدين أن تذهبى بى ، حيث أموت وتلقى عظامى ، والبحر يفصل بينهـــا وبين أرضنا الحبيبة هـــذه ؟ ٠٠ لن يستطيع حاكم طاغية أن يخرجنى من أرضى التى ولدت فيها ، وفيها سيكون مماتى ، برغم أنوف الطغاة الانجليز مجتمعين ٠٠

قال العجوز هذا وخرج مسرعا ليتفقد البقرة التى تأخر موعد وضعها خمسة عشر يوما ٠٠ وقد ساقها أمامه مترفقا معجبا بتكور بطنها الاسود ، وقال لها معاتبا وهو يحك جبينها :

ـ ما الذى عاقك وأخرك أيتها العجوز ؟ ٠٠ أهو الكسل والخمول ، أم هو كيد الشياطين ؟٠٠

فنحت البقرة برأسها عن متناول يده ولعقت فكيها بلسانها وانشأت تمضغ العشب وكأنما تقول له أن أوان ولادتها ليس من شأنه ٠٠

والحق أن العجوز المتطير قد انزعج من هذه الايماءة ، حتى قضى ليلته وهو دائم الخروج الى البقرة لتفقد حالها خوفا من أن تكون قد استهدفت لكيد الشيطان أو سحر ساحر ٠٠ ولكن ما أن لاح الفجر حتى روع العجوز بما هو أدهى من السحر وأشد نكرا ٠٠

وما كان هذا الا شادويك ورجاله يزحفون على الوادى بخيلهـــم ورجلهم زحفا مستطيرا لا يبقى ولا يذر ٠٠

الفصل الرابع والثلاثون

لم يجد شادويك عناء في استصدار أمر من الجهــــات القضائية بالمصادرة والاخلاء ضد مستأجرى الارض فى ضيعة الميجور (تومسون) من المتأخرين فى سداد الايجار ٠٠ وقد كان القانون الانجليزى من السماحة واليسر بحيث كانت كلمة شادويك وحدها كافية لاصدار هذا الأمر ٠٠ وعلى الأثر سارع شادويك باستئجار فريق من أشقياء بلدة كلوجر ، كما استعان بقوة كبيرة مسلحة من رجال البوليس ، وزحف بهــم جميعا على الوادى الاسود ممتطيا جواده ، يتبعه الجابى هيجارتى راكبا مثله ٠٠

وبدأ شادويك عند مدخل الوادى فقسم رجاله قسمين ، أوفد أحدهما الى وادى جليناري لمنع السكان من اخفاء مواشيهم فى أثنــاء انهماكه فى تطويق الوادى الاسود ٠٠ ثم عجــل بالزحف على الوادى مبتدئا بمواطن رعاة الاغنام فى أعاليه ، دون أن ينسى بث الارصاد والحراس فى مراكز متفرقة ٠٠

بيد أن الاهلين استطاعوا برغــم بكرة الوقت وسرعة الزحف أن يفطنوا لمقدمه من نباح الكلاب ٠٠ وما ان بلغ نجع الرعاة حتى لم يكن به سوى النساء والاطفال ٠٠ أما الرجال فقــد فروا الى الجبال يسوقون أغنامهم الى حيث تكون بنجوة من المصادرة فى المناطق الشمالية ٠

بهذا الاسلوب طالما اســتطاع الرعاة أن يمكروا بمندوبى المالك ويغلبوه ٠٠ لكن شادويك قرر ألا تكون لأحد غلبة عليه هذه المرة ٠٠ فقد أوقف الحملة أمام أول كوخ فى النجع ، وهو كوخ (هالوران) الذى أصابه (باتش هرنون) يوما بحجر فى صدره ، وسأل عن المستأجر ٠٠ فقالت زوجة هالوران وقد وقفت أمام باب الكوخ حاملة طفلا بين ذراعيها :

ـ انه ليس هنا ياسيدى ٠٠

فقال شادويك :

ـ وأين هو ؟٠

واذ لاذت المرأة بالصمت قال شادويك للجابى هيجارتى :

ـ ماذا عندهم من ماشية ؟

ـ خمسة أغنام ، وثمانية حملان ، وعنزة مع رضيعيها ٠٠ وكان لهم حمار أيضا ، لكنه نفق فى الشتاء ٠٠

فراحت المرأة تقول بصوت حاد :

ـ انها فقدت يا سيدى ·· الغنم والعنزة فقدت فى الجبل ·· وقد خرج زوجي للبحث عنها ·· ولا نملك شيئا غيرها ياسيدى ·· فقد عطب محصول البطاطس ولم يبق منه ما يكفينا لزراعة المحصول الجديد ، فضلا عن علف الخنازير ··

فهتف بها شادويك :

ـ أيمكن احضار تلك الاغنام أم لا ؟ ·

ـ قلت لك يا سيدى انها فقدت فى الجبل ·· وعندى من الاطفال خمسة ·

فقال (شادويك) :

ـ احتفظى بأطفالك ·· لما كنتم مدينين بالايجار وليس لكم ماتدفعونه بدلا ، فقد قررت طردكم من الارض ·· اخرجى متاعك من هذا الكوخ ·· اسرعى ··

وكان ارتياع المرأة بالغا حين أدركت أنها ستطرد من الارض ، وحين رأت الاشقياء المأجورين يتقدمون الى الكوخ لهدمه بمعاولهم لم تتمالك أن صرخت صرخة حرى وارتمت تحت قدمى شادويك وطفلها يصيح فزعا ·· بيد أن شادويك نأى عنها وصاح برجاله قائلا :

ـ هيا يا رجال ·· اسرعوا باتمام عملكم !

وكانت امرأة أخرى تقف لدى كوخ مجاور ، فلما رأت ذلك صاحت قائلة :

ـ رحمة يا اله السموات !·· سنطرد من بيوتنا !··

فرد عليها شادويك قائلا :

ـ ستطردون جميعا أيها الملاعين ، ما لم تعيدوا تلك الاغنام ··

وحين هم الاشقياء المأجورون بتقويض جدران كوخ (هالوران) بمعاولهم ، اجتمعت نساء النجع فى فناء بعيد وأخذن يتبادلن الحديث همسا ·· فلما رآهن شادويك كذلك قال للجابى باسما :

ـ انظر ياهيجارتى وراقب مايدور ·· أراهن أن تلك الاغنام ستظهر بسرعة البرق ··

وصح ما تكهن به ·· فقد جعلت النسوة تنادين رجالهن المعتصمين بالجبل بصيحاتهن المحلية المعروفة ·· فسرعان ما برز الرجال فوق الصخور العالية ·· وعند ذلك تغيرت صيحات النساء الى لون آخر من العويل المتصل أقرب شبها بثغاء الشياه ، وشفعن هذا بنثر الحجارة حولهن دلالة على ما يهدد به شادويك من الطرد وتقويض الدور ·· فانبعث من الرجال صياح عنيف أعقبه نداؤهم وهم يهشون على الاغنام ، حتى ترددت أصداء النداءات بين مغاور الجبال ·· واذ ذاك أسرع هيجارتى الى شادويك يقول له :

ـ مهلا ياسيدى ٠٠ انهم سيعيدون الاغنام ٠٠

فقال شادويك لمأجوريه الذين أمسكوا عند كلام هيجارتى :

ـ استمروا يارجال !٠ اهدموا هـذا الجحر من أساسه ٠٠ هزوا معاولكم ٠٠ سأثبت لهؤلاء الاوغاد أنهم لا يستطيعون استغفالى ٠٠

وارتفعت من أفواه النساء صيحة هلع عندما رأين جدار الكوخ الامامى يهوى على الارض ركاما والسقف يخر من مكانه ٠٠ ثم تهاوت الجدران واحدا تلو الآخر ٠٠ ولم تملك مسز هالوران التعسة الا أن تجمع اطفالها حولها وتقف مشدوهة مروعة بجانب الفراش الرث الذى قذف به اليها من الداخل محاولة تغطية أطفالها بلحاف خلق مرقع ٠٠

وقال شادويك :

ـ لمن الجحر المجاور ؟ ٠٠

ـ لباتش هرنون ياسيدى ٠٠ ولا يقيم فيه أحد ٠٠ ان رقعة الارض المخصصة له معطلة ٠٠

ـ اهدموه ! ... سأطهر الارض من الحشرات ! ...

وبينما كان الرجال المأجورون يهدمون كوخ (باتش هرنون) اذ اقبل (هالوران) من أعلى الجبل يسوق غنمه وحملانه وعنزته مع رضيعيها ، وقال لشادويك :

ـ خذها ياسيدى ... انى كنت فى الجبل للبحث عنها ...

وكان الرجل يلهث من فرط الجرى والعرق يغمره ، ولكن ما أن حانت منه التفاتة الى زوجته وأطفاله وكوخه المقوض حتى صاح بأعلى صوته :

ـ لعنة الله عليك يا صاحب السيادة ! ...

فقال (شادويك) وهو يدنو منه فوق جواده :

ـ ها ها ! ٠٠ أتطلب من الله اللعنة على ؟ ٠٠ خذ هذه اذن ! ٠٠

وأهوى بسوطه على كتف (هالوران) بضربة عنيفة ، وأردف قائلا :

ـ الآن ادع ربك واطلب منه ! ..

وأهوى عليه بضربة أخرى من السوط أوقعته أرضا وهو يقول :

ـ ان الله لا يعرف الحثالة من أمثالك ... كيف تجسر على مخاطبة الله ؟ ..

واشتدت ثورة غضبه ... وقام على ظهر جواده وامر (هيجارتى) بسوق الغنم ، ثم صاح قائلا :

ـ سأعلمهم كيف يخفون مواشيهم ! .. سأعلمهم كيف يهجمون على بيتى ويحاولون قتلى ! ...

ولم يلبث (هالوران) ان نهض قائما ووضع قبعته على راسه قائلا :

ـ لتكن مشيئة الله ...

وخيم الصمت فى البقعة الا من ثغاء الغنم ودقات المعاول ... وانهارت جدران كوخ (هرنون) تباعا ... وتوافد سكان النجع واحدا اثر واحد يقدمون ماشيتهم خاضعين مستسلمين .. وانهمك (هيجارتى) فى حصر أعدادها وتدوينها فى سجل معه ... وقال له (شادويك) بعد أن فرغ :

ـ هل تم حصرها ؟ ...

ـ كلها ياسيدى ، الا ما أكلوه منها ...

ـ لا بأس ... ضع عليها العلامة ... ثم نواصل السير ...

فجمعت الماشية فى مكان واحد ، وجىء بدلو ملىء بالقار الساخن وتولى (هيجارتى) وضع شعار المالك على الماشية بالقار ... وفى خلال ذلك تم طرد أسرة (هالوران) من الارض ، فحمل الرجل فراشه على ظهره ، وحملت زوجته آنية الطهى وطفلا لا يستطيع المشى ... ووقف الناس على الجانبين يدعون فى سرهم للاسرة الراحلة ... وما كاد أفراد الاسرة المنكودة يبتعدون مسافة قليلة حتى ارتفعت أصوات الزوجين بالبكاء والنحيب ...

وقال (هيجارتى) :

ـ تم كل شىء ياسيدى ... ووضعت العلامة على الماشية كلها.

ـ حسنا ... سقها أمامنا ..

وسيقت الماشية أمام موكب الظلم والجور .. وعلى هذه الشاكلة ظلوا يعيثون فسادا على طول الطريق الجبلى حتى بلغوا كوخ (كاتى) الحكيمة ... وكانت واقفة فى مدخل الكوخ ممسكة بعصا طويلة ... فقال (شادويك) مخاطبا (هيجارتى) :

ـ من تكون هذه العجوز ؟.. أهى مدينة لنا بشىء ؟..

ـ انها مدينة بأجر السكن .. لكننا لم نحصل منها على أى ايجار ، لانها ساحرة ...

ـ ساحرة ؟.. ها ها !.. سوف نرى ... اهدموا الكوخ أيها الرجال !..

وما كاد الاشقياء المأجورون يتقدمون بمعاولهم حتى خرجت اليهم العجوز وراحت تقول وقد رفعت العصا فوق رأسها :

ـ ياراكب الحصان ! .. لقد كتبت عليك اللعنة ... وأعد الحبل لتطويق عنقك ، لكنك لن تشـــنق بالحبل ... فانى أرى الايدى تطبق على رقبتك ، وسيف الانتقام يغمد فى جســدك ... ان دمك الاسود سوف يسيل فى ظلام الليل ...

وبصقت العجـوز ، وراحت ترقص أمام الرجال الذين جمـدوا امامها مروعين ... فقد كانت لها شهرة ذائعة ، ولم يكن بينهم وهم المتطيرون من يريد اجتـلاب لعنتها على رأســه ... بل ان (شادويك) نفسه لم يتمالك عندما أشارت الى عنقه أن سرى الخوف الى نفســه وامتدت يده الى رقبته تجذب (الكوفية) حولها ...

بيد أنه برغم ذلك لم يشأ أن يظهر مشاعره أمامهم . فصــاح فى رجاله :

ـ استمروا فى عملكم ... اقذفوا هذه المرأة من طريقكـــم ... لن أسمح للطفيليات أن تدنس هذه الضيعة ...

فأطاع الرجال ، وأعملوا معاولهم فى الكوخ بعد أن تغلبت فى نفوسهم عوامل الخوف من هذا الطاغية على خوفهم من الساحرة ، التى راحت تصب اللعنات على رءوسهم ، ثم اندفعت الى داخل الكوخ تستخلص متاعها ... ولما تم لها ذلك ركعت على ركبتيها وراحت تستنزل سحرها على رأس شادويك ، فتكلف الضحك والسخرية منهـــا ، بيد أنه كان أدنى الى الاضطراب وهو يتابع سيره ، وما برح يشد (الكوفية) حول عنقه ....

وبلغوا دار (كيلمارتن) فى الضحى ... فاذا العجوز و (تومسى) و (ماجى) ومسز (جليسون) قد وقفوا فى الفناء ، وعن كثب منهم العجل الوليد ... وعندما بدا لهم (شادويك) ممتطيا جواده الاســود رفع العجـــوز قبعته وحياه وقال فى ذلة ومسكنة وهو يشير الى العجـــل الصغير :

ـ ها هو ذا ياسيدى ... لأول مرة فى حياتى أتأخر فى ســداد الايجار ... لكن المحصول لم يسعفنا ، وقد نكبت بوفاة ابنى و ...

فقاطعه (شادويك) قائلا وقد تقدم بجواده الى الامام حتى اضطر (بريان) أن يقفز مبتعدا لئلا يدهمه :

ـ تكلم عندما يطلب منك الكلام ... أهذا يا (هيجارتى) هو والد الشقى الذى حاول قتلى ؟ ... بديع !.. ماذا يملك ؟ ...

وبينما راح (هيجارتى) يتلو بيانا بالماشية التى فى حوزة (كيلمارتن) استقام العجوز فى وقفته وتصلبت عضلاته واستحالت علائم الخضوع التى كانت تعلو وجهه الى امارات التحدى العنيف... وقال (شادويك) عندما فرغ (الجابى) من تعداده :

ـ لم لا أرى لديهم حملانا ؟

ـ انهم باعوها منذ فترة ياسيدى ...

فهتف العجوز قائلا :

ــ ان البطاطس نفدت من عندنا بعد بذر المحصول الجديد ... ولم يبق فى بيتنا شيء بعد جنازة ولدى ..

ــ صه يارجل !... طوق يا (هيجارتى) كل ما تجده من ماشية وضع العلامة عليها ...

وهنا هتفت (ماجى) قائلة :

ــ ناشدتك الله يا سيدى ألا تأخذ البقرة وهى لم تلد الا منذ فترة ! ...

ــ اسرع يا (هيجارتى) ... طوق كل ماشية الدار ..

والحق أن البقرة لم تلد الا هذا الصباح من دون الايام كافة ، على حين كان (شادويك) منهمكا فى عمليات السلب والنهب أعلى الوادى .. وما ان سمعت (ماجى) كلامه حتى أخذت فى البكاء ، فانبرى لها العجوز يقودها برفق الى داخل الدار ، حيث أغلق الباب خلفهما وجذب المزلاج فوقه ... واذ ذاك خرجت (مارى) من حيث كانت معتكفة فى فراشها وهى فى نصف ملابسها ، وقالت للعجوز :

ــ ماذا جرى ؟ ...

فوقف (بريان) معتمدا بظهره الى الباب ، وأجاب وهو يحدق أمامه فى شراسة :

ــ انه يأخذ كل شيء ....

ــ حتى البقرة ؟ .. .

ــ كل شيء ...

وقد ردد العجوز هذه العبارة مشدوها مغلوبا على أمره ... فقالت (مارى) :

ــ لكن لا يمكن أن يأخذ البقرة ... انها كل ما بقى لنا لكى ...

وفجأة هرولت الى غرفة نومها وجذبت طفلها من مهده وعادت به وهى تقول للعجوز فى غلظة :

ــ افتح الباب ...

فنظر اليها العجوز ثم هز رأسه وقال بسكون :

ــ عودى الى فراشك ... لا فائدة من هذا يا (مارى) ...ان كل محاولة منك لطلب الرحمة من هذا القلب الصخرى لن يكون منها سوى جلب العار علينا ... ارجعى الى فراشك لئلا يصيبك برد يؤذى اللبن فى ثديك ... انه كل ما بقى لهذا الطفل ...

فأطرقت (مارى) وعادت الى غرفة نومها مرتعدة ... ولم تلبث

أن وضعت الطفل فى المهد ، وأخذت تتطلع من خلال النافذة ... فوقع نظرها فى الفناء على البقرة ووليدها ، وكانت البقرة مازالت تعانى آلام الوضع ، وقد جعلت تخور عاليا فزعة من تكاثر الناس حولها ..

وسمعت (شادويك) يأمر تابعه بوضع العلامة على البقـرة ... فما كاد (هيجارتى) يدنو منهـــا بالدلو حتى ركضت الى أقصى الفناء ، ولما حاول العجل أن يتبعها تعثر وســقط وهو يخور خوارا ضعيفا ... فارتدت الأم اليه ... واذ ذاك تكاثر الرجال عليها وأمسكوا بها ووضع (هيجارتى) العلامة على جانبها. ثم اتجهوا الى سائر الماشية يستولون عليها ويتأهبون للرحيل ، فقال (هيجارتى) :

ـ ماذا نفعل بالعجل ؟ ... انه عاجز عن المشى ...

ـ دعوه ...

وذهبوا أخيرا ... وما لبث العجوز أن فتح الباب وخـرج الى الفناء حيث كان العجل الصغير يردد خوار التوجع والأنين ... وان هى الا برهة حتى شاهدت (مارى) العجـوز وهو يخـرج مديته ويفتحها ويمسح نصلها فى ملابسه ، فلم تتمالك أن وضعت يديها فوق عينيهـا واشاحت عن هذا المشهد المؤثر ...

الفصل الخامس والثلاثون

بينما كانت (مارى) مستلقية فى فراشها بين النوم واليقظة اذ سمعت طرقة خفيفة على النافذة ، وسرعان ما تنبهت حواسها وخفق قلبها عنيفا ... ترى أكان الطارق هو البوليس ؟ انهم لم يكفوا ليلا ونهارا عن مداهمة البيت ... وعنـد ذلك تذكرت (مارى) أن رجال البوليس يطرقون الباب بعنف ويطلبون الدخول باسم الملكة ... اذن فلا بد أن يكون القـادم هو (مارتن) ... وكـذلك وثبت (مارى) من الفراش وهرعت الى النافذة وهى فى قميص نومها وأزاحت السـتار جانبا ... فشاهدت (مارتن) فى الخارج ، ولمحت وجهه فى ضوء القمر شاحبا زائغا وذراعه معلقة فوق صدره ... ولما رآها رفع اصبعه الى شفتيه محذرا يطلب اليها السكوت ... فأومأت برأسها وهرولت الى المطبخ حيث فتحت له الباب ... فدخل (مارتن) على أطراف أصابعه واحتواها بين ساعديه صـامتا ... وكان الكلب فى أثره يلعق قدميه ويتواثب من شدة الفرح ... فقد درجوا على أن يتركوا الكلب خارج البيت منذ بدأت مداهمات البوليس لهم لكى ينذرهم ... وقد أدرك الكلب الذكى بالفريزة صفير (مارتن) المعنوى له وهو يدنو من البيت، فلم يصدر منه أدنى صوت ...

وقال زوجها همسا :

ـ لنذهب الى الحجرة ... انى لا أريد أن تستيقظ أمى فتبكى ، وهذا شىء لن أطيقه ...

فذهبا الى غرفتهما وجلسا فوق حافة النافذة لينظر احدهما الى الآخر على ضوء القمر ، بعد أن لبست (مارى) جلبابها ... وقدهمست فى اذنه قائلة :

ـ أليست هذه مخاطرة ؟ ... أواه يا (مارتن) ، ياحبيبى !...

فقال لها :

ـ ليس ثمة خطر ... هناك ثلاثة رجال يتولون المراقبة ... كفى عن البكاء يا (مارى) ... فليس أمامى وقت ، وعندى كلام كثير .. أيمكن أن أرى المولود ؟

ـ عفا الله عنى ... لقد نسيت أنك لم تشاهده ... مهلا !... سأجىء به الى النافذة ...

وذهبت الى مهد الطفل قرب الفراش وهى تكفكف دمعها وحملته محاذرة بين ذراعيها وجاءت به الى النافذة ... فجعل (مارتن) يتملى

بشراهة من المحيا الدقيق الذى طالعه من تحت الأغطية .. ولم يتمالك أن ارتعش وهو يمد يديه الى الطفل ليحمله بين ذراعيــه ... ووقفا برهة صامتين ، وان كانت (مارى) تبكي فى ســكون وقد راحت تمر بيديها على وجهــه ورأسه وجســده كأنها تريد أن تستيقن أنها ترى زوجها رأى العين ....

ولم يلبث (مارتن) أن قال لها :

ـ يسرنى أنك ســميته (ميخائيل) .. فهو اسم حلو .. اليس صغير الجسم ؟ ...

ـ كلا ... وكل ما هناك أنه جاء قبل وقته بسبب ما تولانى من الفزع .. آه ! .. كيف .. تمسكه هكذا ؟ .. هاته ! .. انك ستعرضه للبرد ..

واختطفت منه الطفل وهرعت به الى المهد ودسته بين الأغطية... ثم عادا الى النافذة وجلسا عند حافتها .. فطوقها (مارتن) بذراعيه ، فاستندت برأسها الى صدره وجعلت تبكي فى ســكون ... فارتعــد (مارتن) ولم يفتح عليه بكلام ... وأخيرا رفعت (مارى) رأسها وتطلعت اليه فى انزعاج قائلة :

ـ لماذا تركت المخبأ الذى أعدوه لك ؟ ...

ـ هذا ما كان ...

ولم يجد (مارتن) كلاما يقوله لها فجعل ينظر اليها زائغ البصر .. وخيل لمارى ان ملامح وجهه تغيرت كليـــا حتى لا تكاد تعرفه ... فقد أطلت من عينيه نظرات الصرامة والتحجر ... ولاح لها أكبر سنا مما كان ... وزالت عنه علائم المرح وخفة الشباب ... وقالت له :

ـ لكن لم فعلت هذا ؟ ... ان ذراعك لم تشف بعد ...

ـ لا تسأليني السبب ... أما ذراعى فقد أوشكت على الشفاء..

ـ لكنهم مازالوا يبحثون عنك ... ولا يمكنك أن ...

ـ اننى لن أبقى هنا ... ان معى بعض الرجال ... وأنا عائد الى الجبل ... اذن أخذوا منكم كل شيء ؟ ...

فقالت (مارى) وقد كفت عن البكاء وشفت نظراتها هى الاخرى عن الصرامة والتحجر :

ـ انى أعرف مايجول بخاطرك ... أستحلفك بالله يا (مارتن) أن تفكر فى (ميخائيل) الصغير ... دع عنك هذا يا (مارتن) ...

ـ أدع ماذا ؟ ...

فتعلقت به (مارى) وضمته اليها قائلة :

ـ ليتنا نستطيع الفرار ... نحن الثلاثة ...

ـ لا تخافي يا (ماري) ... اننا سنهرب ما في ذلك شك ... أني أعددت العدة لكل شيء ...

ـ وماذا أعددت ؟ ...

ـ لا تسألي يا حبيبتي ... ان معي غيري من الرجال ... هل بقي لكم شيء في البيت ؟ ...

ـ هناك ثمانية عشر شلنا في الكيس ... والافضل أن تأخذها..

ـ ماذا تقولين ...؟ هناك رجال معي ، وسنعرف كيف نطعم أنفسنا ... ولن أتركك أنت أيضا في احتياج الى شيء ... كيف حال محصول البطاطس الجديد ؟ ...

ـ لا بأس به ... لكن ضياع البقرة ضربة فظيعة لنا ... وقد ظل أبوك ثمانية أيام لا يكلم أحدا منذ اغتصبوها منا ... وجاءت أمي للاقامة هنا بعد أن تركها (باتريك) ، ولكنها عادت الى بيتها بعد أن عجزت عن احتمال الحياة هنا ... وقد انضمت اليها الحكيمة (كاتي) للاقامة معها ... لكن من هم هؤلاء الرجال الذين تتكلم عنهم يا (مارتن) ؟ ...

ـ لا تسأليني يا (ماري) ... أريد بعض حاجيات لي آخذها معي ... لن أكون بعيدا عنك ، وسيقوم رجال بالسهر على سلامتك.. فلا تخافي

وفجأة احتواها بين ساعديه وقبلها بعنف وهو يهمس في سمعها عبارات المحبة والاعزاز بصوت متهدج ... أما هي فقد أخذت في البكاء بين ذراعيه ... وعندئذ بكى الطفل ... فهرول كلاهما الى جانبه يهزان مهده وقد شبكا يديهما وجعلا يتبادلان النظرات .. وقال (مارتن) في النهاية :

ـ أريد بعض حاجاتي الشخصية ...

فأعدت له ما طلب وجعلته في لفافة ... ولما قدمت له كسرة من خبز القرطم أبى أن يأخذها قائلا :

ـ سنجد كفايتنا من الخبز ...

وفجأة سمعا صرخة طويلة شبيهة بصرخة طائر (النورس) ، فقال لها (مارتن) :

ـ هم الزملاء ... لا بد من ذهابي يا (ماري) ... سأعود اليك قريبا يا حبيبتي فلا تخافي ... ولن أكون بعيدا عنك ... قولي لأبي اني كنت هنا ، لكن لا تخبري أمي ... أدعو الله أن يرعاك ويصونك..

وعانقها مرة أخرى ثم هرول خارجا ... فأغلقت (ماري) الباب ووقفت تنظر من نافذة غرفة النوم ... ولم تلبث أن شاهدته يختفي

مع رجل آخر فی ظلام الجبل ··· واذ ذاك شقت سكون الليل صيحة مدوية يقول قائلها :

ــ قف ! ..

فأرهفت (ماری) السمع ... فانبعث صوت مقذوف ناری أعقبه ثان على الاثر ... ثم أبصرت رجال البوليس يركضون ، فسرت رعدة فی جسدها ··· وارتفعت من ناحية الجبل صيحة مدوية بالتحدی والنضال ردد الهواء صداها ... وقد تكررت الصيحة مرارا ثم خيم السكون مرة أخرى ... وهنا دخل عليها العجوز قائلا :

ــ أكان هذا صوت رصاص يا (ماری) ؟ ..

فأجابت قائلة :

ــ هو البوليس ... عد الى فراشك ، فهم لن يرجعوا هذه الليلة ...

وارتدت (ماری) الى فراشها فی النهاية وقلبها يخفق عنيفا ... نری ماذا يضمر (مارتن) فی نفسه ؟ ... لقد كانت نظراته غريبة ، وظل يردد القول بأن معه رجالا بين الجبال ! .. ان (ماری) لم يكد يغمض لها جفن هذه الليلة حتی طلع النهار ... والحق انها منذ ولادة الطفل لم تكن تذوق النوم أكثر من ساعة واحدة متصلة ... وما برح هذا السؤال يدور فی ذهنها :

« ماذا سيحدث لنا ؟ »

وجاءها العجوز صباحا وقال لها مغضبا :

ــ هل كان (مارتن) هنا ؟..

ــ نعم ··· وقد طلب الى أن أخبرك أنت ، دون (ماجی) ···

فرماها بنظرة تشف عن الغضب ، وغادر البيت دون أن ينبس بكلمة أخرى ... لقد أصبح الآن كل شیء غريبا خارجا على المألوف.. وقد تغير كل انسان ··· وحتی (تومسی) أمسك عن المزاح والعبث ··· فماذا سيحدث یاتری ؟ ...

وظل رجال البوليس طيلة الصباح وهم فی نشاط دائب فی الوادی ... فقد عززت قواتهم بنجدات من بلدة (كلوجر) ، وقامت قوة قوامها خمسون جنديا بتفتيش السفوح الشرقية تفتيشا دقيقا ، بيد انهم رجعوا حوالی العصر دون أن يفوزوا بشیء ، وعادوا أدراجهم الى مركزهم فی (كروم) ···

وبينما كانت (ماری) جالسة فی الفناء تشتغل بالابرة وهی تهز مهد الطفل بقدمها اذ سمعت صوتا يناديها من ناحية السور ... ولما التفتت الى مصدر الصوت شاهدت صبيا يناهز الخامسة عشرة لم تره من قبل ، فصاحت به :

ـ ماذا تريد ؟ ..

فرفع الصبى قلنسوته وأجال النظر حواليه فى الحارة مضطربا وهو يومىء اليها أن تدنو منه .. ولما خطر لها انه ربما جاءها برسالة من مارتن ذهبت اليه ، فقال لها الصبى وهو يبرز رسالة من داخل قلنسوته :

ـ انى كلفت بتسليم هذه اليك ..

فقالت مارى وهى تتناول الرسالة :

ـ من هم أهلك ؟ ..

فأجاب الصبى وهو يبتعد :

ـ اسمى (بارنى ريلى) ..

فمدت مارى ذراعها وأمسكت بكتفه تحول دون ابتعاده ، فقال لها :

ـ دعينى أذهب .. لا أريد أن يرانى أحد هنا ..

ـ هل أنت من أقرباء (ريلى) السائس ؟ .

ـ هو عمى ..

فسرعان ما صاحت به مارى وهى تقذفه بالرسالة :

ـ خذها واذهب من حيث جئت ..

فقال الصبى باكيا :

ـ انى أمرت بأن أتركها لك .. وسوف يقتلنى ان لم أفعل .. خذيها ! ..

وقذف اليها بالرسالة من فوق السور ولاذ بالهرب .. فلم تتمالك مارى أن ارتعدت وهى تنظر الى الرسالة الملقاة تحت قدميها .. وأخيرا تناولتها وأسرعت الى داخل الدار ، وجلست تقرؤها فى ركن المدفأة ، فوجدت بها ما يأتى :

« ان كنت تريدين انقاذ زوجك من سلطة القانون ، فتعالى هذا المساء بعد حلول الظلام الى الكشك الصيفى فى قصر كروم قرب النهر .. ولتبق هذه المسألة سرا .. »

ولم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع ، ولكنها عرفت على الفور من هو كاتبها .. فلم تتمالك أن سحقتها فى قبضة يدها وألقت بها فى نار المدفأة ..

وعند ذلك سمعت صوت (ماجى) تقول لها من غرفة النوم الصغيرة :

ـ ماذا جرى ؟.

وكانت العجوز منذ الاستيلاء على الماشية قد لزمت فراشها لاتبرحه

قط زهدا في الحياة ، وأصبحت كئيبة سريعة الغضب ‥ وأجابتها ماري:

ـ لا شيء ‥ آنها النار تكاد تخمد ‥

وبعد أن أشعلت ماري النار وأحرقت الرســـــالة ذهبت الى غرفة العجوز وسألتها :

ـ هل في استطاعة مستر شادويك أن يفعل شيئا لمارتن ؟

ولكن العجوز لم تجب بكلمة وقد تكومت في الفراش عاجزة محطمة، حتى استعاذت ماري بالله وهي تعود أدراجهـــــا ‥ ثم قالت العجوز في النهاية :

ـ هل عاد الرجال من الحقل ؟ ‥

ولكن ماري خرجت الى الفناء مكروبة مضعضعة ‥ فان هذا الخرف الذي ألم بالمرأة العجوز كان أشد نكبة منيت بها الاسرة ، وأصبحت ماري وهي لا تجد في البيت من يمد اليها يد المساعدة في تربية طفلها ، ولـــو وجدت لتهيأت لها الفرصة لالتماس القوت، أو لمعاونة مارتن بمافي طاقتها.

ولم تلبث أن رفعت الطفل النائم من مهده وقصدت مسرعة الى حقل البطاطس حيث كان العجوز و (تومسي) يعملان ‥ وقد فتح الطفل فمه وجعل يحرك شفتيه دلالة الجوع ‥ فدفعت اليه بثديها وهي ماضية في طريقها ، ولكن اللبن لم يكن غزيرا يشبع الطفل بسبب ندرة القوت ‥ ولم تشأ ماري أن تتصرف في مبلغ الثمانية عشر شلنا الباقي في البيت ، وهو الملاذ الوحيد الذي يدفع عن الاسرة كلها شر الموت جوعا ‥

ولما بلغت سور الحقل وقفت مستندة اليه تبارك المحصول الجديد ، فرفع العجوز رأسه قائلا :

ـ انه محصول طيب ‥ ان الله يبلونا بالجـــوع لنذكر ذنوبنـــا وسيئاتنا ، لكنه لا يلبث أن يمنحنا الخير الوفير فضلا منه وكرما ‥ ان الارض مليئة بالخيرات لمن يعملون فيها بصبر ودأب ‥

ودنا العجوز من مكانها وأخذ يداعب الطفل حتى ليظن من يراه أنه لا يحمل هما في هذه الدنيا ‥ فقد كانت تلك شيمته وهو يكد ويعمل في أرضه الحبيبة ، أما في البيت فلم يكن في العهـــــد الاخير الا حليف الصمت والوجوم ‥

وقالت له ماري أخيرا :

ـ هل تظن أن في استطاعة شادويك أن يفعل شيئا لصالح مارتن ؟.

فنظر اليها العجوز بشراسة وهتف بها قائلا :

ـ تعنين هذا المخلوق ؟ ‥ ما أظنك تفكرين في طلب المساعدة منه ؟

– أيمكنه أن يقول شيئا لمصلحته ؟ ٠٠ واذا فعل ، فهل يستمعون اليه ؟ ٠٠

– انزعى هذه الافكار من رأسك ٠٠

وعاد العجوز الى عمله ٠٠ ولم تلبث هى أن اتجهت عائدة الى الدار وقد تذكرت قول تومسى لها وهم يأكلون العجل الذبيح :

– قال لى رجل فى السوق ان العمال فى كندا يأكلون اللحم والخبز الطازج كل يوم ٠٠ يا اله السموات ! ٠٠ لا يكاد الانسان يصدق أن هناك فى الدنيا مكانا ينال فيه العامل خبزا أبيض ولحما وأجرا نقديا كل يوم !٠

أجل ان مارى لم تكد تسمع هـــذا الكلام حتى تملكتها لهفة عنيفة طاغية وانتابها اغراء جامح للرحيل مـــع طفلها فورا ، ولو بالسؤال والاستجداء ، الى تلك البلاد الغنية المتخمة بالخيرات ٠٠

وعادت الى البيت وأرقدت الطفل فى مهده وما زالت هذه الخواطر تلح عليها وتستبد بتفكيرها ٠٠

وجلست تشتغل بالابرة وهى تسرح النظر الى الوادى وتعد البيوت التى ما زال الدخان يتصاعد من مواقدها ٠٠ انها أضحت لا تتجاوز سبعة وعشرين بيتا بعد أن خمدت النار فى عشرة منها ٠٠ فكم يطول أمر البيوت الباقية ، والى متى يكون صمودها ؟

ثم راحت مارى تقول لنفسها :

– آفة البطاطس أولا ٠٠ ثم مرض ميخائيل الذى استنزف كل ما فى البيت طيلة الشتاء ٠٠ ثم مبلغ الجنيهين الذى دفعناه لمســاعدة (باتش هرنون) عندما تأخر فى سداد ايجاره ٠٠ ثم انعدام الخنازير من البيت بعد قلة البطاطس ٠٠ ثم قدوم (كيتى هرنون) لمشاركتنا القوت ٠٠ ثم مصاب أختى (ايلى) وأبى ٠٠ ثم عجز تومسى عن الفوز بعمل خارجى ٠٠ ثم اصابة مارتن وهربه الى الجبل والبوليس فى أثره ، ولو ظفروا به لكان مصيره النفى الى المستعمرات مدى الحياة ٠٠ ثم مصادرة البقرة وكل مابقى لنا من ماشية ٠٠ وحتى لو طاب المحصول الجديد لأخذوه من ايجار الشتاء والقمح الاصفر فاحش الثمن فى حانوت هاينز ٠٠ وفى مستشفى المجانين ينال باتش هرنون كل يوم رطلين من الخبز ولترا من اللبن ٠٠ أليست هى الجنة بالنسبة اليه ؟! ٠٠

ولم تلبث مارى أن قامت الى الحديقة الصغيرة التى زرعهـــا مارتن وتومسى خلف الدار ، فانتزعت منها ثلاث لفتـــات وضعتها فى قدر فوق النار مع قليل من القمح الاصفر ليكون منها طعام العشاء ٠٠ والواقـــع أن هذا اللون من الطعام أضحى قوام غذائهم منذ أسبوع ، فيما عدا أرنبـــا صاده الكلب (أوسكار) ٠٠ ولما فرغوا من الطعام غيرت لفـــائف الطفل وارتدت ثوب الزواج ثم قالت للعجوز بريان :

– أيمكنك أن ترعى الطفل قليلا حتى أطلب الى سالى الحضور ؟

فقال لها العجوز :

ـ والى أين تذهبين وأنت بهذا الثوب ؟ ••

ـ اننى ذاهبة فى مهمة من أجل مارتن ••

فلم يعقب العجوز •• أما هى فلم تلبث أن قصـــدت الى بيت سالى وضوء النهار لم ينحسر بعد •• ولم يكن البيت يبعد أكثر من مائة ياردة ، وكان مشيدا بالطين المضغوط فى فجوة بسفح الجبل •• ولما دخلت عليهم مارى كانوا يتناولون طعام العشاء فوق مائدة قدت من نتوء فى الجبـل ، ولم يكن فى البيت من الأثاث سوى فراشين ومقاعد بغـــير ظهر هى التى جلست عليها الأسرة •• وانتشرت فى جو المكان رائحة كريهة من دخان الوقود المصنوع من روث البقر المجفف ••

ولما دخلت مارى وهى تبادرهم بالتحية وثبت سالى قائمة من فورها هاشة باشة وقالت لمارى وهى تبرز اناء صغيرا :

ـ هذا قليل من اللبن كان فى نيتى أن أسرع به اليك بعد التهـــام لقمتى •• انى جئت به اليوم من القرية عندما كنت أغسل الملابس فى بيت القس ، بعد أن مرضت المرأة التى تغسل لهـــم •• خذيه هنيئا مريئا ، واننى لفخورة اذ قدرت أن أجىء لك به ••

أما الحقيقة فهى أن سالى قد سرقت هذا اللبن من بيت القس ••• فقد تسللت هى وأطفالها الثلاثة الى ساحة الدار وحلبت جانبـــا من لبن البقرة خلسة والاطفال يراقبون عن كثب ••

ومهما يكن فان مارى شكرتها ، وقالت لها :

ـ هل يمكنك يا سالى أن ترعى ميخائيل الصغير أثنـــاء غيابى عن البيت فترة ؟ ان ماجى قد اشتدت بها العلة وأخاف أن أترك لها الطفل ••

ـ بكل سرور يا مارى ••

وكانت سالى بادية الانتعاش بعد نجاحهـــا فى سرقة اللبن ، وقد صيرتها الفاقه الشديدة مريضة بداء السرقة واختلاس ما تصل اليه يدها • ولما عانقتها مارى بحرارة شاكرة دهشت سالى أيما دهش ، فهى لم تعهد فى مارى غير التحفظ فى ابداء مشاعرها •• ولما شيعتها الى الباب قالت لهـــا :

ـ هل هناك ما يضايقك يا حبيبتى ؟ ••

ـ كلا يا سالى •• ولكنى أكاد أجن من أجل مارتن ••

ـ مفهوم •• لكن لا لزوم للكدر •• انه فى أمان ما بقى فى الجبل •• وعندما تهدأ الضجة يمكنه الهرب بســهولة •• وماذا يمنعك من الذهاب معه ؟ •• أنت فى عنفوان شبابك ، وما زال العمر متسعا لتكونى مع زوجك الى النهاية •• أأنت ذاهبة الى القرية ؟ ••

فأجابت مارى وهى تبتعد مسرعة :

ـ انى لن أغيب طويلا ..

ولم تلبث مارى أن تملكها الخوف ، وبدت لها فكرة الالتجـــاء الى شادويك شيئا سخيفا لا فائدة منه .. بل قدرت أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا من أجل مارتن ، ولا بد أن يكون مقصده من ارسال هـــذه الرسالة اليها أثيما .. فهل تتراجع وتنكل عن هذا العزم ؟ ..

لكن فكرة التراجع لم تلبث أن جسمت أمام بصيرتهـــا اليأس من المستقبل وانعدام كل رجاء ، حتى قررت أن تمضى الى النهاية .. ثم بدا لها أن تتزود بما يذكى شجاعتها وينفخ فيهـــا روح العزم ، فعرجت فى الطريق على بيت أمها .. واذا هى تجابه مشهدا خارقا لم يخطر لها من قبل ببال ..

رأت أمها وكاتى الســـاحرة جالستين فى ركن المدفأة متواجهتين ، تتطلعان الى آناء فوق النار .. ولم تتكلم المرأتان لدى دخول مارى ، بل تبادلتا نظرة خفية وكأنما فاجأتهما منهمكتين فى شىء تريدان اخفاءه ..

وشاهدت مارى شقيقهـــا باتريك جالسا على مقعد فى أقصى الغرفة وقد شبك ذراعيه فوق صدره وألصـــق رأسه ومنكبيه بالجدار وأغمض عينيه نصف اغماض ، وبرز من تحت ابطه الايسر نصل مدية طويلة ومن تحت آبطه الايمن قطعة خشب كان يسويها بالمدية فيما يبدو ..

ومن عجب أن أحدا من الثلاثة لم يكلم مارى ولم ينظر اليها عندما وقفت فى مدخل الغرفة تقلب فيهم نظرات مفعمة دهشة واستغرابا ..

وأخيرا قالت مارى مخاطبة شقيقها :

ـ أنت هنا يا باتريك ؟ .. متى رجعت ؟ ..

فتطلع اليها بنظرة جامدة كالمجنون دون أن يجيب .. وهنا قالت أمهـــا :

ـ انه جاء يا حبيبتى ، وهذا كل ما يهم .. ان رجال البوليس قالوا انهم لا يطلبونه ..

فحملق باتريك فى أمه قائلا :

ـ ربما يطلبوننى قريبا ..

واذ ذاك لم تطق مارى صبرا لما بدا لها من غرابة أطوارهم ، فراحت تقول :

ـ ماذا بكم جميعا ؟ .. وأى شىء فى هذا الاناء ؟ .. وما هذه المدية التى معك يا باتريك ؟ ..

فانفجرت ثنايا الشاب عن بسمة يسيرة وأمسك بالمدية قائلا :

ـ هى مدية أخذتها من بحار فى البلدة منذ فترة ٠٠ ولك أن تسألى الحكيمة عن الغرض من وجود هذه المدية معى ٠٠

فلم تتمالك مارى أن هرعت اليه وهتفت وهى تتوعده بقبضة يدها :

ـ لا أريد أن أسمع منك هذا الهذيان ! ٠٠ لن أدعك تضع الحبل حول عنق زوجى مارتن بما تدبره !٠٠ انى الآن ازددت تصميما على المهمة التى أنا ذاهبة الى هناك من أجلها ٠٠ انه لأهون عندى أن أرشد عنكم ، من أن أدعكم تورطون مارتن فى فعلتكم السوداء التى تدبرونها ٠٠ ليحتمل غيرنا تبعة الجريمة ، وليقع وزرها على غير رءوسنا ٠٠

وفجأة وثبت الساحرة العجوز قائمة وهتفت بها بصوت متحشرج :

ـ انى أحذرك وأكرر تحذيرى لك من الوقوف فى سبيل انتقـــام الاله ٠٠ وستحل عليـــك اللعنة الكبرى اذا فهت بكلمة واحدة عن هذا الأمر ! ٠٠

قالت الساحرة العجوز هذا وهى تزمجر بصـــوت كالحشرجة حتى لم تتمالك مارى أن ارتعدت وقصدت الى الباب ٠٠ فقالت أمها :

ـ الى أين تذهبين يا حبيبتى ؟ ٠٠

فخرجت مارى دون أن تنبس بكلمة ٠٠ وان هى الا برهة حتى قام باتريك فى أثرها ، ولما أدركها فى الطريق قال لها :

ـ اننى بدورى أحذرك ٠٠ لا تتدخلى فيما ليس من شأنك ٠٠ هناك رجل سيشهد ضد والدى ٠٠ ولا بد من اسكاته حتى لا يشهد ٠٠

قال ذلك ثم تركها وهرول فى طريق الجبل ٠٠

الفصل السادس والثلاثون

جلس (شادويك) فى (الكشك الصيفى) الى خوان تدلى فوقه مصباح وقد سمرت نظراته فى طرف السوط الذى أمسكه بين يديه ، كمن هو مستغرق فى حلم عميق ... وكان مرتديا قبعته ومعطفه وقد لف (الكوفية) حول عنقه ... وكان باب (الكشك) مفتوحا يتسرب منه نسيم رقيق آت من النهر جعل ضوء المصباح يتراقص ، وكلمـــا تراقص سرت فى جسد (شادويك) قشعريرة تهز كيانه وهو قابع فى مكانهينصت ويرتقب ...

وأخيرا سمع وقع أقدام تدرج فوق الحشائش خارج (الكشك)، فابتسم وحبس أنفاسه ، بيد أنه لم ينظر الى ناحية الباب الا حين سمع وطء الاقدام على عتبة الكوخ ، فأدار رأسه وقال بصوت خافت :

ــ ادخلى ... اقفلى الباب خلفك ...

فوقفت (مارى) لدى الباب تضـــم حرملتها حول جسدها وهى تحدجه بنظراتها ... وفجأة نهض قائما ودنا منها ... فتراجعت وهى تشهق ، واذا هو يصيح بها :

ــ الى أين تــذهبين ؟ ... سبق السيف العــذل ، وفات أوان التراجع ... وأمسك بمنكبيهــا وأدارها نحــوه ... فقــالت بصوت خفيض :

ــ دعنى أذهب ...

فدفعها الى جانب الكوخ بخشونة وأغلق الباب بالمزلاج ... فوقفت ترتعد دون أن تبدى محاولة أخرىللافلات وقد شفت نظراتهاالشاخصة اليه عن الفزع ... أما هو فقال لها وهو يشير الى مقعد صغير :

ــ اجلسى ! ...

فأطاعت ... وعاد هو الى مجلسه مستندا بيديه الى الخوان والسوط بينهما .. ثم قال لها برفق :

ــ لاتخافى ... اننى لن امسك ... أترين هذا السوط ؟...

فنظرت (مارى) الى السوط وأومأت ايجابا وقــد ثاب اليهــا السكون فلم تعد ترتعد ... فاستطرد يقول لها مترفقا :

ــ عندى عرض لك ... أتحبين زوجك ؟ ...

فتطلعت اليه زائغة البصر ، على حين تابع كلامه قائلا :

ــ قيل لى ان لك طفلا ... أتحبين طفلك ؟ ... لم لاتجيبين ؟.. الا تحبين أن تخرجى من هنا مع زوجك وطفلك ؟ ..

فهمت (مارى) بالنهوض ، بيد أنها عادت الى الجلوس بعد اشارة منه ، وقالت بصوت متهدج :

ــ لست أفهم ياسيدى قصدك ...

ــ هاها ... اذن سأكلمك بصراحة ووضوح ... انك أنت المسئولة عن حمل أختك على مفارقتى ... لقد ساءنى هذا الفراق كثيرا ... ثم حاول أبوك وزوجك قتلى ... فصفيت حسابى معكم بالاستيلاء على ماشيتكم ... والآن ، انى راحل عن دياركم ، ولهذا سأكون بكم رحيما ... وتقديرا منى لذكرى أختك التى كنت اهيم بها سأسدى اليك معروفا ... بهذا السوط ... وهذا الحزام ...

وأخرج من معطفه حزاما وضعه فوق الخوان ، وكانت جيوبه مليئة بالجنيهات الذهبية ... فلم تتمالك (مارى) أن هتفت بصوت أجش :

ــ ماقصدك من كل هذا ياسيدى ؟ ...

فرفع يده يسكتها قائلا :

ــ مهلا ... مهلا ... لاتنزعجى ... أمامك فرصة لكسب هذا المال ... فانى لا أومن بمبدأ الاحسان ... ان المال مالى على كل حال ، وان كان بعضه قد جاء من بيع ماشيتكم ... واليك اقتراحى ...

ومال نحوها يتكلم همسا وقد شفت سحنته عن الجنون المطبق وأخذ يتلذذ بكل كلمة يفوه بها ... وقد أنصتت اليه (مارى) أول الامر فى ارتياع ، فلما أدركت فى النهاية مقصده تضرج وجهها بحمرة قانية ، ورفعت يديها الى صدرها قائلة :

ــ كفى ! ... كفى بالله ! ...

وانهمرت دموعها وجعلت تهتز فى مكانها ... فابتسم (شادويك) .. وقال همسا وهو يضرب الهواء بالسوط ، حتى كاد طرفه يلامس راسها :

ــ تكسبين جنيها عن كل جلدة سوط ... وكلما كنت أكثر احتمالا للجلد ، زاد نصيبك من الجنيهات ... لكن اذا بكيت قبل الجلدة العاشرة ، خسرت كل شىء ، ولم تنالى جنيها واحدا ... مارايك فى هذه الصفقة ؟ ...

فما كان من (مارى) الا أن راحت تهمس أمامه بصوت أجش :

ــ انى ماجئت الا لابلغك أنهم يدبرون قتلك ... أما الآن فانى ارجو لهم التوفيق ! ... أنت تستحق القتل وزيادة ، أيها الشيطان المتجسد فى صورة انسان ... الله بينى وبينك ... على راسك يقع دمك ! ...

والحق أن كلماتها لم تلبث أن أيقظته من غياهب النشوة الخبيثة التى أغرقته نزوته الشاذة فى وهدتها ... فاعتدل فى جلسته وتصلبت عضلاته ، وصاح بها :

ـ ماذا تقولين يا امرأة ؟ .. يقتلونني ؟ .. من هم ؟ .. تكلمى ، والا مزقتك بالسوط ... ماذا تعرفين عن هـذا التـدبير ؟ .. تكلمى قولى ! ..

ونهض قائما ورفع السوط فوق رأسها ... فتطلعت اليه دون أدنى خوف ، وقالت وقد كشفت عن أسنانها كحيوان فى خطر :

ـ اضرب ! ... ان سـوطك لن ينقذ حيـاتك !... انهم قاتلوك لامحالة ! ... أنا لا أخافك !

فصاح بها :

ـ اذن سأضطرك الى الكلام ...

ورفع السوط وأداره فى الهواء ، لكنه ماكاد يهوى به حتى تملكته رعدة ، فجلس وهو يضحك ضحكات غريبة ... ثم بدأ يهذى كالمعتوه وقد اشتد به الارتعاد ، حتى لم تفهم (مارى) كلمة مما كان يقول ...

وجلس حينا الى الخوان يحملق فيها صامتا ، ثم هوى رأسه على ذراعيه وصدرت من حلقه حشرجة وكأنه ينتحب ... ثم سكت وتعالت انفاسه حتى خيل (لمارى) انه نائم ... واذ ذاك نهضت قائمة ووقفت برهة مترددة ، وفجأة ركضت الى الباب وجذبت المزلاج وهى تلهث ؛ ولما انفتح الباب سرى نسيم عليل مقترن بجريان ماء النهر ... وعندئذ رفع (شادويك) رأسه وقال بصوت كليل :

ـ ماهذا ؟ ... آه !... انها ذهبت ! ...

وبدا محتقن العينين أقرب الى النوم منه الى اليقظة ... ثـم ضحك وهز منكبيه ... ثم تجشأ وتمطى واستوى على قدميه ... ثم تصلبت عضلاته وكشر عن أنيابه وأخذ يسب ويلعن ... ثم تناول حزام النقـــود وهو يهز رأسه ووضعه حول وسطه وضم المعطف وتنــــاول السوط ... ثم سار متثاقلا الى خارج الكوخ تاركا المصباح موقدا ... بيد انه لم يكد يبتعد بضع خطوات حتى عاد أدراجه وأهوى على المصباح بضربة عنيفة من السوط جعلته يلتف على المصباح ويبقى عالقا به ... فجذبه بقوة وهو يسب ويلعن ، حتى هوى المصباح والسوط الى الارض معا ... وسرعان ما اندلعت السنة النار فى أرض الكوخ ... فانبعث سبابه مرة أخرى ، وتخلى عن السوط نهائيا ... وفى النهاية ولى هاربا الى الخارج ...

الفصل السابع والثلاثون

كان الظلام حالكا عندما ذهب (شادويك) يجتاز المشى المؤدى من (الكشك الصيفى) الى القصر بمحاذاة النهر ... وجعل يتعثر فى سيره حتى سقط على الارض أكثر من مرة لفرط اسراعه ، وكـان يصطدم بالاشجار حتى تمزقت ملابسه بين فروع الاغصـان المتشابكة المدلاة على جانبى المشى ، غير أنه لم يحفل بهذا ، بل مضى قدما كأنه حيوان مذعور يفر من خطر محدق ، وبين فينة وأخرى كان يهتف لنفسه :

ــ لابد لى من الهرب ! ... لم يبق أمامى وقت أضيعه !

وعندما اقترب من القصر قابله (ريلى) يحمل مصباحا ... وماكاد السائس يرى سيده حتى هرول اليه يقول لاهث الانفاس :

ــ اننى فى أشد الاضطراب ياسيدى ... فقد حدث أثناء عودتى بالمركبة من البلدة أن استوقفنى رجـل خارج القـرية وسألنى أن كنت ياسيدى تزمع الرحيـل ، ومتى يكون ذلك ... وقد قال لى الرجـل بالحرف الواحد : « انى رأيتك تنقل أمتعة فى المركبة الى (كلوجر) ... فهل ينوى مستر (شادويك) الرحيل ؟ .. ومتى يسافر ؟ .. » .. انى أعرف الرجل ياسيدى .. انه يدعى (كونسدين) ، وهو من الثوريين ... صانك الله ياسيدى ووقاك السوء ... لو كنت مكانك لما سافرت هذه الليلة ... فهم يدبرون أمرا ...

فوضع (شادويك) يده على كتف (ريلى) قائلا :

ــ ارفع مصـباحك الى أعلى يا (ريلى) ... هـكذا ... أترانى مضطربا ؟

فتفرس (ريلى) برهة فى وجهه ثم أجاب قائلا :

ــ عفوا ياسيدى ... لكنك تبدو غريبا بعض الشىء ... هل تشكو شيئا ياسيدى ... ؟

فقال (شادويك) بصرامة ، ولكن بصوت خافت :

ــ هل تبدو على وجهى علامات الخوف يامغفل ؟...

ــ كلا ياسيدى ... لايبدو عليك الخوف ... ولكنى أستحلفك بالله أن تتمهل حتى الصباح ... وعند ذلك يصاحبك رجال البوليس.

ــ هيا بنا يا (ريلى) ... سر أمامى بالمصباح ... هل تم اسراج الجواد ؟ ... أين تركت أمتعتى ؟ ...

ـ تركتها ياسيدى فى فندق (شللى) . كما أمرتنى ... والجواد مسرج معد ...

ـ قف لحظة ...

فأطاع (ريلى) ... ومد (شادويك) يده الى حزامه وأخرج منه حفنة من الجنيهات الذهبية أعطاها خادمه الذى ارتعش قائلا :

ـ لكنك أعطيتنى أجرتى هذا اليوم ياسيدى ...

ـ ولو ... أنت شخص طيب ... اشرب نخب صحتى ... هناك ذهب كثير فى كاليفورنيا ... وفيها حياة جديدة أيضا ... وقد أدعوك لمشاركتى هذا الخير متى تم كل شىء ... والآن امض فى سيرك .. ارفع المصباح ...

فتقدم (ريلى) سيده رافعا المصباح وهو يحدق فى الظلام على الجانبين ويقول .

ـ أتذهب الى كاليفورنيا ياسيدى وهى بعيدة عنا فى أقصى العالم ؟.

ـ لابأس يا (ريلى)... ان تلك المرأة حذرتنى... لكنها لم تفعل ذلك الا لغرض فى نفسها ... ومن يتآمر ضدى ؟ ... زوجها وأخوها ... وللانتقام منى ! .. حسنا .. سأمكر بهم .. سأضحك منهم ملء الفم .. فليكن ما أرادوا ..

فقال (ريلى) وقد ساوره الاضطراب :

ـ ما هذا ياسيدى ؟ ..

فمضى (شادويك) فى همهمته وهو لايكاد يبين ... وعند باب القصر كانت (مارى هالوران) واقفة تنتظر ... فدعاها (شادويك) ومنحها حفنة من الجنيهات الذهبية هى الاخرى ... واذ ذاك أجهش (ريلى) بالبكاء قائلا :

ـ لاشك ياسيدى أنك لاتفكر فى مفارقتنا نهائيا ... فقد أخبرتنى أنك ذاهب الى دبلن فقط بالايجار ...

ـ الايجار ؟... أى ايجار ؟ ... وداعا أيها الناس الطيبون ...

قال هذا وهمز جواده بعنف ، فانطلق يعدو به فى طريق القرية... وكان الظلام حالكا بين الاشجار ، غير أن الجواد كان يعرف طريقه معرفة الخبير ، حتى أفضى به الى القرية بعد قليل ...

وصادفته دورية من رجال البوليس كانت عائدة الى الثكنات ، فصاح فيه قائدها يأمره بالوقوف ، وسلط الضوء على الجواد حتى اجفل هذا وتراجع على قائمتيه الخلفيتين أمامهم ... وعند ذلك صاح (شادويك) فيهم :

ـ الا تعرفوننى أيها الاغبياء ؟ ...

فقال كبيرهم :

ــ معذرة ياسيدى ... لابد لنا من وقف الجميع تنفيذا لقانون الاحكام العرفية ... افسحوا الطريق يا رجال ! ...

فتابع (شادويك) طريقه ... ولكن الجواد تملكه الفزع حتى أبى أن يتقدم وراح يصهل ويثب على جانبى الطريق ... فجعل (شادويك) يلهبه بالسوط حتى اندفع الى الامام فى النهاية وأخذ يركض حثيثا الى مابعد منزل القس فى أقصى القرية ... غير أنه مالبث فجـأة أن ركز قائمتيه الاماميتين فى الارض ، حتى اندفع (شادويك) الى الامام وكاد يهوى من فوقه ... ومرة أخرى اعمل فيه السوط وهو يسب ويلعن ، لكن الجواد بلغ حدا أمسى بعده لايحفل بالسوط . وجعل يتواثب فى مكانه وهو يصهل موجعا مرتعدا ... وأخيرا اضطر (شادويك) الى الترجل ، وحاول أن يقود الجواد بيده ، فاستعصى عليه ، ولكنه مازال به حتى راح يسير خببا فى طريق التل ، حيث كانت أعمال لجنة المعونة الحكوميـة مركزة فى هذه المنطقة ، وقـد احالتها الى حفـر واكداس من الاتـربة والأحجار ، مما جعل المرور فيها من أشق الأمور ...

ولمح (شادويك) أمامه مصباحا قائما أمام كوخ خفير المراقبة ، لتحذير الراكبين من أخطار المرور ، فرفع صوته ينادى الخفير قائلا :

ــ أنت أيها الخفير ! ... ارفع مصباحك يامغفل ! ...

واذ لم يخرج أحد من الكوخ تلبية للنداء ، تقدم (شادويك) الى الأمام وهو يجذب الجـــــواد من رأسه ... ولكن الجواد زاد اضطرابا واستعصاء ، حتى جن جنون (شادويك) فانهال عليه ضربا بالسوط . وفى اللحظة التالية سمع وقع أقدام تهرول من حوله . وأطبق عليه رجال من كل جانب . وقال قائل بصوت حاد :

ــ اهجموا عليه أيها الفتيان ! ... اعطوا هذا الفاجر مايستحق!..

واقترن هذا بانطفاء المصباح حتى خيم الظلام مطبقا ... ودس (شادويك) يده فى جيوب معطفه يلتمس مسدسه حين أطبق الرجال عليه من الجانبين .. فارتفع صهيل الجواد وانطلق يعدو كالمجنون فى طريق القرية ... ولم يلبث (شادويك) أن شعر بمدية تشق جنبــه الايمن ، واعقبتها هراوة نزلت على أم رأسه ... ثم امتدت يد تطبق على عنقه ... وفى هذه اللحظة استطاع اخراج مسدسه واطلقه على الرجل الذى كان يحاول خنقه ... وسرعان ما انبعثت صرخة عنيفـة تشف عن الالم ... ذلك وقد انهالت عليه ضربة أخرى من هراوة أصابته فى مؤخرة عنقه ، حتى هوى فوق جسد الرجل الذى أطبق على عنقه يريد خنقه ، ثم شعر بيدى غريمه ترتعشان وتخففان الضغط عليه .. وسمع قائلا يقول :

ــ لقد اجهزنا عليه ! ... الى الجبل يا رجال ، فى رعاية الله !...

فتراكضت الاقدام مبتعدة ... وبقى (شادويك) منبطحا فوق

جثمان غريمه المرتعد ... وما لبث أن مد يده اليسرى الى المدية التى انغرست فى جنبه . فجذبها من مكانها بعد جهد جهيد ، ونهض معتمدا على يده اليمنى ؛ ثم أهوى بالمدية على وجه الرجل الملقى تحتــه ، حتى غاصت فى خده ... وفى اللحظة التالية سقط (شادويك) مغمى عليه والدم يتدفق من جنبه ... وان هى الا برهة حتى انبثقت الاضواء هنا وهناك ، وهرع رجال البوليس من ناحية القرية ، مدفوعين بصــوت المقذوف النارى وصهيل الجواد الشارد ...

وحف رجــال البوليس بشادويك يمددونه على ظهره ويرفعون راسه . ففتح عينيه ... ونظر اليهم مغمغما :

ــ انها حذرتنى ! .. زوجها وأخوها ! .. (كيلمارتن) الابن .. انهم .. وسقط رأسه .. وانتابته رجفة ... ثم تمدد جامدا ...

وكان الرجل الآخر بدوره جثة هامدة بعد أن استقرت الرصاصة فى صدره ، وغاصت المدية فى خده وأذنه ... لكن وجهه الهامد كانت تطبعه ابتسامة الغبطة ...

وقال قائد البوليس لزملائه :

ــ القتيل هــو (باتريك جليسون) ... اسرعوا يارجــال وراء الآخرين ! ... ان (كيلمارتن) الابن لايمكن أن يكون بعيدا ! ...

الفصل الثامن والثلاثون

كان الاسبوع الذى أعقب مصرع (شادويك) بمثابة كابوس ثقيل ىزح تحته الأهلون فى مقاطعة (كروم) ... فقد عززت قوات البوليس الكبيرة المرابطة فى القرية بفصيلة من جنود الجيش الانجليزى المحتل . جىء بها من الثكنات العسكرية فى بلدة (كاوجر) ، للمساهمة فى البحث عن قتلة (شادويك) ، (ولاخماد الثورة الناشبة) – على حد تعبير احدى الصحف الانجليزية الاستعمارية ، فى وصفها للأحوال السائدة فى هذه المنطقة المنكوبة التعسة ... لكن هذه الاجراءات كلها لم تسفر عن نتيجة ايجابية فيما يتصل باعتقال المسئولين عن مقتل (شادويك) . وكل ما أثمرته هو مضاعفة أساليب البطش والتنكيل بالأهلين المساكين . وتثبيط همم الساعين الى التخفيف من وطأة النكبة الشاملة ... ولما عاد جنود الجيش الانجليزى الى ثكناتهم فى النهاية ، وفتر نشاط البوليس فى مداهمة المناطق الجبلية ، كانت الحالة من شدة البؤس بحيث قرر الأب روش فى وصفها فى سياق رسالة له الى احدى الجماعات فى أمريكا للحصول على التبرعات الخيرية :

« انى لم أجد فى طوافى بالمنطقة كلها وجها واحدا يبتسم . فى اقليم عرف أهلوه بالبشاشة والمرح » .

وكانت (مارى) نفسها قد سيقت الى الثكنات فى (كروم) غداة مصرع (شادويك) ، واستهدفت لتحقيق عسير ... فلم تتردد فى الاعتراف بأن شقيقها قد توعد (شادويك) بالقتل ... ذلك أنها لم تجد فائدة من انكار هذه الحقيقة وقد أيدها اشتراك أخيها فى الحادث بصورة عملية ، اذ وجدت جثته دليلا دامغا ضده ...

بل ان مارى اعترفت كذلك بذهابها الى (الكشك الصيفى) لمقابلة (شادويك) . بيد أنها أكدت أنها لم تفعل ذلك الا لتحذيره مما كان يدبر لاغتياله ... أما أقوالها بصدد ذلك الاقتراح الرهيب الوحشى الذى عرضه عليها (شادويك) قبيل مصرعه ، فقد قوبلت من سلطات البوليس بالتكذيب ، حتى جاء دور (ريلى) فى الادلاء بشهادته ، فسرد عن سيده الراحل حقائق أغرب من الخيال ... اذ راح يقول أمام مفتش البوليس :

– لقد بدأت المأساة منذ التحاق تلك الفتاة المدعوة (ايلى جلسون) بخدمة القصر .. فقد كان سيدى قبل ذلك مثال الطيبة والهدوء ، فيما عدا تلك الساعات التى كان يستسلم فيها للسكر .. وانى أقرر هنا أنه لم يكن محقا فى الاستيلاء على مواشى الأهلين ، فى الوقت الذى اشتد فيه الضنك والعسر ، وان كانت الظروف هى التى أجبرته على ذلك .. نعم ان طباعه تطورت منذ وقع نظره على تلك الفتاة قبحها الله ، فأصبح

أميل الى الشراسة والفلظة ... ولما عملت أختها على ابعادها عنه .. أقسم أن ينتقم من هذه الشقيقة . أعني (مرى كيلمارتن) الجالسة الآن أمامي ... وهذا هو السبب في استيلائه على المواشي وبيعها في المزاد لكي يرتحل بثمنها الى كاليفورنيا ، ولكنهم داهموه وقضوا عليه ... وأشهد أنه أقسم قبل رحيله أن يصفى حسابه مع هذه الشقيقة وينتقم منها ، وقد قال لي بالحرف الواحد : « اني سأجعلها تركع تحت قدمي » ... وهكذا كلفني بحمل رسالة منه سلمها اليها صبي من أقاربي ... والحقيقة أنه ماكان يصح لانسان عاقل أن ينحدر الى مثل هذا العمل ، وأن يسعى الى الانتقام من فلاحة مسكينة ... لكنى ماكنت أستطيع ان أخونه وهو مخدومي ، وأبلغ أحدا عن نواياه ... وقد انتهز فرصة ذهابي الى (كلوجر) بالامتعة ، فقصد الى (الكشك الصيفي) لانفاذ ماعقد العزم عليه . ولكنى أسرعت بالعودة بعد اتمام مهمتي ، خوفا من أقدامه على ارتكاب منكر جديد ، بعد أن استحال في الأيام الأخيرة الى مخلوق شرير شرس ... وكان لديه سوط مخيف ذهب به تلك الليلة الى (الكشك الصيفي) ، ولذلك أعتقد أن (ماري) صادقة في أقوالها وأنه أراد تجربة السوط فيها اشباعا لنقمته ... وانصافا لها أقول أيضا انه ذكر لي ونحن في الحديقة أنها حذرته من المؤامرة التى تدبر لقتله ... وتلك هي الحقائق التى اشهد الله عليها ...

وكان من جراء هذه الشهادة التى أدلى بها (ريلى) السائس أن كفت السلطات عن اتهام (ماري) بالتواطؤ في الجريمة ، وان كان فيها الدليل على اشتراك (مارتن) في المؤامرة ... وهكذا الصقت اعلانات في أرجاء الاقليم تنص على منح مكافأة قدرها خمسة جنيهات لكل من يدلي بمعلومات تؤدى الى اعتقال (مارتن) و (كونسدين) و (فاهي)، باعتبارهم مسئولين عن قتل الكابتن (جوسلين شادويك) ... وقد ذكر اسما الاخيرين باعتبارهما من زعماء الثوار المعتصمين بالجبال .. وبرغم ذلك لم يعثر لأحد منهم على أثر ، حتى بدا وكأن الأرض قدانشقت وابتلعتهم في جوفها .

وللقارىء أن يتصور مبلغ الشقاء الذى ذاقته (ماري) المسكينة في مثل هذه الظروف ، غير أنها احتملت كل شيء بشجاعة فذة ... بل انها تولت بنفسها الاشراف على دفن أخيها (باتريك) ، يعاونها العجوز (بريان) الذى كان يماثلها في الشجاعة والهمة ... وقد اضطرت الى بيع ماكان في بيت أبيها من أثاث لتنفق على الجنازة ...

ثم أثيرت بعد ذلك مشكلة أم (ماري) ... فقد أصبحت وحيدة في بيت النساج بعد أن جنت (كاتى) الحكيمة التى كانت تقيم معها ، ونقلت الى مستشفى الأمراض العقلية ... وقالت (ماري) لامها في هذا الصدد بعد الجنازة :

ــ الافضل أن تأتي للاقامة معي ... بامكانك مساعدتي في رعاية الطفل ، بعد أن أصبحت (ماجى) طريحة الفراش ... وفي هذا مايسهل لي سبيل الخروج والسعى وراء مطالب البيت ...

ولكن مسز (جليسون) مانعت أول الأمر قائلة :

– هذه خاتمة المطاف ... انى سأنتظر هنا نهاية الأجل ... لقد ذهب أعزائى جميعا ! .. ولن أحمل معى اللعنة التى حلت على الى بيت آخر ! ...

فما لبث العجوز (بريان) أن تصدى لاقناعها قائلا :

– ان امامنا نضالا طويلا شاقا ... علينا ان نكافح للبقاء فى أرضنا وديارنا حتى تمر هذه الأوقات العصيبة .. فقومى الآن وتعالى معنا .. لاتجعلى (مارى) مشغولة البال بك وبنا ، فما جعل الله لامرىء من قلبين فى جسد واحد ... هاتى يدك وهلمى بنا ...

وبهذا الاسلوب استطاع الاثنان اقناع مسز (جليسون) ، فانتقلت للاقامة معهم فى بيت (كيلمارتن) ...

ولما حكم على والد (مارى) بعد أسبوع بالنفى الى موطن الاشغال الشاقة فى (نيوسوث ويلز) ، لم يكد هذا الحكم يحرك لديها ساكنا ، بعد أن وهى منها الجلد وبلغت الغاية من الصبر والاحتمال ...

وقد وقف النساج بعد صدور هذا الحكم عليه يهتف فى ساحة المحكمة :

– لتحى ارلندا !

لكن الأحداث التى توالت بعد ذلك دلت على أن الأقدار كانت أبعد عن كل استجابة لهذا الدعاء ...

الفصل التاسع والثلاثون

كانت مقادير البطاطس المزروعة هذا الربيع أوفر مما كان يزرع عادة ، برغم الآفة التى فتكت بالمحصول فى العام الماضى ، وبرغم شح الطعام ... وقد دلت البوادر على أن محصول العام الحالى سيكون موفورا ... نعم ان الربيع كان قارس البرد ، وقد نزل الصقيع وتساقطت الثلوج حتى فى أواخر شهر ابريل ، لكن ما ان حل شهر يونيو حتى كانت الحرارة بالغة لاتحتمل . وقد أدت هذه الحرارة الى نماء الثمار وامتلائها . حتى كان مشهد الاوراق الفضة اليانعة الموشاة بالازاهير البيضاء الورديه الجميلة على امتداد (الوادى الاسود) كله ، أقرب الى حديقة ورد بديعة ...

وفى عشية عيد القديس (سانت جون) أوقدت النيران والمباخر طبقا للطقوس القديمة ، وطاف المزارعون بالجمرات المتقدة فى أرجاء المزارع يطردون بها الشر عن ثمار أرضهم ... وفى صباح العيد خرجوا الى الحقول يلتقطون بعض الثمار من كل حقل تيمنا واستبشارا ، فما كان أشد اغتباطهم وقد زكت الزروع وتضاعفت الثمار حتى عم السرور كل مكان ... وكان (بريان) العجوز أشد الناس ابتهاجا ، اذ صاح بأعلى صوته وهو يشطر احدى الثمار شطرين :

ـ ألم أقل لكم ؟ ... ان الله لايبلونا بالجوع أمدا طويلا ! ... انه حين يبلونا بالجوع انما يذكرنا بذنوبنا وسيئاتنا ! ... حتى اذا تبنا وانبنا نزل علينا من الخيرات فيضا عميما ... أن الارض غنية بالخيرات ... ان الله قد بارك فى أرضنا ورعاها ! ....

فلما كان ظهر يوم العيد جلست الاسرة الى طعام كان بالنسبة لها وليمة حافلة ... فقد جاءت (مارى) ببضع بصلات غضة من حديقة الدار الخلفية قطعتها وخلطتها بثمار البطاطس الجديدة ... وأعطتهم (سالى أوهانلون) قطعة من السمك المملح . هى احدى المسروقات التى كانت تصيبها بين حين وآخر ... وبرغم أنه لم يكن ثمة لبن لاتمام هذه الاكلة الطيبة ، فقد كان ما يشعرون به من جوع بديلا من اللذائذ والمشهيات ... وهكذا نعمت الاسرة بطعام سائغ هنىء ... وحتى (ماجى) تركت فراش المرض واتخذت مجلسها الى المائدة وقد حفزتها تلك الانباء الباهرة عن المحصول الجديد ... ولم يعدم الكلب نصيبه من الوليمة اذ أفردت له صحفة لدى الباب الخلفى أكل منها حتى امتلأ وتكور ، بعد أن دب اليه الهزال من فرط الجوع ...

ولكن المقادير شاءت الا أن تختار لحظات المسرة هذه لتطلق عليهم قوى البلاء المدخرة فى حجب الغيب ... فقد انقضت ساعات الصباح

والسماء صافية الاديم والشمس ساطعة في أوجها ... ثم مالبثت السماء بغتة أن غشيتها الظلمات ، وأومض البرق ، وانهال وابل المطر ، وقصفت الرعود في الفضاء ، واشتدت برودة الجو حتى لكأنهم في صميم الشتاء ... أجل ! ... كان كل أولئك شيئا مروعا ، وقد حدث في غضون دقائق معدودة ، حتى انتابتهم الرهبة ، وراحوا يتبادلون نظرات الحيرة ، ووضعوا الطعام من أيديهم ... وما لبث (تومسى) أن سبقهم الى الكلام ، فقال همسا :

ــ هل يتكرر ماحدث ؟ .. ان ماحدث في العام الماضي بدأ بهذه الظاهرة ! ..

فقال العجوز وهو ينهض عن المائدة :

ــ صه ... أتدرى معنى هذا الكلام ؟ ..

فقالت (مارى) :

ــ لنركع على أقدامنا ونسأل الله اللطف والرحمة بنا ...

فعملوا بمشورتها ، ودعوا الله ألا ينزل الآفة على محصولهم ... فلما فرغوا بدا وكأن العناية الالهية قد استجابت لدعائهم . اذ ذهبت العاصفة فجأة كما بدأت ... ومع أن السماء لم تصف تماما ، فقد انقطع البرق والرعد ، واستحال المطر الى رذاذ . واشتدت الحرارة .. وعند ذلك اقترح العجوز رش الحقول بالماء المقدس ... فجاءت (مارى) بزجاجة منه كانت في الدار ، وخرجت معهم الى الحقول حيث نثروا الماء على الزرع هنا وهناك ... ولما شاهدهم الجيران يفعلون ذلك حذوا حذوهم ...

وفي اليوم التالي صفت السماء واشرقت الشمس ، بعد مطر غزير في الليل ... وذهب العجوز الى الحقل وأعمل مجرفته في الارض ، ولما ألفى النبات مايزال سليما لهج لسانه بشكر الله ... وعندما انضمت اليه (مارى) و (تومسى) وشاهدا سلامة الثمار ، جرت من أعينهما دموع الفرح ، ولم تتمالك (مارى) أن ركعت على الارض تقلب الثمار بين يديها بحرص وتقول :

ــ آه !.. كم هي كبيرة نامية ! .. انى لم أرها بمثل هذا الحجم في مثل هذا الوقت من العام ! ...

فرد عليها العجوز قائلا وهو يحفر بالمجرفة في همة وحمية :

ــ صدقت يا (مارى) ... وفي هذا دليل على أن الانسان يجزى بجده وكده ... هناك اناس في (وادى جليناري) سولت لهم الغفلة أن يأكلوا من الثمار المخصصة (للتقاوى) . وبذلك حرموا أنفسهم من نصف المحصول الذى كان يمكن أن يجنوه ... أما أنا فقد زرعت حقلين آخرين ، وسنجنى بذلك ضعف المحصول المعتاد ... لاتقاطعيني ياامرأة فسنقوم على أقدامنا من جديد ، ولا مجال بعد الآن للبأس ... واذا كانت ماشيتنا قد أخذت غصبا . فسنعوضها شيئا فشيئا ... انالخير ينتظرنا ، مادامت الارض لنا .. فقد أصبحنا في أمان من العسف بعد

مصرع الطاغية ... وربما كان وكيل المالك الذى سيخلفه أقرب الى الرحمة ؛ فيمهلنا وقتا لسداد الايجار ... أو ربما تدخلت الحكومة ومنحتنا بعض القروض ، كما حدث من قبل فى ابان المجاعة الكبرى ... آه لو كان (مارتن) معنا ليشهد هذا المحصول العظيم ! ... ياللمسكين! ... كم امتزج عرقه الزكى بهذه التربة وهو يعدها للمحصول الجديد!.

وماكاد العجوز يذكر اسم (مارتن) حتى جمدت (مارى) مكانها، وشعرت بألم عنيف يطغى عليها ، وخواء مروع يسرى فى كيانها كله : وكأن يدا جبارة قد امتدت اليها فجأة واستنزفت احشاءها ... ثم تملكها اعياء شديد حتى غاض الدم من وجنتيها ووقفت ترتعد ، وجعلت تقول لنفسها :

ـ انى لم أفكر فى (مارتن) منذ أيام .

ولما فطن (تومسى) الى مااعتراها قال لها بلهجة القلق :

ـ ماذا بك يا (مارى) ؟ ...

فأجابت وهى تضحك ضحكة سقيمة :

ـ لاشىء ... كل ماهنالك أنى تأثرت بما حدث و ...

فقال لها العجوز وهو مستغرق فى فرحته فلم يفطن الى أن ذكر اسم (مارتن) هو سبب ما طرأ عليها :

ـ عودى الى البيت ... انك اجهدت نفسك فى العمل اخيرا ... ولابد لك من الراحة ...

فاطاعت (مارى) ... وفى طريقها الى البيت هطلت دموعها ، وجعلت تغمغم لنفسها قائلة :

ـ أواه يازوجى الحبيب ! ... انى لم أغفل عن ذكرك لفتور فى محبتى لك ... وانما هو الخوف من التفكير فيك ... ثم هناك الجوع السائد ، وندرة اللبن فى صدرى من أجل طفلنا (ميخائيل) ! ..

وكان ذلك حقا هو شغل (مارى) الشاغل ... فقد كانت آناء الليل واطراف النهار تعذبها فكرة واحدة مروعة ، هى انعدام القوت وشيكا لتغذية (ميخائيل) الصغير ، وما سوف يضطرها اليه ذلك من الخروج الى الطرقات مستجدية ... وقد برح بها هذا التفكير الاليم حتى طغى فى نفسها على كل ماعداه ، وصرفها عن التفكير حتى فى غياب (مارتن) عنها ... وصحيح أنها سمعت عنه مرة بعد مصرع (شادويك) عندما جاءها رجل يبلغها أن (مارتن) قد التجأ مع بعض رفاقه الى جزيرة فى المحيط وانه بخير الى حين ... لكن ذلك لم يكن فيه عزاء لها ، والا فماذا يكون من أمر المستقبل ، وهل ثمة رجاء فى اجتماع شملهما مرة أخرى ، أو فى افلاتهما من هذه البلاد ؟ .. وكذلك كانت هذه الخواطر الاليمة هى التى جعلتها تخاف من تذكره والتفكير فيه ..

ثم ثارت عاصفة عنيفة اخرى فى اليوم الاخير من الشهر .. لكنهم

لم يحفلوا بها كثيرا بعد أن مرت العاصفة الاولى بسلام ولم تحـــدث اضرارا ما ... وبرغم ذلك انتشرت شائعة مؤداها أن الآفة قد امتدت الى المحصول فى مقاطعة (كورك) فهـل يمكن أن تنتقل عـدواها تلك المسافة الشاسعة ؟ ...

لقد ظلوا يتفقدون المحصول كل يوم بلهفة بالغة ... بيد أن الايام تعاقبت دون أن يظهر أثر للشر المخوف ، وكانت الثمار التى يقطعونهـا لطعامهم اليومى سليمة من كل عطب ... وحتى (مارى) ذهب عنها التوجس وأصبحت أكثر عزيمة وجلدا ... ولكن ماهو الا أن حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليو حتى وقعت الواقعة ، وانقضت الصاعقـة من السماء ...

فى ذلك اليوم خرج (بريان) الى العناء عقب انبلاج الفجر ، فماكاد يسرح نظره عبر الوادى حتى رأى سحابة بيضاء قائمة فوق (البحيرة السوداء) وكانت فى شكلها أقرب الى جبل تلجى عظيم علق فى الفضـاء بسلاسل غير منظورة ... ولما طلعت عليها الشمس كان لها سنا خاطف يبهر الانظار ... وقد وقف العجوز حينا يتطلع اليها فى وجل ورهبة وهو يتساءل عن كنهها ... ومالبث أن هرع الى داخل البيت ودعـا أفراد الاسرة الى مشاهدة هذه الظاهرة الغريبة ... فما كادت (مارى) و (تومسى) يبصرانها حتى تملكهما من الانزعاج ماتملك العجوز من قبل، وقد قال لهما :

ــ هل رأيتما قط شيئا كهذا ؟ ..

فأجاب (تومسى) :

ــ لم ار شيئا كهذا فى حياتى ..

وقالت (مارى) :

ــ انه يشبه جبلا من الثلج ...

ــ كيف يمكن أن يكون هذا ثلجا ونحن فى أواسط الصيف ؟ ... انها معجزة ...

ــ أو هى نذير سوء ... الله يصرف عنا كل مكروه ...

وخرج غيرهم من الاهلين يتطلعون الى هذه السحابة ... وكان يخيم فوق الوادى سكون غريب وقد ثقل الهواء وانعدم حفيف الريح ، وكفت الطيور عن التغريد ...

ولم تلبث السـحابة أن تحركت ببطء فوق الوادى وانتشرت اطرافها ، وشاعت فى الجو رائحة فاسدة ، وامتلأ الفضاء ببخار أبيض كانت أشعة الشمس تلمع من خلاله ، حتى بدا كأن مطرا من الذرات الترابية البيضاء ينثال من السماء وئيدا ... ثم تصاعدت الى أنوف المشاهدين رائحة كبريتية خانقة ... وحتى الحيوانات سرت اليهـا الرائحة ، وتأثرت بها ، الى حد أن الكلاب أقعت على قوائمها الخلفيـة وانشأت تنبح نباحا أقرب الى العواء ... واختفت الطيور من الجو

مع أن اليوم السابق شهد أسرابا من الغربان تسرح وتمرح فى الفضاء .. وهنا انشب الفزع أنيابه فى قلوب الناس ، حتى انبعثت أصواتهم نائحة مولولة من خلال الدور حين أطبقت السحابة على الوادى وحجبت عنه ضوء الشمس ...

وفى خلال ذلك بقى أفراد أسرة (كيلمارتن) فى الفناء وقد ضمت (مارى) الطفل الى صدرها ولم يفكر أحد فى اعداد الفطور برغم تقدم النهار ... لكن (مارى) لم تلبث عندما سمعت (ماجى) تشترك فى النواح أن ثابت الى نفسها وقالت للمرأة العجوز :

ــ لاتفزعى الطفل بنحيبك ... لم يقع ضرر حتى الآن ... خذى الطفل يا أماه ريثما أعد الفطور ...

فقال (بريان) :

ــ اصبت يا (مارى) ... لم يقع ضرر حتى الآن ... الى الداخل ياناس ! اتخافون من ضباب عابر ؟ ...

فكفت (ماجى) عن النحيب ، بيد انها لاذت بفراشها واغلقت الباب عليها ... أما الباقون فقد تكلفوا المرح ؛ ولكنهم كانوا كالذى يحس دنو الكارثة فيصطنع التفاؤل وهو يعلم زيف شعوره ...

وقالت مسز (جليسون) وهى قابعة فى ركن المدفأة تهدهد الطفل :

ــ انى شهدت فيما مضى اثقل من هذا الضباب ...

فقالت (مارى) :

ــ لكنى لم أشم من قبل مثل هذه الرائحة فى الضباب ... ولابد أنه نوع جديد كنا نجهله ... لكن الضباب لايضر على أى حال ... ولو كان هذا مطرا لاختلف الامر .. فان المطر قد يؤدى الى عطب البطاطس ....

فقال العجوز :

ــ لن يعطب البطاطس من شىء ... عفا الله عنك لما قلت يا(مارى)..

وانهمكت (مارى) فى طهى قليل من القمح الاصفر مع بعض ثمار اللفت الباقية ... وبينما هم يأكلون اذ حدثت ظاهرة عجيبة ... فقد صفت السماء فجأة ؛ وسطعت الشمس ... بيد أن التغيير الذى كان خليقا بانعاش نفوسهم ، مالبث أن ضاعف من روعهم ... فقد ظلت الرائحة الفاسدة جاثمة لاتريم ، حتى أمسكوا جميعا عن الطعام ... وأخيرا نهض العجوز وتناول قبعته وجعل يعبث بها وهو يدير نظراته بينهم وكانه صبى اتى جريرة خجل منها ... وان هى الا برهة حتى اقتدى به (تومسى) وهرعا معا الى الخارج ... فأسرعت (مارى) الى المهد وحملت طفلها واخذت تضمه الى صدرها وأمها تسأل مابها وصوت

(ماجى) يرتفع من داخل غرفة النـوم بالنواح ... وغـاض الدم من وجنتى (مارى) واتسعت عيناها ، فناولت الطفل لامهـا وهى تقـول همسا :

ــ سأخرج لمشاهدة الحقول ..

وركضت (مارى) فى أثر الرجلين وهما يسيران الهوينى شطر الحقول حتى أدركتهما ... وكانت الحقول تبدو عن بعد زاهية بأوراقها المخضرة فى اشعة الشمس الساطعة ، وان كانت الرائحة الفاسدة قـد زادت واشتدت وطأتها حتى غدت لاتطاق ... ولمـا بلغ ثـلاثتهم أول الحقول اصطفوا حول السياج الحجرى وجعلوا ينظرون الى النبات ، فقال العجوز :

ــ ان الزرع بخير ... لم يصبه شر والحمد لله ...

فقال (تومسى) :

ــ صه ! ... ماهذه الاصوات ؟ ...

وأشار بيـده شمالا ، حيث اصطف أناس مثلهم حـول الحقول ينظرون اليها ، فاذا هم قد أخذوا فى النواح بأصـوات تنم عن اليـأس المطبق ... ولم يكن فى نواحهم غضب ولا شكوى ولا تضرع ، وانما كان اقرب الى حشرجة الجريح المحتضر ، يئن فزعا من غائلة موت لا راد له ولا دافع من دونه ..

وقالت (مارى) بصوت خافت :

ــ انها الآفة ... رحماك يا اله السموات ! ...

وشهق العجوز قائلا من خلال أسنانه :

ــ انظروا ! ... انظروا الى ماحدث ! ... انه الشيطان ! ... الشيطان ذاته ! ...

وأشار بيد راعشة كأنما مسها الفالج الى فجوة فى السياج بدا الزرع من خلالها ناضجا مزدهرا ... فنظرت (مارى) و (تومسى) الى حيث اشار العجوز وهو يلغو بكلام سقيم ، فلاحت لاعينهما بقع صغيرة داكنة ظهرت فى الاوراق الخضراء وأخذت تنتشر كأنما افتعلتها يد ساحر أو كأنما هى حركة مـد جارف بدأ يطغى على شـاطىء رملى منبسط ... أجل ! ... كانت مطرا من البقع جعل ينتشر سراعا فى جميع الانحاء ...

وهتف (تومسى) رافعا وجهه المستدير الملتحى الى السماء :

ــ رحماك ياربى ! ... رحمة ولطفا بعبادك ! ...

وشعرت (مارى) بخواء كالذى انتابها يوم أن ذكر العجوز اسم (مارتن) أمامها ... أما الآن فانها لم تفكر فى (مارتن) ... وانمـا

احست كان الدنيا قد خلت من كل شيء ... وشعرت بتثاقل شديد في عينيها حتى كان عليها أن تفتحهما بجهد جبار ... ثم أخذت تنتحب انتحابا عنيفا هز كيانها حتى اغمضت عينيها المكدودتين وحجبتهما بيديها واستندت الى السياج من فرط مابها ...

وأما العجوز فكان يصرخ بأعلى صوته مرددا هذه الكلمات :

ـ هو الشيطان ·· انه علينا !·· انه علينا ! ··

وتسور السياج وهو لا يفتأ يكرر صراخه ·· وشق طريقه بين الاغصان القارعة حتى وصل الى البقعة المصابة ، فقابلته رائحة العطب الذريع ·· فمد يده الى الأفرع التى أصابتها البقع وأخذ ينتزعها من منابتها . واذا الاوراق تذوى بمجرد اللمس ، والافرع تنقصف كخشب معطوب ، لكن الثمار الملتصقة بجذور الافرع المنزوعة كانت برغم ذلك سليمة ·· وبعد أن ثقب العجوز بأظافره فى بعضها لم يتمالك أن هتف وهو يضحك ضحكات هستيرية :

ـ انها غير معطوبة !·· تعال يا (تومسى) ·· انزع الافرع المعطوبة ·· لنعمل على وقف انتشار العطب ·· وأنت يا (مارى) تعالى ساعدينا ·· انزعوا الافرع !·· انزعوا ·· أوقفوا العطب ··

فتسور (تومسى) السياج بدوره متأثرا بحمية العجوز وشق طريقه بين الاغصان ، بيد انه جمد مكانه حين صار على قيد خطوات من العجوز الذى كان ينتزع الافرع صارخا محموما··فقد أحاط به (التبقع) الزاحف من كل ناحية حتى قال (تومسى) :

ـ ان البقع تنتشر فى أرجاء الحقل كافة ·· انظر يا رجل !·· انه حولك فى كل مكان ·· لن تستطيع وقفه مهما فعلت ··

فرفع العجوز رأسه وجعل ينظر حواليه متفجعا ·· فما لبث أن فغر فاه واستقام على نفسه وتدلت يداه الى جنبيه ، وقال بصوت متهافت :

ـ أصبت ·· انها يد الله ·· لتكن مشيئة الجبار ··

وعاد أدراجه الى السياج وانيا مطرقا دون أن يحفل بالتقاط الثمار التى انتزعها ·· وكان يطأ الافرع الباقية فى التربة غير مبال بشيء ··

ولم تلبث (مارى) أن حذت حذوه وصارت فى أثره عائدة الى البيت

وفى أرجاء الوادى كان النواح يتردد ويتعالى من أدناه الى أقصاه ·

الفصل الأربعون

ما ان أقبل اليوم التالى حتى لم يبق فرع واحد من زراعة البطاطس فى (الوادى الاسود) كله سليما من العطب ٠٠ وهكذا استحال المحصول الى أكداس معطوبة فاسدة بعد أن وضع الناس فيه كل ثقتهم ، وكان هو الحد الفاصل بينهم وبين المجاعة ٠٠

وقد ظلت (مارى) أكثر ليلتها هذه يقظى مؤرقة ، ثم غلبها النوم قرب الفجر من الاعياء ، فلم تستيقظ الا على صوت بكاء طفلها ٠٠ واذذاك نهضت مسرعة وهى بين اليقظة والنوم ، فأخذت تناغيه وتلاطفه وهى تتقدم الى النافذة لازاحة الستار عنها ، فراعها أن وجدت الشمس فى كبد السماء مما دل على تقدم النهار ٠٠ وفى عودتها الى مهد الطفل حانت منها التفاتة الى فراشها ، فرأت أمها التى أمست تنام معها مستلقية على ظهرها جامدة وعيناها مفتوحتان على سعتهما ٠٠ فقالت لها (مارى) :

ـ ماذا بك يا أمى ؟٠٠ لماذا لم توقظينى ؟٠٠

فلم تنظر اليها الأم ، بل أجابت بغير اكتراث :

ـ ليس بى شىء ٠٠ وكل ما هناك أن حالنا فى الفراش مثل حالنا بعيدا عنه ٠٠ هل بقى لنا ما نفعله ؟ ٠٠

ـ ان كلامك يفتت القلب المتحجر !٠٠ انك أصبحت مثل (ماجى) فى سوء الطبع !٠٠ قومى والبسى ملابسك ٠٠

وسارعت (مارى) بتغيير لفائف الطفل وارتدت ثوبها ثم قدمت للطفل ثديها وهى تنتقل الى المطبخ ، فوجدته لا يزال مظلما ، حتى قالت لنفسها :

ـ يا لطيف ! ٠٠ ماذا جرى فى الدنيا ؟ ٠٠

فللمرة الاولى منذ حلت (مارى) فى هذا البيت،رأت العجوز يتأخر فى نومه الى ما بعد شروق الشمس ، فيما عدا الايام الثلاثة التى لزم فيها فراشه ٠٠ لابد أن شيئا خطيرا قد ألم به ٠٠ وكذلك فتحت البـاب ٠٠ فاندفع الكلب الى الفناء ٠٠ وسرعان ما نفذت الى المطبخ رائحة فاسدة٠٠ وبعد أن تقدم الكلب قليلا فى الفناء جعل يتشمم الهواء ، ثم ما لبث أن جلس على قائمتيه الخلفيتين ينبح نباحا أقرب الى العواء ٠٠

وقالت (مارى) وهى تفتح غرفة النوم الصغرى :

ـ ما زلتم نائمين ؟٠٠

كانت الغرفة منيرة اذ كانت نافذتها بلا ستائر ٠٠ وقد أبصرت (مارى) العجوزين راقدين فى الفراش مستيقظين ، مثل أمها٠٠وما لبث (بريان) أن قال بلهجة غريبة :

ـ عجيب !٠٠ انك استيقظت قبل هذا اليوم !٠٠ لا بد أنها الشيخوخة ٠٠

فقالت (مارى) :

ـ صحيح ٠٠ فالنهار قد مضى نصفه ٠٠

وقالت (ماجى) متبرمة وهى تعد على مسبحتها :

ـ أسهل على الانسان أن يحتمل الجوع فى الفراش ، منه خارجه٠٠

فقالت (مارى) وهى تستدير عائدة الى المطبخ :

ـ لن تحتملى الجوع بمجرد الكلام !٠٠

فقال العجوز وهو يدلى ساقيه الناحلتين الى الارض :

ـ صدقت يا (مارى) ٠٠

وتناول بنطلونه وذهب الى المطبخ وهو بقميصه ، فبدا جسده الطاعن صورة مؤثرة للنحول وبروز العظام ، وخصوصا ساقيه اللتين تجردتا أو كادتا من اللحم حتى لم يبد منهما سوى عظام كالحة ٠٠ وقد فقدت عيناه ما كان لهما من حيوية ، ولاحتا غائرتين محمرتين حول الاطراف ، بتأثير الارق طول الليل ٠٠

وصاح العجوز فى الكلب والقط منتهرا ملوحابينطلونه الى ناحيتهما وهما يتشاجران لدى (كوم السباخ) ٠٠ فقد استحال القط الى الشراسة فى العهد الاخير لانقطاع مورد الطعام عنه فى البيت ، وأمسى يتصيد طعامه من الخارج ليلا ٠٠ ولسبب ما درج القط على احضار ما كان يعثر عليه من طعام الى (كوم السباخ) ليصيب منه حيث يشاء ٠٠ وكان فى هذه اللحظة ممددا على ظهره رافعا مخالبه الى أعلى كاشفا عن أنيابه متشبثا بجثة طائر كان الكلب يحاول انتزاعها منه ٠٠ وما لبث الكلب أن نظر الى العجوز وهو يهز ذنبه ، ثم نبح فى القط وركض الى سيده ٠٠ فما كان من القط الا أن تناول جثة الطير وعيناه تقدحان شررا وسار بها الهوينى مبتعدا وهو يتوقف بين لحظة وأخرى مزمجرا ٠٠

وقال العجوز وهو يضرب الكلب ببنطلونه :

ـ أتأكل من فضلات القط يا قذر ؟٠٠

فرقد الكلب على الارض وتلقى ضربات سيده الرفيقة بروح طيبة٠٠ فهو والعجوز متآلفان ٠٠ وقد راح يهز ذنبه ويدير لسانه مطمئنا الى مودة سيده له وبعده عن كل رغبة فى ايذائه ٠٠

وقال (بريان) لمارى وهو يلبس البنطلون :

ـ اعطى (أوسكار) شيئا يأكله ·· لقد اشتد به الجوع حتى حاول اختطاف الاقذار من ذلك القط الشـــيطانى الذى يتلقف كل النفايات والفضلات ·· لا يصبح أن نترك الكلب المسكين يجلب الامراض الينا فى البيت ·· فان الطاعون لا يأتى الا من الاجسام الميتة التى تتفشى فيهـــا الديدان ·· هذا شىء معروف للجميع ··

فقالت (مارى) :

ـ ليذهب الكلب لاصطياد أرنب ·· ان ما عندنا من الطعام قليل··

فهتف (بريان) قائلا :

ـ أرنب ؟·· وأين يجـــد الارنب ؟·· انى لم أر أثرا للارانب فى الاشهر الاخيرة ·· ان الانسان أصبح لا يجد حواليـــه حتى عصفورا ، لا أرنبا ·· الله وحده يعلم أين يجد القط ما يعثر عليه ··

وبعد أن لبس العجوز بنطلونه وشد حزامه ذهب الى السـور حيث وضع يديه حول عينيه ووقف يجيل النـــظر فى أرجاء الوادى ·· فبينما كانت حقول البطاطس بالامس مخضرة مزدهرة ، اذا هى الآن قفار وجدب وقد تجردت من كل زرع كأنما اكتسحتها النيران ولم تترك الا سيقانا عارية مسودة ·· ولم يتمالك العجوز أن هتف وهو يتشمم هنا وهناك :

ـ أف ·· أف ·· ما أفظع هذه الرائحة !

وجعل يدير النظر حواليه من جديد وقد أطبق شفتيه واشستد به الذهول وبدا عاجزا عن ادراك حقيقة ما حدث ·· أو ربما أبى الرجل أن يفهم الحقيقة وود لو يخفيها عن نفسه ·· ولم يلبث أن عاد الى المطبخ وهو يقول :

ـ لم أبصر أمامى مخلوقا واحدا ·

وكانت (مارى) توقد النار بيد وقد ضمت الطفل الى صدرها باليد الاخرى ··· وما لبث العجوز أن ركع يصلى ·· وألقى (تومسى) السلم وهبط من الغرفة العلوية ، وما أن نظر من الباب وشهد الخراب المنتشر حتى هتف قائلا :

ـ الله يرحمنا ! ··

فقالت (مارى) :

ـ ألا تخرج وتحضر لنا البطاطس التى نزعناها أمس ؟ ··

ولما رفع العجوز رأسه بعد صلاته وسألها عما تقصد أجابت قائلة :

ـ أقصد البطاطس التى كنت تجمعها عند نزول الآفة ··

ـ ان الأمل ضعيف فى العثور على شىء سليم ··

ـ بامكان (تومسى) أن يحاول ٠٠ خذ السلة يا (تومسى) وابحث لنا عن شيء منها للفطور ٠٠ فقد انتهى ما كان عندنا من قمح ٠٠

أجل ٠٠ فقد اشتد بهم اليأس فى اليوم الســـابق حتى صرفهم عن جمع الثمار التى اقتطفها العجوز فى ابان لهفته ٠٠ ثم ولوا هــاربين من الحقل تاركين الثمار ملقاة على الارض وهم فى غمرة اليأس التى طغت عليهم ٠٠ وهم لم يلزموا الفراش هذا الصباح الا بتأثير ما تملكهم من هـــذه المشاعر المؤيسة القاهرة التى استحالت الى استسلام صامت لحكم القدر قتل فى نفوسهم كل حافز للحركة والعمل ٠٠ وبقيت (مارى) وحــدها بينهم يحدوها النشاط والعزم والارادة ٠٠٠ فان طفلها وشبابها جعلاها بنجوة من الاستسلام ٠٠ وكذلك نرى (تومسى) وقد اتبع مشورتها وحمل سلة صغيرة ذهب بها الى الحقل ٠٠ وهناك وجد روائح الفساد من العنف بحيث كتم خياشيمه وهو يدنو من المكان ٠٠ وبحث فى جيوبه عن خيوط من التبغ يمضغها تخلصاً من الرائحة ، ولكنه لم يجد شيئاً ٠٠ فقد مضى عليه حين من الزمن دون أن يجد ما يحشو به غليونه ٠٠ وقد استعاض من التبغ فى العهد الاخير برماد وقود المدفأة كان يضـــعه فى الغليون ويدخنه ٠٠

ومهما يكن فانه تغلب على اشمئزازه من الروائح العفنة وتسور سياج الحقل ٠ وما لبث أن هتف بانفعال :

ـ الحمد لله !٠٠ ها هى الثمار سليمة من كل سوء ٠٠

وكان الأمل فى ايجاد طعام للفطور أكبر حافز له على التقدم الى حيث كان العجوز ينزع الافرع بالامس ٠٠ وما لبث أن وضـــع السلة وأخذ يجمع الثمار الملقة على الارض ، وكانت هى وحدها التى سلمت من العطب أما التى بقيت عالقة بجذورها بعد قطفها فقد شملها العطب والفساد

وقد بدا له أن يتفقد الافرع التى لم تنزع من الارض ، فما أن مد يديه اليها حتى ألفاها مسودة معطوبة عن آخرها ، فهز رأسه قائلا :

ـ نعم ٠٠ لا فائدة من جمعها ٠٠ انها عطبت عن آخرها ٠٠

وحمل السلة عائدا الى البيت ٠٠ فلما دخـــل المطبخ ألقاها على الارض قائلا :

ـ هذا هو كل المحصول ٠٠ ولم أجد تعبا فى حمله اليكم ٠٠

فقال له العجوز وهو قابع فى ركن المدفأة :

ـ ألم تجرب بعض الافرع التى ٠٠٠

ـ جربتها ٠٠ وكانت معطوبة عن آخرها ٠٠

فقال العجوز :

ـ ليكن ما أراد الله ٠٠

وشبك ذراعيه فوق صدره وجعل يحدق فى النار التى أوقدتهـــا

(ماری) ٠٠ وكانت (ماجی) ومسز (جونسون) قد جاءتا الى المطبخ وجلستا تحدقان الى الارض دون أن تفعلا شيئا ٠٠ فما لبثت (ماری) التی جاءت باناء لطهى البطاطس أن استدارت اليهم جميعا فجاة وصاحت فيهم غاضبة :

ـ ما فائدة جلوسكم هكذا ؟٠٠ ألا يوجد شيء تعملونه ؟٠٠ كيف يمكن أن نعيش والجوع يواجهنا ، اذا لم نعمل شيئا ؟٠٠ قومواوتحركوا ٠٠ ان لم تفعلوا فانى سأذهب بالطفل وأدعكم تواجهون الهلاك ٠

فقالت أمها :

ـ سامحك الله يا بنيتى ٠٠ الحقيقة انه لا عمل لنا ٠٠

ـ اكنسى الارض ٠٠ افعلى أى شيء !٠٠

وقال لها العجوز بلهجة الانزعاج :

ـ والى أين تذهبين بالطفل ؟ ٠٠ لا أظنك تنوين حقا مفارقة البيت والارض ٠٠

فصاحت (ماری) :

ـ تحرك اذن ، ان كنت تريد أن أبقى ٠٠

فكانت لهجتها حافزا للعجوز على أن ينفض عنه خموله ، واذا هو يثب قائما ويصيح فى وجهها :

ـ لن يستطيع انسان أن يتهمنى بأنى كنت كسولا أو جبانا ٠٠٠ قولى ماذا تريدين أن أفعل ، وأنا أفعله فى الحال ٠٠

ـ استعد اذن أنت و (تومسی) سأذهب معكما الى القرية ٠٠ ان كان للحكومة أن تساعدنا ، فهذا أوان المساعدة ، قبل أن يلتهم الجوع قوانا ٠٠ اننى على أى حال سأكافح من أجل طفلى ٠٠ ولكما أن تساعدانى اذا أردتما ٠٠ لابد أن يمنحونا شيئا ، أو يضعونا فى السجن ٠٠ فى السجن عليهم أن يطعمونا ٠٠

وهنا جعلت (ماجی) تبكى وتقول :

ـ لاتتكلمى عن السجون ٠٠ ألم يكف ماحدث حتى الآن ؟ ٠٠ ان ولدى (مارتن) هارب بين الجبال ، وقد جعلوا لرأسه ثمنا ٠٠الرحمة يا ربى !٠٠

فقال (تومسی) :

ـ ان (ماری) على حق فيما قالت ٠٠ لابد من حمل الحكومة على مساعدتنا ٠٠ من رأيى دائما ان الشعب الارلندى لابد أن يضرب ضربته ٠٠ ليتنى كنت أستطيع أن أشترك فى شيء كهذا ٠٠

فقال العجوز :

ــ لا ضرر من هذه المطالبة على أى حال ٠٠ سأذهب معك يا (مارى)، وان كان الأمل ضعيفا فى أن نفوز بشىء ، بسبب عداوتهم لنا ، بعد كل ما حدث ٠٠

فقالت (مارى) :

ــ قم واستعد ٠٠ هناك شىء واحد مؤكد ، وهو أننا لن نفوز بشىء ما دمنا قاعدين ندعـــو ونبتهل ٠٠ فان الله لا يعين الا الذين ينشطون للعمل ٠٠

الفصل الحادي والأربعون

فى ذلك الوقت كان الدكتور (هاينز) ممتطيا جواده ووجهته (وادى جليناري) لعيادة مريض •• وقد أبلغه الرجل الذى جاء يطلبه انها حالة مستعجلة نظرا لان أمه المريضة ظلت يومين بلا حراك •• وهكذا استحث الطبيب جواده فأخذ يركض به •• ولم يكن الجواد سوى هذه الفرس الرمادية التى ذهب بها أبوه وأخوه (تونى) الى (كلوجر) لاتمام صفقة الزواج المعروفة ، فقد أهداه الأب هذه الفرس وقال فى تفسير هذا انهم (يستطيعون الآن بحمد الله أن يتقدموا خطوة الى أعلى) • وأضحى الطبيب الآن أكثر خبرة بالركوب ، فلم يجد عناء فى قيادة مطيته ••

ومهما يكن فان الطبيب لم يلبث أن تخاذل وضعفت روحه المعنوية كما حدث عندما كان يشعر بأنه عدو للشعب فى فترة مصاحبته لشادويك •• وسرعان ما فارقته تلك الغبطة التى أحسها حينما استفتح حياة جديدة فى خدمة قومه بفضل توجيهات الأب (جيلان) •• وصحيح أن الطبيب ما برح يعمل عملا شاقا متواصلا ، لكنه كان عملا تخالطه مرارة متزايدة ويشوبه احساس بالهزيمة •• وما ذلك الا لان هذا المنكود قد خلق بطبعه جبانا خوار العزم •• وقد روعته اجراءات القمع والتنكيل التى تذرعت بها الحكومة بعد حوادث الفتنة الاخيرة ، وخاصة اثر مصرع (شادويك) •• ومن بواعث الاسف أن أمثاله فى ارلندا كثيرون ، أولئك الذين اذا كشر لهم الطغيان عن أنيابه لا يلبثون أن يتمرغوا فى الرغام أو يختفوا فى جحورهم أو يرفعوا أيديهم بالتسليم فزعا وارتياعا••والذين اذا لاحت لهم اليد الحديدية منذرة متوعدة ، شعروا أنه خير لهم وآثر عندهم أن يحيوا حياة العبودية ، على أن يموتوا ميتة الابطال •• وليس معنى هذا أن الطبيب كان يفكر من قريب أو بعيد فى أن يموت ميتة البطولة ، فقد كان يكفيه أن يفكر غيره فى ذلك ليقع الامر منه موقع الرعب والفزع •• فهو لا ينشد فى الدنيا غير السلم بأى ثمن ••

وبرغم ذلك فان الطبيب كان يزداد مقتا لأبيه أكثر من أى وقت مضى كلما سمعه يجاهر بمشاعر الجبن التى كان هو نفسه يحسها فى أعماقه •• بل ان تفضل أبيه عليه بالفرس ملأه خزيا واستخذاء ، وكأن مهديها قد ابتاعها من تلك الارباح التى جناها مستغلا الضائقة التى نزلت بالناس •• والحق أن الطبيب قد اشتد عذابه فى العهد الاخير الى حد أنه فقد كثيرا من بدانته ، واكتسى وجهه سمات الصغار والمسكنة التى عرفت عن أبيه من قبل ••

وكانت أنباء الآفة الجديدة قد عرفت مساء اليوم السابق ، لكن

أحدا لم يكترث بها لسبب واحد ، هو أن الذين نقلوا أنباء الآفة الى القرية كانوا من شدة التأثر بالنكبة بحيث لم يعنوا ببيان خطورتها .. ثم ان سكان المناطق الجبلية في الاقليم كانوا يذكرون على الدوام روايات مبالغا فيها عما يقاسون في حياتهم من البأساء ، استدرارا للعطف عليهم .فكانت في الحق صدمة ومفاجأة للطبيب أن يرى ويلمس بنفسه حقيقة ما حل بالوادي الاسود وهو يجتازه في طريقه الى (وادي جليناري) .. فقد شاهد جميع الحقول التي كانت مخضرة منذ أيام قلائل وقد استحالت الى أرض مسودة عارية جرداء .. وألفى الاهلين الذين كان يمر بهم في طريقهم الى القرية يسيرون متباطئين متثاقلين يسودهم الصمت والوجوم دون أن يتوجهوا اليه بنظرة واحدة .. ولم يجد واحدا منهم حاول أن يعترض طريقه لكي يسأله معروفا أو احسانا كمألوف عادتهم من قبل .. فكان في ذلك ما روعه ، حتى راح يهمز جواده ليستحثه على الاسراع به كأنما يريد الفرار مما يرى ..

ولكن الجواد اضطر الى البطء في سيره عند بلوغ قمة الجبل الفاصل بين (الوادي الأسود) و (وادي جليناري) ، اذ كانت الطريق ضيقة وعرة لم تخترقها مركبة من قبل .. وكان (وادي جليناري) ذاته منخفضا ضيقا تحف به كتل الجرانيت الضخمة ، وقد تناثرت بينها الاكواخ الطينية ذات الاسقف المغطاة بأعواد الحطب والقش ، تطل من خلف الكتل الصخرية كأنها كائنات مذعورة ، وقد تلاشت من هذه البقعة الكالحة تلك الرقاع المخضرة التي كانت تخفف من وحشتها وتجهمها في مثل هذا الوقت من العام ، بعد أن أتت الآفة على محصول البطاطس الغض وتركت مكانه سوادا وقفرا ..

وبعد أن هبط الطبيب بفرسه مسافة ربع ميل مارا بالمقبرة والكنيسة الصغيرة لمح شابا خلق الثياب يخرج من خلف سور ويجري الى ناحيته وقبعته بيده .. وقد قال له عندما دنا منه :

ـ من هنا يا صاحب السيادة .. البيت هناك ..

وأشار الشاب يسارا الى كوخ صغير قائم في نهاية حقل صخري أجرد .. وما لبث أن جرى شطر الكوخ وهو حافي القدمين ، فأخذ الطبيب يتبعه بالفرس محاذرا بين الصخور المقلقة ، وكان الكوخ في بقعة تراكمت فيها الاقذار ، وأمام بابه بركة راكدة تفوح منها الروائح الكريهة ، ولم يكن للكوخ نافذة ولا مدخنة ، فكان بابه هو المنفذ الوحيد للدخان .

وترجل الطبيب وقال وهو يقدم للشاب عنان الفرس :

ـ أأنت ابن المريضة ؟..

فأومأ الشاب بحركات مضطربة ، وكانت ملامحه تدل على بلاهة مطبقة ، وسحنته صورة متنافرة مؤثرة .. وقد قال له الطبيب وهو واقف أمام البركة الآسنة التي تسد الطريق الى مدخل الكوخ :

ـ لماذا لا تعمل على تنظيف هذا الطريق ؟.. عجيب أن يترك المكان

هكذا وفي الداخل امرأة مريضة !·· لماذا لا ترفع هذه الاوساخ ؟··

فجعل الشاب يبتسم في بلاهه ، وحك ظهره برهة ، ثم أخذ يقول بصوت حاد :

ـ ان المكان هكذا دائما يا سيدى ··· وهذا موضع (كوم السباخ) ولكن أمطار الليلة الماضية هي سبب هذه المياه ·· أما أمي فليست مريضة، لانها لم تتحرك منذ مدة ، بعد أن أكلنا ليلتين ثمارا من الغابة ·· أكلتها أمي وأخي وأنا ·· وذلك بعد أسبوع لم نأكل فيه شيئا ·· اننا نعيش هنا وحدنا ياسيدى ، بعد أن هاجر (تومى) الحداد الى أمريكا ·· وأقرب دار لنا هي دار (باتش فينى) الذى اســتعار أخي حماره وذهب به لاستدعائك يا سيدى ·· ان أمي لم تتحرك منذ تلك الأكلة ، مما أفزعني أنا وأخي ·· ان جسمها منتفخ يا سيدى ·· ولما خفت لوجودى وحدى معها خرجت الى الطريق منتظرا حضورك ·· ليس هناك أحد غيرنا في هذه الجهة الموحشة ، وخصوصا أن المقبرة هناك ··

وأجهش الشاب بالبكاء ، فترك لجام الفرس وجلس يخفي دموعه في قبعته المثقوبة ·· فصهلت الفرس وابتعدت مســافة عن الكوخ ·· وأما الطبيب فلم يسعه الا أن يثب فوق البركة وهو يدمدم في سره اشمئزازا، فانتهت به الوثبة الى عتبة الكوخ حيث اصطدم رأسه بسقف الباب الواطيء ·· فدخل وهو يشتم ولكن الرائحة الكريهة التى قابلته كادت تدفع به من حيث جاء ·· بيد أنه تغلب على تقززه بجهد وأجال نظره حواليه ··

كانت الظلمة مخيمة في أرجاء الكوخ بسبب دخان المدفأة المنعقد في جوه ·· ولم يلبث أن شاهد امرأة ممددة على ظهرها قرب المــدفأة فوق فراش من القش ، تغطى جسمها بعض الخرق، وقد برزت ساقاها العاريتان مورمتين يابستين ، وبدا بطنها منتفخا شديد الانتفاخ ، وتدلى فكها ·

وقال الطبيب يخاطب المرأة :

ـ ماذا تشكين ؟··

ولما لم تجب المرأة دنا الطبيب منها وانحنى فوقها ليتبينها جيدا ·· وسرعان ما استقام واعتدل من فوره هاتفا :

ـ رحماك يا ربى !··

فقد كانت المرأة ميتة ، وقد مضى وقت على وفاتها ·· بل انها كانت في حالة تعفن شديد ، وبدا سبب الوفاة واضحا للطبيب ، حتى لقــد تملكه خوف عنيف ·· اذ كانت أول وفاة بالطاعون عرضت له في حياته الطبية ··

وكذلك هرع الطبيب الى خارج الكوخ دون أن يحاول حتى تغطيــة وجه الميتة بقطعة من الخرق التى علت جسدها ، فأدت به رغبته في سرعة الابتعاد الى التخبط في البركة القذرة أمام الكوخ ، مما ضاعف من خوفه اشفاقا من العدوى ·· وصاح في الشاب قائلا :

ـ كم مضى على مرضها ؟..

ـ أهي مريضة ؟

فقال الطبيب فى غير ترفق :

ـ انها ميتة .. ما اسمها بالكامل ؟..

ـ ميتة ..

ردد الشاب هذه الكلمة وهو يرتمي على الارض باكيا نائحا حتى لم يستطع الطبيب أن يفوز منه بالبيان الشافى برغم تكـرار المحاولة.. وهم الطبيب أن يمتطى فرسه ويسرع بالعودة الى القرية لابلاغ الســـــلطات المختصة عن ظهور هذه الحالة الوبائية ، لولا أن تذكر واجبه فى تحذير الشـاب من دخول الكوخ ، فقال له :

ـ ستموت أنت أيضا ان دخلت ..

فأمسك الشاب عن العويل ، وتطلع الى الطبيب برهة .. ثم قال بلهجة الاعياء :

ـ لا يهمنى .. أنا جوعان .. ان مصيبتنا هى الجوع يا سيدى.. ان الجوع ينهشنا منذ الشتاء ..

فلم يتمالك الطبيب أنقال وقد اشتد به الخجل لما خاطب بهالشاب من خشونة :

ـ يا الهى !.. تعال معى .. سأعطيك شيئا تأكله .. اسرع الآن .. أنا مستعجل ..

فتطلع اليه الشاب وهو لا يصدق سمعه .. وما لبث أن وثب قائما وهو يصرخ من شدة الفرح محاولا تقبيل ركبتى الطبيب ، لولا أن ابتعد عنه قائلا :

ـ اجر أمامى ...

ـ سأجرى يا سيدى .. بارك الله فيك .. سأجرى كما لم أجر طول عمرى !.. أدعو الله أن يبارك لك يا سيدى فى كل ما عندك !..

فامتطى الطبيب الفرس وتبع الشاب الذى سبقه الى الطريق .. وظل الشاب يتقدم الطبيب حينا والأمل فى الفوز بالطعام أكبر حافز له على الاسراع .. لكن الحرمان الاخير نال منه ، فما لبث أن أبطأ فى جريه واضطر الى المشى العادى ، وأخيرا وقف مستندا الى سور وهو يلهث عاليا، وقال للطبيب :

ـ لا يمكننى التقدم أكثر من هذا يا سيدى .. انني أشعر بالمرض

فما أن سمع الطبيب كلام الشاب حتى سرت رجفة فى كيـانه .. فهل انتقلت عدوى الطاعون الى الشاب ؟ ..

ولكن الطبيب تغلب على خوفه وترجل وأخذ يفحص الشاب ٠٠ بيد أنه لم يجد أثرا للوباء ، وما كان اعياؤه الا وليد الجوع الذى سـبب له انتفاخا شديدا فى معدته ٠٠ وهكذا أركب الشاب فرسه وركب خلفه ٠٠ وعلى هذه الصورة عاد الطبيب الىالقرية ٠٠ وكان أكبر الدليل علىتعاسة الاهلين أن الذين كان يمر بهم فى الطريق لم يحفلوا بالشاب وهو مقتعد ظهر الفرس ٠٠ فقد كانوا يسيرون صامتين ينظرون الى الارض ٠٠ ولم يفطن الطبيب أول الامر الى كثرة عددهم ٠٠ فمنذ كانت ندرة القـوت والناس لاينقطعون عن التوافد على القرية ٠٠ بيد أن الطبيب لم يكد يقترب من بيته حتى أدرك أن هذه ليست الوفودالمعتادة للمتسولين وطلاب العمل ٠٠ فقد كان الموكب ينتظم عائلات بأسرها ، وكثير من المسنين بينهم كانوا يحملون لفائف الامتعة كأنهم هجروا ديارهم ٠٠ بل انه مر بامرأة عجوز طاعنة فى السن محمولة على ظهـر ولدها ٠٠ ولما بلغ شوارع القرية فى النهاية ورآه غاصا بالنـاس ، مال نحـو جماعة كان يمر بها وقال مستفسرا :

ـ ماذا جرى اليوم ؟٠٠ لماذا تذهبون كلكم الى (كروم) ؟٠٠

فاستدارت اليه امرأة شاحبة الوجه وهتفت قائلة :

ـ هو الجوع الاكبر جاءنا !٠٠

وارتفعت على الأثر أصوات متعددة تهتف محزونة نادبة :

ـ نعم ٠٠ جاء الجوع الاكبر !٠٠ اننا نمشى ورءوسنا فوق أيدينا!

ولم يتجه أحد منهم بنظره الى الشاب الذى سقط فوق سرج الفرس وقد أطبقت عيناه ٠٠ فقد انعدمت الرحمة بظهور الجوع ٠٠

الفصل الثانى والأربعون

فى غابة صغيرة من أشجار الصنوبر مجاورة لبيت الأب (روش) قسيس كنيسة (كروم) ، توجد رحبة بين الاشجار اعتاد القس أن يلوذ بها أغلب أيامه للتأمل والمطالعة فى الكتيب الذى جمع فيه مختاراته ٠٠ والى هذه الرحبة جاء القس صباح اليوم حيث ركع على ركبتيه مبتهلا الى الله يرجو منه العون ٠٠ وكانت أشعة الشمس المرسلة من خلال الاشجار تنعكس على رأسه الاصلع المطرق فوق يديه المشبكتين وهو مغمض العينين ٠٠ ومع انه كان يحرك شفتيه بالصلاة والدعاء فانه كان مشتت البال لايستطيع أن يركز فكره فيما كان يدعو به ٠٠ وكان الى هذا فى شبه غيبوبة بتأثير حرارة الشمس وصدح الاطيار المتعالى بين الاشجار ، مما زاد فى تخدير أعصابه ٠٠٠

والحق أن الأب (روش) قد خجل من الابتهال والدعاء بعد أن رأى الاهلين من سكان (الوادى الاسود) و (وادى جليندارى) يحتشدون فى الطريق أمام بيته ٠٠ ولم يملك الا أن يفر منهم الى حيث احتمى بهذه الرحبة المنعزلة بين أشجار الصنوبر خجلا من مواجهتهم وهو لا يملك ما يقدمه لهم ٠٠ بل انه لم يلبث أن خجل من الابتهال والدعاء بعد أن لم تظهر له علامة تدل على استجابة دعائه أو الهامه الى ما يهديه سواء السبيل ، وكذلك أغمض عينيه واستسلم لهذا الخدر الذى استولى عليه

ولم يلبث أن انتفض حين سمع فجأة صوتا بقربه بين الأشجار ٠٠ ففتح عينيه ورفع رأسه ، وأنصت ... فسمع صلاة وتسبيحا .. فلم يتمالك المسكين أن هتف قائلا :

ـ معجزة !٠٠

وقد حسب أول الأمر ان الله قد استجاب دعاءه ، وان الوحى يوشك أن ينزل عليه ٠٠٠ لكنه عندما تمالك حواسه وعرف فى المتكلم صوت الأب (جيلان) ، شعر بوجهه يلتهب خجلا ، ووثب على قدميه قائلا بصوت عال :

ـ يا له من موقف عجيب !

وأسرع الى مصدر الصوت ساخطا مهتاجا كعادته كلما ألمت به مشكلة، فشاهد الأب (جيلان) واقفا يصلى قرب البرج القديم الخرب المجاور للغابة ٠٠٠ فسعل الأب (روش) ، فما لبث الأب (جيلان) أن استدار نحوه وقد تورد وجهه هو الآخر ٠٠٠ فقال له الأب (روش) :

ـ صباح الخير يا (توم) ٠٠٠ هو موقف عجيب هذا الذى نقفه الآن،

اذ يهرب كلانا من مواجهة الناس ! ··· ها هم الآن محتشدون فى الطريق ··· ولا مفر لنا من مواجهتهم ··· لم تبق فائدة من تحاشيهم ·· لقد وقعت الواقعة ، وسيكون الهلاك مصيرهم ان لم نعمل شيئا لاسعافهم ···

فقال الأب (جيلان) مغتبطا :

ـ يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام ··· لقد دنت الساعة ·· انى لم أحضر الى هذه البقعة هاربا ، بل جئت أسأل الله العون فيما هو أمامى من عمل ···

فما كاد الأب (روش) يسمع هذا الكلام حتى استحال غضبه الى خوف ، وقال بصوت خافت :

ـ وما هو هـــذا العمل ، ان صح لى أن أسألك ، بصفتى رئيسك الروحى ؟ ··

فهتف الأب (جيلان) قائلا :

ـ لقد حانت الساعة لنضرب ضربتنا ··· ان لم يكن بد من أن نموت، فلنمت ميتة الجندى ···

فهتف الأب (روش) وهو يترنح من فرط الانزعاج :

ـ هل عدت الى ترديد هذه النغمة من جديد ؟ ··· كنت أظنك شفيت من دائك ··· اذن أنت تريد الثورة ! ··· القوة والعنف ! ··· ألا توجد مادة فى (قانون الاصلاح) الذى أصدرته الحكومة ، تحتم الامتناع التام عن أعمال العنف كافة ، أو مخالفة القانون ؟ ألم ينص فى ذلك القانون ، فوق هذا كله ، على وجوب الولاء التام لمليكتنا المحبوبة ، صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ؟ ···

ولكن الأب (جيلان) صاح قائلا :

ـ لكن لا يوجد قانون سماوى أو وضعى ، يمنع المحروم من المحافظة على حياته اذا تعرضت للهلاك ··· انى قررت أن أحض الناس على المكافحة من أجل حقوقهم مهما تكن النتائج ···

فهتف به الأب (روش) :

ـ وبماذا يكافحون يا أبله ؟ ··· بأيديهم العزلاء ، ضد الأســـنة والحراب ! ·· انك لمجنون ··· انى أنهاك أن تحرك ساكنا أو تقول للناس شيئا ··· ولو عصيت فسأعمل على تجريدك من رداء الكنيسة ···

فوقف الأب (جيلان) منتصب القامة ، وجعل يحدج رئيسه بنظرات صارمة ، ولكنه ما لبث أن ثاب الى الهدوء ، فأطرق ، وتمتم قائلا :

ـ ربما كنت على حق ··· لكن اذا صح ذلك ؛ لكان هذا بدء النهاية بالنسبة للكنيسة ··· ان الكنيسة اذا لم تستطع حث أبنائها على الكفاح

فى سبيل العدالة والحرية ، فعليها أن تخلى مكانها لمن ينهضون بهـــذا الواجب ، ممن يعدون السيف أقدس سلاح للدفاع عن الحرية والعدالة ٠٠

ثم رفع الأب (جيلان) رأسه وهتف قائلا :

ـ بوسعنا على الاقل أن نطعم الناس ٠٠٠ ليس فى الدنيا قانون يمنعنا مـن مطالبة السلطات المسئولة بأن تفتح للنـاس مســتودعات المئونة والأطعمة ٠٠٠

فرد الأب (روش) قائلا :

ـ آسف يا (توم) اذ تسرعت فى كلامى لك ٠٠٠ ليس هذا وقت الجدال والشحناء ٠٠٠ هلم بنا لنقوم بما يمليه الواجب علينا ٠

وعاد الاثنان الى بيت الأب (روش) من الباب الخلفى ٠٠٠ فقابلتهما المشرفة على شئون البيت فى المطبخ ، وأخبرتهما أن ساحة الدار الأمامية غاصة بالأهلين الذين يطلبون القوت ٠٠٠ فقال لها الأب (روش) ٠

ـ اعطيهم كل ما فى البيت ٠٠٠ هيا بنا يا (توم) ٠٠٠

وفتح الاثنان الباب الأمامى ووقفا أمام الناس وجها لوجه ٠٠٠ فاذا ساحة البيت والطرقات المجاورة له قد غصت بجماهير الجياع ٠٠ وكانوا وقوفا صامتين حتى بدا لهم القسيسان ، وسرعان ما تعالت صيحاتهم بهذه الكلمات :

ـ ان الجوع هدنا أيها الأب ! ٠٠٠

فلم يتمالك الأب (روش) حين سمع هذه الصيحة المؤثرة الأليمة أن جرت دموعه فوق خديه ٠٠٠ وما لبث أن رفع يديه الى ما فوق رأسه قائلا:

ـ ان كل ما أملك هو لكم ! ٠٠٠ أوصيكم الآن بالصبر ، وسنرى ما يمكن أن نؤديه لكم ! ٠٠٠

وعند ذلك تقدم الأب (جيلان) الى الأمام وصاح فى الناس قائلا :

ـ سنحمل الحكومة على فتح مستودعات للطعام ! ٠٠٠

فهتفت الجماهير فى صوت واحد :

ـ بارك الله فى الأب (توم) !

الفصل الثالث والأربعون

عندما تكون الحكومة ترجمانا لارادة الشعب،فان آى خطر تستهدف له طبقة من طبقات المجتمع يحفز السلطات المسئولة الى العمل واتخـاذ الاجراءات الوقائية الكفيلة بدرء الخطر ٠٠ أما الحكومات المستبدة فانها لا تنشط الا للقيام بأعمال القمع والتنكيل ٠٠ وما لم تكن مصالح الطبقة الحاكمة فى هذه الحكومات المستبدة مهددة بالخطر ، فان اداة الحـكم تظل جامدة لاهية٠٠ فقد رأينا فيما تقدم منالفصول كيف تذرعت حكومة الاقطاع الانجليزية بالقوة الغاشمة عندما كانت مصـالح مالك الارض الانجليزى مهددة ، الى حد انها لم تتورع عن سلب الاهلين ما ملكت أيديهم ٠٠ ويبقى بعد ذلك أن نرى ما فعلته هـذه الحكومة الاستبداديه عندما نكب الاهلون المساكين ، بفعل القدر ، فى محصول البطاطس الذى زرعوه هذا العام ، وهو كل ما أبقت عليه يد الغصب والسلب الممثـلة فى (شادويك) وحلفائه رجال البوليس ٠٠

فانه بينما كان القسيسان يتقدمان الموكب الشعبى فى طريقهم الى دار المحكمة اذ تصدت لهم قوة كبيرة من رجال البوليس خرجت اليهم من ثكناتها شاكية السلاح بقيادة مفتش المنطقة الذى شهر سيفه بيده ٠٠٠ وقال المفتش حين صار على قيد خطوات من القسيسين :

ــ قفوا ! ٠٠ انى أمنع هؤلاء من التقدم ٠٠

فوقفت الجموع ٠٠ ووقف الأب (روش) ٠٠ أما الأب (جيلان) فظل يتقدم حتى اقترب من مفتش البوليس ٠٠ وما لبث أن هز قبضته فى وجه المفتش صائحا :

ــ لقد شبعنا من تهديداتك أيها القاتل المأجور !٠٠ لن تستطيـع أنت ولا غيرك أن تمنع هؤلاء الناس المساكين من طلب العدالة !٠٠

ثم اتجه القس الى الجماهير وصاح بأعلى صوته ملوحا بذراعيه :

ــ تقدموا يا رجال ! اخترقوا صفوفهم ! ٠٠ لتحى ارلندا ! ٠٠

والحق أن مفتش البوليس الذى أدهشته هذه الفورة تنحى جانبـا حين رأى اندفاع القس نحوه ٠٠ فجرى القس الى الامام وهو يصـيح ويهتف فى سورة الغضب التى ملكته دون أن يعترضه رجال البوليس٠٠ على أن هؤلاء ما لبثوا أن ضموا صفوفهم بمهارة بعد أن مر من بينهم ، حتى وجد نفسه معزولا عن الجماهير ، التى لم تحاول متابعته ٠٠ فقـد منعهم الأب (روش) من السـير فى أثر زميله ٠٠ والواقـع أنه ما كاد الأب

(جيلان) يصيح صيحته حتى استدار الأب (روش) وواجه الجمـــوع صارخا ملوحا بذراعيه يدعوها الى الوقوف ٠٠ فلما ارتدت الجموع الى الخلف استجابة له ، وكانوا فى قرارة نفوسهم يتمنون الابتعاد عن حراب رجال البوليس ، التفت الأب (روش) الى المفتش ، وقال له متلعثما :

ـ ما معنى هذا العمل من جانبكم ؟٠٠

فأجاب المفتش بقحة :

ـ ألا تعلم أن هـــذه المنطقة تحت الاحكام العرفية ٠٠ ان كافة الاجتماعات التى تعكر الامن محظورة ٠٠

ـ لكن هؤلاء الناس كانوا يريدون ٠٠٠

فقاطعه مفتش البوليس قائلا :

ـ ان زميلك القس قد بين لى بوضوح ما هى نواياهم٠٠لقد جاءتنى شكاوى من المستر (هاينز) أنهم كانوا ينوون الهجوم على متجره ٠٠٠

فهتف الأب (روش) قائلا :

ـ هذا كذب !٠٠ كل ما هناك أنهم كانوا يريدون طلب المعونةوفتح مستودعات الاطعمة ٠٠

فرد عليه مفتش البوليس قائلا :

ـ ليفعلوا هذا بوساطة ممثليهم أمام (لجنة المعونة) ٠٠٠ على هـــذه الجموع أن تنفض حالا ، والا فليحتملوا النتائج ! وانى أعدك مسئولا اذا تدخلت فى أعمال السلطات المختلفة فى أثناء القيام بواجباتها ٠٠ هل تعلم أن الطاعون تفشى فى (وادى جليناري) ، وأن هؤلاء الناس قد يكون بينهم من يحمل الوباء ؟ ٠٠

فصاح الأب (روش) وقد اشتد اضطرابه :

ـ الطاعون ؟ ٠٠ أى طاعون ؟ ٠٠٠

ـ قل لهم أن ينصرفوا ٠٠٠

ثم التفت المفتش الى الجموع قائلا :

ـ على كل منكم أن يعود الى بيته حالا ! ٠٠ وكل من يوجـــد فى الشارع بعد ساعة واحدة سيقبض عليه ! ٠٠٠ هيا انفضوا !

والتفت الى الأب مرة أخرى وأردف قائلا :

ـ قم بواجبك أيها الأب (روش) ٠٠٠ قل لهم أن يتفرقوا بهدوء ٠٠

فأطاع القس مذعنا مستسلما ، وأهاب بالناس أن يتفرقوا ٠٠٠ وقد انقضت برهة دون أن يتحرك أحد منهم ٠٠٠ ولكن ما كاد رجال البوليس يتقدمون نحوهم للهجوم عليهم بالحراب المثبتة فى بنادقهم حتى شـاعت الفوضى فى صفوفهم ، وأخذوا يتدافعون فى كل مكان ٠٠٠ فمنهم من راحوا

يركضون فى الازقة ، ومنهم من هربوا شطر الجبال ... وفى هذه الاثناء عاد الآب (جيلان) من بين صفوف رجال البوليس وجعل يجرى فى أثر الجماهير الهاربة صائحا :

ــ اثبتوا يا رجال ! ... انهم لن يجسروا على اطلاق النار ! ... ارجعوا ! ..

لكن أحدا لم يعبأ به ، حتى وقف أخيرا فى وسط الشارع يلهث ودموع الغيظ تنهمر على وجنتيه ... وما لبث الأب (روش) أن أسرع نحوه وهو يتوعده بقبضتيه ومفتش البوليس يبتسم تفكها من طرافة هذا المشهد على حين هتف الأب (روش) قائلا لزميله :

ــ سأشكوك الى الأسقف ! ..

فلم يزد الأب (جيلان) على أن نظر اليه قائلا :

ــ غفر الله لك ...

وسار مطرقا فى اتجاه مسكنه ... أما الأب (روش) فقد عاد أدراجه الى ناحية مفتش البوليس وتمتم قائلا :

ــ ها هم ذهبوا الآن ... فهل يرضيك هذا ... لكن أين يجدون الطعام ؟ ... لا يمكن أن يموتوا جوعا ... أنا لن أدعهم يموتون من الجوع .

فهز المفتش منكبيه وقال له :

ــ ان هذا من اختصاص (لجنة المعونة) ... أما عملى فهو حفظ الامن والنظام ...

فرد عليه القس قائلا :

ــ يا له من أسلوب بديع فى حفظ النظام ، بالحراب ! ...

ــ ان الحراب لم تكن هى المسئولة عن قتل مستر (شادويك) غيلة وغدرا ...

فصاح الأب (روش) فى المفتش قائلا :

ــ وماذا يهمنى من أمر (شادويك) ؟ ... لم لا تقبض على القاتل وتعاقبه ؟ ... ليس هذا عذرا يبرر اضطهاد الأبرياء ... انى سأشكوك بسبب هذه التصرفات ..

ــ لك أن تشكو ما شئت ... الى الأمام سر ..

وسار المفتش مع رجاله لتطهير القرية من كل تجمهر ... ولما صار القس وحده فى الطريق تملكه غضب شديد حتى راح يطبق قبضتيه ويدمدم قائلا :

ـ يا لهم من قتلة مأجورين ! ٠٠ ان الأب (جيلان) على حق ، وأنا المخطىء ، غفر الله لى ٠٠٠٠

وما لبث الأب (روش) أن راح يسير متباطئا فى اتجاه الفنـدق منكس الرأس ويداه خلف ظهره وهو صورة مؤسية للخزى والخذلان ٠٠٠ وقد أدرك فى سيره أن هذه الكارثة التى جعلت الشعب عاجزا مغلوبا على أمره تحت رحمة حكومة استبدادية غاشمة ، لم تكن الا بسبب سياســة (السلم بأى ثمن) التى طالما نادى هو بها ، يشاركه جميع القسس ورجال السياسة المشرفون على تنفيذ (قانون الاصلاح) ٠٠٠ ولو أن أبواق الحرب دوت منذ أقل من عام واحد ، لخف مليون ارلندى مسلحون بالروح الثورية المضطرمة ، لسحق رجال الاقطاع السلابين الذين يسومونهم الظلم والعسف ٠٠٠ لكن (اكونيل) ، زعيم المنادين بالثورة ، قد تنكر لمبادئه باعتناق سياسة المسالمة ، واعلان ولائه (للتاج البريطانى) ٠٠٠ بل ان الأساقفة ورجال الدين راحوا هم أيضا يحضون الشعب على انتهاج هذه السياسة السلمية ، والخضوع للقوانين الجائرة التى تملأ بطونهم وتغدق عليهم الاموال وتسكنهم القصور ٠٠٠ وكذلك درج كل من كانوا يتصدرون مكان القيادة والزعامة فى الشعب الارلندى على المناداة بوجوب المحافظة على حياة الناس ، وأنه ما من قضية مهما جل خطرها تساوى اراقة دم انسان واحد ٠٠٠ أما الآن ، فان هذه الدماء التى حرصوا عليها ، لن تلبث أن تتعفن فى الأجساد الهالكة من الجوع ، تلك الأجساد التى توشك أن تلقى ـ ثمنا للخنوع والتمسك الذليل بأهداب المسالمة ـ مصيرها المحتوم فى تواريخ الأمم والشعوب ٠٠٠

أجل ٠٠٠ لقد كان الجو فى كل مكان ينضح بروائح التعفن والفساد والهلاك المنتشرة فى جميع الارجاء ٠٠٠ فبين عشية وضحاها هبط البلاء من الوديان الجبلية الى ربوع القرية ، حتى استحالت الحدائق المتناثرة بين الدور الى رقاع سوداء ، وخيمت فى جو القرية علائم الصمت والوحشــة والوجوم ، ولم يسمع فى طرقاتها سوى وقع أقدام الجند وصيحات الهاربين عن بعد ٠٠٠ وقد أغلقت البيوت على أصحابها ، وبدت الوجوه من خلف النوافذ تتطلع وترقب ٠٠٠ فهل يصدق انسان أن هذه البقاع ذاتها ، قد شهدت من قبل (منقذ الشعب)، مكارثى لالور ، وقد وقف يوم السوق فى الخريف الماضى ، يخطب فى ساحة الكنيسة معلنا بين الناس ما انعقد عليه تصميم ممثلى الشعب لانقاذهم ودفع الكوارث عنهم ؟ ٠ ٠

وبلغ الأب (روش) الفندق أخيرا ٠٠٠ فشاهد (جون هاينز) مجتمعا فى البهو مع نفر من الناس وهم يتحدثون باهتمام ... ولكنهم أمسكوا عن الحديث لدى قدوم القس ٠ الذى اتجه الى (هاينز) وقال له غاضبا :

ـ ماذا جرى ؟ ٠٠٠ لماذا شكوت الى البوليس ؟ ٠٠

فأجاب (هاينز) قائلا :

ـ لأنهم جاءوا يهددوننى فى متجرى ٠٠٠ فكان لابد أن أطلب النجدة ، والا مزقونى اربا ٠٠ يهددوننى فى متجرى ؟ ٠٠٠

كان الرجل يتكلم بصلف وغطرسة ·· فان المجاعة جعلت منه رجلا ·· بل انه لم يعد يخشى حتى القس ، وكان من قبل ينظر اليه نظرة العبد الى السيد ···

وقد رد عليه القس قائلا :

ــ كان بامكانك الحضور الى ·· ولم تكن هناك ضرورة لكى تذهب الى البوليس ·· انظر ماالذى فعلوه ! ·· لقد سددوا حرابهم الى الصدور ··· وسيكون من الصعب مطالبة الحكومة بالعمل اذا اعتبرتنا عصابة من الغوغاء ··

فقال (هاينز) :

ــ ان باب العمل كثير منوع ، ولكن المهم هو نوع العمل الملائم لاحتياجاتنا ···

ونظر (هاينز) الى الموجودين لتعزيز وجهة نظره وهم من موظفى الحكومة العاملين فى شئون المعونة ، وكانوا يقيمون عنده فى الفندق ·· فلم يخيبوا ظنه ؛ وهزوا رءوسهم موافقة وتأييدا وهم يكرهون الحركات الوطنية المضادة لمصالحهم · والواقع أن الاب (روش) ما لبث ان استكان أمام هذا الجمع وهو الرجل الضعيف الشخصيه الذى يتأثر بما حوله ، فقال لهاينز مترفقا :

ــ لكن ما الذى حدث ؟ ··

ــ سأخبرك أيها الأب ·· أدخل أولا واجلس ···

فتبعه القس الى غرفة صغيرة ، وجاء الباقون معهما ··· وبعد أن جلس القس جعل (هاينز) يقول محتدا :

ــ هناك أناس هم لعنة على أنفسهم وعلى جيرانهم ! ·· من هو مصدر جميع المتاعب التى حلت بالاقليم ؟·· من هو أكبر المهيجين المحرضين بيننا؟ ·· انه (جليسون) النساج ، ذلك الذى حكم عليه بالنفى الى استراليا بعد أن حاول قتل أحد رجال البوليس بحربته · من هى التى أساءت الى سمعة القصر ، ولطخت أسماء الناس بالوحل ، بالفضائح التى نشرتها ؟ ·· هى ابنة (جليسون) التى ذهبت الآن الى حيث لا يعلم انسان ··· من الذى قتل مستر (شادويك) رحمة الله عليه ، وقد كان مدينا لى بأموال لن تسدد أبدا ؟ ·· هو ابن (جليسون) ، الذى أصبح الآن فى عداد الأموات ، بالاشتراك مع زوج (مارى) ابنة (جليسون) الثانية ، ذلك الزوج الذى هرب بين الجبال ، ووضعت السلطات ثمنا لرأسه ·· هؤلاء الناس هم سبب جميع المتاعب التى تعرضنا لها ، من شغب واعلان للأحكام العرفية ، واستيلاء على مواشى الأهلين ، مما ضيع على كل فرصة لاسترداد الديون التى هم مدينون لى بها !·· والأسوأ من هذا أن (مارى كليمارتن) هذه جاءتنى اليوم يصحبها (تومسى) السكير و (بريان) العجوز ، فى مظاهرة لم يسبق لها مثيل ··· ان (بريان) العجوز كان طول حياته رجلا

طيبا ، حتى دخلت هذه المرأة بينه ، فاصبح الآن في شيخوخته لا يقل عنها سوءا ٠٠ نعم ! ٠٠ لقد جاءني الثلاثة يجرون وراءهم جمعا من الناس، وكانت تلك المرأة تتكلم في الناس وتهيج خواطرهم ، كما كان يفعل أبوها من قبل ٠٠٠ ولما دخلت الى المتجر وقفت أمام الحاجز وقالت لى :

« ان بيع القمح الأصفر بثلاث شلنات للكيل الواحد هو لصوصية »٠

ووقف (بريان) العجوز بجانبها متحفزا يطل الشرر من عينيه ٠٠٠ ولما قلت لها كيف يمكن بيع القمح بثمن أقل ، وابنى يستورده من الخارج ثم ينقله من الميناء بنفقات اضافية ، صمت أذنيها ولم تهتم بكلامى ٠٠٠ وبعد هذا بدأ صياحهم ضدى ، فذهبت الى الباب الخلفى متظاهرا بأنى سأحضر لهم القمح من المخزن ، ومن هناك أسرعت الى الثكنات واستنجدت بالبوليس ٠٠٠ فهل أخطأت أم أنا على حق ؟ ٠٠

والتفت الرجل الى سامعيه يطلب تأييدهم لكلامه ٠٠ وهنا نهض الأب (روش) قائلا :

ـ لكن هل هى هددتك ؟ ٠٠٠ هل كان كل ما قالته لك ان سعر القمح مرتفع جدا ؟ ٠٠ كيف كان تهديدها لك ؟

ـ تهديدها لى ؟ ٠٠٠ أيها الأب (روش) ٠٠٠ ألست رجلا شريفا ؟ ٠٠٠ ألم أكافح طول حياتى لتكوين نفسى ؟ هل آذيت يوما أحد جيرانى ؟ ٠٠٠٠ هل قصرت مرة فى اتمام واجباتى الدينية ؟ ٠٠

فأجاب الأب (روش) :

ـ كلا يا (جون) ٠٠٠ لكنك برغم هذا لم تكن محقــا فى استدعاء البوليس ٠٠٠ كان عليك أن تحضر الى ٠٠٠

فتبرع بالجواب (سيمز) كاتب الصحة ، وهو رجل قصير مدلى الشارب ، من أبناء المذهب البروتستانتى ، اذ قال للقس :

ـ ان المتجمهرين كانوا فى حالة هياج ٠٠٠ ومن المحتمل أن الطاعون هو سبب هياجهم ٠٠٠ ان الطاعون حل هنا يا مستر (روش) ٠٠٠

فاهتاج الأب (روش) اذ وجد من يناديه بغير لقبه الدينى ، واذ رأى هذا (البروتستانتى) يتحيز فى مسألة لاتعنى الا الكاثوليك وحدهم ٠٠ فهل بلغت الامور هذا الحد ؟ ٠٠٠ ها هو ذا الشعب قد أصبح هدفا لحراب رجال البوليس ، ومع ذلك فقد سمح هو لنفسه أن يتناقش مع مؤيدى الحكومة الانجليزية ٠٠٠ وكذلك صاح القس مهتاجا :

ـ أى طاعون ؟ ٠٠٠

فأجاب كاتب الصحة وهو يفتل شاربه :

ـ هناك امرأة عجوز توفيت بالطاعون ٠٠٠ ان الطاعون ظهر فى (وادى جليناري) يا مستر (روش) ما فى هذا شك ٠٠٠ وسأذهب الى هناك حالا يستتب النظام ٠٠

فجعل (جون هاينز) يقول وهو يؤكد كلامه بحركات يده :

ـ لن يستتب النظام الا اذا قبض على جميع المهيجين وأودعوا السجن

وعندئذ قاطعه صوت لدى الباب يقول صاحبه :

ـ لى معك كلمة يا أبى ٠٠٠

فتطلع الجميع فى دهشة الى مصدر الصوت ، فرأوا الطبيب واقفا فى مدخل الغرفة وقد اشتد احمرار وجهه وبان الغضب فى عينيه الضيقتين ٠٠ فقال له الأب (روش) :

ـ أتقصدنى أنا ؟

فأجاب الطبيب قائلا :

ـ نعم ٠٠٠ ان لى كلمة معك أنت أيها الأب (روش) . لكننى اريد أن أكلم أبى فى مسأله معينة ٠٠٠

فما كاد (جون هاينز) يسمع صوت ولده حتى بدت عليه الاستكانة وما لبث أن تبع الأب (روش) الى غرفة الجلوس فى أثر ولده بين تغامز الحاضرين ٠٠ ولما حاولت مسز (هاينز) أن تلحق بهم رفع الطبيب يده يمنعها من الدخول ، ثم أغلق الباب والتفت الى القس قائلا :

ـ يسرنى أنك حاضر معنا ٠٠ انى لاأريد أن أبقى بعد الآن مسئولا ولو جزئيا عن تصرفات والدى ، وأود أن تكون شاهدا ٠

فقال (هاينز) :

ـ ماهذا ؟ ٠٠ ماذا تقول ؟

فقال الطبيب :

ـ أقول انك لص نهاب !

فقال الأب (روش) وهو يقف بينهما رافعا يديه :

ـ رفقا يابنى ، ولا تستسلم للغضب ٠٠٠ ماالذى يضايقك ؟

فأشار الطبيب الى أبيه بسبابته وهتف بصوت أجش :

ـ انه رفض أن يعطيهم الطعام بالأجل ٠٠٠ انه فضـــل أن يراهم يموتون من الجوع ، على أن يعطيهم حبة واحدة من القمح الاصفر بالاجل ٠

فقال (هاينز) لولده :

ـ من المؤكد يابنى انى ماكنت أستطيع أن ٠٠٠

وعندئذ واجه القس (هاينز) قائلا :

ـ هذه هى الحقيقة اذن ! ٠٠ هل جاءوك يطلبون منك اعطاءهم القمح بالاجل ؟ ٠٠ لقد أخبرتنى أنهم ٠٠٠

فأجاب (هاينز) وهو يتراجع حتى التصق بحافة الخوان وعينـــاه الماكرتان تقدحان شررا :

– أليس هذا شبيها باعطائهم القمح دون مقابل؟ •• هل كان ينتظران يسددوا لى الثمن ؟ •• وهل بقى لهم شىء يستعينون به فى الدفع ؟

فقال الطبيب :

– ان كل ماتملك الآن قد أخذناه منهم ، كما قال الأب (جيلان) •• ان نقودهم هى التى •••

فقال (هاينز) مزمجرا :

– أنت اذن تقف ضد أبيك ، أنا الذى أفنيت عمرى فى تربيتك ، حتى أصبحت طبيبا ؟

فقال له الأب (روش) :

– مهلا يا (جون) •• ألا يمكنك أن تعطيهم القمح بالأجـــل حتى تتحسن الأحوال ؟

فصاح (هاينز) قائلا :

– ومتى تتحسن أحوال هؤلاء الصعاليك ؟ •• ومن أين لهم النقود التى يدفعون بها ماعليهم ؟

فأجاب الأب (روش) قائلا :

– ان الحكومة ستمنح قرضا آخر لاعمال المعونة •• لابد لها من هذا ومن صالحك أن تعطيهم بالأجل •• والا فستضطر الحكومة الى فتح مستودعات عمومية للتموين •

فصاح (هاينز) قائلا :

– لايمكن أن تفعل الحكومة شيئا كهذا •• هناك قانون يجرم فتح هذه المستودعات مادام يوجد تجار قادرون على سد احتياجات الناس •• ان القانون لايمكن أن يتركنى أجازف بأموالى لاستيراد القمح ، ثم يحفر الأرض من تحت قدمى ••

فقال له الأب (روش) :

– انك لاتتكلم كما يتكلم الكاثوليكى المؤمن ••

فصاح (هاينز) وهو يعزز كلامه بحركات يده :

– انها أموالى ••• أموالى التى جمعتها درهما فوق درهم على مدار السنين على حين كان العاطلون الذين يطلبون الآن القمح منى بالأجـــل ، يرجموننى بالحجارة •• والآن يجىء ابنى الذى هو من دمى ولحمى ليقول انى بخيل ! ••

فهتف به الطبيب قائلا :

– وهذه هى حقيقتك •• بخيل بالثلث ! •• انى أكرهك أيهـــا

العجوز الفظيع ! أكرهك كل الكره ٠٠ لقد انتهى كل مابينى وبينك ! ٠٠ سأترك بيتك ! ٠٠ انى لن أكون مسئولا عن ٠٠٠

وارتج عليه ، فتلعثم من فرط الغضب ٠٠ وما لبث أن صاح فى أبيه وهو يهز يديه فى وجهه :

ـ انى أكرهك !

واســـــتدار للخروج ٠٠٠ فاندفع (هاينز) فى أثره وتعلق بذيل سترته وهو يقول بصوته الشبيه بالعويل :

ـ مهلا يابنى ٠٠ الى أين تذهب ؟

فواجهه الطبيب وقال بصوت كالفحيح :

ـ اننى سأغادر هذا البيت ٠٠ انى سأبحث عن سكن فى مكان آخر لاأشعر فيه بالخجل من نفسى ! ٠

فقال له الأب (روش) :

ـ لايمكن أن تفعل شيئا كهذا ٠٠ هذا وقت لابد أن نتعاون فيه معا وأنت يا (جون) ٠٠ كن معقولا ٠٠ ان اعطاء القمح بالأجل لن يؤدى بك الى الافلاس ٠٠ انك لم تكن محقا فى استدعاء البوليس ٠٠ ان الحكومة ستتدخل حتما ٠٠ وعلينا نحن أن ٠٠٠

وفى هذه اللحظة ارتفعت من ناحية البهو ضحكة عالية ، وأعقبها طرق على الباب ، وصوت يقول :

ـ هل الأب (روش) فى الداخل ؟

فدعا القس المتكلم الى الدخول ٠٠ فدخل مستر كرامتـــون وهو صورة مجسمة للصحة والنعمة ، وقد شقت وجنتيه الموردتين أســارير ابتسامة قوية ، وخالط العرق رأسه الأصلع ٠٠ بل انه بدا الآن أوفر سمنة مما كان عند مازار (شادويك) فى القصر ٠٠ وقال يخاطبهم :

ـ طاب يومكم أيها السادة ٠٠ هل تطفلت عليكم وانتم فى اجتماع خاص ؟ ٠٠ ألف معذرة ٠٠ طاب نهارك يامستر (هاينز)٠٠ وانت يادكتور قل لى أيها الاب (روش) ، أيمكن أن أحدثك برهة ؟٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ليس حديثى خاصا ٠٠ أحب أن أقول انى استمتعت باقامتى هنا ٠٠ان بلادكم مدهشة ٠٠ وربما جاز لى أن اعتبر أن زيارتى كانت مثمرة ٠٠ ان فكرة التنظيم الاجتماعى مبدأ ســــليم ، كما يقول السياسيون ، وان كنت لاأجاريهم فى براعة الكلام ! ٠٠ الحقيقة أيها الأب (روش) أننا سنصفى أعمالنا هنا ٠٠ فقد نفدت الاعتمادات المالية من البنك ٠٠ ويؤسفنى أن أفارق بلادكم بعد استمتاعى بالاقامة فيها هذه الفترة ٠

فقال (هاينز) :

ـ ماذا تقول ياسيدى ؟

أما الاب (روش) فقد شحب وجهه وهو يقول :

ـ هل معنى هذا ...

فقاطعه (كرامتون) قائلا وهو يفرك كفيه ويستند الى عقبيه :

ـ لقد انتهت أعمال المعونة .. ان الحكومة رأت لمناسبة قرب جمع المحصول ان استبقاء العمال فى أشغال المعونة فى الوقت الذى تحتاج فيه المزارع اليهم ..

وفي الحق أن الطبيب شعر وهو يسمع هذا الكلام الغريب برغبة قوية في الضحك ، ولذلك دس منديلا فى فمه وأسرع الى جوار المدفأة ، على حين اقترب القس من (كرامتون) وقال له مضطربا متلعثما :

ـ تعني ... أنهم ... أنهم سيوقفون ... سيوقفون أعمال المعونة ؟

وقال (هاينز) :

ـ يوقفون أعمال المعونة ؟ .. وماذا يكون حالى؟ .. ان عندى مقادير كبيرة من القمح كانت ...

فقال (كرامتون) :

ـ لن توقف الاعمال حالا .. هناك أسبوع أو أسبوعان .. لكن يظهر أن اللجنة المحلية قد جاوزت ماكان مرسوما لها .. اللهم الا اذا استطاعت اللجنة الموقرة أن تحصل على قرض من البنوك للاستمرار فى الأعمال ، بضمان الأحجار المكدسة !.. فهناك جبال منها تخلفت عن الأعمال ، وهي تصلح لشق الطرق و ... هاهاها !

وهنا لم يستطع الطبيب صبرا .. فقد هرول خارجا من الغرفة والقس يقول :

ـ لكن الم يعلموا بأمر الآفة التى أتلفت المحصول ؟

فقال (كرامتون) :

ـ ان هذه مجرد إصابة محلية .. ويمكن القول انها تخلفت من العام الماضى ... أما سائر الأقليم .

وابتعد الطبيب قبل أن يسمع تتمة الكلام .. فلحق به (سيمز) كاتب الصحة وقال له :

ـ يمكننا الآن أن نذهب ...

فوقف الطبيب وتطلع الى (سيمز) قائلا :

ـ فيم تتكلم ؟ .. والى أين نذهب ؟ .

ـ الى بيت المرأة العجوز ·· المصـــابة بالطـــــاعون ·· فى وادى (جليناري) ··

ـ آه ! ·· نعم ··· الطاعون ·

وسرعان مانلاشتمن نفسه كل رغبة في الضحك، وتفجرت الدموع في عينيه ، وشعر بقشعريرة باردة تسرى فى ظهره ·· وما لبث أن غادر الفندق مع كاتب الصحة ·· فرأى مركبة شادويك لدى الباب بعــد انتقال ملكيتها الى (كرامتون) ·· ولمح القس البروتســـتاني (كوبرن) يهرول آتيا من ناحية المحكمة وهو يلوح بيديه الى ناحيته ·· ولكنالطبيب راغ من خلف المركبة وسارع بالابتعاد فى الناحية الأخرى وقد انتابتــه كراهية مفاجئة لبنى الانسان جميعا بلا استثناء ·

الفصل الخامس والأربعون

قال (تومسى) لاهله وهم فى البيت :

ـ اذن لم نستفد شيئا يذكر من رحلتنا الى القرية ؟

فردت عليه (مارى) قائلة :

ـ ألا يعتبر فخذ اللحم المقدد شيئا يذكر ؟ . هذا بجانب اخبار (عاينز) البخيل رأيى فيه بصراحة ..

فقال (بريان) العجوز :

ـ لم يخطر ببالى أن الأمر سيصل بى الى حد أكل طعام مسروق تحت سقف بيتى .

وكان هذا الحديث يدور بين أفراد أسرة (كيلمارتن) وهم جلوس يتناولون طعامهم المسروق .. فان (مارى) ذهبت حقا الى متجر (عاينز) بصحبة العجوز و (تومسى) وجمع من الأهلين غاظهم عدم انعقاد (لجنة المعونة) فى ذلك اليوم والواقع أن (مارى) أفزعت (هاينز) حين وصفته بالبخل وطلبت أن يعطيها القوت بالأجل .. وعندما ذهب العجوز الى مخزنه خلف المتجر تسللت (مارى) بجانب الحائط الى حيث علق فخذ لحم مقدد ، وانتهزت فرصة الهرج الذى ساد عندما أخذ الناس يهتفون ضد (هاينز) فأخذت الفخذ ودستها تحت حرملتها دون أن يراها أحد .. وعلى أثر ذلك انسلت عائدة الى باب المتجر . وكانت فى طليعة الهاربين عند ظهور رجال البوليس فى ثكناتهم .. وقد أفلح ثلاثتهم فى العودة الى البيت بطريق المسالك الجبلية ، حيث جلسوا يأكلون جانبا من لحم الفخذ مع البطاطس الباقى من الفطور ..

ولم تلبث (مارى) أن ردت بغلظة على كلام العجوز ، قائلة

ـ أنا لم أسرق هذا اللحم .. انى أخذته .. من حق الانسان أن يأخذ مايلزم لبقائه على قيد الحياة .. لابد لى من اطعام المولود الذى وهبه الله لى ..

فقال (تومسى) :

ـ سواء كان اللحم مسروقا أو لم يكن ، فهو لذيذ الطعم .

وقالت (ماجى) :

ـ صحيح .. ومع ذلك فان السرقة حرام .. ولو عرفوا يا (مارى) مافعلت لكان موقفك صعبا .

فقالت (ماري) لهم جميعا :

ـ اسكتوا ... ألا تأكلون كلكم هذا اللحم ؟ .. لايمكنكم أن تأكلوا وتنتقدوا في الوقت نفسه .. ولو سنحت لي فرصة أخرى لفعلت هـذا مرة ثانية .. انني لن أعرض نفسي ولا طفلي للموت جوعا مادام لي يدان كلوا وأسرعوا قبل أن يجيئنا أحد .

والحق أنهم جعلوا يأكلون وكأن هذه أكلتهم الأخيرة ، أو كأن هناك عدوا يوشك أن ينقض عليهم لانتزاع اللقمة من أفواههم .. وكانت رائحة اللحم المسلوق تفوح من ارجاء البيت .. وكانت رائحة غير مألوفة الى حد أن القط تجاسر على الاقتراب من البيت طمعا في بعض الغنم.. وكان الكلب يلعق عظمة الفخذ لدى الباب الخلفي ، ولما عطش جاء يبحث عن ماء في ساحة البيت ، ففر القط لدى مقدمه .. وبعد برهة سمعوا الكلب ينبح فقالت (ماري) :

ـ أسرعوا .. هناك شخص قادم .. لابد من اخفاء اللحم !

ووثبت (ماري) قائمة وأمسكت الصحفة .. فاختطف (تومسي) آخر قطعة من اللحم ، وتناول العجوز قطعة بطاطس حتى لم يبق شيء في الصحفة .. وهرعت (ماري) الى غرفة النوم الصغرى حين جاءت (سالي أوهانلون) على الأثر .. فخرجت (ماري) ثانية وقالت وهي تضع يدها على قلبها :

ـ هي (سالي) .. انك أفزعتنا يا (سالي) ..

فجعل العجوز يشير الى (ماري) من وراء (سالي) لكيلا تخبر الزائرة بأمر اللحم .. ولكن (ماري) ضحكت .. ولم تلبث (سالي) أن حملقت فيهم قائلة وهي تتشمم الجو :

ـ ماهذه الرائحة ؟ .. أليست رائحة لحم ؟

فأجابت (ماري) قائلة :

ـ صدقت يا (سالي) .. وستأخذين منه نصيبك .. انه هدية جاءتني من ابنة عمي (جوليا) في ليفربول .

فقالت (سالي) :

ـ هنيئا لك ببنت عمك ! .. أما انا فليس لي بنت عم تهـديني شيئا ..

وجلست (سالي) القرفصاء قرب الباب ورفعت ذيل ثوبهـا فوق رأسها وأخذت في العويل .. فدهشوا جميعا اذلم يسبق أن رأوهـا تبكي .. ولذلك خفت (ماري) الى جانبها قائلة :

ـ ماذا جرى يا (سالي)؟ .. ما الذي يحزنك؟ .. هل حدث لباتسي شيء ؟ ..

فأنزلت (سالي) ثوبها وقالت بصوت حزين :

ــ انهم استغنوا عن (باتسي) ٠٠ وسيكون مصيرنا الموت جوعا ٠٠ ان الطاعون هنا ، وقد أصبح الانسان يرحب به ! ٠٠ كان (باتسي) يقاسي الويل وهو يشتغل في عملية حفر التل وبطنه خالية ٠٠ لكن المسكين كان يحتمل كل هذا لاطعام أطفاله ٠٠ لقد جاءهـــم مستر (كرامتون) اليوم واستغنى عن حوالى عشرين من العمال ٠٠ وسيطرد الباقون في الاسبوع القادم بعد انتهاء الاموال المخصصة للأشغال ٠٠ قل لى أيها العجوز ٠٠ كيف يرضي الاله في السماء أن يمنع عنهم الصواعق والرعود وهم ينزلون بنا هذه المصائب ؟

وجعلت المتكودة تتمايل من الحزن والدموع تجرى على وجههـــا المغضن ٠٠ فجاءت (ماجى) ومسز (جليسون) الى جانبها لمواساتها ، على حين أسرعت (مارى) الى غرفتها ومعها السكين فاقتطعت قطعة من اللحم المسروق وعادت بها الى (سالى) قائلة :

ــ خذى هذه يا (سالى) ولا تيأسى ٠٠ انك كنت دائما تشجعيننا فى أحزاننا ، فكيف يكون هذا حالك الآن ؟ ٠٠ ان هذه القطعة صغيرة ، لكنها ستساعد ٠٠ وقد حصلنا عليها بالطريقة التى حصلت بها أنت على اللبن الذى أخذته منك منذ فترة ٠٠ اضحكى يا (سالى) ، ودعينا نقابل ماينتظرنا بابتسامة !

وضحكت (مارى) وهى راكعة امام (سالى) ضحكة عالية ، لـــكن الدموع ترقرقت فى عينيها ، وتهدج صوتها ٠٠ فأخذت (سالى) قطعةاللحم ثم طوقت (مارى) بساعديها واختلطت دموعهما ٠

وقالت (سالى) وهى تنظر الى الهدية التى ظفرت بها :

ــ انها ستساعدنا كثيرا ٠٠ لقد بقى عندنا قليل من القمح ، وسندبر أمرنا بالأجر المتـــأخر لباتسى ، حتى يأتى الله بالفرج ٠٠ انك على حق يا (مارى) ٠٠ من الآن ستكون لهاتين اليدين اللتين خلقهما الله لى خفـــة مخالب القط ٠٠

فقالت (مارى) وهى تنهض قائمة :

ــ هذا هو الكلام الصحيح يا (سالى) ٠٠ أنت دائما شجاعة يستفاد من خبرتك ٠٠ ما رأيك فى أحسن خطة يتبعها الانسان فى ظروفنا هذه ؟

ــ فيما يختص بنا فاننا سنرحل حالما يصل (باتسى) ويحصل على باقى أجوره المتأخرة ٠٠ لم يبق هنا خير ٠٠ ولن يكون هـــذا الخـــير فى المستقبل ٠

فقال العجوز مغضبا :

ــ ترحلون ؟ ٠٠ وماذا ينفعكم الرحيل والطرقات مزدحمة بالنـــاس الجياع ؟

ــ ربما استطعنا الوصول الى (دبلن) قبل حلول الشتاء ٠

فقالت (مارى) :

ـ ربما كنت على حق يا (سالى) ·· ولولا أن (مارتن) ···

فصاح العجوز محتجا وهو يضرب الأرض بقدمه تأكيدا لكلامه :

ـ دعى هذا الكلام ·· منذ ساعات كنت تتكلمين عن الكفاح والمقاومة والآن تعودين الى حديث الهرب والرحيل ! ·· لابد من بقائك فى هــذه الارض ·· انك تزوجت فى هذا البيت وفى هذه الارض·· ولقد ولد لك ولد فيهما ·· وما دامت الارض باقية والسقف قائما، فان الله يحرم عليك هذا الرحيل ! ···

فقالت له (مارى) :

ـ لا تصدع آذاننا بصراخك ·· لم يرحل أحد بعد ··

فقال العجوز :

ـ ولن يرحل أحد ·· سأمنع كل حركة كهذه ! ··

ولم تلبث (سالى) أن نهضت قائلة :

ـ قد تضطرون قريبا الى الرحيل ·· لقد سمعت أن هناك وكيــلا جديدا للمالك سيحل محل (شادويك) ·· ولا شك أنه سيعمل على طرد المتخلفين عن دفع ايجار الأرض ··

فنظر اليها العجوز منعقد اللسان عاجزا عن الجواب ·· على حين قال (تومسى) :

ـ صدقت يا (سالى) ·· ألم نشاهدهم اليوم وهم يقابلون الناس بالحراب ؟ ·· انهم لا يريدون سوى خراب ارلندا ··

فصاح العجوز قائلا وهو يتجه الى الباب :

ـ أنا لا أعترف بما يقولون ·· اننى باق فى أرضى لا أتحرك منها··

ثم أردف قائلا وهو يهدد الفضاء بقبضتيه :

ـ لن يدخلوا هذا البيت الا وأنا جثة هامدة ! ··

وخرج العجوز الى الفضاء الفسيح يطلب متنفسا لضيق صدره يتبعه الكلب الذى راح يتواثب حوله فرحا ·· واستقر بهما المطاف عند ربوة فى سفح الجبل حيث جلس العجوز فى بقعة معشوشبة مستندا بظهره الى صخرة شاهقة من الجرانيت وقد شبك ذراعيه فوق صدره ، وراح يشرف من مكانه على الوادى فى هدأة الغسق والظلام يهبط على الأرض ··

لقد ألفى السكون شاملا مطبقا لايخالطه حتى زقزقة العصافير ولا أصوات الأطفال فى لعبهم المعهود وقت انصرام النهار ·· كان السكون تاما حتى لكأنه عالم الأموات ·· وحتى النهر الذى تناقصت مياهه فى الصيف أمسى ساكنا ·· لقد جمدت الحياة وانقطع دبيبها فى كل ما حوله··وجاءت

ظلمة الليل بغلالة سوداء أخـذت تهبط من أعالى الجبال الى بطن الوادى وكأنها تؤذن بادماج حياة ساكنيه فى أطواء الفناء الأبدى ..

وجعل الكلب يدور حول العجوز حينا وهو يتشمم الأرض ، حتى اذا لم يجد رائحة جديدة ولا أثرا للحياة عاد الى سيده فوضع فمه عـلى ركبته وتطلع اليه .. وكان العجـــوز اذ ذاك قد جلس ضاما ركبتيه الى صدره مسندا ذقنه الى يده وقد أخذت الدموع تسيل على وجهه فى سكون وهز الكلب ذيله وزمجر قليلا ليسترعى اليه نظر سيده .. لكن العجوز لم يحفل به ، فقد جمد فى مكانه جمود الموت من حوله ، مستسلما للبكاء فى سفح الجبل ..

وعندئذ رفع الكلب رأسه وجعل ينبح نباحا أقرب الى العواء ...

الفصل الرابع والأربعون

استقر عزم (ماری) تلك الليلة وهى راقدة فى فراشها مستيقظة تفكر في حوادث النهـــار ، على الهرب من الوادى مع طفلها بأقرب وقت ممكن ٠٠ فقد باتت مقتنعة بأن الحكومة الانجليزية ستدع الناس يموتون جوعا ٠٠ لكن كيف يمكنها الوصول الى (مارتن) واصطحابه معهــا هى و (ميخائيل) الصغير الى أمريكا ؟٠٠ لو أنها ذهبت بنفسها اليه فى المخبأ لتبعها رجال البوليس ، وهم لايزالون جادين فى البحث عنه ٠٠ وحتى لو أفلحت في الانضمام اليه ، فان الموانى تحت المراقبة ، وليس لديهم نقود لدفع أجرة السفر بالسفينة ٠٠

ومع ذلك فان مجرد التفكير فى الهرب قد شجعها على أن تعد هــذا الهرب شيئا ممكنا ٠٠٠ والواقع أن استقرار الانسان على رأى ما دائما عون كبير فى الأزمات ٠٠٠ ثم ان (ماری) لم تلبث أن تذكرت تلك الرؤيا التى تراءت لها ليلة أن أصيب شقيق (مارتن) بالمرض ٠٠ فقد تراءى لهـــا ملاكها الحارس في المنام وأخذها الى سفينة كبيرة ذات أشرعة بيضاء أقلتهما الى أرض خصبة غنية بالخيرات تنمو فيها ســنابل القمح الى ما فوق قامة الانسان ، وقال لها :

ـ أنت فى أمريكا ٠٠٠ فاتخذى فيها مقامك على بركة الله ٠

فالآن باتت (مارى) مقتنعـــة بأن الملاك قد تكهن بهـــذه المجـاعة وبالأحداث المروعة التى جعلت من زوجها قاتلا يطارده رجال البوليس ٠٠ واذن فلا بد أن يكون الملاك معينا لها فى الهرب ٠

وكان هذا الاقتناع شديد التأثير فى نفس (مارى) الى حد أنها لم تستطع لزوم الفراش ٠ وهكذا نهضت ورفعت الطفل من مهدهوذهبت بهالى النافذة حيث أزاحت الستارة وجعلت تنظر الى وجهه الصغير فى ضـــوء القمر الشاحب ٠٠ يا له من طفل عزيز ! ٠٠ فقد كان قويا مليئا برغم سوء التغذية ٠٠ وكانت الطبيعة مترفقة رحيمة بهذا المخلوق الصغير مع أنها فتكت بالأرض التى منها طعامه وقد بدا الآن فى مثل حجم طفل فى شهره السادس ٠

وبعد أن وقفت (مارى) تحنو على طفلها برهة ردته الى مهدهثم عادت الى فراشها واستغرقت فى نوم عميق ، فان القرار الذى انتهت اليه أدخل السكينة على قلبها ٠٠

واستيقظت (مارى) عند بزوغ الفجر ٠٠ فارتدت ملابسها مسرعة وذهبت الى المطبخ وصعدت الى الغرفة العلوية حيث ينام (تومسى) ٠٠٠

ولما كانت الغرفة مظلمة فقد جعلت تتلمس ما حولها حتى وجدت فراش (تومسى) على الأرض ، فهزته ، ثم قالت همسا وقد وضعت يدها على فمه اذ أوشك أن يصرخ فزعا :

ـ أسكت !·· لاتدع العجوز يسمعك !·· أريد أن تقوم بخدمة لى ·

فرد (تومسى) همسا بدوره :

ـ أأنت (مارى) ؟ ماذا بك يا (مارى) ؟

ـ اصغ الى يا عزيزى ··· قم واصنع هذا المعروف من أجلى ·

ـ هل نحن بالليل أم بالنهار ؟ ·· ماذا تريدين أن أفعل ؟

ـ أريد أن تأخذ رسالة الى (مارتن) ··

ـ الى (مارتن) ؟ لكن ···

ـ هل تفعل هذا أو لا تفعله ؟

ـ سأفعل ولا شك ··· لكن هل نسيت أن (مارتن) وزملاءه طلبوا منا ألا نحاول الوصول اليهم ، خوفا من اهتداء البوليس الى مكانهم ؟ ··

ـ أعرف هذا ·· لكن لا بد من المحاولة بسبب تغير الظروف ··· وعلى أى حال فانهم لن يفطنوا اليك فى زحمة الجياع الذين يملأون الطرقات ذهابا وايابا ·· ولا بد لى من الاتصال بمارتن ومخاطبته لكى ·· لابأس·· بالطريقة التى رتبتها لن يكون هناك خطر من متابعة رجال البوليس لك·· ان آخر المعلومات عن (مارتن) واخوانه تقول انهم فى جزيرة (انيشمجولا) وهى تبعد ثلاثين ميلا الى الغرب من (كلوجر) بالطريق الساحلى ·· واذا سرت من هنا شمالا بين الجبال حتى (كلاشكام) ثم الى الغرب مبتعدا عن القرى الموجودة فى الطريق ، فلن يراك أحد ·· وبعد ذلك يمكنك الهبوط الى الشاطىء حيث تبحث عن شخص مأمون ينقلك فى قارب الى الجزيرة ·

فقال (تومسى) متبرما :

ـ انها ستكون رحلة متعبة ، مع بطن خالية ·· وربما أجدهم بعد ذلك قد تركوا مكانهم بسبب مطاردة البوليس لهم ··

ـ اذا فعلوا ذلك فانهم سيتركون عند أهـــل الجهة أخبار مكانهم الجديد ·· أما عن رحلتك فانك لن تذهب خاوى البطن ·· البس وانزل لكى تذهب الى القرية وتحضر بعض القمح ، وسأصنع كعكة خاصة لك ··

ـ انت يا (مارى) أدرى منى ·· ان (مارتن) زوجك ، ولا يمكن أن تعرضيه للخطر لسبب تافه ·· سأفعل ما تطلبين ··

ـ بارك الله فيك ·· وعليك ألا تذكر كلمة لأى انسان ، حتى ولا العجوز ·· أقسم لى على ذلك ··

فأقسم (تومسى) ··· ونزلت (مارى) الى المطبخ ، وذهبت الى غرفتها حيث فتحت صندوق الزفاف وأخرجت منه كيس النقود وأفرغته

فى كفها ··· كان فيه خمسة شلنات ونصف،فأخذت شلنا ونصفا وردت الباقى الى الكيس وربطته وأعادته الى الصندوق ثم رجعت الى المطبخ ··· وعند ذلك نزل (تومسى) من غرفته ، فأعطته النقـــود وخرجت معه الى الفناء ·· وقالت له همسا وهما يسيران الى سور البيت :

ـ اشتر نصفكيل قمح وارجع بأسرع وقت.. ستقوم بالمهمةهذا المساء عند حلول الظلام ، لئلا يراك أحد وأنت تذهب فى الطريق الجبلى ··

وتقدم النهار فى هذه الأثناء ·· ولما سار (تومسى) فى طريق القرية عادت (مارى) الى البيت ، فوجدت العجوز واقفا فى المدخل وليس عليه غير قميصه ·· فقال لها وهو يحك فخذه :

ـ الى أين يذهب (تومسى) فى هذه الساعة ؟ ··

ـ ذهب لشراء قمح ·· لم يبق عندنا منه شىء ··

فتفرس فيها برهة ثم دخل المطبخ ·· ولما خرج من غرفته بعد ذلك مرتديا ملابسه وكانت (مارى) تشعل النار قال لها :

ـ كم بقى لنا الآن فى الكيس ؟ ··

فأجابت دون أن تنظر اليه :

ـ أربعة شلنات ··

ولم تتمالك (مارى) أن خجلت من نفسها بسبب هذه المؤامرة التى تدبرها للهرب ، لأن معناها ترك هؤلاء العجائز الثلاثة لمصيرهم المحتوم ·· وقد أدركت أن (بريان) يرتاب فى شىء ، اذ قال بهدوء وهو يركع لترتيل صلاته ، وان كانت نظراته تنم عن الارتياب :

ـ انه مبلغ قليل ··

فقالت (مارى) لنفسها :

ـ انه يراقبنى ·· لابد لى من الاحتراس ·· انه يفعل كل شىء لمنعى من الذهاب ·

وجاءت (ماجى) وأم (مارى) الى المطبخ قبل أن يفرغ العجوز من صلاته ، وكانتا فى العهد الأخير تلزمان الفراش حتى الضحى ··· وبدا لمارى أنهما ترتابان فى الأمر مثل العجوز ··· ولعل مرجع هـــذا الى الغريزة الموروثة فى الانسان منذ البداوة ، عنـــدما كان الصغار الأقوياء يضحون بالمسنين فى أوقات الحاجة والعوز ... وكان هذا الوصف أشد انطباقا على (مارى) فى اعتزامها الهرب دون أن تقيم وزنا لما عليهـــا من واجب حيال أمها ··· وربما لم يكن فى هذا ما يستغرب ، فحين تشتـــد وطأة الجوع كما يحدث فى الحروب مثلا ، سرعان ما ينحسر قناع التحضر عن النفس البشرية ، لتبدو من تحته ضراوة الكائن الهمجى وهو يكافح للمحافظة على الحياة بأى ثمن ! ··

وبعد أن أدت المرأتان صلاتهما انتقلتا الى الشـــكوى من الجوع فقالت (ماري) :

ـ لابد لنا من الانتظار حتى يرجع (تومسى)٠

فقالت (ماجى) متبرمة :

ـ انتظار فى محله ! ٠٠ هل رأيتم (تومسى) ذهب مرة الى القرية ولم يتسكع فيها طول اليوم ، أملا فى حصوله على بعض الشراب ؟

وقالت مسز (جليسون) كلاما كهذا ، فردت عليهما (ماري) قائلة :

ـ ألستم مثل الأوز الشره ؟ ٠٠ سأجهز لكم ما أجد من طعام ٠

فقال العجوز بدوره :

ـ هل سمعتم ؟ ٠٠ من رأيها أن المسنين لاحق لهم فى طعام !

فلم تجب (ماري) بل ذهبت الى خلف الدار ونقبت فى زوايا الحديقة الصغيرة ، فعثرت على ثلاث لفتات ضئيلة أكلت الفيران نصف احداها ، ولم يكن بالحديقة غيرها ٠ ولما عادت الى البيت شاهدت العجائز الثلاث منهمكين فى حديث حاد قرب النار ، فاستغربت (ماري) هذه الظاهرة أيضا لان (بريان) وزوجته درجا على اجتناب مسز (جليسون) والنفور من وجودها فى البيت ، ولكن الخطر المشترك ألف بين قلوبهم ، ومكن للدخيلـــة ان تصبح موضع ثقة الزوجين العجوزين !

وقالت لهم (ماري) حين أمسكوا عن الكلام وتطلعوا اليها :

ـ ماذا أصابكم الآن ؟

فقال العجوز بعد أن تنحنح :

ـ فى رأينا أنك لم تكونى محقة فى ارسال (تومسى) لشراء القمح دون أخذ رأينا ٠٠ ان النقود التى فى الكيس ملك جميع من فى البيت ، فمن حقنا اذن أن نقول كلمتنا فيما نفعل بها ٠

فما كان من (ماري) الا أن رمت اللفتات الثلاث الى الارض ووضعت يديها فى وسطها صائحة :

ـ لابأس اذن ٠٠ لكم أن تأخذوا مافى الكيس ٠٠ لكن اذا فعلتم هذا، فانى سأترك هذا البيت مع (ميخائيل) الصغير ٠٠ هل يعجبكم هذا؟

وسرعان ماأخمد هذا الوعيد ثورة العجائز الثلاث ، حتى انكمشوا وبدت عليهم امارات العجز والبؤس ٠٠ ولكن (ماري) لم تترفق بهم ، بل مضت تقول بلهجتها الغاضبة :

ـ الواجب عليكم الآن أن تبحثوا عن القوت ، بدل الجلوس قرب المدفأة وترديد الشكوى ٠٠ اننا لم نجد أمس فى القرية مايرضينا ، واذن فلا بد لنا من الاعتماد على الارض فيما حولنا ٠٠ عليكم جميعا أن تخرجوا

بعد الفطور وتجمعوا مايمكنكم جمعه من ثمار الغابة ، وفيها قيمة غذائية مهما يكن طعمها • وأنت أيها العجوز ، لتذهب الى النهر لصيد السمك •

فقال العجوز :

ـ ليس فى النهر سمكة واحدة فى حجم أصبع اليد ، بعد أن صاد أهل الوادى كل مابه فى الشهور الاخيرة •

ومع ذلك فما كادوا يفرغون من فطورهم حتى خرجت المرأتان العجوزان تحملان كيسا واناء لجمع ماتيسر من الثمار •• وخرج (بريان) بدوره ومعه قصبة صيد أعدها كيفما اتفق •• ولم ينقض وقت طويل على ذهابهم حتى رجع (تومسى) وهو بادى الانفعال وقال لمارى :

ـ هناك حركة كبيرة فى القرية ••

فقالت (مارى) وهى تأخذ منه القمح :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لاأعرف تماما •• لكن القرية جاء اليها أناس غرباء من البلدة وهم متصلون بهيئة فى انجلترا تعمل على مساعدة الفقراء ، يسمونها (الكويكرز) •• وقد رأيت أحدهم وكان يحمل ساعة ذهبية •• وجاءوا بعد أن وصلت الاخبار الى (كلوجر) عن الجوع وهجوم رجال البوليس على الناس •• ومعهم قسس كثيرون بينهم شخصية كبيرة يقولون ان صاحبها هو رئيس البروتستانت •• والشائع أن هؤلاء (الكويكرز) سيقومون بتوزيع مساعدات مالية •

فقالت (مارى) وهى تعد له بعض الخبز •

ـ سمعنا مثل هذا قبل الآن •• ماهى الاخبار الاخرى ؟ ألم يكلمك أحد رجال البوليس ؟

ـ كانت جموع المساكين تلتف حول الغرباء ، ولم يكن هناك أحد من رجال البوليس فى الطرقات •• وقال الجميع ان الطعام سيوزع على الفقراء ، وان الخبز الأبيض سيرد من (كلوجر) على ظهور الخيل •• وقيل أيضا ان رجال البوليس سيطوفون بالبيوت لكتابة أسماء المحتاجين ، بعد أن أصبحت جموع الناس تتدفق على (كلوجر) بسبب الآفة •

فانتفضت (مارى) حين سمعت أن رجال البوليس سيطوفون بالمنطقة وقالت :

ـ ياالهى ! •• ومتى يحضرون ؟

ـ لاأعرف •• لماذا ؟ أى ضرر فى هذا ؟

ـ لاتهتم •• بعد أن تأكل اختبىء على مسافة من النهر •• وابق فى مكانك بعيدا عن الانظار حتى يحين وقت ذهابك فى تلك المهمة •• فيجب ألا يروك عند حضورهم •

فهز (تومسى) كتفيه قائلا :

ـ وما الفائدة التى تعود عليهم من التفتيش عندنا أو سؤالنا ؟

ـ ان أقل شيء قد يفضح الخطة التى أدبرها ٠٠ أسرع واذهب كما قلت لك ٠

فامتثل (تومسى) لما طلبت ٠٠ وقد انهمكت (مارى) على الأثرفى خبز كعكتين على النار ثم تركتهما تبردان فى الفناء وهى جالسة عن كثب ومعها الطفل ٠٠٠ وبينما هى كذلك اذ لاح لها صبى يركض آتيا من ناحية القرية ٠٠ ولما اقترب من مكانها صاح يقول ان رجال البوليس قادمون ٠٠ فوثبت (مارى) قائلة :

ـ وأين هم ؟ ٠

فلم يجب الصبى ، بل تابع جريه فى اتجاه مدخل الوادى ٠٠ وعند ذلك شعرت (مارى) بقلبها يخفق خوفا ٠٠ ولم تشعر (مارى) من قبل بمثل هذا الخوف ، حتى فى أثناء الاسابيع الاولى التى أعقبت اختفاء (مارتن) ، حينما كان رجال البوليس دائبين فى التفتيش نهارا وليلا ٠٠ وما كان خوفها الآن الا بسبب حرصها على الخطة التى دبرتها للهرب ، واشفاقها من أن يكتشفها رجال البوليس ٠٠ ولذلك وقفت تتطلع فى الطريق الى جهة الجنوب ، فلم تشاهد أثرا لهم ، ووجدت السكون سائدا فيما حولها ٠

وفجأة لمحت ثلاثة من رجال البوليس يظهرون حول المنعطف الجبلى وأشعة الشمس تنعكس فوق بنادقهم ، ورأت خلفهم أربعة رجال يركبون الخيل ، فقالت لنفسها :

ـ لابد لى من اخفاء الكعك ٠

وأسرعت الى البيت تحمل الكعك وأخفته فى فراشها ، خوفا من أن يثير وجود الكعك شبهات رجال البوليس اذا فتشوا البيت ، ثم هرولت عائدة الى السور حاملة طفلها ٠ وفى خلال ذلك كان الأهلون فى أطراف الوادى شمالا يركضون الى الجبال بعد سماعهم تحذير الصبى ٠٠ فان هؤلاء التعساء كانوا يفرون من رجال البوليس كما يفر الناس من الغزاة السفاكين ٠

وما لبث رجال البوليس ومن معهم من راكبى الخيل ان وقفوا عند كوخ (أوهانلون) حيث راحت (سالى) تحييهم باحترام ٠٠ ثم ترجل اثنان من الراكبين ودخلا الكوخ ٠٠ وعندئذ عادت (ماجى) ومسز (جليسون) الى البيت تحملان كيسا واناء بهما ماتيسر لهما جمعه من الثمار ٠٠ فقالت (ماجى) :

ـ من يكون هؤلاء الناس الكبار الذين أراهم مع رجال البوليس ٠٠

فردت عليها (مارى) قائلة :

ـ لماذا لم تبقى بعيدة عن البيت أنت وأمى ؟ ‥ اذا سألكما رجال البوليس فلا تقولا شيئا ‥ مفهوم ؟

فقالت مسز (جليسون) :

ـ وهل عندنا أخبار تضر أحدا ؟ ‥ لن نقول لهم سوى أن الجوع نزل بنا ٠

ـ هذا هو كل مايقال اذن ‥ اطلبا منهم الاحسان متى وصلوا ‥ وفى هذه الحالة لايقومون بتفتيش البيت ٠

ـ هاهم آتون الينا ٠

فقد خرج الرجلان من كوخ (أوهانلون) وركبا جواديهما ‥ وتبعت (سالى) الركب وهى تدعو وتبارك ، فقالت مسز (جليسون) :

ـ لابد أنهم أعطوها شيئا ‥ آه ‥ هل رأيتم مثل هذا المشهد ؟‥ أربعة رجال يركبون الخيل ‥ هذا يشبه يوم افتتاح جلسات المحكمة ٠

وقالت (ماجى) :

ـ انى والله لم أطلب فى حياتى احسانا من أحد ‥ لكن مع وجود مثل هؤلاء الكبار ، يمكن أن ينال الانسان منحة طيبة ‥٠

فقالت لهما (مارى) :

ـ استعدا اذن ‥ قولا ان الجوع نزل بنا ، وعند ذلك لايفتشون البيت طلبا لمعلومات عن (مارتن) ‥ آه ‥٠ ان الجاويش (جيراتى) يشير الينا انه يخبرهم عنا ‥ رباه ‥ هل يطلبون معلومات عن (مارتن) ؟‥ أهم من رجال القانون ؟

واقترب الموكب من البيت ‥ وظهر بينهم الطبيب والقس البروتستانتى (كوبرن) فكان ذلك مطمئنا لمارى الى حد ما ‥ وما لبث العجوز و (تومسى) أن انضما الى زمرة المشاهدين فان (تومسى) لم يستطع مقاومة الفضول لرؤية هؤلاء الكبار ، مخالفا بذلك أمر (مارى) التىأوصته أن يبقى بعيدا عن الانظار ، وهكذا جاء ووقف خلف العجوز (بريان) الذى أمسك سمكة ضئيلة فى يده ، وما لبث أن رفع قبعته وقالهمسا :

ـ من يكون هؤلاء الناس ؟

فردت عليه (مارى) بصوت خافت :

ـ اسكت أيها العجوز ‥ اطلب منهم شيئا من الاحسان فقط ٠

لكن أحدا منهم برغم ذلك لم يقل كلمة واحدة حين وقف الركب فى الطريق ، فقد انعقدت السنتهم رعبا ، كالعبيد فى حضرة أسيادهم ٠

ولما حياهم القس تشجعوا وردوا التحية بخير منها فى صوت واحد ، وجعلوا يقولون :

ـ ان الجوع نزل بنا أيها السادة الكرام ‥ ساعدونا لله ٠

والحق ان الراكبين جعلا ينظران فى عجب الى مشهد الأهلين الغريب وهم حفاة ممزقو الأسمال يمدون أيديهم طلبا للعون والمساعدة ٠٠ وكان الرجلان ينتميان الى (جماعةالاصدقاء) فى دبلن وقد جاءا لاستطلاعأحوال الأهلين فى المناطق المنكوبة.. وكانا متشابهين فى لباسهما الكنسى وفى سماتهما الوقورة ، بل حتى فى ملامحهما ، سوى أن أحدهما كان واسع الفم والثانى بارز الأنف ٠٠ فأما الواسع الفم فكان انجليزيا من أسرة غنية تشتغل بالتجارة فى دبلن العاصمة ويدعى (برود بنت) ، وأما البارز الأنف فكان ارلنديا يدعى (بوتر) وهو مثل زميله فى الأسرة والمنبت ٠٠ وما لبث (بوتر) أن تكلم قائلا :

ـ من هو مستأجر الأرض هنا ٠

فتولى الجاويش الجواب مشيرا الى (بريان) :

ـ هو هذا العجوز ٠٠

وعند ذلك تقدم (بريان) وأبرز سمكته الضئيلة وأخذ يقول :

ـ هذا كل مافعلته طول الصباح ٠٠ كنت أصطاد السمك فى النهر كالأولاد ٠٠ هذا عمل هزيل بالنسبة الى العجوز ٠٠ لكن الجوع نزل بنا واشتد علينا ٠٠ انظروا الى كيس الاعشاب التى كانت زوجتى تجمعها لنقتات بها ٠٠ لقد أصبحنا كالمتسولين ونحن نفتش الحقول الجرداء بحثا عن القوت ٠

وترجل الرجلان عن جواديهما المحملين بالأكياس ، على حين كان العجوز منهمكا فى ثرثرته ، يساعدهما رجال البوليس ٠٠ وبقى الطبيب والقس فوق جواديهما ٠٠ وكان الطبيب يبدو خجلا من وجوده معالقادمين وما برح يصوب نظراته الى (مارى) التى كانت تراقب رجال البوليس مراقبة سيئة الظن ٠

واقترب مستر (بوتر) البارز الأنف من السياج قائلا :

ـ كم فدانا تباشر أيها الرجل ؟ ٠٠ أنت مستأجر متقدم فى السن لاتفيد كثيرا من أرضك ٠

فجعل (بريان) يقول :

ـ صدقت ياسيدى ٠٠ لكن الارض مستأجرة باسمى ، وان كان ولدى قد تزوج وأقام فى البيت معى ٠٠ هو غير موجود هنا الآن ، وهذه زوجته ٠٠ انى مستأجر عشرة أفدنة ياصاحب السيادة ، لكن المحصول تلف ، والمواشى أخذت منا ٠٠ لكن اذا تفضل المالك ياسيدى الكريم بمساعدتنا ومنحنا مهلة من الوقت ، فسنقف على أقدامنا من جديد فى فترة قصيرة ٠٠ اننى ياسيدى من المستأجرين الشرفاء ، وكنت دائما متمسكا بكلمتى ، كما يشهد بذلك المالك ووكيله ٠٠ اننى لم أتأخر فى سداد الايجار ، الى أن حلت بنا الأوقات العصيبة ٠ لقد نكبنا ياسيدى بالآفة التى أضاعت محصولنا كله ، وذهبت مواشينا عن آخرها ان سنتنا

هذه أشد وأنكى من سنة الفيضان ·· وفوق هذه المصائب كلها فانى نكبت بوفاة ابنى ، وذهاب ابنى الثانى ·

فقال مستر (برود بنت) الانجليزى الواسع الفم :

ـ وأين ذهب ؟

فقال الجاويش بصوت خافت وهو يغمز بعينه لزميليه :

ـ هذا مايريد أن يعرفه رجال البوليس ·

وهنا أسر (بوتر) كلاما فى أذن زميله ، فقال (برود بنت) :

ـ آه ! هو اذن الشاب الذى ···

وجعل رسولا الجماعة الانسانية ينظران الى أفراد الأسرة نظرات الاستبشاع ، فترجل القس (كوبيرن) عن جواده وأخذ يقول وهو يحرك يديه حركات عصبية :

ـ ان أفراد هذه الأسرة كانوا أناسا محترمين ·· وعندى أنه لايمكن اعتبار الانسان مدانا بجريمة قتل مالم يحاكم أمام المحكمة ويصدر الحكم بادانته ·· وهناك ظروف معينة يامستر (برود بنت) قد يكون العمل فيها له مسوغاته ·· فلا تشتدوا فى حكمكم عليهم بغير موجب ·· وليس معنى هذا أنى أجيز العدوان وأسوغه ·· فأنا بعيد عن هذا كل البعد ·· ان أفراد هاتين الأسرتين اللتين لصقت بهما تهمة ذلك الحادث البشع كانوا دائما من خيرة الناس ، وقد عرفوا باحترام القوانين ··

فنظر (بوتر) الى القس مرتابا ، ثم التفت الى الطبيب قائلا :

ـ هل ظهرت اصابات وبائية هنا ؟

فأجاب الطبيب قائلا :

ـ لم تظهر اصابات فى هذا الوادى ·· هى اصابة واحدة فى (وادى جليناري) ·

فقال (برود بنت) الانجليزى :

ـ قلت انها طاعون ؟ ·· انظر الى (كوم السباخ) هناك ·· اعتقد ان المستلزمات الصحية معدومه يا عزيزى (هنرى) ·· بل هى غير موجودة فى المدن وفى رأيى أن السماح بتأجير هذه المناطق البعيدة عن العمران واسكانها لم يكن مطابقا للسياسة السليمة ·

فاستطرد (برود بنت) الانجليزى يقول :

ـ اذا حكمنا على هؤلاء الناس من مظهرهم ، فان حالتهم لاتدل عـلى

البؤس ·· ان ظواهرهم لاتنم عن الجوع الفعلى ·· ان طفلك يبدو سمينة أيتها المرأة الطيبة · متى أكلت لآخر مرة ؟

ومع أن (مارى) قد أشارت على ذويها بالاستجداء وطلب الاحسان من هؤلاء القادمين ، فانها ردت على سؤال السائل بحدة شديدة ·· والحق ان السؤال نفسه وطريقة القائه كانا مثال القحة والخروج على التعاليم الدينية التى يمثلها السائل ·· ولكن (مارى) كانت منبعثة فى حدتها واحتدامها بدافع آخر غير السخط على أسلوب السائل ·· فقد أرادت معاداة هؤلاء الناس الذين أدركت الآن أنهم جاءوا تحدوهم دوافع خيرية وبذلك تحول دون دخولهم البيت فانهم لو دخلوه لدخل معهم رجال البوليس واكتشفوا الكعك الذى خبأته ، وربما ارتابوا فى خطتها ·

لكل هذه الأسباب جعلت (مارى) تقول للسائل ساخطة محتدة :

ـ اذا كان طفلى سمينا فهذا من فضل الله ·· أما حكامنا فلا فضل لهم وهم الذين أخذوا مواشينا وبخلوا علينا بالعمل فى الطرق ! ·· اننا ياسيدى لانسأل صدقة واحسانا ، بل نطلب العدالة ·· ثم اننا لسنا قتلة ياسيدى ، بل أناس شرفاء كما قال لكم مستر (كوبرن) ·· واذا كان زوجى قد لجأ الى الاختفاء أيها السادة الأفاضل ، فان من حق الانسان أن يسعى للمحافظة على كيان زوجته وطفله ·· انكم تلبسون الملابس الفخمة فوق أجسادكم ، ولذلك لايهمكم مانحن فيه من خرق ممزقة وأقذار ·· ولكن ربما يأتى اليوم الذى يتهيأ فيه للفقراء أن يجعلوا المستبدين الظالمين فى ارلندا يدفعون من دمائهم ثمن هذه الأقذار وهذه الخرق ·

قالت (مارى) هذا وتراجعت الى الوراء كأنما تتأهب لعدوان يقع عليها ··· وقد راح مندوبا (الكويكرز) يتبادلان النظرات برهة فى أسف لما سمعاه ، وقال مستر (بوتر) :

ـ هذه صورة أليمة لروح التمرد المنافية للدين ··

فرد عليه مستر (برود بنت) الانجليزى قائلا :

ـ بل هو الطبع الارلندى الحاد فيما أرى ·· ومع ذلك ليس كالشفقة دواء للسخط ·· لنعطها شيئا من الخبز ·

فقال له (بوتر) :

ـ أنا من رأيك ·· اننا فى عملنا الخيرى لانفرق بين المتمرد والمخلص من رعايا صاحبة الجلالة الملكة ·

وبينما كان (برودبنت) يخرج رغيفا من الكيس المعلق خلف سرج جواده وقف القس يلوح بيديه الى (مارى) مستاء مستنكرا·· فقد شعر أنها أحرجته فى حضرة هؤلاء الغرباء عن الاقليم ·· ولكن الطبيب بدا راضيا قرير العين ···

وقال (برودبنت) وهو يقدم الى العجوز رغيفا صغيرا أسمر :

ـ سيساعدكم هذا مؤقتا ··· ضعوا ثقتكم فى الله وفى رعاية

صاحبة الجلالة لأحوالكم ·· سيفتح فى الوقت المناسب مطبخ عام فى القرية ، وستأخذون منه أكلة كل يوم ·

وقد حاول العجوز أن يقبل اليد التى أعطته الرغيف ، ولكن مستر (برودبنت) الانجليزى جذب يده مسرعا خوفا من أن يكون العجوز مصابا بمرض معد فتنتقل اليه العدوى ··· وبعد قليل عادوا الى امتطاء جيادهم وتابعوا طريقهم ···

وقد تزاحم أفراد الاسرة حول السياج وراحوا يشيعون المحسنين اليهم بالدعوات ، ولم تلبث (سالى أوهانلون) أن انضمت اليهم مع أطفالها وجعلت تقول :

ــ أخيرا جاءت المساعدة والحمد لله ! ··· انهم أعطونى رغيفا أنا أيضا ·· انها معجزة اذ يأتى الأكابر ويوزعون الخبز فى (الوادى الأسود) ·· لابد أن الملكة نفسها هى التى أرسلتهم ·

وقالت (ماجى) :

ــ ان غناهم يرهب الانسان ! ·· هل رأيت السلسلة الذهبية المدلاة فى صدره ؟ ··

وقالت مسز (جليسون) :

ــ ثم انظروا الى الناس وهم ينزلون من الجبال متزاحمين ! ·· انهم هربوا من وجه البوليس ، ولكنهم الآن يسرعون الى هؤلاء السادة الكرام ··· لابد أنهم شموا روائح الخبز ···

فقالت (سالى) :

ــ لنذهب خلفهم · ماكل يوم تسنح الفرصة أمام الفقراء لرؤية الأعيان الأكابر ·

وخرجوا الى الطريق فى أثر (سالى) الا (مارى) و (تومسى)··· وقد هم الاخير أن يحذو حذوهم ، لولا أن (مارى) جذبته من ذراعه قائلة :

ــ ابق أنت هنا ···

فنظر اليها (تومسى) محزونا ··· ثم تطلع الى الموكب المتباعد فى الطريق ولعابه يسيل ·· ولم تكن لهفته للسير فى ركاب هؤلاء الغرباء المحسنين الا وليدة الغريزة التى تلابس المحرومين ، تلك الغريزة التى تحمل الجياع المتسكعين على تعذيب أمعائهم الخاوية فى شتاء قارس البرد ، بالوقوف عن كثب من مطعم فاخر، يتشممون روائح الأطعمة الدسمة تنبعث من فتحات المطابخ ، وينصتون الى رنين الصحاف والملاعق، ويرقبون النساء الغارقات فى الفراء المتحليات بالجواهر وهن يتوافدن الى مدخل المطعم ذى العمد الشامخة ، يتبعهن الخدم والحشم ، ويرافقهن الاصحاب ذوو البطون المليئة ، فيختلط شذى عطرهن الفياح بأريج الطعام السائغ ·

وقال (تومسى) لماري وهى تمنعه :

ـ ولماذا لا أذهب لرؤيتهم ؟ ...

ـ لان الوقت قد حان لكى تذهب الى الجبل فى مهمتك ..

ـ وكيف يمكن أن أذهب ورجال البوليس فى الوادى ؟ ..

فجذبته (مارى) الى داخل البيت وجعلت تقول له :

ـ ان الفرصة الآن سانحة أمامك وكلهم يشاهدون السادة الغرباء... ان رجال البوليس لن يهتموا برجل يسير ومعه لفـــافة ... انى لا أثق بأحد غيرك ... ولو ذهبت عند دخول الليل لتساءل الناس الى أين أنت ذاهب ... ومن كلمة واحدة تقال فى القرية يســـتطيع رجال البوليس أن يعرفوا ما يريدون ... وفى وقت الجوع الذى نحن فيه لايمكن أن يثق الانسان بأحد ، وهناك مبلغ يناله أى شخص بالارشاد الى رجل مطلوب القبض عليه ...

ـ ليكن ما تريدين ...

فجاءت (مارى) بالكعك وقطعته وجعلته فى لفافة ، وقالت لتومسى :

ـ هذ هديتك ... واسمع الآن ما يجب أن تقوله لمارتن .. قل له انى سأذهب لمقابلته فى أى مكان مأمون يعينه لى لكى نتفق على خطة تمكنه من أن يهرب الى خارج البـلاد ... قل له ان الجوع نزل بنـــا واننا لن نستطيع الاحتمال أكثر من هذا ... قل له انه ليس أمامنا سوى الموت أو الهرب ... واذا لم يكن بامكانه الحضور لمقابلتى هنا ، فليذكر أين أقابله ... وان كان مستعدا للهرب فان عندى خطة ربما تفى بالغرض .. وقل له ان (ميخائيل) الصغير بخير ، واننى مشتاقة اليه ليل نهار ... ثم قبله عنى وعن (ميخائيل) الصغير ... أدعو الله يا عزيزى أن يجزيك خير الجزاء لقيامك بهذه الرحلة ...

ثم عانقته وحذرته من مخاطبة أى شخص غريب ، وأعطته حـــذاء (ميخائيل) المتوفى قائلة :

ـ ان هذا الحذاء سيصون قدميك من الأشواك والحجارة الحادة بين الجبال ... البسه الى أن أحضر شلنا من كيس النقود ... فقد يحتاج اليه (مارتن) فى غربته ...

وذهبت الى غرفتها لاحضار الشلن على حين لبس (تومسى) الحذاء القديم ... ولما رجعت اليه قالت له :

ـ الافضـــل ألا تذكر له شيئا عن حالة الجوع عندنا ، لئلا يفقد شجاعته ... ولكن قل له ان ملاكا جاءنى فى المنام وأرشدنى كيف أهرب الى أمريكا ... والآن اذهب على بركة الله ...

وتعانقا مرة أخرى ، وخرج (تومسى) من البيت حاملا لفافته على

كتفه ... ولكنه لم يكد يسير خطوات فى ساحة الدار بالحذاء الذى كان صلبا كالحديد حتى وقف وقال لها :

ـ انى لا أحتمل هذا الحذاء ...

ـ تقدم ولا تقف .. انك ستعتاده بعد قليل ... اسرع وانتهز فرصة وجودهم عند مدخل الوادى ... بارك الله فيك ...

فخرج (تومسى) وهو يتوجع ويسير منحنيا على نفسه .. وبينما هو يرتقى الجبل وقف مكانه ونظر الى الخلف مشيرا الى الحذاء وهويهز رأسه .. فلوحت له (مارى) بيديها تستحثه على متابعه السير ، وظلت واقفة ترقبه حتى اختفى خلف الكتلة الصخرية الكبرى وأخذ يتجه شمالا ... فجعلت تراقب الغرباء حتى رأتهم عائدين أدراجهم من ناحية مدخل الوادى ، والاهلون جميعا يتابعونهم ، فدخلت البيت واختفت عن الانظار حتى مر الركب وابتعد ...

وبعد فترة عاد العجوز ومن معه وهم يثرثرون انفعالا...وقد أكلوا نصف الرغيف الأسمر فى الطريق ، لا بتأثير الجوع ، ولكن بدافع الرغبة فى تذوق هذا الخبز العجيب الذى جاءهم على أيدى الاغنياء ... ولما ذهب عنهم الانفعال سأل (بريان) عن تومسى ، فقالت له (مارى) :

ـ لقد أخبرنى أنه سمع فى البلدة عن عمل يمكنه أن يحصل عليه ، فذهب يبحث عنه ... وقد يغيب فترة طويلة ...

فلم يهتم أحد منهم لان (تومسى) اعتاد أن يذهب عنهم على هذا النحو ويغيب أياما ... وقالت (ماجى) :

ـ ليست المسألة مسألة عمل يبحث عنه ... ولابد أنه نال منحة من الأكابر وذهب ليسكر بها ... ولن نراه بعد ذلك حتى ينفقها عن آخرها ... هذا داؤه اللعين ... انه لايفكر فينا نحن الجياع ...

وعادوا يخوضون من جديد فى موضوع الغرباء ، وكان العجوز والمرأتان أشدهم سعادة ... لكن ماهو الا أن جاء المساء حتى أقبلت (سالى) فجأة ، فكدرت صفوهم .

الفصل السادس والأربعون

اندفعت (سالى) الى داخل المطبخ وهتفت قائلة :

ـ استحلفك يا (بريان) أن تأتى وترى (باتسى) ! ٠٠ ان معدته منتفخه وعينيه مقلوبتان ! ٠٠ وهو يحاول أن يتقيأ ولكنه لا يستطيع ٠٠ ان الاصوات التى يخرجها تفزع الاولاد ! ٠٠٠ أسرع وتعال معى وأنت الخبير بأمراض المواشى ٠٠٠ ربما كان المرض متشابها ! ٠٠٠

فوثب العجوز قائما وقد لمعت عيناه فى شىء من السرور اذ وجد أخيرا ما يشغله بعد اضطراره الى الخمول فى الأشهر الأخيرة ٠٠٠ وقال للمرأة :

ـ هل أكل شيئا ؟ ٠٠

فأجابت (سالى) :

ـ نعم ٠٠٠ لقمات من الرغيف الذى جاءنا من السادة الغرباء ٠٠

ـ الرغيف ؟ ٠٠٠

ردد (بريان) هذه الكلمة وهو يتبادل النظر مع المرأتين العجوزين المضطربتين ٠ ترى أكان الخبز الاجنبى مسموما ؟ ٠٠ أنهم أكلوا منه هم أيضا ٠٠٠

لكن (سالى) استطردت تقول :

ـ أظن أن الخبز لم يكن هو السبب ٠٠ ان الجوع الطويل قدأضعفه ٠٠ أسرع بالله وتعال معى ٠٠٠

ـ لنذهب اذن ٠٠٠ هل عندكم ملح فى البيت ؟ ٠٠٠

ـ عندى قطعة كبيرة من الملح ٠٠٠ هل هو مفيد ؟ ٠٠٠

ـ ليس أفيد منه فى علاج المغص ٠

وقصد الجميع الى كوخ (باتسى) وزوجته تثرثر فى الطريق عما لقى زوجها من عنت الجوع وخصوصا بعد الاستغناء عنه لوقف أعمال لجنة المعونة مما جعله يلزم داره مقهورا ، فلما جاء السادة الغرباء بالخبز وكان وحده فى الدار لم يتمالك لشدة جوعه أن آكل نصف الرغيف ، ورجعت (سالى) من الخارج فوجدته يتلوى من الألم ٠٠٠

ودخل (بريان) الكوخ ، فوجد (باتسى) ممددا فى فراشه يتجشأ بشدة ، فركع (بريان) بجانبه على احدى ركبتيه وقال له :

ـ أين الوجع يا (باتسى) ؟ ٠٠٠

فجلس المريض وهم أن يجيب لولا أن تملكته نوبة مفاجئة للقىء ٠٠ ولما لم يفلح اضطجع فى فراشه مرة أخرى وهو يزفر من أعماق صدره ثم قال للعجوز وهو يبتسم فى كآبة :

ـ بارك الله فيك لحضورك عندى ٠٠٠ ان هذا القىء يأتى ويذهب فأشعر بأن قلبى يقف وأن غصة فى حلقى ٠٠٠

فطلب (بريان) من سالى ملحا وماء ٠٠٠ ولما جاءته بقطعة من الملح الجبلى وضعها على فم (باتسى) وطلب منه أن يلعقها ٠٠٠ ففعل ٠٠ ولكن سرعان ماتوقف وأمسك بمعدته وقال وهو يتأوه :

ـ هنا ألم كأنه صخرة تتمدد فى بطنى ٠

فقال له العجوز :

ـ سأرفع هذه الصخرة ٠٠٠ اذهبى يا (مارى) الى البيت وأحضرى الزجاجة السوداء الموضوعةعلى الرف فوقالمدفأة ٠٠ هى (الشربة) المخصصة للمواشى ٠٠ انها ستطرد من جسمه جميع الأضرار ٠

فقالت له (مارى) :

ـ أليس الأفضل أن يستدعى الطبيب ، وخصوصا أن معدتهمنتفخة؟ ٠٠٠ كيف يمكننا أن نعرف حقيقة دائه ؟ ٠٠

فصاح بها العجوز بغلظته السالفة :

ـ افعلى ما قلت لك ٠٠٠ اننى رأيت فى حياتى معدات كانتمنتفخة مثل هذه مرتين ٠٠ أسرعى وهاتى الزجاجة ٠٠٠

وبعد أن أكل باتسى قدرا كبيرا من الملح الصخرى أمره (بريان) بشرب الماء ٠٠٠ فزاد انتفاخ معدته ٠٠٠ ولما جاءت (مارتن) بالشربةألزمه بشرب جرعات منها ، ثم قال له أخيرا :

ـ الآن اعتبر نفسك قد شفيت ٠٠٠

فقبلت (سالى) يد العجوز قائلة :

ـ بارك الله فيك ٠٠ ان عبقريتك لا حد لها ٠٠٠

واشترك المريض فى ازجاء الشكر وقد خف ما به الى حد كبير ٠٠٠ فاغتبط (بريان) وأجاب قائلا :

ـ العفو ٠٠ هذا لاشىء ٠٠ لاتدعوه يأكــل شيئا حتى الغــــد ليمكن أن تهدأ معدته ٠

وتهيأ المريض للنوم ، وانصرف العجوز وأسرته ، موقنين من زوال الخطر عنه ٠٠٠

وفى صباح اليوم التالى عادت (مارى) الى بيت المريض للسؤال عنه ٠٠٠ فوجدت (سالى) فى حالة قلق ، وقد أخبرت (مارى) أنه منذ نام فى الليلة الماضية لم يستيقظ قط ٠٠٠ فانحنت (مارى) فوقه ونادته ، ففتح عينيه ، ولكنه لم يتحرك ولم يجب ٠٠٠ وقد بدا وجهه أشد شحوبا مما كان ، وفقدت عيناه كل تعبير وكأنهماعيتنا جثة ، ومابرحت معدته على انتفاخها ٠٠ فقالت (مارى) للزوجة :

ـ ما رأيك اذا أكل قطعة من اللحم الذى عندنا ؟ ٠٠٠

فردت (سالى) قائلة :

ـ بارك الله فيك ياحبيبتى ٠٠ بامكاننا أن نجرب ٠٠ سأذهب الى القرية لمحاولة الحصول على أجرته المتأخرة ٠٠٠

ـ سأعطيك قطعة من اللحم ٠٠ ابعثى أحدأولادكمعى ٠٠٠ وأخبرينى متى ذهبت الى القرية لكى ألاحظه مدة غيابك ٠

وذهب أولاد (سالى) الثلاثة مع (مارى) ، فأعطتهم نصف قطعة اللحم الباقية عندها ٠٠٠ ولكن الأولاد تخاطفوها فى الطريق وأكل أحدهم منها وهى نيئة حتى خرجت (سالى) على صياحهم فضربتهم وأخذت اللحم الى الكوخ حيث سلقته وقدمت بعضه الى (باتسى) ٠٠٠ فأكل منه بشراهة مع باقى رغيف الخبز الأسمر ٠٠٠ ولما فرغ قال انه يشعر بتحسن فى صحته ، وأنه يريد الذهاب الى القرية للمطالبة بأجره المتأخر ، ولكن (سالى) اعترضت وقررت أنها ستذهب بدلا عنه وأن عليه أن يستريح والا عاوده المرض ٠٠٠

وذهبت (سالى) الى (مارى) وقالت لها :

ـ شكرا لك ياحبيبتى ٠٠ انه الآن أحسن ٠٠٠

فقال (بريان) :

ـ ليس اللحم هو سبب هذا التحسن ، بل الملح والشربة ٠٠٠

فقالت (سالى) :

ـ الحقيقة أن اللحم هو الذى بعث الحياة فيه ٠٠٠ لا تتعبى نفسك يا (مارى) بالحضور لملاحظته ، فهو الآن بخير ٠٠٠ اننى ذاهبة للمطالبة بأجره المتأخر ٠٠ لقد أخبرنى مستر (كوبيرن) أمس انه سيكلم الكاتب فى الفندق لتسهيل موضوعى ٠٠٠

لكن لم تنقض الاساعة حتىهرول أولاد (باتسى) الى دار (كيلمارتن) مذعورين يقولون ان أباهم فارق الحياة فى غيبة أمهم عن الكوخ ٠٠٠ وقد خف أفراد الأسرة الى الكوخ والتفوا حول الميت محزونين ٠٠٠ وقالت (ماجى) :

ـ مسكين ! ٠٠٠ ربما كانت أكلة اللحم هى سبب موته ٠٠٠٠

فقالت (مارى) وهى تغمض عينى الميت :

ــ بل ان الملح والشربة هما السبب ٠٠٠

فهتف العجوز مغضبا :

ــ أنت كذابة ! ٠٠٠ ليس الملح هو سبب وفاته ٠٠٠

فتدخلت مسز (جليسون) قائلة :

ــ لا تتشاحنوا فى بيت الميت ٠٠ مسكينة (سالى) ٠٠٠ من أين لها الكفن لدفنه ؟ ٠٠٠

فقال (بريان) لأبناء المتوفى :

ــ اسكتوا ياأولاد .. دعوا البكاء واذهبوا الى القرية ونادوا أمكم حالا .. اسرعوا ... اسرعوا ...

واقترحت (ماجى) أن ينقلوا الميت الى بيتهم ليمكن القيام باجراءات الجنازة التى لن تتم كما يجب فى هذا الكوخ الضيق ، ولكن (مارى) تصدت لهم قائلة :

ــ لا تلمسوا الجثة ... انظروا الى انتفاخها المتزايد حتى بعد الموت ... اى نوع من الأمراض هذا ؟ ...

فابتعد الجميع عن الجثة وهم اقرب الى الاضطراب ... وتسامع بعض الجيران بما حدث ، فانضموا اليهم وجعلوا يعقبون على الحادث ، ولكنهم فى تعقيبهم كانوا أكثر اهتماما بالمجعة الناشبة بينهم بوفاة (باتسى) ، التى كانت خليقة أن تبعث الوجل فى نفوسهم فى الظروف العادية ...

وفى هذا الجو عادت (سالى) مع أولادها الى الكوخ وهى تولول وتندب عاليا ٠٠٠ ولما نظرت الى زوجها صاحت قائلة :

ــ الوداع يا (باتسى) ! . . الله يرحمك ...

ثم خرجت الى الناس المجتمعين حول الكوخ وهتفت تقول لهم بصوت فيه من التحدى ما يناقض بكاءها !

ــ لقد قلت لهم جميعا ان الجوع هو الذى قتله ٠٠ انى ذهبت للمطالبة بأجوره المتأخرة ، ولما جاء الأولاد وأخبرونى بما حدث ، جعلت أصرخ فى القرية وأقول انه مات من الجوع ٠٠٠ صدقونى أن هذا الكلام ملأ نفوسهم خوفا ... كانوا كلهم هناك ... السادة الغرباء والأكابر الذين جاءوا من المدينة ٠٠٠ وقد أسرعوا يجمعون النقود لى فى الحال ٠٠٠ ومعى منهم مبلغ كبير هو أربعة وعشرون شلنا كاملة ٠٠٠ ثم انهم يصنعون الآن تابوتا لباتسى ٠٠٠ وأكثر من هذا ستنشر الجريدة كلاما عن أحوالنا ... فقد كان بينهم شاب من المدينة جعل يكتب كل أقوالى ٠٠٠ انى قلت لهم كل مافى نفسى ٠

الفصل السابع والأربعون

كان (باتسى أوهانلون) أول مواطن فى مقاطعة (كروم) يدفن بغير جنازة .. فقد صنع له فى القرية تابوت خشـــن ، ونقلت جثته الى المقبرة فى مساء يوم وفاته ... وقد خشيت السلطات أن تكون الوفاة نتيجة مرض جديد ، مع أن الطبيب لم يستطع أن يشخص طبيعـــة هذا المرض ، ولكنهم اطلقوا على الورم الغـــريب الذى صاحبه اسم (حمى المجاعة) ... وتناولت صحيفة (كلوجر) وفاة (اوهانلون) بالتعليق فى مقال افتتاحى جاء فيه :

« ان وفاة أوهانلون سبة فى جبين الأمة الارلندية ... ان انظار العالم كله تتركز الآن فى مقاطعة كروم لتسجل ما يمثل فيها كل يوم من ويلات وفظائع . »

والحق أن الأحوال السائدة فى ارلندا بدأت تثير السخط فى البلاد الأجنبية ، ولكن ارلندا ذاتهـا ظلت جامدة لا تحرك ســاكنا ... فان (حزب الاصلاح) الذى كان ينتظم أكثر العنـاصر المنتجة المتقــدمة بين السكان ، كان اذ ذاك غارقا فى مساجلات عقيمة فى (دبلن) حول صلاحية مبدأ (استخدام القوة) وجدواه فى تحقيق المطالب القومية .. ولكن الطبقات الموسرة كانت تقابل هذا بهز الأكتاف قائلة :

«وماذا نستطيع أن نفعل ؟ ... »

وكذلك تلقفت الحكومة الانجليزية هذا الشعار واتخذت منه ذريعة لسياسة الجمود وعدم المبالاة التى درجت عليها ...

وقد حاولت (لجنة المعونة) فى كروم فتح مســتودعات تمون الأهلين بالقوت ، وسعت لدى البنوك للحصول على قرض مالى لاتمام أعمال الطرق التى بدىء بها فى الاقليم ، ولـكن البنوك قابلت هـذا بالرفض البات بدعوى أن الحكومة قررت الـكف عن أعمـــال الاغاثة فى البلاد كلها ، وأن الخزانة العامة لن تتكفل تبعا لذلك بسداد أى قرض يمنح لهذا الغرض .

وكان رأى السلطات الحكومية فى فتح مستودعات التموين هو أن خطوة كهذه لابد من دراستها أولا بمعرفة نائب الملكةوحكومة صاحبة الجلالة ذاتها قبل البت فى شىء فى شأنها . . أما عن أعمال الطرق فترى (حكومة جلالتها) ان استمرار هذه الأعمال يؤدى الى الاخلال بعوامل الاستقرار والطمأنينة فى البلاد ، اذ يصرف الأهلين عن التفرغ لشئون الزراعة والعناية بالمحصولات ... ولما قيل لمن بيدهم الأمر ان مقاطعة (كروم) قد خلت من كافة المحصولات بعد أن أتت عليها الآفة ، كان جوابهم أن حكومة (صاحبة الجلالة البريطانية) انما تضع سياستها

لمصلحة المجموع عموما باعتباره كلا لا يتجـــــزأ ، وقـــد ثبت لها أن محصول هذا العام فى مجموع البلاد المعتبـــرة كلا لا يتجزأ ، يبشر بالخير ! ...

ثم ان فتح مســـتودعات التموين كان فى أرى السـلطات الحكومية مناقضا لمبدأ حرية الاتجار ، وهو المبـــدأ الذى تمســـك به (جون هاينز) ، يؤيده زملاؤه من تجار (كلوجر) .. وقد اهتدت السلطات الى حل وسط وهو استعدادها لبيع ما اختزنته القوات العسكرية من مواد التموين لمواجهة الثورة المحتملة بالأســـعار الاساسية لمن يطلبها من الهيئات والمنظمات الخيرية ...

وقد رأينا فيما تقدم كيف فشلت لجنة المعونة التى كان يرأسها الكولونيل (بودكن) فى أداء رسالتها .. وقرر الكولونيل بعد ذلك أن يقصر نشاطه فى أعمال الاغاثة على فقراء ضيعته ، أما فقراء ضيعة (كروم) فعلى مالكها الميجور (تومسون) ــ كما قال (بودكن) علانية ــ أن يتولى اطعامهم ... ولكن الميجور (تومسون) ــ كان اذ ذاك فى رحلة بالبلاد الأوربية ، وانتقل زمام الاشراف على الضيعة فى غيـــابه الى مكتب للمحاماة فى (كلوجر) لم يكن يعنيه أن يأكل أولئك (الفقراء) أو يجوعوا ... وهكذا انتقل عبء هذه المهمة الى جماعة (الكويكرز) الذين أقاموا لجنة للاغاثة في دائرة القرية ، وقبل كل من الأب (روش) والقس (كوبيرن) أن يتعاون معها فى العمل ... أما المزارعون الثلاثة الأميون الذين اشتركوا فى اللجنة السابقة ، ومثلهم (جون هاينز) ، فانهم نفضوا أيديهم من المشاركة فى هذه المحاولة الجديدة .

والواقع أن (جون هاينز) كان معارضا أشد المعارضة لافتتاح ما سمى بالمطبخ الشعبى ، لأنه قد يؤثر على تجارته ، ويضر بعمله ... فقد اتخذت لجنة الاغاثة الجديدة من المحكمة مركزا لنشاطها ، ولمـــا كانت المحكمة مواجهة لفندقه وما زال به لفيف من النزلاء من موظفى مشروع الطرق السابقين يقبضون مرتباتهم فى انتظار أوامر الجهـــات المختصة بشأنهم ، فقد قال (جون هاينز) فى شكواه من هذه الحالة ان هؤلاء السادة يتضايقون من رؤية تجمهر المتسولين أمام المركز كلما خرجوا من الفندق ، وفى هذا ايذاء لشعورهم المرهف وتنفير لهم من المقام فى الفندق ! .. بل ان (جون هاينز) مضى فى بسط احتجاجه على هذا التدخل قائلا :

« ثم انى انفقت أموالى التى جمعتهـــا بعرق الجبين فى شراء مقادير متوافرة من القمح ليتهيأ الفقراء أن يجدوا قوتهم ... والآن أرى الحكومة لا تكتفى بوقف الأشغال التى كانت تتيح للناس أجورهم ، بل تسهل للهيئات الغريبة أن تعمل على منافستى ، وامام باب متجرى ، يفتح مركز تقدم فيه أطعمة أعطتها لهم الحكومة بثمن بخس !. »

وفى هذه الفوضى الضاربة أطنابها بين جميع الطبقات والهيئات المتعارضة الجهود ، قضى على نشاط جماعة (الكويكرز) بالفشـــل الذريع ... فقد انقضى أسبوعان قبل أن تيسر لهم تقديم أول أكلة لطالبى القوت ... وفى ذلك الحين تفشت الآفة الزراعية فى ارلنـــدا

كلها .. وعمت المجاعة سـائر الأنحاء ... واقتضى ذلك أن توزع الاعتمادات المالية التى جمعت لمقاطعة (كروم) وبعض المناطق الأخرى المنكوبة على نطاق واسع لا تختص به جهة دون أخرى ... وبهـذا الأسلوب فى علاج الأمور الفيت لجان المعونة بعد وقف الاعتمـادات المالية المخصصة لها ، وشرد العاملون فى مشروعاتها ، حتى بلغ عـدد الأسر التى تأثرت بهـذا القـرار فى مقاطعة (كروم) وحدها مائتى أسرة ... والنتيجة أن جماعة (الكويكرز) الفوا انفسهم فى أول يوم لنشاطهم الخيرى أمام جموع حاشدة من الجياع سدت الطريق أمـام دار المحكمة ... وبعد جهود فى توزيع الأطعمة استغرقت اليوم كله لم يستطيعوا تقديم أكثر من مائة وسبع وعشرين أكلة ، وانصرف ألف وخمسمائة شخص على الأقل دون أن ينالوا حظهم من الطعام ... وفى اليوم التالى كانت الجماهير أقل عـددا بعد أن آثر أكثر الفقـراء أن ينتظروا نهايتهـم فى الوديان الجبلية ، على حين هام آخـرون على وجوههم قاصدين الى (كلوجر) ... فلم يعد يحضر الى مركز الاغاثة سوى الفقراء من أهل القرية ذاتها .. وحتى برغم ذلك كانت الجمـوع الوافدة الى مركز الاغاثة هذا أكبر مما تسمح به موارده ، وفى خلال أسبوع من افتتاح المركز حدثت خمس وفيات فى القرية وحدها ...

واضطرت اللجنة الفرعية الموكلة بهذا المركز أن تكتب الى مقر الجماعة الرئيسى فى دبلن لطلب المزيد من الاعانة المالية ، فجاءها الرد بهذا النص :

« وماذا فى مقدورنا أن نفعل ؟ .. ان الكارثة العامة الشاملة قد أغرقتنا فى تيارها الجارف ... فان محصول البطاطس قـد تلف عن آخره هذا العام ، ولم يبق لكم الا أن تبذلوا أقصى جهدكم »

وكان الطبيب يدعى للكشف على الموتى ، فكان يقرر أن الجوع هو سبب وفاتهم ، ولكن ممثل السلطة الادارية كان يأبى أن يسجل هذه الحقيقة فى الأوراق الرسميـة ، فدرج على أن يثبت أن الوفاة ناجمة عن أسباب طبيعية .

وهكذا صار الاستخفاف وعدم المبالاة هما الطابع الغالب لدى السلطات المسئولة ... ثم انتقلت عدواهما الى دوائر الأفراد أنفسهم، حتى الذين عرفوا منهم قبل ذلك بالجد والنشاط ... وكان المثل فى ذلك (سالى أوهنلون) ... فانها جعلت تنفق النقود التى جمعت لها فى شراء كل شىء ، حتى الكماليات ، وضربت عرض الحائط بفكرة الارتحال الى الخارج كما كانت تتوعد بذلك أكثر من مرة ... وقد قالت لمارى فى هذا الصدد .

ـ اننى باقية فى الوادى ... ان معى النقود الآن ، ولهذا لن أحتاج الى شىء ... من الحماقة ان يخرج الانسان الى عرض الطريق وأن يفقد حتى داره وخصوصا أن الشتاء قريب ... انها لقصة عتيقة تلك التى تقول ان التلال البعيدة مخضرة الروابى ! ..

صدرت هذه الأقوال عن (سالى) وهى تزور (مارى) بعـد

انقضاء أسبوع على وفاة زوجها ، حاملة اليها هدية من الحلوى ...
وقد قالت لها (ماري) :

ــ ما كان يجب يا (سالى) أن تبذرى النقود في شراء هــذه الكماليات ... انى ليخجلنى أن آخذها منك ... ان المبلغ الذى نلته لن يدوم الى الأبد .. فلتحافظى عليه يا (سالى) بربك ..

فردت عليها (سالى) تقول غاضبة :

ــ هذه نصيحة فى الهواء ... ان المعدة الممتلئة هى احسـن ما يواجه به الانسان مصائب الحياة ... ولى عبـرة فيما حـدث لزوجى ...

بل ان (سالى) لم تحاول قط أن تحصل على القوت لدى مركز الاغاثة ... فبينما كانت (ماري) ذاهبة الى القرية يوم افتتاح المطبخ الشعبى محاولة أن تنال منه شيئا لأسرتها ، وجدت (سالى) جالسة قرب الكوخ تحدق فى النهر وقد ظللت عينيها بيـــديها كأنها تراقب شيئا هاما ... فقالت لها (ماري) :

ــ ما الذى تنظرين اليه يا (سالى) ؟ ..

فأجابت هده فى لهجة ملتوية :

ــ هى مجرد نظرات ... ماذا يفعل الانسان غير هذا ؟ ..

ــ صدقت ... ألا تذهبين الى القرية ؟ ..

ــ لن أذهب ... ان الجوع لم يبلغ بى حد استجداء الحساء من أولئك البروتستانت ...

ولما رجعت (ماري) فيما بعـــد ومعها أناء به عصيدة فازت بها من المطبخ الشعبى ، وجدت (سالى) جالسة كما تركتها ، وكانت تأتى بيديها بحركات غريبة وتتحدث بصوت مرتفع مع شخص لا وجود له الا فى خيالها ، بل انها لم ترد تحية (ماري) لها ، ولما تابعت هذه طريقها استمرت (سالى) فى الكلام وابداء تلك الحركات الغريبة ، فلم تتمالك (ماري) أن قالت لنفسها :

ــ رباه ! ... انها اصيبت بمس فى عقلها ! ... ترى ماذا يكون بعد ذلك ؟ ...

كان لتغيير أطوار (سالى) على هــذه الصورة أسوأ أثر فى نفس (ماري) وقد كانت تجد فى شجاعتها وسعة حيلتها درعا تحتمى بها، حتى بدأت (ماري) بدورها تفقد أسباب الشجاعة والجلد ... ثم ان (بريان) والمرأتين العجوزين اصبحوا الآن يلاحقون (ماري) بالشكوى فى كل وقت وكأنها مسـئولة عما حل بهم من البؤس ... ولم يعد ممكنا أن تشغلهم بجمع الثمار من الغابة للتخلص من الحاحهم ، بعد أن استنفدوا كل ما هو صالح لهذه الغابة ، وأصبح الوادى صحراء مجدبة ... ثم انهم لم يرتضوا الذهاب الى المطبخ الشـــعبى لطلب

القوت . لا انفة من قبول الصدقة والاحسان على ملأ من الناس ، ولكن شعورا منهم بأن على (ماری) أن تطعمهم وتدبر أمر قوتهم . . . وهكذا درجوا على الجلوس حول المدفأة طوال اليوم وترديد الشكوى . . يضاف الى هذه المتاعب كلها أن اللبن فى صدرها لم يعد كما كان ، فقد أصبح الطفل يؤذيها كلما أرضعته ؛ وبعد الرضاعة لم يكن يكف عن البـكاء . . .

ثم ان (الوادی الأسود) أصبح الآن موحشا لا حس فيه ولا حياة؛ بعد أن لم يبق من سكانه سوى خمسين من الأنفس . . . وحتى هؤلاء كانوا يسيرون فى الطريق سكوتا كالأشباح . . وكذلك لم يبق لهـا من من عمل سوى التطلع الى بعيد وانتظار عودة (تومسی) . حتى كانت نظراتها تظل مسمرة شمالا فى تلك الفجـــــوة بين الجبال حيث يعود (تومسی) منها بأنبـــاء عن (مارتن) . . . وفى الليل كانت (ماری) تستيقظ من نومها وتذهب الى النافذة وتنصت آملة أن تسمع وقع خطواته . . .

وعلى هذه الصورة ظلت (ماری) تنتظر ، حتى عاد (تومسی) أخيرا بعد اثنين وعشرين يوما من رحيله . .

الفصل الثامن والأربعون

أوشك الليل أن ينتصف حين سمعت (مارى) نباح الكلب خارج البيت ••• فقد سمح للكلب أن يبقى فى الليل خارج الدار بعد أن لم تبق أغنام يمكن أن يهاجمها ... ولم تكترث (مارى) أول الأمر بنباح الكلب ، ولكنها عندما تبينت رنة الفرح تخالط نباحه هتفت قائلة :

ـ هذا (تومسى) ! ...

وسرعان ما انحدرت من الفراش وارتدت ثوبها وهرولت الى المطبخ ... فسمعت العجوز يقول من داخل غرفته وهى تفتح باب البيت :

ـ من هذا ؟ ..

فأجابت (مارى) :

ـ لا أعرف ... ان الكلب ينبح شخصا ما ... ربما كان (تومسى) ...

وجرت الى فناء الدار ... فلم تجد أثرا للكلب ... فخرجت الى الزقاق ونادته ، فجاء يركض نحوها ووثب عليها وهو ينبح ثم أخذ يجرى فى الزقاق الى ناحية الشمال ••• فتبعته (مارى) فى الظلام اذ كانت الليلة غير مقمرة وليس ثمة الا ضوء النجوم ، فلم تشاهد (تومسى) الا بعد أن صارت على بعد أقدام معدودة من مكانه ...

وجدته ممددا أسفل السياج والكلب فوقه يلعق وجهه ... فجثت قربه وهى تقول له :

ـ آه يا (تومسى) •• ماذا أصابك ؟ •

فجعل (تومسى) يقول :

ـ لم أعد قادرا على الاقتراب أكثر من هذا ... ابعد عنى يا (أوسكار) . ان الانسان لايصدق أن الكلب فيهكل هذه القوة ... انى كنت أسير الى البيت متحاملا على نفسى حين وثب (أوسكار) على ، فوقعت على الأرض ، وعجزت بعدها عن القيام ••• هلا أحضرت لى شربة ماء يا (مارى) ؟ ... انا على وشك الموت ! ...

ـ قم معى يا (تومسى) ••• سأساعدك على الوصول الى البيت ••

وتحامل على نفسه حتى نهض بمساعدتها ، وسارا الى البيت يتمايلان ••• وقالت له همسا :

ـ ما هي أخبارك ؟ .. هل رأيت (مارتن) ؟ .

ـ معي أخبار هائلة ... لكني برغم ذلك لم أره

فكفت (ماري) عن السير قائلة :

ـ يا الهي ! ... الرحمة يا ربي ! ...

ـ لا تنزعجي يا (ماري) .. سأخبـــرك بكل شيء ... انني رأيت (مارتن) ولم أره ، ولكن ان كنت لم أره رأى العين ، فاني وجدت أثره ، وهو الآن بصحبة رجال أقوياء ... انها قصة طويلة عجيبة ، ولكن لا بد لي قبل كل شيء من شربة ماء ! ..

وخرج اليهما العجوز يعرج حافيا وهما يدخلان فناء البيت ، فقال :

ـ أهذا (مارتن) ؟ .

فأجاب (تومسي) وهو يترنح ناحيته !

ـ بل أنا ...

فجعل (بريان) يقول وقد ظنه مخمورا :

ـ شيء لطيف جدا وانت تقلقنا نحن المساكين في مثل هــذه الساعة من الليل ... ألا تخجل من السكر ونحن جائعون ؟ ..

فقال (تومسي) :

ـ انا غير مخمور يا اخي ... انني أموت من الضعف ... ان جوعك لا يذكر بجانب جوعي ، وأنا لم أذق طعاما منذ ثلاثة أيام ...

ـ وأين كنت ... ؟

فقالت (ماري) للعجوز :

ـ اسنده وكف عن الكلام ... انه يكاد يسقط ..

وبرغم الاعياء الذي كان يحسه (تومسي) فانه لم يستطع مقاومة رغبة التهريج التي تملكته ، وهكذا تظاهر بشدة الاعياء واخذ يتأوه ويتوجع ، وجعل ركبتيه تتخاذلان من تحته حتى اضـــطر العجوز و (ماري) أن يسحباه الى داخل البيت ..

وقالت (ماجي) التي جاءت الى المطبخ :

ـ انظروا الى سحنته ! .. أين كنت طول هذه المدة يا سكير؟..

وأوقدت مسز (جليسون) السراج ، وأجلسوا (تومسي) في مقعد القش في ركن المدفأة ، وأخذت (ماري) تذكي النار على حين جاء العجوز بالماء ... فقال (تومسي) بعد أن شرب !

ـ لم أجد في حياتي خمرا فاقت في لذتها هذا الماء العذب ...

فقالت (ماجى) غاضبة :

ــ اذن كنت تشرب الخمر يا ملعون ... ياللعار ! ...

فقالت (مارى) وهى منهمكة فى ايقاد النار :

ــ لكم أن تعرفوا الآن أنى أرسلته برسالة الى (مارتن) ... فهو لم يسكر اذن ..

فجعل العجائز الثلاث يتطلعون اليه مبهورين وقد لزموا الصمت .. وأما هو فقد طاب له أن يستمتع بهذا الاهتمام الذى لم يكد يجد مثله فى حياته . وهكذا مدد ساقيه وأغمض عينيه وأخذ يتاوه وهو راض مسرور .. ولكنه كان فى حالة يرثى لها .. فقد أربدت لحيته وخالطت الاقذار شعرها .. وتناثرت حبات العرق فوق جبينه ... ولما غادر البيت فى أول الرحلة كان يلبس قلنسوة مغزولة ، أما الآن فقد علت رأسه بقايا قبعة سوداء عتيقة شدت فوق جمجمته بخيط التف من تحت ذقنه .. وقد ضاع حذاء (ميخائيل) وانتعل بدله خيشا لف حول قدميه .. وصفوة القول أنه بدا وهو مغمض العينين جامد الملامح بارز الساقين من تحت بطنه المكور ، أقرب الى شخصية هزلية فى موكب (كرنفال) ، منه الى صورة انسان .

وأخيرا فتح عينيه وأدار النظر حواليه ، ثم قال دون أن يختص أحدا منهم بحديثه :

ــ لقد كانت رحلة شنيعة ..

ثم التفت الى (مارى) وأردف قائلا :

ــ انى بذلت كل جهدى يا أختى ، ولكن من الصعب على الكلب البطىء أن يصطاد الأرنب السريع .. ان (مارتن) خرج من الجزيرة

فقالت له (مارى) :

ــ سأجيئك بكسرة خبز ..

وبدت (مارى) الآن وهى راغبة عن سماع قصته بعد وصوله، مع أنها ظلت تنتظر عودته بلهفة بالغة .. ولم يظهر (تومسى) من ناحيته أى اهتمام بسرد القصة رغم استعجال العجائز الثلاث له .. ولم يأخذ فى الكلام الا بعد أن أكل لقمة من الخبز الذى جاءته به مارى .. وجلس الجميع حول القصاص فاغرى الفم يرتقبون ما يقول ، فكانت مناسبة حافلة فى حياة هذا المهرج المحتقر ..

وأخذ يقول أخيرا :

ــ وصلت الى جزيرة (أنيشجولا) لاشك فى ذلك ، وان كان وصولى اليها استغرق أسبوعا .. هناك مناطق مخيفة تفصل بيننا وبين تلك الجهات ، وان بؤس (الوادى الاسود) لاشئ بالنسبة لها .. فهى جهات مجدبة لا زرع فيها وليس بها غير الاحجار .. والناس فى

تلك القرى يكاد يأكل بعضهم بعضا ، بعد أن أكلوا القطط والكلاب ·· بل سمعت أن أحدهم ذبح حماره الهزيل وأكل من لحمه ، ولكن لحم الحمار قلب معدته ومات من الوجع .. ومررت فى طريقى بين الجبال بقرية (بيرنا جلاس) ، فلم يكن بها من البيوت المسكونة بالناس أكثر من ثمانية ، والباقى خلا من سكانه .. وفى احد الاكواخ المجاورةللقرية وجدت ثلاثة من الاموات كانوا كلهم فى سن الشباب ، ولما صادفت شخصا فى طريقى وكلمته عن هذا البيت وسكانه لم يظهر أقل دهشة وقال ان أمهم ماتت قبلهم منذ فترة ·· والظاهر ان مسألة الموت كانت شيئا عاديا فى تلك الجهات ، لانى صادفت أمواتا آخرين فى الطريق ، كان أحدهم منهوش الوجه ·· لكن هذا لايقدم ولا يؤخر فى قصتى ، وسأصل اليها بعد قليل .

وسكت (تومسى) وتناول لقمة أخرى من الخبز .. فقال (بريان) :

ـ ان اخبارك هذه تذكرنا بقرب يوم القيامة ! ..

وقالت (ماجى) :

ـ ألا تسرع وتحدثنا عن أخبار (مارتن) العزيز ؟ ..

فقالت (مارى) :

ـ الظاهر من كلامه أنه لم يرجع الينا بأخبار سارة ·· فلا تستعجلوا الاخبار المكدرة ··

فقال (تومسى) :

ـ أن الاخبار التى جئت بها عن (مارتن) ليست مكدرة ·· وكل ماهنالك انها ليست أخباره مباشرة ، وانما هى اشاعات عنه .

فقال (بريان) :

ـ لعنك الله .. هل تحاول بهذه الطريقة أن تسخر منا ؟ ..

فنظر (تومسى) الى العجوز معاتبا وقال :

ـ كيف يمكننى أن أقول لكم ما تريدون وأنتم تصرخون هكذا فى وجهى ؟ ··

فقالت مسز (جليسون) !

ـ الحق معه .. ألا يمكن أن تتركوه يتكلم وحده ؟ ..

فردت عليها (ماجى) قائلة وقد سالت دموعها :

ـ من السهل عندك الا تنزعجى .. فليس ولدك هو الهارب المختفى ! ..

ـ ان ولدى يا امرأة فى أسوأ من ذلك ، وهو تحت التراب ! ..

ولما خاف (تومسي) أن يفقد اهتمام سامعيه وهم يشتبكون في هذه الاحاديث الفرعية استأنف سرد قصته ، فأخذ يقول :

ــ ان القرية التى حدثتكم عنها حيث الناس يموتون بغيرحساب، مواجهة لجزيرة (انيشجولا) التى لجأ اليها (مارتن) مع اخوانه .. وهذه الجزيرة مكان موحش ، على مسافة أربعة أميال من البر .. ولم أتمكن من الوصول اليها الا بعد يومين ، في قارب لاناس من أهل الجزيرة كانوا في تلك القرية لبيع السمك ، وفي بحر هائج .. لكنهم كانوا من الناس الذين يحبون الصمت ويكرهون الكلام مع الغرباء ، وبذلك كان من الصعب أن أفوز منهم بمعلومات عن (مارتن) وزملائه .. والسبب في ذلك أنهم يتهربون من دفع الايجارات ويخافون من خيانة الغرباء لهم وارشاد الحكومة عنهم .. وليس عندهم ثكنات للبوليس مثلنا ، بعد اعتدائهم بالقتل على أحد رجال البوليس بين الجبال .. والنتيجة أنهم احرار من كل قيد ، الا من الجوع .. ثم انهم يعيشون على السمك ، وكانوا يبادلونه بالبطاطس، ولكن هذا انعدم الآن، ولذلك فانهم أقرب الى الجوع برغم سمكهم .. ولكي لا أطيل عليكم ، أقول ان هؤلاء الناس حملوني في قاربهم الى الجزيرة ، لكنه كان قاربا صغيرا خفيفا جعل يثب فوق المياه حتى خرجت أمعائي أكثر من مرة ، ولما وصلنا الى الجزيرة أخيرا كانوا يضحكون من حالتي المحزنة ..

وهنا لم تطق (ماري) صبرا ، فقالت له :

ــ قل لنا الآن ماذا سمعت عن (مارتن) عند وصولك الى الجزيرة ! ..

فأجاب (تومسي) :

ــ وجدته ذهب من الجزيرة .. ذهب قبل وصولي بيوم واحد .

فقال العجوز :

ــ يا الهي ! هل أسروه ؟ ..

ــ كلا .. انه كان في الجزيرة على رأس جماعة من اخوانه .. وكانوا يسمونه (الصقر) تقديرا منهم له .. وليس هذا غريبا عليه وأنت يا (ابريان) كانوا يسمونك (الصقر) في الماضي بسبب نظراتك الشديدة .. وذات يوم بلغهم أن قاربا مسلحا تابعا للحكومة سيصل الى الجزيرة للبحث عن الهاربين .. فركب (مارتن) واخوانه قوارب ذهبت بهم الى البر غربا بعيدا عن رجال الحكومة .. وقد جاء القارب المسلح الى الجزيرة في اليوم التالي لوصولي ، فاختبأنا جميعا في الكهوف الكثيرة المنتشرة على الشاطىء الصخري ، ولم يبق في القرية غير النساء ، وعندما جاء رجال الحكومة لم يفوزوا منهن بشيء، وهكذا رجعوا من حيث أتوا ..

فقال (بريان) :

ـ والى أين ذهب (مارتن) ؟ .. هل تبعته ؟ .. تكلم يا رجل واسرع ! ..

فجعل (تومسى) يقول :

ـ سأخبركم بكل شيء في وقتـه .. انى تتبعت (آثاره) حتى القرية الغربية التى انتقل اليها ، لكنني وجدته تركها هى أيضا .. وفى هذه القرية وجدت ثلاثة بيوت فقط بها سكانها ، اما باقى السكان فانهم هاجروا الى مقاطعة (مايو) بسبب الجوع ، بعد أن اختفت الاسماك فى ذلك الموسم .. ولما سألتهم عن (مارتن) واخوانه قالوا انهم انتقلوا شمالا الى مقاطعة (مايو) منذ فترة قريبة .. وهكذا واصلت رحلتى الى هذه المقاطعة وانا دائم السؤال عن جماعة (مارتن) دون أن افوز بالجواب الشافى لانشغال كل من كنت أصادفهم بما هم فيه من جوع وكرب ، حتى وصلت أخيرا الى خليج به مجموعة من الجزر الصغيرة المتجاورة حتى يمكن الانسان أن يقفز بسهولة من الواحدة الى الاخرى ..

فقالت (ماجى) وهى تترنح جزعا :

ـ وهل وجدت أثر (مارتن) فى تلك الجزائر ؟ ..

فأجاب (تومسى) :

ـ انى لم اذهب الى تلك الجزائر قط ، وسأقول لكم السبب .. ففى قرية كبيرة هناك مررت بجرن مهجور ، فدخلته لامضى فيه ليلتى بعد أن اشتد بى التعب ، وفجأة استيقظت من نومى ورأيت جمعا من الرجال يقربون الخمسة عشر جالسين فى الجرن حول مصباح ، وهم يتصتون الى رجل قوى كان يحدثهم وهو جالس على احدى ركبتيه يهز يديه المطبقة تأكيدا لكلامه ..

فقالت (مارى) :

ـ من كان هذا الرجل !

ـ شاب ارلندى .. انى أتذكر كل كلمة قالها ، لانى لزمت مكانى بين القش طول الحديث خوفا على حياتى .. سمعت هذا الشاب القوى الاصفر الشعر يقول للرجال انه ستكون فى كل جهات ارلندا (خلايا) تقاتل لانشاء جمهورية فى البلاد ، ولطرد الجنود الانجليز منها ، ولتحرير أفراد الشعب المساكين .. كان يقول لهم ان الحرية ستكون هى القانون فى العالم أجمع .. وقال لهم ان (الكلام) لا فائدة منه ، وانا والله من رأيه ، لانى كثيرا ماكنت أقول أن أصوب عمل هو أن يضرب الانسان ضربته او يموت فى هذا النضال ! .. آه ! .. لا تقاطعونى !.. سمعت الرجل القوى يقول لهم أيضا أن (الخلايا) ستوجد بين صفوف الجيش الارلندى ، وبين أفرادها للجنود واجبهم فى الانضمام الى جانب الشعب ، لانهم من هذا الشعب وقد أضلتهم الاقاويل الكاذبة ، والواجب الوطنى يحتم عليهم ألا يصوبوا الرصاص

الى صدور مواطنيهم الذين تجرى فى عروقهم دماؤهم نفسها ! .. وقال الرجل القوى ان واجبات (الخلايا) هى ايقاظ طوائف الشعب لكى تضم صفوفها فى جيش موحد ..

فقالت (ماجى) :

ـ ماهذا الكلام ؟ .. يشجعون الناس على القتل ؟ ..

فاستطرد (تومسى) يقول :

ـ انى لم أسمع فى حياتى أبدع من هذا الكلام ، وكان الرجل القوى يقوله بطريقة تجعل تنفيذه من أسهل الامور .. وأكثر من هذا سمعته يقول ان فى ارلندا ملايين الفقراء وأقلية من الاغنياء ، وان الفقراء لو اتحدوا وجعلوا من أنفسهم جيشا موحدا ذا هدف معروف كما هو الحال فى الجيش ، لامكنهم القضاء بسهولة على الطغاة الظالمين .. وعند ذلك توجد الحرية ، ولا يبقى جياع بين الناس .. وعند ذلك يصاد ملاك الاراضى الاقطاعيون كما تصاد الارانب .. والواقع أن كلام الرجل القوى أثر فى نفسى جدا الى حد انى لم أتمالك وقمت من بين أكوام القش التى كنت مختبئا فيها وصرخت مبينا له اعجابى بكل ما قال .. يالطيف مما حدث بعد ذلك ! .. انهم وثبوا واقفين وهجموا على حتى تأكدت أنى مقتول بلا شك .. لكن الرجل القوى الاصفر الشعر أوقفهم وأخذ يسألنى ويستجوبنى من أنا ومن أين أتيت وعما الذى جاء بى من الاقاليم الغربية .. وهكذا قلت له كل شىء عن مارتن و ...

فقاطعته (مارى) قائلة :

ـ يامغفل ! .. ألم أحذرك من أن تقول شيئا لاى انسان ؟ .. لعنة الله عليك ياشيخ المغفلين .. ربما كان هذا الرجل من جواسيس الحكومة ، لانهم جميعا يتظاهرون بالكلام الحماسى .. ربما أصبح (مارتن) الآن مقبوضا عليه ..

فرد عليها (تومسى) قائلا :

ـ صبرا يا أختى .. ان هذا الرجل الاصفر الشعر لم يكن جاسوسا خائنا ، وانما هو بطل شجاع .. ثم انه سيساعد (مارتن) بكل طاقته .. اصبرى حتى أخبرك بكل شىء .. عندما أخبرته بالحوادث التى جرت عندنا فى (كروم) وكيف ذهب (شادويك) الى جهنم بأيدى رجال منا لانذكر أسماءهم ، رأيته يلين ويعاملنى معاملة أخوية ويقول لزملائه بالحرف الواحد :

« هذا ليس جاسوسا يا اخوانى .. ان وجهه سمح يدل عليه ارجع يا أخى الى بلدك وقل لزوجة (مارتن) انى سأبحث عنه بين الجزائر الصغيرة وانى سوف أساعد الاثنين على الخروج من البلاد والسفر الى أمريكا و ..

وعند ذلك نظر العجوز الى (مارى) بشدة وقال لها :

ـ ما هذا الكلام ؟ ... هل هى خطة مدبرة منك ؟ .. هل كنت تنوين أن تهجرينا ؟

فصاحت (مارى) بلهجته نفسها قائلة :

ـ وهل كنت تفضل أن تتركه فى المخبأ حتى يعرفوا مكانه ويشنقوه ؟ .. هل هذه هى الابوة عندك ؟ .. انى أريد أن يهرب الى امريكا .. هل هناك أمامه فرصة غير هذا ؟ .. قل وتكلم .. انت تفكر فى نفسك فقط ، مع أنك لن تعيش أكثر من سنين قليلة .. أما نحن فاننا فى سن الشباب .. والحياة أمامنا طويلة ! ..

وكان العجوز يراقبها وهى تقول هذا الكلام ، فما لبث أن خفت حدة غضبه رويدا .. ولما انتهت (مارى) من كلامها تنهد وقال لها وهو يغض بصره :

ـ غفر الله لى .. انى لم انظر الى الموضوع نظرتك اليه .. انت على حق يا بنتى ..

فقالت (مارى) :

ـ أنا على حق فعلا ، ويجب أن تعرف هذا .. ماذا قال لك الرجل غير هذا يا (تومسى) ؟ ..

فهتف تومسى قائلا :

ـ قال أشياء كثيرة .. كان كلامه أبدع كلام سمعه انسان ..
ـ قال لى ان الرجال الذين يطلبهم البوليس سيرسلون الى أمريكا حيث يتجمع جيش الحرية ويستعد ، ثم يعودون لتحرير ارلندا .. وقد أخبرنى أنهم سيرسلون الاخبار اللازمة عندما يحين الوقت ..

فقالت (مارى) :

ـ لكن متى يأتى ؟ .. ألا تعرف أكثر من هذا ؟ .. هل أمكنه معرفة مكان (مارتن) ؟ ..

فأجاب (تومسى) وقد تملكه الاعياء فجأة وبدأ يطبق عينيه :

ـ لا أعرف .. انهم أعطونى لقمة أكلتها وسرت معهم مسافة ، لكن دورية من رجال البوليس ظهرت لنا واضطررنا أن نتفرق فى الجبل .. ولما لم أجدهم بعد ذلك لم يكن أمامى الا الرجوع الى هنا .. ومنذ ذلك الوقت لم تدخل لقمة واحدة جوفى .. أنها كانت رحلة عظيمة فى الحقيقة ، وقد رأيت فيها أشياء مدهشة ..

وما لبث أن فتح عينيه المغمضتين وأردف وهو يبتسم مسرورا :

ـ انه كان رجلا قويا ، وأجمل ما فيه شعره الاصفر وصوته الرنان الذى يشبه الجرس .. ولن أنسى ماعشت كلامه البديع عن القتال وذبح الملاك ..

ومال رأسه على صدره وجعل يغط غطيطا عاليا ، فقالت (ماري) :

ـ لكن هل قبض رجال البوليس على الرجل الاصفر الشعر ؟.. أستحلفك أن تقول لنا هل قبضوا عليه أو تمكن من الهرب الى الجزائر التى لجأ اليها (مارتن) ..

فغمغم (تومسى) قائلا من خلال النوم :

ـ لا أعرف يا أختي ٠٠ وكل ما قاله هو أن ننتظر وصول الاخبار لن أنسى والله كلامه الجميل ...

ومرة أخرى تنفس بقوة وتصاعد غطيطه من جديد بعد أن غلبه النوم من فرط الاعياء ... فقال (بريان) :

ـ لا أعرف ماذا أفهم من كل هذا الكلام ! ...

فقالت (ماجى) باكية :

ـ أن (مارتن) ضاع منى كما ضاع أولادى قبله ٠٠٠ لم يبق أحد من كل أولادى الذين خرجوا من بطنى ...

وبدا أن (ماجى) لم تفهم ما قاله (تومسى) على وجهه الصحيح ... فانها لم تلبث أن نهضت وذهبت الى غرفتها ... وقامت مسز (جليسون) بدورها الى فراشها وهى أقرب الى عدم المبالاة ... فان هاتين المرأتين العجوزتين فقدتا قوة الادراك ، وطمس التبلد الذهنى على عقلهما ، حتى أصبحت كلتاهما وهى لا تكترث بما يدور حولها ...

أما (بريان) فقد لزم مجلسه قرب النار مع (مارى) ... وقد فتح فمه مرارا يهم بالكلام ، ولكنه لم يقل شيئا فى كل مرة... وأخيرا نهض قائما وجعل ينظر الى (مارى) وقد ضغط على شفتيه وأطبق قبضتيه ... وكانت (مارى)تحدق فى نار المدفأة وقد شبكت يديها حول ركبتيها ٠٠ فما لبث أن وضع يده على كتفها مترفقا ، فانتفضت فى مكانها بشدة وتطلعت اليه غاضبة ، ولكن ما أن رأت أمارات الرثاء والرقة البادية فى عينيه حتى لانت وأخذت تبكى فى سكون ... فضغط على كتفها ثم ابتعد عنها قاصدا الى غرفته ... على أنه وقف فى منتصف الطريق الى الغرفة وقال لها دون أن يلتفت اليها :

ـ ستصحبك بركتى يا بنتى متى رحلت من هنا ٠٠٠ فليس فى نيتى أن أجرك وأجر (مارتن) معى الى القبر٠٠٠بارك الله فيك يا (ياماري)٠٠٠

فردت عليه قائلة بحرارة وهو يدخل غرفته :

ـ وفيك يا عمى ٠٠٠

قالت (مارى) هذه الكلمات وقد تجردت من المشاعر ٠٠ وبرغم أن الدموع جرت على خديها فانها لم تنفعل اذ ذاك باحساس داخلى ٠٠ ولم تساعد هذه الدموع على تلطيف حدة الفراغ الذى اعتراها بتأثير فشل

(تومسي) في رؤية (مارتن) ··· فما هي الأنباء التي جـاء بها (تومسي) حقا ··· ؟ لاشيء سوى روايه قصها رجل غريب في (جرن) مهجـور ذات ليلة ···

وتعالى غطيط (تومسي)···وأخذت نار المدفأة تخبو ··· وتبلدت نظرات (ماري) ··· وتدلى رأسـها الى صدرها ··· وهمست تقول لنفسها :

ــ غدا سأذهب وأبيع ثوب العرس ·· لم يبق لى من عمل سـوى الانتظار ، والله يتولاني وطفلي برحمته ···

الفصل التاسع والأربعون

كان الدكتور (هاينز) ما يزال فى فراشه برغم أن الساعة جاوزت الحادية عشرة صباحا ··· لقد ظل مستيقظا فى الفراش ثلاث ساعـات ، وهو لم يشعر بمرض ألم به ، ولكنه فقد شهيته تماما ، ورفض الطعام الذى جاءته به أخته ، وأخذ يكثر من شرب الماء ···

ثم انه شعر كأن رأسه امتلأ بضباب جعل التفـكير مهمة شاقة عسيرة · · وبرغم هذا مابرحت تتوارد فى ذهنه صور وأخيلة غريبة ·· وراح وهو ممدد فى الفراش على ظهره يستعرض تلك الصور بلذة لا تخلو من كآبة دون أن يحاول تحليلها أو اقصاءها من ذهنه ··· فقد اضحى لايحفل بالحياة اطلاقا ·· ولم يكن يريد الآن أكثر من أن يدوم استلقاؤه على ظهره الى الأبد وأن يمضى فى شرب الماء ···

وجاءته أخته مرارا تقول انهم يطلبونه لعيادة المرضى ، فكان يقول لها فى كل مرة :

ــ قولى انى خرجت ! ·· قلت لك انى لن أرى أحـدا ! ··· أنا أعرف انه ليس بهم مرض ! ··· فليتقدم من يطعمهم ! ··· ليس من شأنى أن أطعمهم ! ··· هل أنا الشخص الوحيد فى المقاطعة الذى عليه أن يرعاهم ؟ اذهبى ولا تقلقينى مرة ثانية ! ···

كان هذا الطبيب ينطوى على حظ كبير من الخير كما رأينـا فيما تقدم من هذه الفصول ··· فهو مرهف الحس طيب القلب . بل كان كذلك مشغوفا بخدمة البيئة التى يعيش فيها ··· لكنه كان فى حقيقته ينتمى الى تلك الطبقة الضعيفة المترددة التى نراها بين أكثر الناس . وهم اولئك الذين تعوزهم الشجاعة الأدبية التى تجعلهم يستجيبون لحوافز المثـل العليا بدافع من قوتهم الذاتية الجبارة ·· وصحيح انهم يشعرون بهذه الحوافز نتيجة فرط الحس والشعور بأنهم يفتقدون شيئا فى الحياة ·· ولكن شعورهم بأن ثمة قوة خفية قاهرة تغلبهم على أمرهم ، يدفعهم الى سلوك مذاهب متناقضة فى الرأى والاتجاه ··· فهم أحيانا ينشطون الى العمل ، وأحيانا أخرى يلوذون بالسلبية والجمود ·· وأكبر مشتهاهم أن يندمجوا فى زمرة جيش يسير الى هدف بعيد ··· فاذا استقلوا بأنفسهم أو استهدفوا للمقاومة ، بدأ منهم العجز والقصور ومالوا الى اليـأس والقنوط ·

كان الطبيب سعيدا هانئا فى تلك الفترة التى قضـاها تحت سلطان الأب (جيلان) معتنقا مذهبه فى وجوب حب وطنه ارلندا كما يحب أمه ··· ولكن غموض ذاتية القس صرفه عن التعلق به وخصوصا عندما ألفاه مجرد

صوت يصرخ وحده في قفار مترامية ··· لقد كان الأب (جيلان) جنديا ثائرا ، ولكنه تجرد من سلاح الجندى بارتداء لباس الكهنوت ، وبما يحق عليه من طاعة رؤسائه ذوى الاردية الفضفاضة والقلوب الزائفة ··· ثم جاءت زيارة الطبيب للمرأة التى توفيت بالطاعون ، وما أعقبها من هجوم رجال البوليس على الناس وهم مدججون بالسلاح ··· لقد رأى القس اذ ذاك عاجـــز الحيلة أمام ذلك الهجوم ورأى الناس يفـــرون هنا وهناك بغير قائد ولا مرشد ··· فكان فى ذلك ما جعل حوافز المثل العليا تتبخر نهائيا من نفسه ·· ولم تكن تلك الثورة التى اختص بهـــا اياه الا ترجمان عن الخوف الشديد الذى كان يعصف بنفسه ···

كان خوفه ذاك مزدوجا ··· فقد كان يخـــاف أن تكون عدوى الطاعون قد انتقلت اليه من تلك المرأة ، كمـــا كان يخاف أن يعتقله البوليس بتهمة الثورة ·· لكن خوفه من البوليس لم يكن قائمـا على أساس وهو لم يشارك قط فى الأمور السياسية مشاركة فعلية ، حتى ولا بالانضواء فى عضوية (جماعة الاصلاح) المعروفة باعتدالها ··· وبرغم ذلك فان اضطراب أعصابه جعله يعتقد أن البوليس قد يتهمه بالاشتراك فى قتل (شادويك) ··· وكذلك اعتزل الناس وتحاشى الاتصال بهـم ، للتحوط ضد عدوى المرض ، وليكون بمنجاة من الاعتقال ··· بل انه غدا يمضي الوقت ، شأن من هم على شاكلته ، وهو يعد الاهلين مسئولين عن سوء حالهم ··· فقد أصبح يتهمهم فى قرارة نفسه بالخمول والقذارة ، والعجز عن تنظيم صفوفهم ، والمكافحة لنيل حقوقهم ··· وأمعن فى هـذه الحملة على مواطنيه الى حد أنه راح يسائل نفسه :

ــ اذا كانوا راغبين عن الـكفاح ، فلم أكافح من أجلهم ؟ ··· لم أضحى بمستقبلى فى سبيلهم ؟ ·· لم أخاطر بتعريض نفسى لعـــدوى الوباء ؟ ··· ان أفضل ما أعمله هو الابتعاد من هنا قبل فوات الأوان !··

ولم يلبث أن سنحت له فرصه الهرب المنشودة بتدبير أخيه (تونى) الذى ازدهرت تجارته فى (كلوجر) بفضل المجاعة ·· فقد كان فى البلدة طبيب يدعى (لوتون) يوشك أن يعتزل العمـــل ، فرأى (تونى) أن تستأثر الأسرة بهذه الوظيفة . بعد أن أذكى النجاح طموحه حتى جعـل يفكر ويدبر ليصبح سيد (كلوجر) كلها · · وما له لايفكر فى هذا وقد أصبح الناس يقولون عنه (ان تونى هاينز الثرى يضع كلوجر فى جيبه) وبرغم هذا فان (تونى) كان يسير فى طريقه بحذر شديد ليتجنب عداوة الطبقة المتوسطة فى (كلوجر) ممن تملكهم الحسد من هذا العملاق الذى هبط عليهم من الجبال منافسا ··· وقد رأى (تونى) أن وجود شقيقه المثقف المتخرج فى دبلن ، طبيبا للبلدة ، سيعزز ولا شك مكانته ويضاعف من سلطانه ··· ولما فاتح (تونى) أباه فى الأمر عمد هذا الى استشارة زوجته ، فأيدته على الفور كعادتها ، وقالت فى هذا الصدد :

ــ ان خطوة كهذه شيء عظيم لولدنا الطبيب ·· فان الأمور أصبحت تسير فى البلدة من سيىء الى أسوأ ···

فقال لها (هاينز) :

ـ أنت على حق فى هذا الـــكلام ··· وأنا أظن أنه لن يمضى وقت طويل حتى ننتقل كلنا الى (كلوجر) ·· فلم يعـــــد فى (كروم) شىء نستفيده ···

حدثت هذه المداولات بعد مضى أسبوع على الخصام الذى وقع بين الطبيب ووالده ··· فكان من رأى الوالدين أن هذه الخطة الجـديدة هى أسلم حل لانهاء الجفاء وسوء التفاهم بينه وبينهما ··· وهكذا ذهبا اليه وقالا له :

ـ أنت تعلم أن هذا المـــكان لا يلائمك ، ولذلك خطر لنا أن عيادة الدكتور (لوتون) فى (كلوجر) هى أفضل مكان لك ·· فهل تذهب الى البلدة وتكلم (تونى) فى الموضوع ؟ ···

وكم كانت دهشتهما عندما بادر الطبيب الى قبول هذا الاقتراح··· ومع هذا فان الطبيب لم يبد لهما حماسة ظاهرية برغم هـــذا القبول السريع ، وما ذلك الا لكى يدفع عن نفسه تأنيب الضمير لتخليه عن مركزه فى هذه الظروف الدقيقة ··· وبوسعه الآن أن يقول لنفسه ان ذويه هم المسئولون عن هذا العمل ·· وفعـــلا ذهب الى أخيه (تونى) وتمت المفاوضات أو كادت ··· وغدا فى وسعه الآن أن يترك القرية وينتقل الى مقره الجديد فى (كلوجر) ··· وقد كانت هذه مرحلة حافلة فى الواقع ، وان كان الطبيب قد ساوره بعض الخجل من هذا المسعى ···

وهنا لا مفر من تسجيل ظاهرة غريبة فى أطوار هـــذه الشخصية المعقدة ··· فقد كانت الصور والأخيلة التى تتوارد فى ذهنه تذكى مشاعره وتلهب دمه ، وكانت أكثر هذه الصـــور ترددا على خاطره صـــورة (ايلى جليســـون) وما كان من معانقتها له فى غرفتهـــا يوم أن جرح (شادويك) ··· ومع أنه قد استطاع أن يتخلص من هـــذه المشاعر العاطفية المضطربة الملتهبة منذ أن قطع علاقته بشادويك ، فان هذه الحالة ما لبثت أن عاودته بقوة عاتية ···

ومرة أخرى أوقظ الطبيب من خدره بدخول اخته الغرفة ، دون أن تطرق الباب أو تستأذن فى الدخول ··· وانما تسللت الى الغرفة ووقفت لدى الحائط قرب الباب تجذب أصابع يدها اليمنى بيسراها ··· فقال لها الطبيب بلهجة الحالم ·

ـ من جاء هذه المرة ؟

فأجابت (بريجيت همسا) :

ـ هى (مارى جليسون) ، من (الوادى الأسود) ···

ـ وماذا تريد ؟ ···

ـ تريد أن تفحص طفلها ···

ـ وماذا جرى للطفل ؟ ·

ـ لا أعرف ···

– لماذا لم تقولى لهـا انى خرجت ؟ ... قلت لك أن تخبرنى كل من يسأل عنى أنى فى الخارج ، الا فى الحالات الخطيرة ... قولى لهـا انى سأكون فى العيادة فيما بعد...وبامكانها أن تذهب بالطفل الى هناك ...

فقالت (بريجيت) وقد اشتد بها الانفعال :

– لا يمكن أن أقول لها ذلك ... انها أعطتنى مشطا لشعرى ...

فما لبث الطبيب أن جلس فى الفراش متكئا على مرفقيه وتطلع لأول مرة الى أخته ... لقد شعر بغشاوة غريبة أمام عينيه ، وبدت له الفتاة كريهة بصورة شاذة ، حتى قال بصوت أقرب الى الصياح :

– ماذا أعطتك ؟ ...

فرفعت (بريجيت) عينيها من الارض وتطلعت الىأخيها ثم اندفعت تضحك ضحكتها الغريبة التى كانت تبدر منها فجأة دون سبب ظاهر ، والتي كانت تعتريها حتى وهي وحدها .. لكن هذه الضحكة لم تدم الا برهة يسيرة ثم عرت وجهها حمرة شديدة وغضت بصرها مرة أخـــرى وجعلت تعبث بأصابعها . وما لبثت أن قالت بانفعال شديد ولكن فى صوتها الهامس :

– هو مشط أسبانى ! .. انى اشتريته منها بشلن .. وسأشترى ثوبها الغالى أيضا ...

ومرة أخرى جعلت تنظر الى اخيها نظرة صارمة وكأنما تتحـداه أن يمنعها من شراء الثوب ، وقد بدت فى عينيها علائم التشفي والشماته .. فهى أيضا كانت تلابسها فترات التمرد واشتهاء الانتقام لما ينزل بها من ذل وهوان .. وكان انتقامها دائمـــا يتم فى صورة تخيلات تتوارد على ذهنها ، اذ تذيق أعداءها فى تصوراتهـــا الذهنية شر ألوان العذاب ، وتحيلهم خاصة الى مخلوقات قبيحة لا يطيق أن يبصرها أحـد ... فقد كانت بلواها فى قبح صورتها ... وذلك هو سبب اشـتداد انفعالها للحصول على ثوب عرس (مارى) ومشطها الجميل ... فهى تمنى النفس بأن يكون لها جمال (مارى) بمجرد حصولها على هذه الأشياء الجميلة ... قال لها الطبيب مرددا كلمتها :

– تقولين ثوبها ؟...اذن ستشترين ثوبها ؟... ولأى سبب ؟..

فجعلت (بريجيت) تقول :

– أنت اذن ترى مثلهم انى يجب الا أحصل على شيء ؟ ... انت تستكثر على شراء الثوب ؟ ... لكن من حقى أن أفعل ما يحلو لى بنقودى التى ادخرتها ! انى كسبتها بجهد وتعبوأنا أنالهـا درهما درهما من نزلاء الفندق ... أنا لا أحصل على ثوب أبدا ! ... مازلت ألبس نفس الثوب القديم الذى كان عندى منذ الصغر . انى أخجل من لبسه كلما ذهبت الى الكنيسة ! أما أنت و(توى) فلكما كل شيء ! .. انىادخرت جنيهين..عليك أن تخبر أبى أن من حقى شراء الثوب اذا اعترض على ذلك ... عليك أن تفعل هذا والا ...

وكفت عن الكلام وهى ترميه بنظرات شزراء ، ثم غضت بصرها من جديد ...

فضحك الطبيب قائلا :

ــ والا ماذا ؟ ...

ــ والا قلت لأبى انك عدت الى شرب الخمر ! ...

انزعج الطبيب من هذا التهديد .. وكان حقـــا قد أخذ فى شرب الخمر فى الأيام الأخيرة بعد زيارته للمرأة التى توفيت بالطاعون ... وكان يقول لنفسه انه يفعل هذا دفعا لعدوى المرض .. لكن اذا علم أبوه بهذا فان شراء عيادة الدكتور (لوتون) لن يتم قط ... ولذا قال لها بصوت خافت :

ــ لا يمكن أن تفعلى هذا يا مجنونة ! ... ولو فعلت لقتلتك ! ...

فانبعثت منها ضحكة أخرى دون أن ترفع نظرها عن الأرض ، على حين استطرد الطبيب قائلا :

ــ وهل يهمنى ما تشترينـه ؟ ... أنا لم أقل انك لن تستطيعى شراء الثوب ... انى سأقف فى صفك اذا أبدى أبوك أى اعتراض ...

فجعلت (بريجيت) تقول بانفعال وهى تنظر اليه بجرأة :

ــ بارك الله فيك ! ... انى سأعطيها جنيها ثمنا للثوب ... انه ثوب جميل يساوى أكثر من هذه القيمة ... وربما تمـــكنت من شراء حرملتها أيضا بنصف جنيه ، عندما يشتد بها الجوع مرة ثانية ... انها تبيع هذه الملابس بسبب الجوع ! ...

فقال الطبيب شارد الذهن :

ــ بسبب الجوع ؟ ...

وفجأة أحس بالغشاوة تزيد كثافة فى رأسه ، وشعر بلسانه يجف فى حلقه ، لكنه لم يجد فى نفسه نشاطا لكى يمد يده الى ابريق الماء المجاور للفراش ... فلم يلبث أن شعر بحرارة خانقة وتملـكه الخجل من نفسه دون أن يعرف علة لهذا الخجل ... على أنه أصبح يمقت (بريجيت) مقتا شديدا ، وقال وهو يبغى النكاية بها :

ــ ان الثوب سيكون أكبر من جسمك ...

فردت عليه قائلة :

ــ سأقصره ... لا شك أنك ستفحص طفلها ، أليس كذلك ؟... انها لن تعطينى الثوب حتى تفحص لها الطفل ...

ولسبب ما أدرك الطبيب أنه لا بد من حرمان (مارى) من الثوب بأى ثمن ... فقد تملكته فكرة غريبة مدارها أن الثوب يمكن أن يكون دليلا ضده فيما يتعلق بمقتل (شادويك) ... وهكذا قال لأخته :

– نعم ٠٠ سأفحص الطفل اذا أبطلت الكلام وذهبت عنى ٠

فجعلت (بريجيت) تقول همسا وهى تلعق شفتيها بشراهة :

– بارك الله فيك ٠٠٠ اذن سيكون الثــوب من نصيبى ! ٠٠٠ ان (مارى) طلبت جنيهين ثمنا للثوب ، لكنى كنت أعلم أنها ستقبل جنيها واحدا ٠٠٠ بامكانك أن تعرف متى يكون الشخص مستعدا لقبول ثمن أقل ، فان الخوف من امتناعك عن الشراء يبدو جليا فى نظراته ! ٠٠٠ انى تظاهرت أمامها بأنى غير محتاجة الى الثوب ، فالناس لايقبلون على شراء الملابس هذه الأيام ٠٠٠ والنتيجة المعروفة أنها قبلت مبلغ الجنيه الذى عرضته عليها ؛ ولكنها اشترطت لاتمام الصفقة أن تفحص طفلهــا ٠٠٠ وهى لن تتردد فى قطع المسافة الطويلة الى (كلوجر) سيرا لبيع الثوب هناك من باب الكيد اذا لم يتم البيع كما اشترطت ٠٠٠

كانت (بريجيت) تقول هــــذا كله بصوت هامس وبسرعة كبيرة وهى تتمتم وتتلعثم ٠٠٠ لكن الطبيب لم يكن ملقيا اليهــا بسمعه ٠٠٠ فقد انتابه دوار ولم يعــــد يطيق البقاء فى الفراش ، وأخذت صــورة (ايلى جليسون) وهى تعانقه تعاوده فى الحاح شديد ، واقترنت بها صورة (شادويك) وهو فى الغرفة المجـــاورة ملفوف العنق بالفوط الملطخة بالدم ٠٠٠ ثم سمع وكأن شخصا يصرخ عن كثب محذرا من قرب هجوم رجال البوليس بالحراب المسددة ٠٠ لكل هذه الصور كان عليه أن يغادر الفراش والا ساءت العقبى ٠٠٠ وكذلك صاح يقول لأخته غاضبا :

– كيف يمكن أن أفحص طفلها وأنت واقفة لا تتحركين ؟! ٠٠٠ أين هذه المرأة ؟ ٠٠٠

فأجابت (بريجيته) وهى تدنو من الباب :

– انها تحت فى الغرفة الصغرى خلف المطبخ ٠٠ انى أخفيتهـــا هنـــاك ٠٠٠

وخرجت بريجيت مسرعة ٠٠٠ ووثب الطبب من الفــراش ٠٠ أو هكذا خيل اليه أنه وثب منه ، وان كان الواقع أنه نزل يترنح ويتمايل ٠٠ فقد بلغ من الضعف حدا جعله لا يكاد يقوى على الوقوف ٠٠ لكنه أدرك أنه لابد له من ارتداء ملابسه حالا والخروج من الغـــرفة ٠٠ فان صورة (ايلى) وهى تعانقه ، وصورة (شادويك) وهو ملفوف العنق بالفــوط المخضبة بالدم ، وصورة الرجل الذى يحذر من رجال البوليس – كل هذه الصور الملحة جعلت البقاء فى الغرفة من أخطر الأمور عليـــه ٠٠ ولم يتمالك أن تناول الابريق وجعــــل يشرب بشراهة ٠٠ ثم دس وجهه فى حوض ماء بارد رد اليه بعض الاتزان وجعله يشعر بصفاء ذهنى ٠٠ لكن الغشاوة ما لبثت أن عادت اليه أشد مما كانت مقترنة بصور (ايلى) و (شادويك) والشخص الذى يصرخ ويحذر ٠٠٠ فارتدى ملابســـه وبرح الغرفة ٠٠٠ ٠٠٠ فشعر كأن الأرض ترتفع اليه حتى اضطر أن يتشبث بالحـــاجز وهو يهبط فى السلم ٠٠٠ كل ذلك وهو لا يدرك أن هناك أمـــرا خطيرا طرأ عليه ، فانه لم يعد يستطيع التفكير ٠٠٠

وقابلته (بريجيت) عند نهاية السلم وذهبت به الى الغرفة الصغيرة خلف المطبخ ··· فرأى (مارى) واقفة قرب الحـــائط كالمتسولة ··· وكانت منتصبة القامة تضم الطفل الى صدرها تحت (الحرمـــلة) ، وقد أمسكت لفافة بيدها ··· ولمح من نافذة خلف (مارى) عمته (جوليا) وهى تنظف اناء فى فناء البيت بالرمل ، فكان للصوت وقع شديد على أعصابه كاد يصرخ من وطأته ··· ونظر الى شعر عمته الاشعث الملتف حول وجهها ، فأحس بمقت شديد لها ورغبة فى ازهاق روحها ···

وحيته (مارى) بانحناءة يسيرة ··· ورآها تتطلع اليه بصـــورة غريبة وقد اتسعت عيناها وفغرت فاها ··· وارتدت خطوة الى الوراء وهى تضم الطفل الى صدرها ، لم تلبث أن حملقت فيه فزعة مرتاعة ···

وهنا شعر الطبيب أن حملا ثقيلا يضغط عليه ، وانه لا بد له من الكلام والا سحقه الحمل الثقيل ، فصاح قائلا :

ـ أنت جائعة ! ··· وطفلك جائع ! ··· كلى ! ··· كلى ! ... لا يمكننى أن أفعل لك شيئا ··· كلى ! ··· قلت لك كلى ! ···

واشتدت كثافة الغشـــاوة حتى حجبت عن عينيه صورة (مارى) وصورة عمته ··· ولكن سمعه زاد حدة ، اذ سمع المتكلم الوهمى يصرخ بهذه الكلمات :

ـ هو مصاب بالطاعون ! ··· الطاعون! ··· أبعدوه عن طفلى !··

وهوى الطبيب على الأرض وهو يسمع صوتا آخر يقول :

ـ اتركى لى الثوب يا مغفـــلة ! ··· خذى المبلغ ! ··· اعطينى الثوب ··· انك وعدتنى به ! ···

وأخذت الدنيا تلف وتدور بسرعة مخيفة ··· واندمـــج الطبيب فى هذا الدوران حتى لم يعد يعى شيئا ···

الفصـــل الخمسون

استيقظ (تومسى) من حلم جميل رأى فيه الرجل الاصفر الشعرعلى رأس جيش يقوده الى النصر ٠٠ وكان (تومسى) نفسه واحدا من أفراد هذا الجيش ، وغالبيته رجال ونساء من صميم الشعب ، ينتعلون أحذية من الخيش ٠٠٠ وكان بينهم جنود من جيش الملكة ، وكانوا يصيحون قائلين انهم لن يطلقوا رصاصهم على صدور مواطنيهم وهم من لحمهم ودمهم ٠٠ وكان بعضهم من رجال الجزائر ، ساروا يحملون قواربهم الخفيفة وكأنهم خنافس طويلة السيقان ٠٠٠

وقد تسلق هذا الجيش العظيم جبلا تكسوه النباتات الشوكية المعطرة ووجهتهم قمة الجبل ، حيث وقف الرجل الاصفر الشعر حاملا باحـــدى يديه رأس أحد الملوك يقطر دما ، وبالثانية سيفا لامعــــا جعل يشير به الى ناحية الأفق حيث كانت أشعة الشمس المشرقة تتوهج بألوانها المتلألئة ٠٠ فقد كان يشير الى أرض الخيرات الواقعة وراء قمة الجبل ٠

وفجأة ، عندما بلغت نشوة الانتصار غايتها ، ولم يبق بين (تومسى) وبين أرض الخيرات الا مسافة يسيرة ، اذا صوت يأمره بالوقوف ٠٠ وهنا سمرت قدماه فى الأرض ، ومرت به كتلة الجيش حتى جاوزته الى أرض الخيرات ، على حين وقف هو محسورا مقهورا ينصت الى الصوت الذى كان يقول :

ــ انه مصاب بالطاعون ! ان جسمه كله مغطى بالبقع كالخنزير ! ٠ انه سقط على الأرض وهو يصرخ ! ٠٠

وكذلك استيقظ (تومسى) من نومه وهو فى أشد الفزع ٠٠٠ فعلم أن الصوت الذى سمعه هو صوت (مارى) وهى تصيح فى المطبخ ٠ وأحس بألم شديد وهو يجلس فى فراشه ، فقد كانت أطرافه متصلبة من أثر المشى الطويل ، وذلك تفسير احساسه فى المنام بأن قدميه قد سمرتا فى الأرض ٠٠٠ ولم يجد فى ظلام غرفته العلوية أثرا للشمس الساطعة التى أشرقت على أرض الخيرات ٠٠٠ وكم كان فظيعــــا أن يدرك (تومسى) أن الرجـــل الأصفر الشعر لم يكن الا حلما ٠٠٠ ومثله فى ذلك الجنــــود الذين كانوا يقولون انهم لن يطلقوا النار على مواطنيهم الذين هم من لحمهم ودمهم ، وسائر كتلة الجيش الزاحف المؤلف من الرجال والنساء ! ٠٠٠

وسمع (مارى) تهتف قائلة :

ــ انى اشتريت الطعام بكل ما كان معى من نقود ٠٠٠ ان الطعام

هنا معى ··· لأنه من الخطر بعد الآن أن يذهب الانسان الى متجر (هاينز) بعد أن دخله الطاعون ··· انى سأبتعد منذ الآن عن القرية ···

وأراد (تومسى) أن يضطجع مرة أخرى وأن يغمض عينيه ليستعيد تلك النشوة التى قطعها عليه كلام (مارى) ··· لكن صوتها المفعم بالخوف حال بينه وبين الاضطجاع ، كما حال بينه منذ لحظات وبين بلوغ قمة الجبل

يشعر (تومسى) بالرثاء لحال (مارى) ··· وهكذا نهض قائما وهو يتوجع من الألم ، فأدلى السلم ونزل الى المطبخ ·· فوجد العجائز الثلاث مع (مارى) ، وكانوا جميعا يتكلمون بانفعال ·· فخالطه اضطراب فى تفكيره ولم يستطع أن يفهم كلامهم ··· وشعر بألم حاد فى جبينه وتيبس موجع فى عظامه وطنين فى أذنيه ·· أن أصوات المتكلمين هؤلاء ضاعت واندمجت فى غمار أصوات أخرى أجل منها تنبعث فى داخله : أصوات أناشيد يرددها الهواء ، ووقع أقدام أناس يسيرون الى قمة الجبل ··· لا بد له ان يكلم (مارى) عن السعادة العظمى المدخرة للبشرية جمعاء اذ يحررها الرجل الاصفر الشعر من خوف المجاعة ···

وكذلك جعل يقول لمارى برقة :

ـ ألا يمكنك الصبر والانتظار يا عزيزتى ؟ ··· لا تفقدى الأمل فى هذا الوقت الذى جاء فيه رجال سيعملون على اخراجك أنت وزوجك من هذه البلاد ·· انه وعدنى وعدا قاطعا ··· لن تمضى الا فترة قصيرة حتى تأتيك الأنباء من الرجل الاصفر الشعر ···

لكن (مارى) استدارت اليه بشراسة وهتفت قائلة :

ـ شبعنا كلاما عنك وعن رجلك الأصفر الشعر ! ·· يالها من حكاية جميلة جئت بها من الجزائر الغربية ! ·· انى أرسلتك الى هناك وكان يجب أن أذهب بنفسى ·· لقد فات الآن وقت الكلام عن الرجال ذوى الشعر الأصفر ··· لم يبق ما نفعله سوى انتظار الموت ! ··· لقد جاء الطاعون ! ··· وعن قريب ستغطى طرقات الوادى وشوارع القرية والبلدة بجثث الموتى المتعفنة ! ··· ان الفساد يحوطنا من كل جانب ، ولم يبق لنا ما نعتمد عليه سوى الملابس البالية التى تستر ظهورنا ··· ان الكيس الذى تراه هناك فيه كل الطعام الذى جئت به من ثمن ثوب العرس ·· يالها من نهاية جميلة لزواجى ! · لقد أصبح زوجى هاربا ، وانتقل ثوب العرس ليكون زينة لفتاة قبيحة مخبولة ! ··· وأنا هنا أكاد أموت خوفا من أن يصاب (ميخائيل) الصغير بعدوى الطاعون ! ·· لا تكلمنى عن المبادىء وعن الرجال ذوى الشعور الصفراء ··· خير لك أن تضع وجهك على حافة الصخرة المجاورة للبيت وتعوى كالكلب ، لانك ستموت من الجوع ما فى ذلك شك ! ···

وكانت (مارى) جالسة فوق مقعد صغير قرب المدفأة ترضع طفلها وقد ضمت باحدى يديها طرف (الحرملة) فوق الطفل وأمسكت بيدها الثانية قطعة من الخبز ··· ولما فرغت من كلامها أخذت تأكل الخبز بشراهة

شديدة وتملأ به فمها وكأنها تشعر بحاجة ملحة لايجاد لبن لطفلهـــا ٠٠٠ وبدت (مارى) اذ ذاك زائغة البصر منفوشة الشعر الى حد انه تدلى فوق وجنتيها ٠٠٠ وكانت قدماها الحافيتان مغبرتين ، وثوبها العتيق مرقعا ٠

وتكلم (تومسى) ، فهتف قائلا :

ـ أواه يا (مارى) ! ٠٠٠ هل تظنين أنى أحاول خداعك بعـــد أن جعلت من هذا البيت الحقير قصرا أسكنه ، منذ أن جئت أنت فيه ؟ ٠٠٠ هل أكذب عليك وكنت دائما مثال الطيبة نحوى ؟ ٠٠ تأكدى أن قلبى يدمى وأنا أراك تبيعين ثوبك الجميل ومشـــــطك البديع ، وكنت وأنت تظهرين بهما يوم الأحد فى الكنيسة كأنك ملكة على رأسها التاج ٠٠ أقسم يا (مارى) أن (تومسى) المسكين ليس هو الرجل الذى يخيب ظنك ٠٠ وانى لا أتردد فى شق بطنى بسكين هذه اللحظة أمامك ، ان كان فى هذا ما يسعدك ٠٠٠

وبسط يديه توسلا واســـتعطافا وجرت دموعه مدرارا ٠٠٠ لكن (مارى) نظرت اليه ببرود وقالت كلاما لم يستطع أن يسمعه بعد أن عصاه السمع ٠٠٠ فقد اشتد الاضـــطراب الذى يعتمل فى داخله ٠٠٠ وغدت الأصوات التى تردد الأناشيد والهتافات الحماسية صاعدة الى قمة الجبل لبلوغ الارض الموعودة ، عالية مدوية ٠٠٠ ولما نظر (تومسى) حولهمرتاعا رأى الرجل العجوز يراقبه ٠٠٠ كان العجوز دائما يناصبه العداء ، وقـــد أدرك (تومسى) الآن معنى هذه العداوة : فان العجوز يعده كما مهملاوكائنا حقيرا ٠٠٠ وهنا بلغ الانفعال الداخلى فى نفس (تومسى) مداه ، حتىصاح قائلا :

ـ لست أنا الذى يأكل الطعام الذى جئت به يا (مارى) ! ٠٠٠ ان هذا الطعام لك ولطفلك وحدكما ٠

وخفت حدة اضطرابه الداخلى ٠٠٠ وعصاه السمع مرة أخرى حتى لم يستطع أن يستمع ما كانت تقوله المرأتان العجوزان وان أدرك أنهما تولولان

ولم تلبث (مارى) أن نهضت وأمســكت يـده وكلمتـه ٠٠ فرأى الدموع تترقرق فى عينيها ، ولكنه لم يفهم كلامها ٠٠ غير أنه لم يحفلبهذا لأن محياها عاد اليه جماله بتلك الدموع التى انبثقت فى عينيها ٠٠٠ ومرة أخرى أخذت الجموع الصاعدة فى الجبل تردد أناشيد النصر ، وجعـــل الجنود يقولون انهم لن يصوبوا الرصاص الى صدور أخوانهم الذين هم من لحمهم ودمهم ، ووقف الرجل الاصفر الشعر فوق قمة الجبل وقفة الظافر المنتصر ٠٠٠ وهنا انحنى (تومسى) أمام (مارى) وقبل يدها، ثم تطاول الى الطفل وقبل يده أيضا وهو يقول همسا :

ـ بارك الله فيكما ٠٠٠

فردت عليه (مارى) قائلة :

ـ وفيك يا (تومسى) العزيز ٠٠ ان الكلمات التى قلتها لك لمتصدر من قلبى ، ولم يكن سببها غير الخوف ٠٠

لكن (تومسى) لم يسمع كلامها ، فقد ضاق به البيت حتى أسرع الى الخارج لئلا يختنق ٠٠ كان المطر يتساقط رذاذا ٠٠٠ فسار الى الزقاق منحنى الهامة في جهد وهو يشعر بالمطر يسقط على وجهه فيلطف مما به حتى ذهب عنه الصداع واستطاع أن يعود الى التفكير فى حلمه الجميل مسرورا هانئا ٠٠٠ وجعل يسير الى جهة القرية وهو ينصت الى الأناشيد الحماسية يرددها الجنود الصاعدون فى الجبل ٠ وعندما مر بكوخ (أوهانلون) رأى الاطفال الثلاثة واقفين خارج الكوخ يبكون وهم فى شر حال من النحول وتمزق الثياب ٠٠٠ فقال لهم :

ـ لماذا تبكون ؟ ٠٠٠

فأجابت (جوليا) بصوت خافت :

ـ أمنا ذهبت ! ٠٠٠ خرجت فى الليلة الماضية ! ٠٠٠

ـ والى أين ذهبت ؟ ٠٠٠

ـ لا نعرف ٠٠٠ نحن جائعون ! ٠٠٠

ـ هل ذهبت الى القرية ؟ ٠٠

ـ لا نعرف ٠٠٠

وأخذ الاطفال الثلاثة فى العويل ، فقال لهم (تومسى) وقد شعر بالصداع يعود اليه وبأصوات الاناشيد تعلو الى حد الهدير :

ـ سأجيء بها لكم من القرية ٠٠٠

وسار الى القرية مسرعا ليبتعد عن هؤلاء الصغار الذين رآهم يريدون ولا شك اختطاف الطعام من (مارى) وهو يجب أن يكون لمارى وطفلها وحدهما ٠٠٠

وبينما كان يمر بكوخ النساج رأى (سالى أوهانلون) قادمة نحوه ٠٠٠ وكانت تسير حافية فى المطر المشتد بخطى واسعة كخطى سكير ، ورشاش الوحل ينبعث من تحت قدميها ، وهى تجر شالها الأسود خلفها، وقد ربطت فى طرفيه شيئا كان يتواثب على الارض كالكرة ٠٠٠ وكانت ترفع يدها اليمنى فوق رأسها وتقول كلاما لم يستطع (تومسى) أن يسمعه بعد أن عصاه السمع من جديد ٠٠٠ ولما مرت به قال لها :

ـ ان أطفالك يبكون من أجلك ٠

لكنها مرت به دون أن تلتفت اليه وكأنها لم تعرفه ولم تسمع كلامه، وما برحت ترفع يدها الى رأسها هاتفة مرددة قولها : (لحم ميت) ! ٠٠٠

ووصل (تومسى) الى القرية ٠٠ فوجد جمعا حاشدا من الناس يقفون أمام دار المحكمة غير مبالين بالمطر الغزير ٠٠٠ فوقف قربهم وجعل ينظر مثلهم الى باب المحكمة حيث علقت لافتة تحمل هذه الكلمات : (لجنة تخفيف المجاعة) ٠٠٠ وكان الباب موصدا ولا يبدو أن هناك أحدا فى داخل

المحكمة ٠٠ لكن المتجهرين وقفوا ينتظرون صـامتين مؤملين أن يفتح الباب ويخرج اليهم من يغيثهم من الجوع ٠٠٠ فوجد (تومسى) عزاء فيالوقوف معهم صامتا أسوة بهم ٠٠٠

وارتفع من الناحية المواجهة للكنيسة صوت مطرقة تدق ٠٠ في حظيرة ٠ وبعد برهة رأى (تومسى) رجلين يخرجان من الحظيرة ومعهما تابوت سارا به في أحد الأزقة يتبعهما نفر من الناس ٠٠٠ ثم ظهرت في الطريق مركبة آتية من ناحية (كلوجر) ٠٠٠ وسرعان ما تدافع الجمع نحو المركبة وهم يحسبون أن بها طعاما لتوزيعه عليهم ٠٠٠ ولكن المركبة وقفت أمام الفندق ونزل منها رجلان دخلا الفندق مسرعين ٠٠٠ فقالت امرأة بين الناس :

ـ انهما جاءا من البلدة من أجل الطبيب ٠٠ فقد أصيب بالطاعون ٠

والحق أن (تومسى) انتفض عند سماعه كلمات المرأة ٠٠٠ ومرة أخرى شعر بأن قدميه سـمرتا في الأرض وأن الجيش الزاحف يمر به ويجاوزه الى قمة الجبل ٠٠٠ وهكذا أسرع بالابتعاد عن القرية لئلا تنتقل عدوى الطاعون الى (مارى) وطفلها ، فتظهر عليهما البقع الحمراء ويموتان بحمى الخنازير قبـل أن يتمكنـا من بلوغ أرض الخيرات ٠٠٠ واذ ذاك شعر (تومسى) بالبرد يسرى في جسده ، وأحس أن معدته تتصـلب وتستحيل الى ما يشبه الكرة ٠٠

وعاد الى البيت والليل يرخى سدوله ٠٠ فدار حوله ودخل الجرن حيث رقد في أحد أركانه فوق كوم قش ٠٠٠ وسرعان ما اسـتغرق في النوم ٠٠٠ ولم يعرض له الحلم مرة أخرى في نومه ٠٠٠ فلما استيقظ في الصباح وجد العجوز منحنيا فوقه ، وقد نخسه بعصاه قائلا :

ـ ماهذا ؟ ٠٠٠ هل عدت الى السـكر ؟ ٠٠٠ هل عدمت الحياء والخجل ؟ ٠٠٠

فأجاب (تومسى) :

ـ ماذا بك يا أخي ؟ ٠٠٠ انى نمت هنا خوفا من أن أكون مصـابا بالطاعون ٠٠ انى أردت ألا أنقل الطاعون الى البيت وأعـدى (مارى) ٠٠٠ اتركني وحدى ٠٠٠

فقال بريان وهو يتراجع فزعا :

ـ الطاعون ! ٠٠٠ ما الذى أدخل هذه الفكرة في رأسك ؟

فتأوه (تومسى) لشدة الألم في عظامه ٠٠٠ ومع هـذا فقد تمالك حواسه تماما ، وعادت اليه حدة السمع وانقطع الاضطراب في داخله وذهب عنه تأثير الحلم ٠٠٠ وقال للعجوز :

ـ انى ذهبت الى القرية ٠٠٠ وهناك سمعت امرأة تقول ان الطبيب أصيب بالطاعون ٠٠٠ ولا يبعد أن الطاعون أصبح منتشرا بين الناس ٠٠

فأسرع العجوز بالخروج من (الجرن) ٠٠٠ وحاول (تومسى) أن

ينهض من القش ، لكنه لم يستطع ، فتنهد واستلقى مكـــانه ··· وبعد برهة هرعت (مارى) الى داخل الجرن ومعها اناء به عصيدة ·· فجثت على ركبتيها بجانبه وهى تقول :

ـ آه يامسكين ! ··· هل قضيت ليلتك هنا ؟ ··· ما هذا الكلام الذى تقـــوله عن الطاعون ؟ ··· أم انك تألمت من الكلام الذى قلته لك أمس ؟ ·· لو أنى تنمرت لك بعد قيامك بتلك الرحلة المخيفة من أجلى لكنت مخلوقة متحجرة القلب ناكرة للجميل ··· اشرب هذا يا عزيزى · انك لم تأكل شيئا منذ مدة ··· انك تهلك هكذا ، خصوصا بعد ابتلالك بالمطر أمس ··· لماذا لا تأتى الى البيت لتستدفىء ؟ ····

فأخذ (تومسى) يقول همسا والدموع تجرى على خديه :

ـ بارك الله فيك يا (مارى) ! ··· انك فتحت أبواب السماء لى بكلامك الحلو الطيب ··· دعينى ألمس وجهك بيدى ··· ليس بى طاعون وانما هو الخجل لأنى لم أعد اليك (مارتن) ··· خذى هذا الطعـــام يا (مارى) ··· كيف انتزع اللقمة من فمك ؟ ··· أنت محتاجة اليه كله ··· أنت شابة ومعك طفل لابد له من الطعام ··· لتكن لكما الحياة ··· أما أنا فلست الا جثة ! ··· أنا ســــكير محطم خير له الموت · آه يا أختى ! ··· ما أبدع أن تلمس اليد وجهك الصبوح ! ···

كان (تومسى) يقول هذا الكلام بلهجة الابتهاج وهـــو لا يخلو من التلعثم وقد تناثر بعض الزبد على شـــفتيه ·· ولم تتمالك (مارى) من البكاء وهى تنصت اليه ، غير أنها تكلفت الغضب وأدنت الاناء من شفتيه قائلة بعزم :

ـ لا تقل هذا الكلام الفارغ ··· اشرب هذا ··· الظاهر أنك تخرف ··· اشرب هذا ثم قم وتمدد فى الشمس ··· هذا يوم مشمس والحمدلله ·· ان الشمس ستجدد حياتك ··· اشرب حالا ···

فهتف (تومسى) وهو يبتعد عنها :

ـ لا تخجلينى يا أختى ···

غير أنها ألزمته أن يشرب السائل ··· وبقيت معه حتى فرغ ··· ثم حملته على النهوض والخروج الى الشمس ··· والواقع أن الطعام أمده بالقوة حتى استطاع الآن أن يمشى وأن يتحرك ، ولكن الاضطراب الداخلى ما لبث أن عاوده ، وانقلب عليـه رجال الجيش الزاحف الى قمـة الجبل يصرخون فيه ويسبونه ··· فسار الى النهر وانبطح على وجهه بين الحشائش الطويلة النامية على الضفة ··· وعند ذلك انقطع الصراخ واستحال خرير النهر فى سمعه الى أغنية مظفرة ··· وبدا له الرجل الاصفر الشعر واقفا عند الأفق شاهرا سيفه ، ولكنه لم يمسك هـــذه المرة برأس أحد الملاك ، وانما كان يبتسم ابتسامة غامضة ···

وجاءت (مارى) فى المساء وأيقظته ورجعت به الى البيت حيث حملته

على الصعود الى غرفته العلوية وغطته لكي ينام ··· لكنه لم يجد الى النوم سبيلا ··· وظل طول ليلته مستيقظا يفكر محزونا خجلا فيما أكل من طعام (ماري) ··· ولما سمع حركتها في الصباح نزل اليها في المطبخ حيث كانت تشعل النار ، فقالت له :

ــ هل أنت بخير يا عزيزي ؟ ···

وكانت تبتسم وقد بدت عليها امارات السعادة ، وان ظهرت تحت عينيها دوائر قاتمة ··· فنظر اليها (تومسى) وهو يرتعد ··· فقالت له :

ــ انى رأيت في المنام حلما جميلا يا (تومسى) ···

ــ حلم ؟ ···

ــ نعم ·· هو الحلم الذي رأيته من قبل مرتين ··· وقد رأيته لثالث مرة ··· فلابد أن يكون صحيحا ···

فقال (تومسى) وهو يتفرس فيها :

ــ وماذا كان الحلم ؟ ··

فجعلت (ماري) تقول همسا :

ــ زارني ملاك في المنام ونقلني في سفينة الى أمريكا وكان (مارتن) معي ··· انه كان حلما جميلا ، وأنا في غاية السعادة من بعد ما رأيته ··

فركع (تومسى) أمامها على ركبتيه وأخذ يدها وقبلها ، ثم تطلع الى وجهها قائلا :

ــ صدقت يا (ماري) ··· لا تفقدي الأمل ··· ان الرجل الاصفر الشعر سيخبرنا في الوقت المناسب ·· انتظرى كلمة منه ···

فنظرت اليه (ماري) مرتابة مقطبة ·· فاستوى على قدميه وهو يبتسم لها ابتسامة غريبة ··· ثم استدار واتجه الى الباب ، فقالت له بحدة :

ــ الى أين تذهب ؟ ···

ــ سأخرج فترة ···

ــ لا تذهب بعيدا ، لأني سأجهز لك عصيدة ···

ــ لن أذهب بعيدا ···

وما كاد (تومسى) يبتعد حتى شعر بطنين في رأسه ، وخيل اليه كأن فقاعة تنتفخ ثم تنفجر في دماغه ··· وبدا له في كل خطوة يخطوها كأن جسده يرتفع عن الأرض ثم يهبط بقوة ··· ولم يعد يشعر بالحركة أو يميز شيئا حوله ··· فالارض ، والسماء ، والجبال ، والطريق ــ كلها اندمجت واستحالت الى شيء غائم مبهم المعالم ··· فليتقدم وليمض في

طريقه ··· ولم يبق أمامه وقت يضيعه ··· وبلغ الاخدود الجبلى فأخذ يرتقيه ··· وسال زبد كثير على شفتيه ، وانتقلت الفقاعة الى معدته حيث أخذت تنبسط وتنقبض ··· ترى هل بقى أمامه وقت لبلوغ ما يريد ؟ لقد جعل يبذل مجهودا مضاعفا للاسراع فى زحفه عبر الاخدود الضيق للوصول الى القمة قبل أن تنفجر الفقاعة ···

وبلغ الكهف الذى اعتصم به مارتن يوم أن فر جريحا اثر الشغب الذى حدث فى قصر كروم ·· وكان أمام الكهف بركة تجمع فيها المـــاء متساقطا من صخرة عالية فوق الكوخ استطالت حولها الحشائش النامية بين المنافذ الصخرية المحيطة بالبركة ·· وكان للماء المنحدر من عل خرير كأنه أنين عميق ·· فما لبث تومسى أن جعـــــل يسير متخبطا على يديه وركبتيه فى هذه الارض الطحلبية وقد استحال خرير المـاء فى سمعه الى هدير عنيف وتمددت الفقاعة حتى أخذت تضغـــط على جدران معدته ·· فانتابه خوف شديد جعله يقـــوم على قدميه مترنحـــا ويزحف الى داخل الكهف · وما هو الا أن تمدد فوق الارض الصخرية حتى انفجرت الفقاعة ·

وهنا فارقه الالم وابتعد عنه هدير الماء الذى استحال الى خرير رقيق عذب النغم أخذ يتلاشى على البعد ، حيث وقف الرجل الاصفر الشعر فوق قمة الجبل ، شاهرا سيفه المجرد الذى انعكست فوقه أشـــــعة الشمس المشرقة ··

وما لبث رجال الجيش الزاحف أن نادوه ، فذهب معهم يشـــــقون طريقهم جنبا لجنب بين النباتات الشوكية العطرة الى الارض الموعودة ··

الفصل الحادي والخمسون

قالت ماري وهي تجلس مع أفراد الاسرة الى العصيدة التي أعدتها لهم :

ــ ترى ما الذي أخر تومسي حتى الآن ؟ ‥ قال لي انه سيخرج فترة ‥ ان المسكين تغير منذ رجع من رحلته ‥

لكن أحدا من العجائز الثلاث لم يعبأ بكلامها ، فقد اشتد بهم الجوع الى حد أنهم لم يهتموا بتومسي ‥ وكانوا يعلمون أنهم لن يفوزوا بطعام آخر حتى صباح اليوم التالي ، ولذلك أقبلوا على أنصبتهم من العصيدة يلتهمونها بشراهة شديدة ‥ وكانت ماري بدورها مستغرقة في الحلم الذي رأته في منامها فلم تعد الى التفكير في تومسي الا بعد أن فرغت من طعامها ‥ وقد أدى الارهاق العصبي الذي كانت تعانيه الى اشتداد تأثرها بالحلم ، وشعورها بسعادة جعلتها أقرب الى المحموم ، وزاد يقينها من أن الهرب غدا أمرا محققا ‥

وقالت ماري وهي تنهض عن الخوان بعد أن تذكرت تومسي :

ــ يا له من مسكين ‥ أن نصيبه من العصيدة سيبرد ‥

فنظر العجوز الى وعاء تومسي بشراهة وقد جعله مشهد الوعاء يشعر بشدة الجوع ، وقال متبرما :

ــ انه شرد مرة أخرى فيما أظن ‥ والافضل ألا تتلف العصيدة ‥

وتطلع الى ماري مؤملا أن تقسم ما في الوعاء بينهم ، فقالت ماري :

ــ لن تنالوا منه شيئا ‥ سأذهب لاستدعائه ‥

وخرجت الى الفناء وجعلت تنادي تومسي بأعلى صوتها ‥ فلم تجد مجيبا ‥ فانتابها القلق ‥ وتذكرت ما كان من غرابة حركاته وهو يقبل يدها راكعا ، وما كان من حديثه عن السفينة وعن الرجل الاصفر الشعر ‥ فهل معنى هذا أنه ذهب مرة أخرى للبحث عن مارتن ، بعد أن خجل من فشله في موافاتها بأنبائه ؟ ‥

وعادت الى المطبخ ، فوجدت العجائز الثلاث يتخاطفون العصيدة بشراهة من وعاء تومسي ‥ فانتزعته منهم قائلة :

ــ يا للعار ! ‥ ألا تخجلون من أنفسكم ؟ ‥

فجعلوا ينظرون اليها وكأنهم أطفال مشاكسون ، ثم تفرقوا في ركن

المدفأة وجلسوا القرفصاء ·· أما هي فقد رفعت الوعاء بعيدا عنهم وعادت الى الباب ووقفت تتطلع شطر الوادى ·· فرأت الغيوم الداكـنة تكتنف قمم الجبال حتى حجبتها وأخذت تهبط منها الى السفوح كأنها مد زاحف · وكانت الشمس بادية للعيان فى سماء مربدة ، لكنها بدت كقمر شاحب لا حرارة فيه ·· وانتشر فى الجو ضباب بارد جعلها ترتجف ·· ان هذه البوادر هى نذير الشتاء القريب · ان هذا السكون العبوس الذى يزحف على الارض الجرداء هو سكون الموت ··

وقالت « مارى » مرة أخرى :

ـ لو ذهب «تومسى» مرة أخرى للبحث عن « مارتن» لكان معنى ذلك فى نظرى أنى أرسلته الى موته ··

فلم يجب العجائز الثلاث ··انهم لايهتمون «بتومسى»،وهم ساخطون بسبب جوعهم الذى لم يجد ما يشبعه ·· ولعل أغرب ما فيهم هو تزايد شهيتهم ونهمهم الى الطعام برغم اضمحلال قواهم ··

وخرجت مارى مرة أخرى الى الفناء وصاحت تنادى تومسى ·· فلم يجبها أحد ·· وعند ذلك طلبت الى أمها أن ترعى الطفل ثم أسرعت الى دار (سالى أوهانلون) لعلها أن تكون رأت تومسى ·· وقد نادتهـــا وهى تقترب من الدار فلم تجد مجيبا ، واستغربت عدم رؤية أبناء «سالى» وقد اعتادوا الجلوس فوق السور المطل على الطريق يستجدون المارة ·· وظلت «مارى» تتقدم حتى صارت على قيد عشر ياردات من باب الكـوخ المفتوح فوقفت مكانها مضطربة ونادت قائلة :

ـ أين أنت يا «سالى» ؟ ·· هل رأيت «تومسى» ؟ ··

فلم يجبها أحد ·· ولكن «سالى» ظهرت فى مدخل الكوخ بعد لحظات وقد رفعت ذيل ثوبها فوق كتفيها ، وبدت لامعة العينين شديدة امتقـــاع الوجنتين ، وابتسمت قائلة :

ـ ادخلى يا عزيزتى ·· ان الاولاد هدءوا الآن ·· انهم ناموا ·· لكن لا ترفعى صوتك لئلا يستيقظوا ·· انهم محتاجون الى راحة طويلة ! ··

ورفعت يدها الى شفتيها وهى تبتسم ابتسامة مضحكة ·· فأخذت «مارى» تقترب من الكوخ متباطئة ، «وسالى» تقول بصوت خافت

ـ انى فزت بقطعة لحم فى القرية ·· لا تتضايقى منى يا «مارى»لأنى حصلت عليها بالطريقة التى حصلت أنت بها على اللحم المقدد ·· انها كانت نصف كلب ، وقـــد جاهدت حتى نلت نصيبى منه ·· نحن فى أوقات عصيبة ، والفائز هو من يمكنه أن ينال شيئا ·· وقد وضعت اللحم فى الاناء والاطفال المساكين لا يستطيعون الانتظار حتى يغلى ·· فهم لم يأكلوا شيئا منذ مدة طويلة ·· وقد ظنوا أنى قد ذهبت عنهم ، ولكن هـــذا لم يحصل ·· اننى كنت دائما أما طيبة أحافظ على الابنـاء الذين وهبهم الله لى ·· ادخلى يا حبيبتى ·· لكن لا تحدثى صوتا لئلا يستيقظوا ·

ووقفت جانبا تفسح الطريق لماري الى داخل الكوخ ٠٠ وأشارت الى الاطفال الثلاثة الذين تمددوا صفا واحدا فوق الحصير ٠٠ وجعلت تقول همسا :

ــ ها هم أمامك ٠٠ انهم ساكتون كالحملان الوديعة ٠٠ انهم كانوا يشتهون قطة لحم ٠٠ وقد تقيئوا من اللحم أول الامر ، ولكنهم هدءوا بعد ذلك ٠٠ ثم أرقدتهم ووضعت الغطاء فوق رءوسهم ٠٠ وبعد قليل انتهى بكاؤهم ٠٠ انهم الآن ساكتون كالحملان ٠٠ انظرى اليهم وهم نائمون !٠٠ ناموا يا أعزائى ، فان أمكم معكم لا تترككم أبدا ٠٠ انظرى اليهم يا «مارى» تحت الغطاء ، لكن لا تكلميهم لئلا يستيقظوا ويعودوا الى البكاء ٠٠

وتطلعت الى «مارى» بعينين زائغتين ، وأردفت تقـــول بشراهة وفى صوت كالفحيح :

ــ يجب ألا يعودوا الى البكاء من جديد ٠٠

ولكن عندما نظرت اليها «مارى» وهى فى أشـــد الارتياع ، انبسطت ملامح «سالى» مرة ، وقالت برقة :

ــ اذكرى اسم الله عليهم يا حبيبتى ٠٠ باركيهم فى نومهم الطويل ٠

فانحنت «مارى» فوق فراش الاطفال مدارة لهذه المرأة المجنونة وهى فى فزع شديد منها ٠٠ ولكنها بدلا من أن تباركهم وضعت يدها على فم أقرب الاطفال اليها ،وفجأة استقامت فى مكانها ، ونظرت الى «سالى»مروعة وقالت لها :

ــ لكنهم أموات يا « سالى » ٠٠ ان أنفاسهم معدومة ٠٠ انهم ليسوا نائمين ٠٠ انهم لن يستيقظوا أبدا ٠٠ انهم أموات ٠٠

فلمعت عينا «سالى» بشراسه وضحكت ضحكة خشنه شديدة ثم هتفت بصوت مرتفع :

ــ وماذا يهمك من هذا ٠٠ اهتمى بأمورك فقـــط ٠٠ أقول لك انه لم يقتل هنا أحد ٠٠ واذا كانوا أمواتا فمن حقهم أن يموتوا ٠٠

فرفعت «مارى» يديها الى وجهها وهتفت بلهجة هستيرية :

ــ يا لطيف ٠٠ ما هذا الكلام يا أختى ؟٠٠

وشعرت «مارى» بغثيان واندفعت الى الباب تتبعها «سالى»٠٠ولماوقفت «مارى» منحنية فوق السياج هتفت بها «سالى» قائلة :

ــ كان من حقى أن أخلصهم من العذاب ٠٠ وسأدفنهم بعد أن اشبع من النظر اليهم انى لم أحتمل رؤيتهم وهم يصرخون من الألم وليس هناك من يسعفهم ٠٠ أن لحم الكلاب لم يؤد الا الى زيادة ألمهم وصراخهم ٠٠

فرفعت مارى رأسها ومسحت فمها وراحت تركض بكل قواها عائدة الى البيت ٠٠ ولما سارت مسافة قصيرة جعلت تصيح منادية (تومسى) ٠٠ فسمعها العجائز الثلاث وخرجوا الى الفناء ٠٠ ولما وصلت اليهم كفت عن

الصياح وأجهشت باكية ، ثم هرعت الى أمها وارتمت عليها تطوقها بذراعيها حتى كادت المرأة العجوز أن تقع بين يديها ٠٠ وقالت «ماري» لأمها همسا:

ـ ماذا فعلت بميخائل الصغير ؟ ٠٠

فأجابت أمها قائلة :

ـ ماذا أصابك يا حبيبتى ؟ ٠٠ ان «ميخائيل » نائم فى فراشه ٠٠

فتركت «ماري» أمها وقالت وهى تشير الى «سالى» التى كانت واقفة فى الطريق تلوح بيديها :

ـ ان «سالى» قتلت أولادها ٠٠ انهم الآن أموات فى البيت ٠٠

فشخصت أبصارهم الى «سالى» وقد فغروا أفواههم ٠٠ واقتربوا من السياج ووقفوا يتطلعون الى ناحيتها وقد تكاثف الضباب حتى كادت أنظارهم الكليلة تعجز عن تمييزها ٠٠ وكانت «سالى» تصيح ولكن تعذر عليهم أن يتبينوا كلامها على البعد ٠٠ وبدا أن هذا النبأ لم يكن له تأثير يذكر فى نفوس العجائز ، وكأنهم لم يقفوا هكذا الا بدافع من الفضول ٠٠

وقالت «ماجى» :

ـ انها تقول شيئا ٠٠ ربما كانت تطلب منا أن نحضر الجنازة ٠٠

فصاحت «ماري» قائلة :

ـ جنازة ؟ ٠٠ لا شك أنكم مجانين ! ٠٠

وقال العجوز :

ـ انها كانت دائما لصة ٠٠ وكنت أعتقد أنها لا بد أن تصاب بمكروه ٠٠

فتركتهم «ماري» وأسرعت الى داخل البيت ٠٠ فوجدت الطفل قد استيقظ وأخذ فى البكاء ٠٠ فحملته وجلست به قرب المدفأة وجعلت تهزه بين ذراعيها ودموعها تجرى غزيرة ٠٠ وقد هدأ البكاء اضطرابها العصبى، وأخذ الفزع الذى انتابها يستحيل تدريجيا الى سعادة هادئة ٠٠ فان وجود الطفل بين يديها جعل كل ما عداه شيئا لا قيمة له ٠٠ انه سليم من كل سوء ٠٠ وقد أخذت تناغيه وتهزه فوق ركبتها ٠٠ وراحت تبكى من خلال دموعها الجارية ٠٠ وجعلت تلمس وجنتيه بأنفها ٠٠ فكف الطفل عن البكاء وحرك يديه الصغيرتين كأنما يريد معانقتها ٠٠ فكان فى هذه الحركة بهيجا حتى أخذت تقول له :

ـ لن تنام يا ميخائيل الصغير ٠٠ ستركب سفينة كبيرة جدا مع أمك ، وسيكون أبوك معنا ٠٠ وستسافر فى البحر مسافة طويلة الى بلاد غنية ٠٠ وسنجد فيها كل ما نريد من طعام يا «ميخائيل» الصغير ٠٠

وفجأة سمعت ماجى تصيح قائلة :

ـ الى أين تذهبين يا سالى ؟ ٠٠

فخرجت «ماري » مسرعة تحمل الطفل وانضمت اليهم لدى السياج ٠٠ فرأت «سالى» تشير ببطء فى اتجاه الجنوب وهى تجر شيئا خلفها ٠٠ فقالت «ماري»

ـ ماذا تفعل «سالى» ؟ ٠٠

فأجاب العجوز :

ـ انها لا تفعل الا كل ما هو شيطانى ٠٠ هذا رأيى فيها دائما ٠٠

فوقفت «ماري» فوق مرتفع واستطاعت أن ترى «سالى » وقد لفت جثث الاطفال الموتى فى الشال وأخذت تجرهم خلفها لدفنهم ٠٠ فالتفتت الى العجائز وقالت لهم بشدة :

ـ ادخلوا البيت ولا تقفوا هكذا تتفرجون على امرأة مريضة ٠٠

فقالت أمها :

ـ أنت والله على حق ٠٠

وقالت «ماجى» :

ـ هل وجدت أى أثر لتومسى ؟ ٠٠

فأجابت «ماري» :

ـ سأذهب للبحث عنه ٠٠ ولو وجدته فربما أمكنه الذهاب الى القسيس فى القرية ٠٠ يجب أن يعرف القسيس ما جرى لسالى ٠٠

وخرجت «ماري» الى الزقاق وسارت قليلا وقد اشتد الضباب حتى استحال أن ترى الى مسافة بعيدة ٠٠ وشعرت بالضباب يثقل عليها حتى تعذر عليها أن تفكر فى شىء ٠٠ وما لبثت ان رأت الكلب (أوسكار) آتيا نحوها ٠٠ ولما نادته وقف مكانه ، ورأت بطنه شديدة الامتلاء وكان ينظر اليها خلسة ٠٠ ونادته مرة أخرى ولكنه أبى الاقتراب منها ، بل اخفى ذنبه بين رجليه الخلفيتين ورفع شعر معرفته وزمجر ثم وثب فوق السياج وجرى فى اتجاه النهر ٠٠ فشعرت ماري برعدة ورجعت الى البيت ٠٠ ونظرت خلفها قبل أن تدخل فرأت الكلب لدى النهر يشرب منه ٠٠ ولما دخلت قالت لها ماجى :

ـ هل رأيت أثرا لتومسى ؟ ٠٠

فأجابت ماري متعبة :

ـ رأيت الكلب فقط ٠٠ لا تتركوه يدخل البيت بعد الآن ٠٠

وكان العجوز منكمشا على نفسه قرب النار مغمض العينين ، فما أن سمع كلامها حتى اعتدل فى مكانه وهتف قائلا :

ـ ولماذ ؟ ٠٠ ان الكلب هو عزائى الوحيد ٠٠ تعال يا أوسكار ٠٠

ولما لم يجد العجوز جوابا لندائه خرج يبحث عن الكلب ٠٠ فدخلت «ماري» غرفتها وجلست على حافة الفراش وهي تناجي نفسها :

ــ سأذهب في الصباح ٠٠ لا فائدة من انتظار « مارتن » ٠٠ انه لن يأتي ٠٠ ان الطعام الذي حفظته في الكيس يتناقص ونحن نتناقص مثله ٠ ان الطفل بدأ يهزل ورأسي زاد تصدعا ٠٠ لا فائدة من الانتظار أكثر من هذا ، والا عجزت عن الوصول الى البلدة من الضعف ٠٠

لكن هذا القرار لم يبلغها راحة البال ، بل جعلها ترتعد ٠٠ وانتابها اعياء شديد فاستلقت في الفراش واغمضت عينيها واستسلمت لسبات لم يدم طويلا ، فقد أفاقت على صوت العجوز وهو يقول في المطبخ متبرما :

ــ ماذا جرى لهذا الكلب ؟ ٠٠ انه جرى مبتعدا عندما رآني ٠٠ انه اكل جيفة وأصبح أسوأ من ذلك القط ٠٠

فقالت «ماجي» :

ــ لقد ذهب القط ٠٠ لم يظهر له أثر منذ أيام ٠٠ سيذهب الكلب مثله ٠٠

وتغلب النوم على «ماري» فاستغرقت في سبات عميـــق ٠٠ فلما استيقظت في الصباح كانت تشعر بصداع عنيف ، ولم تعـد تفكر في ما اعتزمته بالامس من الرحيـــل ٠٠ وكانت خائرة لا تكاد تقـوى على النهوض ٠٠ ولم تجد وقودا للنار من الحشائش اليابسة ، فجاءت بمطرقة وكسرت عش الدجاج الخالي وجعلت منه وقودا وأعدت بعض العصيدة ٠٠ ولما فرغوا من طعامهم جلسوا حول النار يلقون فيها بقطع من خشب العش بين فترة وأخرى ٠٠ وفي خارج البيت أخذ البرد يشتد ، ومازال الضباب الكثيف جاثمـــا فوق الوادي ٠٠ وجلسوا سكوتا . وبدا كأنهم ينتظرون حلول الموت في صمت وسكون ٠٠

وعند الظهر سمعوا نباح الكلب في الخارج ، فهتف العجوز بانفعال .

ــ لقد رجع «أوسكار» ! ٠٠ كنت أعرف أنه لن يذهب عنا ٠٠ تعال هنا يا « أوسكار » ٠٠

وتناول عصاه وسار الى الباب وهو يعرج ويضع يده على عجزه ٠٠ فقد أصابه ضعف تام ٠٠ وسمعت «ماري» وقع أقدام في الزقاق ، فوثبت قائمة وهي تقول :

ــ من يكون هؤلاء الناس ؟ ٠٠ انهم يلبسون أحذية ٠٠

وخرجت الى الفناء في أثر العجوز الذي راح ينظر في اتجـــاه كوخ (سالي أوهانلون) ٠٠ وكان الكلب يجري مبتعدا وهو ينبح نباحا متقطعا ٠ فقال العجوز :

ــ انهم رجال البوليس ٠٠

فنظرت «ماري» ثم جذبت العجوز الى جوار البيت وهمست قائلة :

ـ لا تدعهم يرونك ! ..

والواقع أن مشهد رجال البوليس جعل قلبهـــا يخفق بعنف .. فحملت العجوز على العودة معها الى الداخل ، وقت أن ظهر كاتب الصحة قرب البيت يتبعه شرطيان .. وكان كاتب الصحة يقول :

ـ لا بد أنها كانت مجنونة لتقدم على هذه الفعلة ..

فقال أحد الشرطيين :

ـ هي مجنونة فعلا .. انها أرادت دخول السجن لتجد فيه الطعام !. لا شك أن هؤلاء الناس من الهمج الذين يأكلون لحوم البشر ..

فقال (سيمز) كاتب الصحة مهتاجا :

ـ من الصعب أن يصدق الانسان أن أما ارلندية ، همجية كانت أو لم تكن ، تقدم على قتل أطفالها ، طمعا فى لقمة خبز ! ..

فضحك الشرطى الآخر وقال بصوت مرتفع :

ـ سترى أسوأ من هذا يا مستر (سيمز) .. ربما كان هؤلاء القتلة هنا يعرفون شيئا عن الموضوع ..

ودخلوا فناء الدار ، وصاح أحد الشرطيين :

ـ هل فى هذا البيت أحياء ؟ ..

فأشارت مارى على العجائز بالتزام الصمت ، وجلسوا جميعا حول المدفأة .. وما لبث كاتب الصحة أن اقترب من الباب وأطل الى المطبـــخ وزميلاه ينظران من خلفه .. فقال (سيمز) :

ـ هل أنتم بكم ؟ ..

فقال العجوز وهو ينهض قائما :

ـ كلا أبدا .. طاب يومكم ..

وسار العجوز الى الباب وهو يعرج ويتزلف بالقول والاشارة كدأبه فى حضرة الحكام ، حتى قاطعه كاتب الصحة قائلا :

ـ ماذا تعرف عن المدعوة «سالى أوهانلون » ؟ ..

وهنا وثبت «مارى» قائمة وهتفت تقول غاضبة :

ـ اننا لا نعرف شيئا عنها ، ولتخرجوا من هنا .. كفانا مانحن فيه من سوء .. فلا تزيدوا حالنا سوءا بالتدخل فى أمورنا ..

فضحك الشرطيان ، واحمر وجه (سيمز) .. فتضايق العجوز من لهجة «مارى» وخاطب كاتب الصحة مستعطفا :

ـ لا تهتم بكلامها يا سيدى .. انها معذورة بسبب الحوادث التى تقع ، ونحن لهذا فى خوف ..

فقال أحد الشرطيين مرتابا :

ــ أى حوادث ؟ ٠٠ تكلم يا رجل ٠٠

فانتهرت «مارى» العجوز قائلة :

ــ اقفل فمك ولا تقل لهم شيئا ٠٠

فقال « بريان» :

ــ لكن لا بد أن أكلمهم عن «تومسى» والكلب ٠٠ ان الكلب لا يريد الاقتراب منى ياسيدى عندما أناديه ٠٠

فقال الشرطى وهو يدفع كاتب الصحة جانبا :

ــ من هو هذا المدعو «تومسى» ؟ ٠٠ ما هى حكايته ؟ ٠٠

فنهضت ماجى بدورها وأجابت قائلة :

ــ هو أخى يا سيدى ٠٠ انه ذهب ولم نعد نراه ٠٠

فقال الشرطى لزميله :

ــ هنا شىء غريب فى هذا البيت ٠٠ هيا بنا نفتشه يا (ما كفيكر) ٠

لكن هذا الزميل لم يكن متلهفا لدخول البيت خوفا من المرض ، وقال للمتكلم :

ــ ألسنا نعرف أن الهارب ذهب الى مقاطعة «مايو» ؟ ٠٠ أنا لن أدخل هذا البيت ٠٠ ان الهارب لا يمكن أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد ٠٠

فقال الشرطى الأول :

ــ تعال تعال ٠٠ ربما كان رجع ٠٠

فصاحت مارى قائلة :

ــ أيها القتلة !٠٠ ليته كان هنا ليزهق أرواحكم ٠٠ ليته والله كان هنا ٠٠

فقال الشرطى :

ــ لا تكدرى نفسك ٠٠ اننا سنعثر عليه حتما ٠٠ لن يفلت أحدكم من أيدينا ٠٠ انا سنشنقه فى النهاية ٠٠ تعال يا « ماكفيكر » ٠٠

وأخذ الشرطيان فى تفتيش البيت ٠٠ ووقف كاتب الصحة يحاول تهدئة «مارى» التى كانت تصرخ فيهما وتسبهما ، قائلا لها :

ــ لا تعادى القانون ٠٠ هذه أوقات صعبة ، ولا بد للفقراء أن يحنوا رءوسهم ان كانوا يريدون المساعدة ٠٠ الناس فى القرية يموتون كالذباب ٠ ولا أمل لكم فى الحصول على مساعدة وأنتم هنا ٠٠ اذهبوا الى «كلوجر» ٠٠ هناك ملجأ جديد فتح فى البلدة ٠٠ لماذا تبقون هنا ؟ ٠٠

ولما فرغ الشرطيان من التفتيش انصرف ثلاثتهم من البيت وتابعوا طريقهم في الوادي ، وسار العجائز الثلاث في أثرهم ··

وجلست «ماري» وحدها قرب النار تخاطب نفسها :

– يا الهي !·· هو اذن في مقاطعة مايو ؟ ·· انهم يعرفون مكانه وسيقبضون عليه ·· وعند ذلك لا يبقى هناك أمل لى ولا لميخائيل الصغير · يا له من حلم جميل !··

ولأول مرة خامرتها ثورة ضد الاقدار ·· لقد بدا لها أن عناية الاقدار لا تكون لها ولا للفقراء الذين يهلكون جوعا ، بل هي مقصورة على الاغنياء الذين لا ينكبون بالجوع ولا يفهمون معناه ·· قدرت أن المنكوبين بالجوع معدودون في نظر الاغنياء مجرمين يطردون من حظيرة الانسانية ، ويحل تشتيتهم أو القاؤهم في السجون أو تمزيق صدورهم بالحراب أو شنقهم · ان عناية الاقدار حليف لهذين الشرطيين اللذين فتشا البيت بحثا عن « مارتن » ، ولغيرهم من رجال البوليس المنتشرين في الجزائر الغربية طلبا للهاربين ··

وفي ابان هذه الثورة النفسية الجامحة قالت «ماري» لنفسها في رعب شديد :

– يجب ألا أجعلهم يعرفون أنني جائعة ، لئلا يشنقوني باعتباري أما تقتل أطفالها ··

وشرد عقلها ·· وانتشر الضباب الكثيف حولها كأنه مد البحر ·· وخيم السكون في أرجاء البيت ·· وكان الطفل نائما في مهده ، فتمالكت واعتزمت ألا تكلم نفسها مرة أخرى والا استيقظ وأخذ في الصياح ··

لكن الكلب هو الذي أخذ في الصياح ·· فقد سمعت صوت رصاصة تنطلق ، وعوى الكلب في أثرها ·· فوثبت قائمة وأرهفت السمع ·· فانطلقت رصاصة ثانية أعقبها انقطاع عواء الكلب ·· وعند ذلك سرت في جسدها رعدة وجعلت تتنفس بجهد ومشقة ·· وشعرت بجوع حاد حتى خيل اليها كأن احشاءها قد انتزعت من جوفها وتركت فراغا أليما ·· وانتابها ألم في أعماق عينيها وأرادت أن ترتمي على الارض ·· لكنها قدرت أنه لا بد لها من ابقاء عينيها مفتوحتين لئلا يهجم الكلب على الطفل · ان الكلب لا يتردد في دخول البيت مدلى اللسان لينهش الطفل ثم يهرب الى النهر وذيله بين رجليه ·· فيجب أن تملأ الفراغ الذي في جوفها لكيلا يعرف الاغنياء أنها جائعة وينفذوا قضاءهم فيها ··

وكذلك ذهبت الى غرفتها وأخذت من كيس الطعام قطعة سمك مجفف وضعتها في النار ·· فلما نضجت قليلا أكلتها وشربت ماء بعدها ·· فشعرت بأن الفراغ الداخلي قد امتلأ ، ولكن أعقبه أولا خدر عارض ، ثم صداع عنيف ··

وجلست في مقعد القش قرب النار مستسلمة لهذا الصداع وقد أغمضت عينيها برغمها وتدلى ذراعاها الى جانبيها ·· ولم ترفع رأسها

عندما سمعت أصوات كاتب الصحة والشرطيين وهـــم يتابعون طريقهم جنوبا فى الزقاق ·· ثم سمعت عويل المرأتين العجوزين ·· فذهب عنها الخدر ، وهتفت وهى تستوى قائمة :

ـ انهم وجدوا تومسى !··

وجمدت مكانها حتى عاد ثلاثتهم من الخارج ·· فقالت لهم :

ـ ماذا رأيتم فى الوادى ؟

فأجاب العجوز وقد بدا ممتقع الوجه :

ـ لقد رأينا الموتى يدفنون فى حفر تحفر لهم فى الارض ، دون جنازة ولا توابيت ·· ان القسم الشمالى من الوادى لم يبق به أحد من الاحياء ··

فقالت « مارى » همسا :

ـ وهل رأيتم « تومسى » هناك ؟ ··

فأجابت « ماجى »مولولة :

ـ ان الكلاب أحاطت به ·· ونهشت وجهه ··

قالت هذا وارتمت أمام المدفأة وجعلت تنثر رماد الوقـــود فوق رأسها ··

الفصل الثانى والخمسون

استيقظت مارى فى صباح اليوم التالى وهى تسمع نباح الكلب فى الفناء .. فنهضت وفتحت الباب الذى كان الكلب يخمشه بأظافره ، لكنه لم يندفع الى داخل المطبخ كعادته ، بل انبطح على بطنه وجعل يتطلع اليها بنظرات مؤثرة ، فبصقت عليه قائلة :

ـ امش يا قذر !..

وتناولت المكنسة من خلف الباب وضربته بها .. فاحتمل ضرباتها دون أن يتحرك .. ثم نبح وابتعد زحفا .. فرأت قائمته الخلفية اليمنى مقطوعة والدم ينزف منها .. وخرج بريان من غرفة نومه قائلا :

ـ ماذا جرى ؟ ..

ـ انه الكلب .. لقد قطعت رجله ..

ـ لعنة الله عليهم !.. اذن فهو الذى اطلقوا الرصاص عليه ..

وهرع الى الفناء لا يستره الا قميصه ونادى الكلب ، فكف هذا عن زحفه ونظر الى سيده وهو ينبح نباحا خافتا .. غير انه لم يهز ذنبه ولم يحاول الاقتراب من مكانه بعد أن يئس من رحمة البشر .. لكن ما أن رأى العجوز ينحنى فوقه ويلاطفه حتى تملكه فرح شديد ، وعاد به بريان الى البيت ، لكن مارى اعترضت طريقه وهى تهتف قائلة :

ـ الى أين تذهب به ؟.. أتريد أن تدخل هذا المخلوق القذر الى البيت ؟ ..

فنظر اليها العجوز فاغر الفم وقال لها :

ـ انه كلبى .. وهو مريض .. انى لبثت طول حياتى أعنى بالحيوانات المريضة ، وكنت أجد سعادة كبرى فى شفاء هذه المخلوقات الخرساء من المرض .. انها موهبة أنعم الله بها على .. هذا حيوان مسكين جريح ، قذرا كان أو لم يكن !..

فقالت مارى وهى تنظر اليه ببرود :

ـ ان طفلى ميخائيل فى البيت ، وهو أعز عندى من كلب كان يأكل ال .. اذهب به من هنا .. لن أدع الطاعون يدخل البيت ! ..

فنظر اليها العجوز بتأثر ، ثم رجع بنظره الى الكلب وقال لها :

ـ ليكن ما تشائين .. سأذهب به الى (الجرن) .. ناولينى الاناء الصغير والفرشاه من فوق المدفأة ..

ولما اعطته ما طلب ذهب الى الجرن مصطحبا الكلب وما زال بقميصه برغم برودة الجو هذا الصباح ..

فتركته وانتقلت الى المدفأة لاشعال النار .. ولما وجدت الحشائش اليابسة التى كانوا يستمدون منها الوقود نفدت عن آخرها تناولت مطرقة وأخذت تكسر بها عش الدجاج .. وفرغت من ايقاد النار حين عاد العجوز بالاناء والفرشاة وهو مغتبط قرير العين ، وقال لها :

ـ لا محل للخوف منه بعد الآن .. انى ربطته فى مربط البقرة بعد أن .. ما هذا الذى تحرقينه ؟ ..

قال هـــذا وهو يقلب نظره بين قطع الخشب المحترقة وبين عش الدجاج ، فأجابت مارى فى اعياء :

ـ لم تبق عندنا حشائش للوقود ..

ـ وتكسرين خشب البيت لهـــذا الغرض ؟ .. شيء لطيف ! .. سأذهب اليوم الى شاطىء النهر لاحضار كمية من الحشائش .. ولو اتبعنا هذه الطريقة لما بقيت عندنا قطعة أثاث سليمة ..

ولبث العجوز حينا وهو يهمهم ويتمتم عن الاسراف والاتلاف وكأن تضميد جرح الكلب قد ابتعث نشاطه السالف .. بل انه جعل وهو يلبس يقول كلاما غريبا عن الاستعداد ليوم السوق ، وكأنما بقيت لديه ماشية يقـــدمها للبيع .. لكن مارى لم تنصت الى كلمة واحدة مما قال وهى مستغرقة فى ذهولها .. غير أن حماسته لم تدم طويلا .. ولما أعدت مارى طعام الفطور أبت المرأتان العجوزان أن تأكلا شيئا ، فقد لزمتا الفراش وقالت كلتاهما انها ليست جائعة .. فقال العجوز مخاطبا مارى :

ـ ان ماشاهدتاه عند مدخل الوادى قد أثر فيهما أشد تأثير .

فلم تعقب (مارى) بكلام .. انها لم تعد تهتم بأحد من هؤلاء العجائز وجلست مكانها تحاول أن تحزم أمرها وتصل الى قرار .. لكنها لم تجـد فى نفسها عزما كافيا يهيىء لها أن تعرف طبيعة هذا القرار الذى تريده.. وظلت هى والعجوز جالسين فى المطبخ ساعات متعاقبة لا يحركان ساكنا حتى جاء الأب (جيلان) حوالى العصر وهما على هذه الحال .

والحق أن مجيء القس كان له أشد الأثر فى نفسيهما ، حتى لقد ركعا أمامه وتعلقا بردائه وهتفا به يلتمسان عنده العون.. وصاحت كلتا المرأتين العجوزين وهما فى الفراش .. وحتى الكلب أخذ ينبح وهو فى (الجرن) متأثرا بهذه الضجة .. وسمع الطفل وهو يبكى فى مهده .. فوقف الأب (جيلان) فى المطبخ ينصت الى هذا الصياح وقد اكتسى وجهه الأسمر مسحة الحزن والأسى وجرت الدموع على خديه .. ولما نهضت (مارى) والعجوز فى النهاية وهدأت الضجة ، قال القس لمارى وهو يقدم لها رغيفا واناء به لبن :

ـ هذه هى كل المساعدة التى فى طاقتى ..

فأخذت (مارى) الخبز واللبن.. وخيم الصمت برهة الا من نباح الكلب

وبكاء الطفل ٠٠ وما لبث العجوز أن جلس قرب المدفأة ، ورفعت (ماری) الطفل من مهده ٠٠ وراح القس يجيل نظره فی المطبخ وكأنه متردد فيما يفعل بعد ذلك ، وكانت شفتاه تختلجان وهو يتنفس بصوت مسموع ٠٠ ثم قالت (ماری) بهدوء :

ـ هل عندك أخبار ياأبی ؟

وبدا كأن القس بهت من سؤالها، فقد قطب جبينه، وأجاب في خشونة وهو أقرب الی الغضب :

ـ من الخطأ أن أمنيكم بأی أمل فی هذه الدنيا ٠٠ ان الشعب الارلندی يدفع ثمن جبنه الماضی ٠٠ لقد مات أربعة وعشرون فی القرية أمس ٠٠ وانتقل (جون هاينز) مع أسرته الی (كلوجر) ٠٠ ولم يبق فی القرية حانوت واحد ٠٠ انهم يصنعون توابيت للموتی فی فناء الكنيسة ٠

وهنا خيم الصمت مطبقا عميقا في أرجاء البيت بعد أن سكن الطفل بين ذراعی أمه ٠٠ ولما اشتد نباح الكلب فی (الجرن) وكأنه يحاول الفكاك من قيده ، نهض العجوز وخرج صامتا ٠٠ وقد حاول القس أن يستوقفه ، غير أنه عدل ووقف يفرك راحتی يده ٠٠ فقالت (ماری) فجأة وهی ترتعد :

ـ انی كنت أعنی (مارتن) بسؤالی ٠٠

فقال القس كالحالم :

ـ (مارتن) ؟ ٠٠ هل سمعت شيئا عنه ؟

فقالت وهی تحدجه بنظراتها :

ـ ظننت أنك سمعت شيئا ياأبی ٠٠ فقد دار كلام عن رجل أصفر الشعر ٠٠

فرفع القس صوته قائلا :

ـ رجل أصفر الشعر ؟ لم أسمع شيئا عن رجل أصفر الشعر ٠٠ من يكون هذا ٠٠ وما هو الكلام الذی وصل الی سمعك ؟

وجعل ينظر الی (ماری) فی دهشة ، فالتهب وجهها احمرارا ٠٠ ثم غاضت منه الحمرة وشعرت (ماری) بشبه اغماء ٠٠ وطغت عليها من جديد فكرة رعاية العناية الالهية للأغنياء وحدهم ، أولئك الذين لايفهمون ما هو الجوع ٠٠ ثم قالت للقس بهدوء :

ـ هو مجرد كلام ياأبی ٠٠ فقد خطر لی أنك ربما سمعت عن جماعةمن الناس تكفلت بمساعدة الشبان الهاربين ٠

فتنهد القس طويلا ونظر الی الارض قائلا :

ـ ليس فی هذا الاقليم جماعة منالناس يمكنها الآن أن تساعد (مارتن) لقد حان الوقت لكی تذهبوا جميعا من هذا المكان ٠

فتصلبت (ماری) فی مكانها ولسان حالها يقول : « بل قد توجد هذه الجماعة وهو كاذب فيما يقول » ٠

ثم قالت له بصوت مسموع وعيناها تبرقان :

ـ أنا متأكدة أني سأجد (مارتن) ، وسأنتظره هنا لافي مكان آخر ٠٠ ان هذه الجماعة لابد أن تكون موجودة ٠٠ والا أين يجدنى (مارتن) ، اذا أنا ذهبت من هنا ؟ ٠

فهم القس أن يتكلم وعند ذلك نادته مسز (جليسون) من غرفتها ، فذهب اليها ٠٠ وخرجت (ماری) الى الفناء حيث وجدت العجوز جالســا القرفصاء لدى الحائط ، وقد سألها بصوت خافت :

ـ ماذا قال ؟٠٠٠

ـ قال ان الوقت قد حان لنذهب من هنا ٠

ـ ليرحمنا الله !٠٠٠ هذه هي المساعدة التى جاء بها ؟٠٠٠

وشبك ذراعية واستلقى قرب الحائط كأنما يوشـــك أن ينام ٠٠٠ وأخذت (مارى) تسير في الفناء جيئة وذهابا ٠٠ وانبعث صوت القس وهو يتقبل اعتراف أمها ٠٠٠ وأخيرا تقدم العجوز منها وجذبها من ذراعها قائلا :

ـ اذهبى مع الطفل يا بنتى ٠٠ نحن فى نهاية طريقنا فى هذه الدنيا٠ فلا تنتظرينا هنا ٠٠٠٠

فلم تجب (ماري)، بل ظلت تروح وتجيء فى الفناء والطفل بينذراعيها وعاد العجوز الى داخل البيت حيث سمعت (ماری) صوتالقس وهويتقبل اعتراف (ماجى) في غرفتها ، ثم اعتراف العجوز فى المطبخ ٠٠ وأخـيرا خرج القس اليها وناداها ، فقالت له بهدوء :

ـ انى لن أموت هنا ويلقى بى فى احدى الحفر ٠

ـ ألا تريدين أن تعترفى ؟

فهزت رأسها نفيا ٠٠ فباركها القس ، ثم صافحها وانصرف دون كلام ٠٠ ولما عادت الى داخل البيت نظر اليها العجوز فى تردد وقال لها :

ـ ان (ميخائيل) الصغير يحتاج الى الخبز واللبن اذا صنعت منهما ثريدا له ٠

فضجت (مارى) بالضحك وقالت :

ـ أصبت يا عمى ٠٠ كيف لم أفكر فى هذا ؟ ٠٠ أنت دائما صاحب الفكر الصائب ٠٠ ان (ميخائيل) أحوج الناس فعلا الى هذا الطعام ٠٠ هل يمكن الانسان أن يخرج فى رحلة طويلة ومعدته خالية ؟

فلم يزد العجوز عن قوله :

ـ ليرحمنا الله !

الفصل الثالث والخمسون

بعد أن فرغت (ماري) من اطعام الطفل ذهبت الى أمها بشيء من اللبن والخبز ·· فوجدتها قد فارقت الحياة ·· وكانت ممدة على ظهرها ، مشبكة اليدين فوق الصدر ، وحبات المسبحة ملتفة حول أصابعها ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة ، مما يدل على أنها تأهبت للموت بعد زيارة القس لها ·

ونادت (ماري) العجوز ، فلم يدهش لرؤية الجثة ، وانتقل الى غرفة النوم الاخرى ليخبر زوجته ، فلما رجع الى (ماري) قال لها ان (ماجي) صارت هي الأخرى قريبة من نهايتها ، وقد أردف قائلا :

ــ انها أصيبت بالهذيان ، ولا غرابة في هذا ، بعد الذي رأيناه أمس في شمالي الوادي ، خصوصا مشهد (تومسي) وهو ممدد هناك و ···

ــ كفى ·· لاكلام في هذا ·· ماذانفعل الآن ؟

ــ ليس عندنا شموع ·

ــ لاتكلمني عن الجنازة ! انني أفكر فقط في دفنها ·
فحك العجوز رأسه قائلا :

ــ لم يبق في الوادي سوانا نحن الأربعة ·

ــ وما العمل ؟

ــ اني رأيتهم يدفنون الموتى في حفر يحفرونها لهم في الأرض ·

ــ قال لنا القسيس انهم يصنعون توابيت في فناء الكنيسة ··· لكني لاأظنك تقوى على الذهاب الى القرية ·· ولا يمكنني أن أترك الطفل وحده هنا ، وأخاف أن أذهب به الى حيث ينتشر الطاعون ·

ــ لكن هل يمكن يا (ماري) أن نحصل على تابوت بغير نقود ؟ ·· ومن الذي يحمل التابوت الى هنا ؟ واذن ·· الافضل أن نحفر حفرة في الأرض ·

والحق أن (ماري) لم ترد أن تتقدم هي بهـــذا الاقتراح ، وتركت العجوز يتقدم به ·· وبرغم هذا فانها سخطت منه اذ عبر عنه ، فقد هالها أن تلقى أمها الميتة في حفرة عادية في الخلاء كالحيوان حتى قالت :

ــ ياله من عمل طيب أعمله لأمي ·

فتطلع اليها العجوز متأثرا ، وكان قد استحال الى الرقة المتناهية بعد اعترافه بين يدى القسيس ·· وقال لها :

ـ اذن سأذهب الى القرية وأحاول الحصول على تابوت ٠

لا يمكن أن أدعك تذهب فى رحلة متعبه مثل هذه٠٠بامكاننا أن نحفر حفرة ٠

ـ ألا يمكننا على الأقل أن ننتظر حتى الصباح ؟

فارتعدت (مارى) وقالت :

ـ وما فائدة الانتظار ؟ سأحضر المجرفة ٠

وجاءت بالمجرفة من (الجرن) غير مبالية بنباح الكلب ٠ وذهبت الى رقعة الارض التى جعلوا منها حديقة خلف البيت وأخذت فى الحفر ٠

ولحق بها العجوز على الأثر ٠٠ ولكن الأرض كانت صخرية تعلوها طبقة يسيرة من التربة لا تكفى لدفن قطة ٠٠ وكادت (مارى) تيأس لولا أن تذكر العجوز وجود بئر فى أقصى الحديقة ملئت بالحجارة ، فقال لها :

ـ سنرفع الحجارة من البئر ٠٠ لكن لنأكل أولا لقمة حتى نقوى على العمل ٠

فعملت (مارى) برأيه وجلسا فى المطبخ يأكلان بضع لقمات ، حين سمعا (ماجى) تصيح من الجوع ٠٠ فذهبا الى غرفتها فوجدها ممدة على ظهرها شاخصة الى السقف ٠٠ ولما أعطتها (مارى) كسرة من الخبز أخذتها ولم تأكل ٠٠ فقال لها بريان :

ـ لماذا لاتأكلينها ؟

ـ أنا جوعانة ٠

فقال (بريان) لمارى :

ـ ألم أقل لك ؟ ٠٠ انها أصيبت بالخبل ٠

وعادا الى الحديقة ، وحملت (مارى) الطفل معها وهو فى مهده ، فانها لم ترد أن تتركه فى البيت مع جثة أمها المتوفاة ٠٠ وكان الطفل مستغرقا فى نوم هادىء بعد أن أصاب أكلته الطيبة ٠٠ ثم تعاون الاثنان فى رفع الاحجار من البئر ، وكانت عميقة عمقا كافيا ، لكنها كانت ضيقة متعرجة ٠٠ فقال (بريان) :

ـ غفر الله لنا ٠٠ لابد لنا من طى الجثة لدفنها ٠

ـ لايوجد مكان غير هذا ، اللهم الا اذا ذهبنا بها الى المستنقعات ٠

فقال العجوز ٠

ـ لا يمكننا أن نحملها تلك المسافة ٠٠ لا مفر من دفنها هنا بأية صورة ٠

وفرغا من هذه المهمة فى مستهل المساء ٠٠ فعادت (مارى) مسرعة

الى الطفل وحملته من مهده ، فما كادت تضمه الى صدرها حتى خنقتها العبرات ·· وحمل العجوز المهد الى داخل البيت و (ماری) فی أثره ··· وشعرت بجوع شديد ·· فتناولت اناء اللبن الذى جاء به القس ورفعته الى شفتيها وشربت اللبن حتى آخره دون أن تتوقف للتنفس ·· ثم ذهبت الى غرفتها دون أن تكلم العجوز واستلقت فى الفراش بعد أن وضعت الطفل بجانبها ·

وقال لها العجوز وهو فى المطبخ :

ـ هل تنامين ؟

فلم تجب ·· فقد برح بها التعب حتى عجزت عن الكلام ·· وأغمضت عينيها ، وشعرت بدوار ، وخيل اليها كأن قلبها يوشك أن يكف عن الخفق ، وأحست بانطباق حلقها ، فلم تتمالك أن جلست فى الفراش مرتاعة والعرق يتحلب فوق جبينها ، فراحت تقول همسا وهى فى ظلام حالك :

ـ لن أموت ! لن أترك نفسى للموت !

وعلى هذه الصورة جلست وقتا طويلا حتى سمعت الكلب ينبح ·· فطرأت على ذهنها فكرة مروعة جعلتها تثب من الفراش وتهرول الى المطبخ وتنادى العجوز قائلة :

ـ هل أطلقت الكلب من مربطه ؟

وبينما كانت تنتظر الجواب سمعت وقع أقدام فى الخارج ، وصوت رجل يأمر الكلب بالسكوت ·· فتلمست طريقها الى الباب بحركات محمومة وجعلت تتحسس فى الظلام مكان المزلاج حتى وجدته ·· وما كادت تهم بفتح الباب حتى سمعت من يطرقه ·· ولما فتحته على سعته طالعها شبح رجل ·· فهتفت قائلة :

ـ من القادم ؟

فقال الرجل :

ـ هل تقيم عائلة (كيلمارتن) هنا ؟

لكن (ماری) بلغت من الانفعال حدا عجزت معه عن الجواب ·· فجاء العجوز فى أثرها وتولى الجواب قائلا :

ـ أنا (بريان كيلمارتن) ·· ماالذى جاء بك أيها الغريب فى هذه الساعة ، حفظك الله ؟

وهمست (ماری) بدورها وهى لاتكاد تقوى على الكلام من شدة الانفعال :

ـ أى أخبار جئت بها ؟ ·· قل لى ! · لكن استحلفك بالله ألا تقول لنا شرا ! ·· لاتبلغنا أخبار السوء أيها الغريب ، فان قلبى قد امتلأ بالأحزان حتى فاض ·· تكلم يارجل ·

فقال الغريب بصوت هادىء :

ــ لاتخافى ٠٠ لم أحضر اليكم بأخبار مكدرة ٠٠ جهزى ملابسك واستعدى للذهاب الى (كلوجر) ٠٠

فصرخت (مارى) :

ــ هل هو بخير ؟ ٠٠ أين هو ؟

فجعل الغريب يقول :

ــ استمعى لما أقول ٠٠ بعد أن تصلى الى الملجأ خارج بلدة (كلوجر) فى الطريق المؤدى الى البحر ، عليك أن تنتظرى هناك عند بوابة الملجـأ حيث يأتى شخص ويسألك ان كنت قد رأيت رجلا أصفر الشـعر يمر فى الطريق ٠٠ ان هذا الشخص سيخبرك عن مكان الرجل الأصفر الشعر وسيذهب بك اليه ٠٠ استعدى بسرعة وسيرى الى (كلوجر) ، فعليك أن تكونى هناك بعد الفجر بقليل لتقابلى الشخص الذى كلمتك عنه ٠

قال الرجل هذا واستدار عائدا الى الطريق ٠٠ فهتفت به (مارى) وهى تخرج الى الفناء فى أثره :

ــ أيها الغريب ! ٠٠ أليس عندك كلام آخر تقوله لى عن (مارتن) ؟

فأجاب الرجل دون أن يتوقف عن السير :

ــ لاأستطيع أن أقول الا ما قلته لك ٠

فهتفت (مارى) وهى تجرى خلفه :

ــ لكن ألا يمكنك أيها الغريب أن تقول من أنت ؟

فأجاب وهو يثب من فوق السياج الى الزقاق :

ــ أنا رجل من الهاربين وأمامى مسافة طويلة لابد أن أسيرها حتى المخبأ ٠٠

ــ بارك الله فيك ورعاك ٠

قالت (مارى) هذا باسطة ذراعيها فى أثر شبح الرجل الذى اتجه شمالا فى اطواء الظلام ٠٠ وسرعان ماتفجرت دموعها ، وعادت الى البيت فلما وجدت العجوز واقفا لدى الباب طوقت عنقه بساعديها قائلة :

ــ هلا منحتنى بركتك ياعمى قبل أن أخرج فى رحلتى ؟

فأجاب العجوز برقة :

ــ سأفعل هذا يابنتى ٠٠ أدعو الله أن يرعاك ويحفظك ٠

فقالت له همسا :

ــ هناك شىء من الطعام فى الكيس ، مع كسرة من الخبز الذى جاءنا به القسيس ٠

فقال لها (بريان) ٠

ـ لاتهتمى بنا ٠٠ أنا و (ماجى) بتنا فى ليل لن يطلع له فجر ٠٠ نحن على استعداد للرقاد الأبدى فى الارض الطيبة التى أمضينا فيها كل حياتنا فى ظل جبال (الوادى الأسود) ٠

وحزمت (مارى) متاعها وودعت العجوزين وهى تبكى عاليا ٠ ٠ وبينما هى تخرج من الباب أعطاها العجوز حفنة من التراب أخذها من ركن المدفأة ، وقال لها :

ـ اعطى هذه لمارتن ٠

وبارك الطفل بيديه المعروقتين ٠

الفصل الرابع والخمسون

في منخفض من الأرض معشوشب مجاور لسور الملجأ القائم عنـــد مشارف(كلوجر) تمددت هياكل بشرية بدت في ضوء الفجر البـــاهت كجثث الموتى ، لولا ماكان ينبعث من بعضها من أنين وتذمر ٠

وعند بوابة الملجأ المغلقة المطلة على تقـــاطع الطريقين المؤديين الى (كلوجر) و (كروم) ، جلست امرأتان على الارض تتبادلان الحديث احداهما (مارى هالوران) التى كانت تعمل مشرفة فى القصر عند (شادويك) ٠٠ وكانت ترتدى ثوبا أسود وجوربا من الصوف السميك ، ولكنها كانت بغير (حرملة) ولا حذاء حتى بلى أسفل جوربها ، مما يدل على أنها اضطرت الى بيع (الحرملة) والحذاء تدبيرا للقوت ٠٠ وكان شعرها مهدلا خلف ظهرها والطل يلمع فوقه ، وكانت ترتعد لهبوب نسيم بارد باقتراب الفجر ٠٠ وكانت تقول لرفيقتها :

ــ لافائدة لك من الذهاب الى (كلوجر) بعد ماحدث للمساكين الذين ذهبوا الى هناك أمس ٠٠ وما دمت لاتملكين بنسا واحدا فانهم لن يدعوك تبقين فى البلدة بعد الغروب ٠٠ الطف بنا يارب ! ٠٠ ان الطريقة التى يعامل بها الأغنياء الفقراء فى أرلندا تكاد تجعل الانسان يفقد ايمـــانه بكل شيء ! ٠٠ ان المساكين يقصدون الى البلدة هاربين من المناطق الجائعة يتطلعون الى المساعدة ، لكنهم يطردون من حيث جاءوا خائبين جائعين ٠٠ انهم وضعونا فوق عربات النقل جماعات وجاءوا بنا هذه المسافة الطويلة لكن الملجأ كان ممتلئا والباب مغلقا عندما وصلت ٠٠ وقال رجل انهسوف يسمح لعدد قليل بدخول الملجأ عند فتح الباب فى الصباح ، بدل الذين يموتون في الليل ٠٠ وكل هؤلاء الناس الممددين هناك فى الحفرة جاءوا معى مطرودين من البلدة ٠٠ فتأكدى اذن أنه ليس للفقراء مكان هنا ٠

فجعلت المرأة الثانية تتمايل أسى ٠٠ وكانت جالسة القرفصـــاء يغطيها شال أسود من رأسها حتى قدميها ٠٠ لكنها لم تشأ أن تسلم بكلام زميلتها ، وقالت مجادلة :

ــ ولماذا يطردون الفقراء ويسوقونهم الى الموت على هذه الصورة ، الا اذا كان هناك سبب لذلك ؟

ــ ان الحقيقة هى ماأقولها لك ٠٠٠ لقد حدث أمس عراك شديد فى شارع البلدة الرئيسى بين رجال البوليس وبين العمال ٠٠ فقد جاءتجموع العمال الى الشارع حاملين أعلاما عليها كتابات ، وجعلوا يصيحون طلبا للعمل ٠٠ ثم هجموا على أحد المخابز واكتسحوا رجال البوليس أمامهم ٠ وعند ذلك جاء الجنود المسلحون ونشب بينهم وبين العمال قتال شديد ٠٠

ان الحكومة الانجليزية فى نيتها قتل جميع الفقراء فى البلاد ، وهذا ماحدثنى به من يعرفون حقيقة الأمور٠٠ان رجال الحكومة يطوفون بالشوارع كل يوم لجمع جثث الموتى التى تلقى من البيوت على الارصفة لدفنها ، وتأكدى أنهم ماكانوا يفعلون هذا لولا خوفهم من زيادة انتشار الطاعون ، ثم انهم لايدفنون الموتى فى التوابيت ٠٠ وانما يستعملون تابوتا واحدا يحملون فيه الميت الى الحفرة ويرمونه فيها ، ثم يعودون به ليحملوا فى التابوت غيره ٠

فقالت المرأة الثانية :

ــ لم أتصور فى حياتى أبدا أن يأتى يوم أجلس فيه خارج بوابة الملجأ فى انتظار من يموت فيه لكى أحل محله فى الملجأ ٠٠ هذا أكبر عار للانسان ! ٠٠ اننا كنا أغنى الناس فى قرية (جاريمور) قبل المجاعة ، وكان لنا بقرتان فى المربط ٠

فقالت (مارى هالوران) :

ــ ان مصيبتك لاتذكر بجانب مصيبتى ٠٠ فانى كنت رئيسة الخدم فى (قصر كروم) قبل مقتل صاحبه ، وكان اللحم يقدم لنا كل يوم والشراب تحت طلب الانسان فى كل وقت ٠٠ وكان أكابر الناس يترددون دائما على القصر ٠٠ وكنت أشرف على خمسين غرفة كنت أنا المتصرفة فيها ٠

فقالت المرأة الثانية غير مبالية بتفاخر (مارى هالوران) :

ــ لقد كانت قريتنا لامثيل لها فى خيراتها ٠٠ فالزرع يخرج من الأرض ، والاسماك منالبحر المجاور ٠٠ كانت مائدتنادائما مليئة بالسمك الطازج أو المملح مع البطاطس ، حتى حلت الآفة بالأرض ٠٠ وعند ذلك أخذت جموع الناس تأتى من داخل البلاد الى الشواطىء ٠٠ وجاءوا معهم بالامراض والحميات ٠٠ ان الحمى هى التى أهلكتنا جميعا ، بعد أن جلبها الهاربون من المناطق المنكوبة بالجوع ٠٠ لقد كانت قريتنا قبل المجاعة تضم أربعين بيتا ، ولكن آلاف الجياع توافدوا عليها وانتشروا على شواطئها يصيدون السمك ويجمعون المحار من بين الصخور حتى لم يبق شىء يؤكل ٠٠ ولما تفشى الطاعون بينهم أفناهم عن آخرهم ، ولم يبق من أسرتى على قيد الحياة سوى شخصى أنا ٠

فقالت (مارى هالوران) :

ــ انى أنصحك أن تحاولى دخول الملجأ ولا تذهبى الى البلدة ٠ ٠ ٠ فسوف تضمنين على الأقل أن تدفنى فى قبر لائق ٠

ــ صدقت ٠٠٠ اسمعى ! ٠٠٠ هذا شخص يسير فى الطريق ٠

وكانت عجلات العربات تسمع عن بعد مقترنة بوقع حوافر الخيل ٠٠ فما لبثت أن تزايدت أصواتها مقترنة بهدير أمواج البحر ٠

وقالت (مارى هالوران) وهى تحدق فى اتجاه الهيكل المقترب :

ــ هى امرأة آتية من ناحية كروم) ٠٠٠ يا الهى ! أقسم أنها (ايلى جليسون) ! ٠

ــ من تقولين ؟ ٠٠

فلم تجب (مارى هالوران) ، وجعلت تحدق نحو المرأة التي كانت تدنو منهما ٠٠ وكانت فارعة ، نحيلة ، منتصبة القامة ، رافعة الرأس ، تحمل فوق صدرها شيئا تحت (الحرملة) ، وعلى ظهرها لفافة كبيرة ٠ ٠ ولما وصلت أمام البوابة وقفت برهة ، ثم تقدمت نحو المرأتين ٠٠ فقالت (مارى هالوران) ٠

ــ هى شقيقة (ايلى) ٠٠ أهذه أنت يا (مارى) ؟

فانتفضت (مارى) ووقفت مكانها وهى تحدق فى المتكلمة مبهوتة ٠٠ وما لبثت أن ابتسمت وهرولت الى ناحية المرأتين الجالستين قرب ســـور الملجأ ٠٠ وقال بصوت خافت :

ــ ألست أنت (مارى هالوران) التى كانت فى (قصر كروم) ! ٠٠ كيف حالك ؟ ٠٠ هل هذه بوابة الملجأ ؟

فأجابت (مارى هالوران) بخشونة :

ــ نعم ٠٠٠

ــ الحمد لله ٠٠

قالت (مارى) هذا وهى تتنهد من أعماق صدرها ، ثم تهـالكت الى الارض قرب الجدار وأسندت اليه رأسها ٠٠ فمالت امرأة (جاريمور)

ــ ان المسكينة تعبت من طول المشى ٠٠ أهو طفل هذا الذى تحمله ؟

فقالت (مارى هالوران) بلهجة ألتشفى :

ــ اذن ستدخلين الملجأ لتنامى فى الأقذار مثلنا ؟ ٠٠ أنت التى كنت مثال التكبر ، مع اختك ؟ ٠٠ ان اختك سبب جميع المصائب ٠٠ لـــكن مافات مات ٠٠ أنا لا أحقد عليك لما كان منكم ٠٠ ان حقد الفقير أهون شىء فى الدنيا ٠٠ ماأخبار الوادى ؟

ــ لم يبق فى الوادى الأسود من الأحياء سوى (بريان) و (ماجى)٠٠ وقد تركت لهما بعض الطعام فى كيس ٠٠ ولم أصادف أحدا فى القرية ٠٠ وانما سمعت صياح الكلاب وهى تتقاتل ٠٠ ان القرية أشبه بقبر كبير وقد أخبرنا الأب (جيلان) أن (جون هاينز) ترك القرية ٠

فجعلت (مارى هالوران) تقول :

ــ لعنة الله عليه ٠٠ أحمد الله لذهابه٠٠ من حقى أن اشمت فيه وهو ابن عمى ٠٠ انى ذهبت الى المتجر الكبير الذى يملكه ابنـــه (تونى) فى (كلوجر) وكان من قبل ملكا لرابيت ٠٠ ولما قابلت (هاينز) نفسه تبرأ منى هو وولده ٠٠ لقد كنت أعلل النفس بأن أفوز بالعمل عندهما بعد أن صار

لهما بيت كبير ٠٠ انه نال مايستحق بوفاة ولده الطبيب ، برغم كل الجهود التي اشتراها بالمال لعلاجه ٠٠ ان المال لايجلب للانسان كل شيء ! ٠٠ انهم جمعوا أموالا كثيرة بسبب المجاعة ٠٠ ان السفينة الراسية هناك ، والتي ستحمل الناس الى أمريكا اليوم ، جلبت الى (هاينز) شحنة أخرى من القمح من (فيلادلفيا) ٠

فلم تتمالك (ماري) أن هتفت وهي تتشبث بذراع المرأة :

ـ أهناك سفينة ستبحر اليوم ؟

فأجابت (ماري هالوران) بلهجة الحزن والأسى :

ـ نعم ٠٠ ان هناك سفينة تبحر كل بضعة أيام ٠٠ كان يجب أن أكون في أمريكا الآن ، لولا المرض الذي أقعدني واستنفد ماكان معي من نقود ٠٠ ان (ريلي) السائس و (هيجارتي) الجابي ذهبا أيضا ٠٠ بل ذهب كل من استطاع تدبير أجر الرحلة ٠٠ ان الاغنياء هم الذين رحلوا ، ولم يبق الا الفقراء الذين كتب عليهم الموت والفناء ٠

وكانت (ماري) ترتعد انفعالا وهي تسمع هذا الكلام ، وجعلت تدير النظر حواليها في قلق ولهفة ٠٠ ثم قالت وكأنما تخاطب نفسها بصوت مسموع :

ـ اني رأيت الموتى على جوانب الطريق ٠٠ وقال شخص قابلني ان الكولونيل (بودكين) قاضي المحكمة يوزع الطعام ، ولكن بين مستأجري أرضه فقط ٠٠ وقال الرجل أيضا ان الأب (روش) أصبح شديد الضعف وهو يوزع طعامه على المتسولين كل يوم ٠٠ وقال أيضا ان الحكومة سوف تستأنف تشغيل الناس ، لكن لم يبق بين الناس أحد به قوة على العمل٠

وتزايدت أصوات عجلات العربات وحوافر الخيل مختلطة بقرقعة السياط وصياح الرجال ٠٠ فأيقظت هذه الجلبة الجموع الممددة في المنخفض المجاور لسور الملجأ حتى جلس بعضهم يئن ويتوجع ، وتقلب آخرون على الأرض ، وجمد غيرهم في مراقدهم لايتحركون ٠٠ وأخذت صبية صغيرة تهز أمها وتناديها بصوت مؤثر ٠٠ ولم تتمالك امرأة (جاريمور) أن قالت :

ـ لطفك يارب ٠٠ هم أشبه بالموتى يقومون من قبورهم عند مطلع الفجر آه ! ٠٠ انظروا الى الجنود الراكبين ذوي الأردية الحمراء !

فقد لاح لهم ثلاثة فرسان قادمين من الجهة الشرقية ٠٠ وفي الوقت نفسه ظهر من جهة الغرب حمار يجر عربة جلس فيها رجل على رأسه قبعة عالية وعلى كتفيه (حرملة) رمادية ، وما لبثت العربة أن سلكت الطريق المؤدي الى بوابة الملجأ ٠٠ وتبعت الفرسان قافلة عربات محملة بالأكياس بين صفين من الجنود المشاة تسلحوا بالبنادق ، أما الفرسان فكانوا شاهري السيوف وقد رفعوا عقيرتهم بالغناء ٠

وفجأة نهض من أقصى المنخفض المجاور للملجأ رجل طويل القامة وهو نصف عار ورفع يده صائحا وهو يهز قبضته نحو القافلة :

ـ أيها اللصوص ·· انكم تأخذون مازرعه الشعب الى خارج البلاد انكم تسرقون غلالنا ونحن نموت من الجوع ! نحن الآن منهزمون ولكننا سننهض مرة أخرى ·· اننا سنسحق المستعمرين الطغاة الذين يمتصون دماءنا ! ·· سوف ينهض الشعب الايرلندى من جديد ·

وعلى أثر هذه الصيحة سرت همهمـــــة الغضب بين الموجودين فى المنخفض الأرضى ، وكأنهم يهتفون للمتكلم تأييدا له وتحديا لعدوهم الغاصب ونهض آخرون وراحوا يتوعدون أفراد القافلة بقبضات أيديهم ·· فتشجع الرجل العارى بهذا وجرى الى الامام صائحا ·· فلطمه أحد الجنود عـــلى رأسه بطرف بندقيته حتى سقط الرجل على الارض ·· ثم تابعت القافله سيرها بسرعة وقد تعالى غناء الجنود جميعا ·· فقالت (مارى هالوران) حين رأت امرأة تخرج من المنخفض وتجذب الرجل الصريع :

ـ هذا هو جزاء من يخرج على القانون ·· ان روح التمرد والعصيان هذه هى سبب المجاعة ·

فقالت امرأة (جاريمور) :

ـ ان المسكين لم يقل الا الحق ·· خير للناس أن يقوموا ويقــاتلوا الانجليز ، من أن يموتوا من الجوع فى الخنادق ! ·· ليتنى كنت أملك بندقية أطلقها على اللصوص القتلة الانجليز ، الذين يسلبون أقوات ارلندا ويحملونها الى البحار ·

وكانت (مارى) قد سمرت نظراتها فى راكب العربة ذات الحمار وقد مر بالبوابة ثم رجع مرة أخرى ·· وظل ينظر اليها طويلا ·· ثم رأته يومىء الى ناحيتها خفية ·· فقامت وهرولت الى العربه ·· فرأت فيهــا رجلا متقدما فى السن مقوس الأنف ضيق العينين حاد النظرات ·· وقال لها همسا حين اقتربت منه :

ـ هل رأيت رجلا أصفر الشعر ؟

فأجابت (مارى) هامسة :

ـ نعم ··· أنا هى التى تبحث عنها ·· أين هو ؟ ··

فقال لها الرجل :

ـ اركبى ·· سأذهب بك اليه ··

فصعدت (مارى) الى العربة التى سارت بها مسرعة وقد جـــرت الدموع على خديها واختلطت بضحكاتها الخافتة ·· وقال لها الرجل وهما ينعطفان غربا فى طريق (كلوجر) :

ـ ان زوجك سالم على ظهر السفينة ·· الحقيقة ان تهريب أى شخص الى خارج البلاد أصبح شيئا سهلا فى هذه الايام نظرا لتفرق رجال البوليس

هنا وهناك وكثرة الفتن في الاقاليم ٠٠ ان زوجك مختبىء في السفينة والربان واحد منا ، واذن فلا تخافي شيئا ٠٠ واذا استجوبوك وأنت تصعدين الى السفينة فابكي وقولي انك فقدت كل أمل في لقائه ٠٠ هذا كل ما يجب عليك أن تفعليه ٠٠

فقالت (مارى) :

ـ أدعو الله أن يجزيك خير الجزاء مهما تكن !٠٠

فقال الرجل :

ـ ان الذين يقاتلون في سبيل الوطن يستحقون أن نسهر عليهم ونرعاهم ٠٠ أما الذين يتخلفون عن القتال فليموتوا جوعا وليذهبوا الى جهنم ملعونين ٠٠ اننا سنسير في أثر هذه القافلة ٠٠ اليك التذكرة التي تدخلين بها السفينة ٠٠

وأخرج من جيبه تذكرة وقدمها اليها ٠٠ فرفعتها الى شفتيها وقبلتها ٠٠ فقال الرجل :

ـ لا تنسى أبدا متى وصلت الى أمريكا أن الكفاح من أجل حرية الوطن يجب أن يستمر حتى تتحقق حرية الوطن ويتم استقلاله ، وأن عليك أن تساهمي في هذه الغاية بكل ما في طاقتك ٠٠ هذا هو الشكر الوحيد الذى نريده منك ٠٠

فقالت (مارى) همسا :

ـ أواه ٠! انى لا أكاد أصدق ما أرى ٠٠ ليس حقا انى سأجد (مارتن) وأننا سنتمكن من الهرب ٠٠ لا يمكن أن يكون هذا حقيقة !٠٠

واستحوذ عليها الرعب عندما وصلت العربة الى الشارع الرئيسى في أثر القافلة ٠٠ وكان الشارع خاليا في هذه الساعة المبكرة ، لكن المنازل نفسها بدت وكأنها تهددها بالخطر ، وكانت (مارى) تتوقع أن تمتد اليها الايدى بالاعتقال بين لحظة وأخرى ٠٠

وبلغت العربة سوق السمك ، ولاحت لهم أرصفة الميناء ٠٠ وهنا طلب اليها الرجل أن تنزل من العربة ، قائلا :

ـ سنمشى المسافة الباقية ٠٠

وربط حماره في عمود وسار الى الارصفة تتبعه (مارى)٠٠وشعرت بدوار من أثر الخوف٠٠وأخذ الطفل يبكي وقد أفزعه صراخ وعويل سمعهما عن بعد ٠٠ فهمست (مارى) تقول له :

ـ اسكت يا حبيبى ٠٠ سترى (بابا) حالا !٠٠

وقال لها الرجل بصوت خافت :

ـ هاهى السفينة هناك ٠٠ لا تنسى ما أوصيتك أن تقوليه اذا سألك

رجال البوليس عن شيء ٠٠ قدمي تذكرتك للرجل الواقف على سلم السفينة واصعدي اليها ٠٠ لا تخافي ولا تضطربي ٠٠ مع السلامة ، وأرجو أن يكبر ابنك ليصبح جنديا من جنود التحرير ٠٠ حفظك الله وصانك ٠٠

فصافحته (ماري) مودعة وقد بلغ منها الاضطراب حدا عجزت معه عن الكلام ٠٠ ثم تقدمت الى السفينة ٠٠ وكانت ذات أشرعة ثلاثة ، وقد ألقت مراسيها في مواجهة متجر (تونى هاينز) ٠٠ ولم تتمالك (ماري) أن قالت لنفسها :

ـ أواه ! ٠٠ ان أشرعتها بنية اللون ! ٠٠ وليست بيضـــاء ! ٠٠

وكان عدم وجود أشرعة بيضاء في السفينة ، طبقا لما رأته في منامها السالف ، باعثا لها على التشاؤم والاعتقاد بأن كل شيء سيفشل ٠٠ ثم ان أصوات الصياح والعويل المنبعثة من حناجر كثيرة زادت من خوفهـــا واضطرابها ٠٠ ولم تلبث القافلة أن وقفت على مسافة من سفينة المهاجرين وأخذ الحمالون ينقلون من العربات أكياس الغلال الى سفينة أخرى مبحرة الى انجلترا ٠٠ واضطرم السخط في صدور الجماهير التي جاءت لتوديع المهاجرين عندما شاهدوا أقواتهم تؤخذ منهم وترسل الى بلاد المستعمر ، فأخذوا يهتفون ويستنزلون اللعنات على رءوس الجنود ٠٠ وكان بعضهم يبكون عاليا وقد بسطوا أيديهم شطر المهاجرين فوق ظهر السفينة ،وكان هؤلاء يبادلونهم بكاء ببكاء ، ولكن وقف بينهم نفر من الشباب جعلوا يهزون قبضاتهم في وجوه الجنود الانجليز هاتفين متوعدين بالانتقام في المستقبل القريب ٠٠

وأمسكت (ماري) بتذكرة السفر وشقت طريقها بين الجمع المحتشد حتى وصلت الى صف رجال البوليس الواقفين عند سلم السفينة ٠٠٠ فلم يحاول أحد منهم اعتراضها ، وتركوها تصعد الى ظهر السفينة ٠٠ وهناك هوت مغمى عليها ٠٠

ولما أفاقت (ماري) وجدت نفسها في غرفة صغيرة مظلمة يتسرب اليها ضوء يسير من فتحة ضيقة في الجدار ٠٠٠ وكان (مارتن) منحنيــا فوقها يدلك يديها ويكلمها همسا بانفعال وتأثر ٠٠ فتطلعت الى محيـــاه الاسمر الملتحي وأغمي عليها مرة أخرى ٠٠ ولما فتحت عينيها أخيرا شعرت بمارتن يحملها ويضعها فوق لفافة من الحبال على ســـطح السفينة ٠٠٠ وشاهدت عن كثب منها امرأة تهدهد (ميخائيل) الصغير وهو يصرخ غضبا واحتجاجا ٠٠ فأسرعت (ماري) وانتزعت طفلها من المرأة ، ثم نظرت الى (مارتن) بشدة وقالت له :

ـ أين كنت كل هذا الوقت ؟٠٠

فلم يجد (مارتن) وقتا للجواب ، اذ أدنت رأسه منها فجأة وقبلته بنهم ٠٠ وجعلت تقول له بين القبلات :

ـ لا بأس ٠٠ اننا هربنا ٠٠ لقد انتهى كل شيء ، أليس كذلك ؟٠٠ هل تم لنا الهرب ؟٠٠

فقال لها مارتن :

ـ انظرى !٠٠

ووضع ذراعه فوق منكبها ووجه نظرها نحو اليابسة التى كانت تتباعد عنهما ٠٠ وعند ذلك جثت (مارى) على ركبتيها وأخذت تصلى شكرا ٠٠ واقتدى بها (مارتن) ٠٠ وجعلا يتابعان اليابسة المتباعدة بعيون مغرورقة بالدموع والسفينة تعلو وتهبط بين الامواج ٠٠

وقال لها (مارتن) :

ـ وما هى أخبار العجوزين ؟٠٠

فأخذت (مارى) حفنة التراب من جيبها وأعطته اياها وقالت منتحبة:

ـ ان العجوز طلب منى أن أعطيها لك ٠٠ انها من ركن المدفأة فى البيت ٠٠

فقال (مارتن) همسا وهو ينظر الى حفنة التراب :

ـ سأبذل جهدى وأنا فى الدنيا الجديدة أن أكون جديرا بالانتساب الى أبى ٠٠

خاتمة ..

نزل الصقيع فى الليل ٠٠ وانعكست عليه أضواء الصباح فوق سفوح الجبال وعلى امتداد (الوادى الاسود) ٠٠ وتراكمت طبقاته فوق سقوف الاكواخ الخاليه وفى ربوع الحقول التى عدت عليها الآفة وأخذت تستحيل الى جدب وقفار ٠٠ واكتست الجدران الحجرية والكتل الصخرية والشجيرات الشوكية بحلة من الصقيع ناصعة البياض ٠٠ وانتشرت طبقة رقيقة من الجليدى فوق سطح (البحيرة السوداء).. ولم يسلم من التجمد سوى النهر الذى اتصل جريانه تحت السماء المربدة .

ثم خرج بريان (كيلمارتن) من بيته يحمل مجرفة ويتبعه كلبه ٠٠ ولم يكن يكسوه سوى قميصه ، وقد اتخذ من المجرفة عصا يتوكأ عليها ، وأخذ الكلب يعرج فوق أرجله الثلاث ٠٠ وكانت آثار أقدام العجوز والكلب تنطبع فوق الصقيع ، وأنفاسهما تستحيل الى دخان يتمدد أمامهما ٠٠٠ وجعل الكلب ينبح ويقف بين لحظة وأخرى كأنما يحاول منع العجوز من التقدم ٠٠

وتسور العجوز السياج المنخفض بمشقة كبيرة ، وأفضى منه الى رقعة الارض التى كانت مرعى للبقرة ٠٠٠ ولما توسطها وقف مكانه واستقام على نفسه وأخذ ينظر الى الأرض حوله ، ثم جعل يجسها بالمجرفة وهو يغمغم قائلا : « سأحفر قبرا لاجى هنا » ٠

وحاول أن يبصق فى يديه ولكن لعابه جف ٠٠٠ ثم دفع طرف المجرفة فى الارض المسكوة بالصقيع وضغط بقدمه العارية عليها واتكأ بكل قواه ٠٠٠ لكن المجرفة لم تنفذ فى الأرض ٠٠٠ وانبطح الكلب على بطنه وأخذ يزمجر عاليا ٠٠٠ وأطبق العجوز شفتيه واستجمع قواه مرة أخرى ودفع طرف المجرفة فى الارض وهو يضغط بقدمه العارية ... فعصته المجرفة مرة أخرى واختل توازنه من المجهود وسقط على وجهه فوق المجرفة ٠٠٠ فنهض الكلب وجعل ينبح ٠٠٠

وسكن العجوز مكانه برهه ٠٠٠ ثم تحامل على نفسه ونهض على ركبتيه وهو يئن عاليا ثم استوى على قدميه معتمدا على المجرفة ٠٠٠ وهنا جعل الكلب ينبح غاضبا وأخذ يخدش الصقيع بقدمه الأمامية اليمنى ٠٠

وحاول العجوز من جديد أن يبصق على يديه ، لكن فمه بقى مفتوحا ، وتدلى لسانه على شفته السفلى ··· ثم أمسك بمقبض المجرفة ومال الى الأمام وهم أن يدس طرفها فى الصقيع وهو يرفع قدمه ··· فانبعثت من حلقه حشرجة عميقة وهوى ممددا على الأرض ··· فانزلقت المجرفة فوق الصقيع وتدحرجت الى جوف حفرة مجاورة ··· أما العجوز فقد جمد فى مكانه وذراعاه مبسوطتان ···

وبقى الكلب منبطحا على بطنه ساكنا برهة ·· ومالبث أن رفع أنفه وجعل يتشمم الهواء ... فسرت فيه رعدة ... ثم جر نفسه على الارض حتى وصل الى قدم العجوز العارية ··· فشمها ··· ثم استوى ببطء على قوائمه ورفع معرفته يسيرا وتقدم خطوة خطوة وهو يشم ساقى العجوز العاريتين ومن بعدهما فخذيه ··· ثم انتفض وزمجر حين بلغ القميص··· ثم دار دورة صغيرة وانبطح على بطنه مرة أخرى وأخذ يزحف الى رأس العجوز وهو يزمجر ··· ثم شم الوجه وزمجر ··· ثم كرر الشم ، وسرعان ما هبط شعر معرفته على الأثر ···

ورفع الكلب أنفه فجأة ، وجلس على قوائمه ، وارتفع عواؤه ممدودا متصلا ، وما لبث أن تمدد على جنبه ورقد ملتصقا بكتف العجوز ·

(تمت)

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عشيش – روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبية – روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤





الثمن ٢٦ قرش العـدد ٥٢